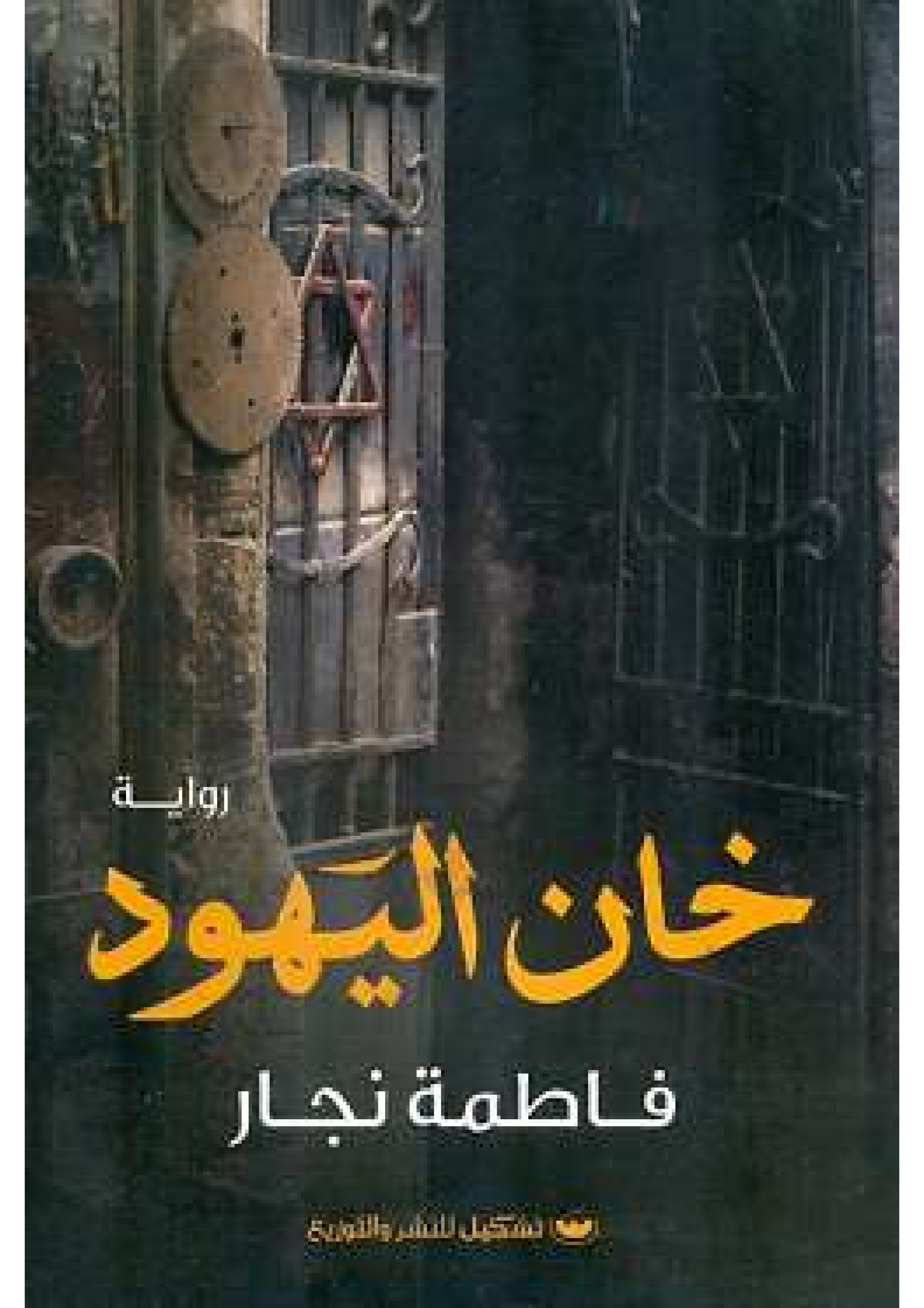

رواية
خان اليهود
فاطمة نجار
تشكيل للنشر والتوزيع

# خان اليهود

رواية

فاطمة نجار




Email publish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555-86-0

رقــم الإيــــداع: 2242/ 2019

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

المراجعة اللغوية: نورهان سعيد

الإخراج الفنــــي : ضياء فريد

المـديـــر العــام : سيد شعبان

# إهداء خاص

عزيزي القارئ،

هناك قول على لسان [أمل دنقل] يقول فيه:

«**المجد للشيطان معبود الرياح، مَن قال (لا) في وجه مَن قالوا (نعم).**»

وهذا بالتحديد يلخصُ ما هو خان اليهود.

بين يديك خلاصة سنتين من التعب والبكاء، فرجاءً عاملها برقة حتى ولو لم تعطك شعورًا بالرقة!

تلك الخلاصة ربما تُغيرك، فمِن فضلك إذا أنهيتها مرة واحدة أو استغرقت وقتًا لتنهيها فوقِّع على هذا الإهداء بالاعتراف الآتي:

«**أُقرُّ وأعترف أنا الموقِّع أدناه بأنني قرأت (خان اليهود) وودتُ كثيرًا أن أقول أشياءً عدة ولكنني لم أستطع، ربما لخوفي أو لغضبي الشديد، وأنّ الحب يمكن تفصيله وتفريعه وتنميته أو قتله. أُقرُّ وأعترف بأن الرحمة تسعى وتُطال للجميع وليست حكرًا على ديانة أو لون بشرة أو عرق.**»

وأخيرًا هناك قول وضعته لنفسي وأحاول تطبيقه في حياتي، وآمل أن يساعدكم كذلك:

«**تسامحوا.. تصحوا**».

**(خان اليهود)**

بدأت في ٢٠١٢/٤/٢٤ وانتهت ٢٠١٤/٦/٢٠.

# المقدمة

عيونها تبحث بسعادة في الوجوه وهي تتحرك بذلك الشارع العتيق، بيديها علب بلاستيكية بها طعام مطبوخ لأجله، أرادت أن تطعمه من يدها وبيدها، ربُها وحده يعلم بأنها اشتاقت له رغم أنه لم يغِب عنها سوى تسع ساعات فقط.

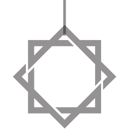
وجوده بحياتها أنساها مرارة فراق عاشته وأضحت لديه التلميذة النجيبة التي لا تعرف سوى بضعة حروف بالعربية؛ ألف، باء، تاء، سين، ميم، ألف، تاء مربوطة، «**ابتسامة**»، والتي فقدتها مع مرور الزمن وتغير الظروف، أنهى بداخلها حالة انقسام القلب بين الوفاء والحب.

بوجوده فقط، أَعادت اكتشاف نفسها رغم صعوبة إيجادها.

بسمة واسعة نالت من ثغرها عندما لمحته واقفًا مع صديقه، وحثت الخطى نحوه لتسمع اسمها يُنطق بشفاهه؛ ولكن خذلتها ساقيها عندما حملت نسمات الهواء آخر كلمة منه عنها لتسقط كما سقط قلبها بين ضلوعها ميتًا لم يجد أرض الحياة، وكل ما جال بخاطرها في تلك اللحظة:

«**عجبًا، ألا يستطيع الغريب أن يجد أرض الوطن؟!**»

ولكنها لم تكن أبدًا في وطن.



# الفصل الأول

الزمان الآن: الواحدة والنصف ظهرًا.

والمكان: بحي القاهرة. بالتحديد (**خان الخليلي**).

الحركة روتينية مُسرعة، المتاجر الصغيرة تفتح أبوابها لاستقبال اليوم بصدر مُنشرح، وبكل ركن به تزهر فرحة تحاول أن تضيف لحياة الخان ألوان، علَّها تُعيده لسابق عهده، حيث ضحكات السياح ترج أركانه وأضواء الكاميرات تُضيء زواياه المُظلمة.

ووسط كل هذه الفوضى الخلاقة كان نسيم أرض الكنانة الغالية يحتضن عبق رجولي فواح يملأ كل زاوية ينتقل بها شاب أسمر اللون ذو خصلات سوداء مُتمردة وعيون بنية كاسرة، كان يرتب بضاعته بمتجره الصغير. هذا الشاب يُدعى (**أمير**)، (**أمير محمود العصامي**)؛ هو المسؤول عن الأسرة وعن تجارة أبيه في الخان لعدم استطاعته الإشراف عليها بسبب ظروفه الصحية.

استند على الجدار بعد أن أنهى مهمته، وأغمض عينيه في تلذذ سامحًا لخيوط القرص الشمسي الدافئة بالنفاذ لملهى قلبه القاتم لتضيء المكان بإشراقة معتادة، وليهتز طربًا بوقع نسمات الهواء التي تحمل دفء وروعة جمال بلاده، مصر.

فتح عينيه للحظة، واستغرقه الأمر ثانية حتى تعتاد عيونه الضوء الساطع، ثم نظر يمينا إلى (**دكان السيد مايكل**) صديق أبيه منذ أيام الطفولة، دائمًا عائلتهما لا تفترقا، بينهما بتلات من الحب ولحظات من الصعاب؛ ولكن رغم ذلك ما زال بينهما شيء من التماسك القوي الهَش، فالنفوس تظهر أشياءً، والحقيقة تخفي أشياءً أخرى.

نظر إلى ساعته فوجدها الواحدة وخمس وثلاثون دقيقة، رفع كتفيه بلامبالاة مُفكرًا:

ـ «**ربما السيد مايكل سيتأخر.**»

تحرك بقدم ثقيلة للأمام صوب المتجر – المُقفل منذ وقوع الحادثة – ثم بدأ بالمناداة على الزبائن، وسويعات واختنق صوته عندما لمح شخصين يقفان أمام المتجر يتحدثان:

ـ وأخيرًا أبتِ، وجدنا مكان نعيش به وتجارة نعمل بها، هنا.

قالها ذلك الشاب الصغير وهو يحدق بالجميع بنظرات حادة وبنصف ابتسامة انتُشلت غصبًا من بين شفاهه.

ـ يوسف بُني، ساعدني بفتح المتجر، فأختك حورية تتحرك بنفاذ صبر بطول الشارع ذهابًا وإيابًا.

ـ وما ذنبي أبتِ؟! لقد أخطأتُ العنوان، ولم أقصد أن أجعلها تسير بطول الشارع متعمدًا.

وبينما أمير كان يحدق فيهما مُحاولًا أن يجد تفسيرًا مقنعًا لِما يراه أمامه إذ بصبية تشبهُ الأجانب بشعرها الأشقر المجعد وقوامها الممشوق تتحرك باتجاههم.

ـ هل هذا هو المتجر؟!

صوتها رنان ذو بحة خفيفة ولطيفة ومُنعشة كما الندى على أوراق الشجر.

هكذا كان يفكر أمير وهو يحدقُ بها.

ـ هل تخبرني كم ثمن هذا التمثال؟!

كان هذا سؤالٌ سمعه أمير باللغة الإنجليزية، فتجاهله ناظرًا باستغراب لتلك المجموعة من البشر، والتي تتكالب كأسد مفترس على ذلك المتجر العزيز على نفسه.

ـ مرحبًا! هل تسمعني؟

أردفت السائحة حديثها دون أن تجد منه اهتمامًا، فهو لا يري أي شخص بتلك اللحظة لأنه مع صاحبة الشعر الأشقر العاقدة لذراعيها مُتحدثة بضيقٍ إليهم وهم يحاولون فتح المتجر.

أصابته رؤيتهم كمن أُصيب برصاصة طائشة أو بخنجرٍ مسموم، إنهم يكسرون المكان، إنهم محتلون، يحتلون تلك البقعة وهو لا يملك ما يفعله لطردهم سوى أن ينظر إليهم بألم.

حركتْ الصبية أصابعها نحو شعرها تعيد ترتيبه للوراء، والتفتت نصف التفاته ناحيته، ورأى لمعة عيون زرقاء أقرب للرمادية بخيوطٍ فضية، عيونها كجوهرة ماسية، وشفاهها الوردية أكسبتها هالة أخاذة.

التقاء الأعين في بداية الموعد قد يكون بداية نعيم أو جحيم لأمير، ولتلك الحسناء الدخيلة والغريبة أيضًا.



دون أن يدع مجالًا للتفكير طرق أمير باب منزل جارهم طرقًا قويًا دون مُجيب، فتحدث بصوتٍ عالٍ:

ـ عمر، افتح الباب!

لمح ظلًا أسود بزجاج الباب فاستمر بالطرق بعنف علَّهم يفتحوا ويشرحوا ما يحدث، ثم توقف وتذكر، فأطلق زفرة عميقة يائسة ثم دلف لشقتهم بنفاذ صبر وبعصبية، وقد مر بعقله لحظة المشاحنة الطفيفة بين ذلك الشاب الذي يدعى يوسف المُحدق به بازدراء واضح؛ فعيونه كانت تتنقل ببنيته صعودًا وهبوطًا وكأنه يقيّم تمثالًا كالتماثيل المعروضة بمتجره.

حرك رقبته بإنهاك ونظر ليده التي شهدت صراعًا كاد أن يصل لمرحلة التطاول بها على وجه أحدهم.

ـ توقفوا، ماذا تفعلون بحق الجحيم؟!

التفت الجميع نحوه وكأنه ارتكب جريمة شنعاء بصراخه، زمجر غاضبًا من محاولة هؤلاء الغرباء اغتيال متجره العزيز، ليُردف:

ـ من أنتم؟

أجابه شاب بأواخر العشرينات بشعر أسود وقسمات حادة وعيون جليدية وبشرة بيضاء باهتة:

ـ وما شأنك أنت بنا وبهذا المتجر؟ ومن أنت حتى تطرح علينا هذا السؤال؟!

إنه متبجِّح، يرفع حاجبه بكبرياءٍ متضاعف وبشفاهٍ تعرف نصف ابتسامة متذمرة، ذلك التبجح السافر أذى أمير لدرجة أنه ضغط على فكه بقوة وكاد أن يضربه، فهو صاحب المكان هنا ولا يجوز لأحد أن يقلل من شأنه أو ينظر له باستخفاف.

قلب بنظره المستعر كليث مفترس مُستعد للتكشير عن أنيابه والهجوم عليهم، يرد إليهم تلك النظرات التي تحمل استغرابًا وتقييمًا؛ هو يعلم بأنه يستحق نظرة تقدير وليس تقييم، فهو ابن البطل!

ـ ابتعدوا عن دكان السيد عوض رحمه الله.

حدجة ذلك الشاب صاحب العيون الجليدية تشبه عيون الصبية ولكن بها قساوة، غشاوة، لا يعلم حقًا!

نفث الهواء بضيق وتحدث بصوتٍ خافت جدًا بلغة غربية للرجل الآخر، وهو رجل بأواخر الخمسين من العمر، بنظارات كبيرة تأخذ مساحة كبيرة في وجهه وأصلع الرأس لا توجد به سوى بضع شعيرات بيضاء على الجانبين.

بعد أن أنهوا تحاورهم الغريب تحدث بكلمات معدودة وكأن يحسبها بالحرف:

- نحن أصحاب ذلك المتجر الآن يا فتى.

وأشار الشاب نحو أمير بازدراء قائلًا:

- وهل علينا أن نشرح له شيئًا؟! فما دخله إذا كنا اشترينا المنزل والمتجر أم لا؟!

أصحاب المتجر والمنزل!

هل عائلة السيد عوض ـرحمه اللهـ قد قاموا ببيع كل شيء؟! ولكن السيدة عائشة زوجة المرحوم أخبرته بأنها لن تبيع شيئًا من أملاكه!

علامات الاستفهام تدور في عقله، ونظرات الاستهجان والاستنكار تتبعه من هؤلاء القوم، وأسئلة تدور في مقلتيهم وبخاصة تلك الصبية.

«**ما دخلك أنت؟ أنك فضولي.**»

استدار لدكانه فور أن ومضت تلك الكلمات بعقله والذهول يجر أذياله معه. لقد أتى الوقت الذي يشعر فيه بأنه فضولي ويسأل الناس بوقاحة وهو الملك بدكانه وعلى خان الخليلي كله.

جلس بدكانه منشغلًا ببيع تماثيله والأواني النحاسية التي يصنعها بيديه، ويشغل نفسه أيضًا بالتحدث مع السائحين ببشاشة منقطعة النظير.

ألقى بنظره للحائط المزين بالصور والتذكارات عن أمجاد أبيه وعائلته، أمسك قنينة بها رمال صفراء مائلة للون الأحمر، رمال عزيزة ومقدسة تُضاف للكثير من كنوزهم النفيسة.

ـ السلام عليكم ورحمة الله.

لفت ذلك الصوت الحنون أذن أمير والقادم من الرواق الصغير الذي يفصل بين الصالة والغرفة التي بها أمه السيدة أنعام عبد الحفيظ، التي لا تخلف صلاة قط، الجميع يشهد لها بالتقوى والصلاح كما حال أسرتها الصغيرة والتي دائمًا تحمد ربها عليها.

وضعت سجادة الصلاة على أحد الأرفف وتوجهت نحوه بابتسامة أظهرت بضع تعرجات خفيفة بوجنتها وبجانب عينها ومدت يديها لتلامس وجنته العريضة:

ـ ابني الجميل، كيف حالك يا ولدي؟

ـ بخير يا أمي.

ـ كيف حال المتجر والبضاعة والسائحين؟

ـ بخير يا أمي، كل شيء عاد لطبيعته والأحوال الآن أفضل من ذي قبل، بالإضافة إلى أن السائحون يعشقون الخان. تعلمين كان حادثًا عرضيًّا ولم نخسر كثيرًا.

مسدت يدها على وجنته بقلق:

ـ حادث عرضي! يعلم ربي أنني كنت أصلي ليل نهار حتى لا يتسبب بمقتلك.

وضع أمير القنينة جانبًا، وومضت برأسه أصوات الصراخ واللون الأحمر المنتشر بكل بقعة من بقاع الأرض الكريمة، غابت عيونه لدقائق مُسترجعًا ذكريات الرعب التي اكتسحت كل شيء بسنة كانت من أسود سنوات حياته، هزت قلبه وانهارت أركانه وتصدعت حجراته بسبب ما حدث، ومهما حاول تجميعه أو إعادته كان يفشل، لأنه كسر شيئًا ما بداخله.

اهتز الوتد لمدينة الملاهي المحطمة بداخل قلبه، وليس بالإمكان إرجاع ما حدث وما كان.

ـ كل شيء أصبح بأفضل حال، لا تقلقي أمي.

قالها بشق الأنفس وهو يجاهد بخروج كلماته من شق الحزن الذي خيم عليه، وتبع آخر الكلمات صمت.

ابتسمت السيدة أنعام مُغيرة دفة الحديث وهي تمسد وجنته:

ـ أمير، لقد أصبحت في السابعة والعشرين، وما شاء الله لديك مصدر دخل جيد، لمَ لا تتزوج؟

مس أمير قشعريرة باردة لذكرها الزواج، إن مجرد التفكير في الأمر يقلقه، فمن سيعول الأسرة بعد رحيله مع زوجته إن تزوج فعلاً؟ وهل سيضمن أن تكون زوجته حنونة مع أبيه؟ وهل

ستساعد أمه في رعايته؟ وهل ستقبل من الأساس أن تعيش معهم في المنزل؟!

وتراكمت التساؤلات بعقله كخيوطٍ هشة من خيوط العنكبوت، فهز رأسه مُقبلًا يد أمه:

ـ لقد أخبرتكِ أنني لا أفكر بالزواج، ثم إنني لست فتاة تخافين أن يفوتها العمر. عليّ أن أجد ابنة الحلال التي تستحق أن تكون زوجتي، والأهم أن تراعي الله فيّ وفيكم، وهذا أهم شيء لدي من نفسي.

ظهر على محياها الجميل شبه ابتسامة خائبة الأمل:

ـ يا ولدي، من حقي أن أفرح بك وبابنك أو ابنتك قبل أن أموت أو...

قاطعها أمير بتوتر:

ـ لا تقولي هذا يا أمي، أطال الله عمرك وعمر أبي.

قاطعهم صوت آتٍ مرتفعًا، وكأن صاحبه بمكان بعيد رغم أنه لا يفصلهم عنه سوى بضعة غرف:

ـ أمير، تعال بني واترك أمك وحديثها الفارغ.

قبل يدها سريعًا مُتحدثًا بابتسامة صافية:

ـ أبي ينادي، سنكمل حديثنا في وقتٍ لاحق.

هزت الأم رأسها عجبًا على تصرفاتهم، فالأب عنيد كالصخرة وكذلك ابنه. بحق الله ألا يحب أن يرى أحفاد ابنه ويحكي لهم أمجاده بدلًا من أن يقضي وقته في الحديث معه؟!

يا للرجال وعقولهم الفارغة، لا يفكرون بأي شيء.

كانت أفكارها كمثل سفينة تضطرب في أمواج الحيرة والاستسلام؛ ولكن ومض شهابًا بالأفق ليبدد العاصفة بلحظة وتبدل الإحباط ببسمة مكر هامسة:

ـ حسنًا بني، إن لم تختَر عروسًا فسأختارها بالنيابة عنك، وسأرى بالتأكيد أحفادي قبل أن تتوفاني المنية وأرحل من دون رؤيتهم.



ارتمت بضيقٍ على الفراش مُفكرة بذلك الغريب ذو النظرات المُستغربة، صوته الواثق وهو يتحدث بمنتهى التلقائية يضايقها، فلا يمكن أن تقبل بذلك الاستجواب الفج منه.

فكيف يحشر أنفه هكذا فيما لا يعنيه؟!

إنهم المصريون، كما قال أبيها بالوراثة من قبل عنهم، يفكرون في أنهم قطعة من نسيج واحد ويتشاركون الشيء الواحد. ربما يظن بأنه يملك المتجر الذي اشتراه أبيها لهذا يسأل!.

هذا هو التفسير الوحيد المقنع لتصرفاته ولدقه العنيف على باب منزلهم وهي كانت به بعد أن ذهبت تاركة يوسف مع أبيه بالمتجر وتاركة ذلك الشاب يحدق بهما بغيظ.

تقلبت بالفراش يمينًا ويسارًا تفكر وتفكر لمَ أتت إلى هنا؟ لمَ هي وافقت من الأساس على المجيء إلى مصرايم رغم استحالة

العيش فيها بتلك الظروف؟ فهي تعلم أن كراهية المصريين لكل شيء تجسده يمتد ليصل للهواء الذي تستنشقه.

نهضت من مكانها لتفتح باب الشرفة ناظرة للشارع الضيق والذي بآخره شارع موازٍ له أوسع منه قليلًا، فوجدت شخصًا مماثلًا لنفس ذلك الغريب يحمل شخصًا مسنًا ويساعده على التنقل من المكان للناحية الأخرى، شكره الرجل المسن ورفع يديه للسماء تبينت أنه يدعو له بالخير.

رفعت برأسها قليلًا لتنظر للقمر، إنها أقرب ما تكون للقيطة، لا وطن، لا حب، ولا أي شيء.

لماذا تعيش على الأقل؟ لماذا أتى جاؤون بها إلى هنا؟ لماذا لم يعد لأرض الميعاد بعد كل هذه السنوات؟ أو ليس هي وهو فيها.

حسنًا كان عليه أن يختار أي دولة أخرى غير مصرايم، فلمَ عاد؟! لا بد أنها الرغبة في الشعور بدفء الاستقرار كما أخبرها جاؤون من قبل:

- نعود لجذورنا يا إيف بمصرايم، فبها سنستقر أخيرًا.

هزت رأسها بيأس لتنفض بقايا حديث جاؤون عن تلك البلد وقرارها على موافقته، فلقد سئمت من كثرة الترحال والشخصيات الفارغة المملة. زفرت بعمق وبتنهد أطول:

**«ماذا إن علموا بحقيقتنا؟، كيف سيتقبلوننا؟، بالأحضان أم بالقساوة والمطالبة برحيلنا؟»**

أسئلة تدور لتبحث عن خيط واحد من الإجابة، ولكن لا شيء سوى الهمس والتأمل بأن تنتهي تلك النظرة لهم، فليست هي من خلقت نفسها بنفسها.

أغمضت عينها مُفكرة، يا ليتها كانت مسلمة، مسيحية، أي ديانة غير ذلك العار.

أطلقت زفرة قوية وتنهيدة:

**«لن يكون الأمر هينًا يا إيف، وستطردون، فلا تأملي بالعيش هنا أبدًا، الحقيقة ستنكشف عاجلًا أم أجلًا وسيعلمون من أنتم، أنتم لستم سوى علقة تتغذون على أجسادهم ودمائهم، وستظلون هكذا ودائمًا بأعينهم، لن تفيدكِ محاولة الهرب وتبني ديانة أو جنسية أخرى، ستلاحقكم نظرات الكُره والاستحقار أينما ذهبتم، تأكدي دائمًا من هذا.»**

وهنا، ظهرت تلك الحية لتُناجيها بعقلها:

**«ومن هم؟! يحتقروننا وهم أولى منا بالاحتقار، ينادون تحت شعار الوطنية والتآخي ولكن في الحقيقة كل عربي مستعد ليدفع سكينًا بظهر الآخر، سوريا وليبيا حتى مصرايم، يقولون عنا قتلة، وماذا كان يفعل كل حاكم عربي بهذه الدول؟ ليست الديانة ما يحدد به أفعال وطبيعة البشر، بل البشر أنفسهم، فلا فرق بين يهودي ملطخ بالدماء وعربي موصوم مثله.»**

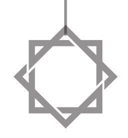
نظرت لكل شخص يسير بطريقها، من يفكر ومن يحب، أليس لها الحق في الحياة والدفاع عن هويتها؟! أليست بشر؟! فهي على الأقل لم تقم بالمذابح، ولكن العار يصبح طيفًا يلازمها.

عار يلتصق بها بنظرهم لديانتها ولكونها هي بنظرها.

ولكن، ستجلب عليهم ثورات إيف ووحشيتها إن فكروا بالنظر إليها نظرة حقد وكراهية، لن يكون اسمها هُنا حورية عبد القدوس، بل (**إيف جاؤون باخوم**)، وستقوله علانية، ولن يهمها ماذا سيقولون عنها – كما حال كل مرة – فهي ستظل تدافع وللأبد عن حقها حتى لو كانت إنسانة موصومة بكونها يهودية.

أجل هم غرباء بهذه البلد، ولكنهم هنا مواطنون، بشر مثلهم.

نظرت إلى السماء بعيونها الزرقاء تبحث عن شيء مقنع يساعدها لإشهار أسلحة الدفاع عليهم ولم تبالي بمن يحدق بها في الظلام.



# الفصل الثاني

حدَّق بها بعيون مستفسرة، وأفكاره كانت تَعبر حيز التعقل:

«**مَن هي تلك الحورية المُتّشحة بمنامة حريرية تكشف كل تفاصيلها؟؟! تُرى بماذا تفكر ومِن أين أتت؟ أمِن المعقول أن تكون السيدة عائشة قد زُوْجت ابنها عُمر؟ إن كانت زوجته فهنيًّا له.**»

هز رأسه مُستنكرًا وعيناه لا تبرح تفاصيلها مُكملًا مونولوجه الداخلي:

«**أستغفر الله العظيم، أين أخلاقك؟! أهذه هي التعاليم التي تربيت عليها؟! بماذا أمروك عندما تقابل المُنكر؟ غض بصرك، عليها اللعنة تلك الكاسية العارية. وإن كانت زوجة عُمر أليس به نخوة ليضربها حتى لا تكن عرضة لمرأى الجميع؟؟! ولكن يبدو أنها قادمة من بلاد أخرى بتألق هذا الذهب في شعرها وعيونها زبرجدية تبحر بين الخضراء القاتمة أو الزرقاء، لو تطل برأسها ناحية الضوء لاستطعت تحديد لونهما أكثر.**

**أستغفر الله العظيم، لو أصبحت تلك البلد بأيدي أناسٍ مثل الأمير لكان حالها أفضل.**»

أفكاره تتحدث من تلقاء نفسها وهو يقف في ظلام شرفته مُحدقًا بتركيز بكل الناس، يراهم وهم لا يروه بسبب الجلباب الأسود الذي يرتديه والعمامة السوداء التي تعتمر رأسه.

ـ ادخل يا شهاب لتتناول طعامك.

وقبل أن يغلق باب الشرفة خلفه نظرتْ نحوه الفتاة التي تسمرت بمكانها فور أن رأت بوضوح قسمات وجهه المصقول بلحية مشذبة، وعانقت العيون بعضها بلحظة كان السائد فيها هو الاحتقار!

أدار شهاب رأسه بعد أن أشبع عيونه من رؤية الغريبة، وبعد اليأس من محاولة فك طلاسم الأسئلة مُفكرًا في الاستعانة بالأمير لمعرفة من هي حتى يقوموا بطردها، فكما قال الأمير والرسول ـعليه الصلاة والسلامـ «**مَن رَأى مِنكم مُنكرًا فَليُغيرهُ بِيَدِه**» وهي تُعد منكرًا وأعوذ بالله، وعليه ـبحكم ما تعود عليهـ أن يطردها.

قابلها أولًا واقنعها بارتداء النقاب، أو تحدث مع زوجها، وإن لم تستجِب للأمر فليفرضه بالقوة، وإلا فليرحلوا من هنا، ولن يستطيع تلك المرة أن يقنعهم بالذهاب؛ فها هو المُنكر بشحمه ولحمه مُتجسد بها، ولن يستطيعوا التحجج بالأدلة الواهية. سيفرِح الأمير بالتأكيد، فلقد تسنَّت لهم الفرصة.

لمحة من طاعة عمياء ظهرت بعيونه عندما هزَّ رأسه موافقًا على أفكاره المُتعصبة، وولج للداخل ليتناول طعام العشاء.



وضع أمير يده على ذقنه، وزينت ثغره بسمة مُستمتعة بالحديث كما تعود أن يفعل كلما أنصت لحكايات أبيه عن أمجاده وأمجاد جده المصري.

ـ أنت وُلدت بالقاهرة، أما أنا فلقد جئتها وأنا صغير بعمرك تمامًا، وُلدت في سنة ١٩٥٦، سنة العدوان الثلاثي الغاشم على بلدنا الحبيب، جدك – رحمه الله – كان من أبطال المقاومة الشعبية ببورسعيد، كنا نجتمع عند مقهى الفيشاوي ونجلس حول المذياع لنسمع بتلهف خطاب الرئيس، سمعنا شركة مساهمة مصرية لتصيبنا بنوع من حمى الفرح الجارفة صارخين «**عاش جمال عبد الناصر**» وأصبحت بورسعيد بليلة واحدة تموج من البهجة.

تنهد الرجل الجالس على الفراش صاحب شعر أبيض كخيوط الفجر بيوم وهَّاج مشرق وعيون بنيّه تنبع منها الحكمة والانضباط، وأنف صغير دقيق، وشفتان لم تعرفا يومًا الفرح، مُتابعًا حديثه وبرغم تكراره على مسامع ابنه إلا أنه لا يمل من الاستماع، وهو لا يمل من الحديث عن عائلته بفخر.

ـ أخبرني جدكَ بأنني وُلدت وقت تبعات تأميم قناة السويس، حيث قامت القوات الإسرائيلية ببعض العمليات العسكرية في ٢٩ أكتوبر بالقناة، وتلقت مصر حينها إنذار ليتم سحب القوات المسلحة والابتعاد عن القناة مسافة ١٠ أميال وإلا فسيتم التدخل العسكري، ورفضه ناصر ليتم في ٣١ أكتوبر التدخل العسكري بقيادة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، والاستيلاء على مدينة بور فؤاد، أما مدينتا الباسلة فلم تخر صريعة لقوات الاحتلال، جدك العصامي كان يقول عن المقاومة: «**طهرنا شوارع بورسعيد بدمائهم، لم يكن بأيدينا سلاح أو عتاد؛ ولكننا هزمناهم شر هزيمة، وكان يومًا عظيمًا لم ينتهِ إلا بخروجهم منها محمولين على الأحفاف.**»

ـ وماذا بعد أبتِ؟

هز أمير رأسه مُفكرًا بماضي عائلته العريق مما يشعره بالفخر والعظمة وأنه متفوق عن سائر البشر، أخذ نفسًا طويلًا عميقًا بعدما حبس أنفاسه مُستطردًا بإلحاح:

ـ تحدث عن النكسة يا أبتِ، كم كان عمرك وقتها؟

ـ أوف أمير!

ـ أرجوك، أحب أن أستمع لها.

تنهد محمود بضيق مُسترجعًا الماضي المملوء بدماء الضحايا الأبرياء، تناثرت دمعة يتيمة على الخد الواهن، فأغلق عينيه مُتحدثًا بصوتٍ يكسوه الأحزان.

ـ كان عمري وقتها أحد عشر عامًا، عُدت من مدرستي على أصوات زغاريد أمي، لم أكن مُطلعًا على أخبار الحروب والسياسة، تركيزي الكامل انصب على دراسة الكتب، لم يكن عقلي الصغير يدرك بأن هناك أشياءً تسمى الصهاينة. كانت أمي تبكي وتزغرد عندما جاء خبر بأنه استشهد بكتيبة الجيش بسيناء.

هز محمود برأسه بحسرة ودمعت عيناه، فحرّك يديه ومسحها بأنامله؛ فعليه أن يكون قويًا أمامه:

ـ أخذوا مني شيئين، أبي وسيناء الغالية، ملأوا قلبي بالكراهية وغذوا روحي بسماد الأحزان.

صمت لبرهة واستطرد ببسمة حزينة:

ـ وأمي، تعابير وجهها عند سماعها الخبر لا زالت محفورة بذاكرتي؛ دموعًا غزيرة بمقلتيها وهي تضع يدها على فمها لتطلق زغرودة عالية. قالت أن أبي حيّ في جنة الله؛ لهذا هي فرحة.

قاطعتهم أنعام بصوت مُرتفع:

ـ محمود، العشاء!

ـ قادمون يا أنعام.

واستطرد ناظرًا لابنه:

ـ هيا يا أمير، يكفي هذا القدر.

ـ ولكن أبي!

ـ كفى حديثًا، لقد حان موعد العشاء. صحيح، لم تخبرني عن أحوال المتجر والبضائع، هل الأمور مستقرة أم لا؟

هزَّ أمير رأسه وزمَّ شفتيه مُتحدثًا:

ـ بخير، تعلم مجرد غمامة صغيرة، الحال ليس كالسابق؛ ولكن الأمور معتدلة، على الأقل ما زال يأتي السائحون ولم يعودوا يخافوا من الانفلات الأمني. أما عنهم فهم يحبذون إثارة المشكلات فقط، يأتون ويحاولون مضايقتهم، ولكني استطعت إيقافهم، أبي...

وترددت الحروف عن الخروج من لسانه عندما فكر هل يخبره بأمر متجر عوض أم لا؟ والمنزل! هل اطمئنت أمه على السيدة عائشة أم لا؟

بالتأكيد لم تعرف، وإلا كانت سألته أين ذهبت السيدة عائشة أو شيئًا من هذا القبيل.

ـ ماذا بك بني؟ ماذا كنت ستقول؟!

ضاقت عينا الرجل الكبير باستفهام مُحدقًا بشحوب ابنه وقلقه الظاهر على وجهه وابتسم بتروٍ مُستطردًا:

ـ أخبرني أمير، ليس من عادتك أن تخفي عليّ أمرًا.

ارتعشت شفتا أمير بكلماتٍ مبهمة، فماذا يقول له؟!، سواء اليوم أو غدًا فسيعرف سر الهروبِ الخافت لعائلة السيد عوض – رحمه الله – والجار الجديد.

- لقد باعت السيدة عائشة متجر المرحوم، وأيضًا الشقة، جاء لنا جيران جدد.

اهتز محمود من المفاجأة وحرَّك ذراعيه على الفراش قائلًا على عجل:

- ساعدني بني لأنهض وأجلس على الكرسي، سأذهب للتحدث مع عائشة وعمر.

نهض أمير من مكانه ومد يديه أمامه برجاء:

- حاولت التحدث معهم، ولكن لا أحد يرد، وما قلته هو الحقيقة. لا تجهد نفسك، حتى وإن أردت فسآتي لك بالعشاء هنا.

هز محمود رأسه نافيًا، فهو ليس مُتعب ولا به صفة المرض إطلاقًا، بل هو بكامل الصحة والنشاط؛ إنه من أبطال حرب أكتوبر، ولم يعرف التقاعس ولا الهروب من المشكلات، يقف شامخًا كالجبال ولا يهتز لرياح المصاعب، لا يوجد ما يعيبه سوى ذلك الكرسي المتحرك اللعين الذي يُقعد قيامه.

رفع يده محاولًا إزاحة نفسه غير مهتم لكلام ابنه:

- إن لم تساعدني سأذهب بمفردي.

زفر أمير الهواء بيأس ثم انحني ليحمله ويضعه على الكرسي المتحرك، وجلس بالأرض ليضع قدميه على الحامل الصغير مُتمتمًا لنفسه:

ـ أبي عنيد كالحجر.

وتوجه به إلى خارج الغرفة لتقصِّ حقائق ودَّ لو كانت مطمورة بعباءة السنين.



ريتشل تُمسك الإنجيل لتقرأه، تلتهم الحروف بشوقٍ جارف وقلب خاشع تائب، أغلقته ووضعته بالمكتبة والتي يقبع فوقها تمثالٌ للعذراء مريم، فوضعت يدها أمامها وانحنت برأسها للأسفل، وأخذت نفسًا عميقًا وحركت يديها على صدرها على شكل صليب، ورفعت ببصرها لأعلى وابتسمت ابتسامة خفيفة مُفكرة في أن لولا ديانتها لظلت غارقة بالضياع الذى اكتسحها طيلة الفترة الماضية.

كانت تتمتم بصوت خافت وتحمد الرب على نعمة ديانتها المسيحية.

ـ هل انتهيتِ ريتشيل من صلاتك وقراءة الإنجيل؟

التفتت على حين غرة لأبيها ضخم الجثة لدرجة مريبة، من يراه يظن أنه لا يتوانى عن التهام وتناول كل شيء بمنزله من بدانته،

يرتدي قميصًا من اللون الأبيض، وسروالًا أسود واسع فضفاض يكاد يلم جسده.

عقدَّت حاجبيها باستغراب:

ـ أنت هنا يا أبي؟!، ألم تقل بأنك ربما تتأخر بالمتجر؟

قهقه الرجل ضاحكًا مُحتضنًا ابنته:

ـ لم أذهب اليوم إلى المتجر، لقد كنت بالكنيسة مع الأب بولوس ميخائيل، ولقد جئت منذ قليل ولم تسمعي الباب لأنكِ كنتِ مشغولة بالصلاة.

ـ إنني أحاول أن أكون أفضل، ألم أتغير إلى الأحسن؟!

ـ أحمِد الرب على هدايتك، وأنكِ تركتِ ذلك المعتوه.

ـ كنت أعيش بفترة من التخبط وانتهت بتوبتي، آسفة لكل الذي فعلته بحقك بالماضي.

ربَّتَ على شعرها بلمسة أبوية حنونة:

ـ لا داعي للأسف على تلك الأيام الغابرة السوداء، تذكرينني بأمك كثيرًا يا ابنتي.

ـ لقد تغيرت بفضل بركة المسيح وأمي التي انتقلت لنعيم الفردوس.

ضمها أكثر مُجيبًا:

ـ لن أنساها حتى ألقاها، وأتمنى أن تذكرني بصلواتها. لقد تغيرتِ لدرجة أن الأب بولوس أخبرني بشيء جعلني أتوجس

خيفة؛ هل فعلًا أخبرتِ الأخت مارينا بأنكِ تنوين العمل كراهبة؟

لملمت خصلات شعرها النحاسي مُبتعدة وابتسمت وعيناها السوداء تشيان بفرح:

ـ لقد أنار ليّ الرب طريقي يا أبي، وفكرت في الابتعاد عن ملذات الحياة المقززة.

ـ هل ستتركينني وتضيعين حياتك في الزهد؟!

ـ أتخاف عليّ من الإيمان يا أبي؟!

ـ كلا، ولكن ألا تحبين أن تكوني بجانبي ولكِ عائلة؟ افترضي بأنني مرضت، مَن سيسهر على راحتي حتى أشفى؟!

ـ لا تقلق يا أبي، سأقوم بزيارتك وقتما تريديني وسأطمئن عليك من الأب بولوس؛ ولكن واجبات الرب لا بد من قضائها، أرجوك احترم رغبتي ولا تحاول إقناعي بترك الأمر.

انعقد حاجبيه بغضب قائلًا بحزم:

ـ اسمعيني جيدًا، لن أدعكِ ترحلين، ولا تفكير بالرهبنة، نحن علينا أن نعيش في الدنيا بجانب الدين أيضًا، أفهمتِ؟

ـ ولكن....

ـ إنه قرار لا رجعة فيه. اذهبي لغرفتكِ، ولن أسمع منكِ كلمة واحدة بهذا الشأن.

أشار مايكل لغرفة ريتشيل ابنته مُفكرًا في من يلعب بأفكار عقلها هكذا، وكيف تسمح لهذا وذاك أن يؤثر عليها بمثل هذا الشكل؟!

كاد يختنق حزنًا لحظة رؤية عيونها المُترجية؛ فهو لم يعتد على رفض مطالبها ولم يتذمر أو يغضب حتى، لا يبدو إنسانًا من العصر الحجري كما سبق وأخبَرَته؛ ولكن طريقة معيشتها بالآونة الأخيرة تبدو أكثر ريبة من ذي قبل، أصبحت غريبة جدًا، لا تترك صلاة ولا قداس إلا وذهبت إليه، أصبحت شيئًا متناقضًا عن ما كانت عليه، ولا يدرِ هل يفرح لأجلها أم يقلق على حالها؛ فكلام الأب بولوس عن أنها تتبع قومًا غريبوا الأطوار أقلقه أكثر. ألا يمكنها البعد عن القوم الغرباء؟!

في تلك المرة لن يقف مكتوف الأيدي كما السابق، سيبعدها عنهم بالقوة.

مد يده نحو تمثال العذراء مُناجيًا:

ـ أسألك باسم المسيح والسيدة العذراء أن تنير طريق ابنتي، وأن تبعد عنها كل الشرور.

واستمر الرجل في التضرع إلى السماء أملًا أن تبتعد الأخطار عن ابنته؛ ولكنه لا يدرك بأن الأخطار كالمغناطيس؛ كلما ابتعدتَ عنها تنجذب لك أكثر.



صرخاتها تشق الليل، ويده تطبق بيدٍ فولاذية على ذراعها حتى كاد يخلعه من مكانه، لو شاء سيمزقها بأسنانه الحادة جرَّاء اقترافها ذلك الإثم.

ـ أتسمعين الموسيقى وأنتِ تعلمين أنها فسق وفجور؟!

ـ اتركني، إنك تؤلمني.

ـ ألم أخبركِ مرارًا وتكرارًا؛ المعازف والأغاني حرام، خالفتِ أوامري رغم أنني نوهت عن حرمتها! سأكسر عظامكِ يا زينب.

ـ اتركني، النجدة يا أمي.

ـ هرولت السيدة الطاعنة بالسن ناحية أصواتهما العالية، لتجد ابنها شهاب يعنف أخته بقسوة، فحاولت إبعاده عنها بصعوبة:

ـ لِمَ تؤذِ أختك يا شهاب؟ أتركها.

ـ دخلت أناديها لأجل العشاء فوجدتها تضع السماعات وتغني وترقص أيضًا، الفاسقة.

وصفعها صفعة قوية وهو يردد آخر كلمة، أما أمه السيدة آمال عبد المتجلي فلقد تحركت ناحيتها لتحميها منه:

ـ دَع أختك وشأنها، لا تؤذيها.

ـ لا دخل لكِ أماه، إنها فاجرة، تعصي أوامري وأوامر الجماعة، ولا بد من تريبتها.

أمسكت زينب بتلابيب عباءة أمها وتحدثت بتلجلج :

ـ لم أرتكب أي خطأ، كنت أسمع أغنية للمطرب (**تامر حسني**).

نفث شهاب الهواء من فتحتي أنفه بسخط :

ـ وتسمعين لهذا أيضاً؟! أستغفر الله العظيم. دعيني أماه، ابتعدي عنها، عليّ تربيتها تلك الفاجرة.

رفعت السيدة العجوز يدها المُهتزة بقوة مُجيبة بصوت خائف:

ـ يا ولدي، حبًا في الله دعها إن كانت لا تغضبه، أرجوك لا تضربها.

ـ ابتعدي وإلا فسأبعدكِ بنفسي، فلن يمنعني شيء عن تطبيق الحد عليها.

ودفع أمه بقسوة فتهاوت على الأرض لتسقط سقطة رجت كل عظمة ضعيفة بجسدها.

واستطرد بثبات وبرود ناظرًا لأخته :

ـ المنكر لا بد من تغييره.

بينما زينب كانت تحاول التقاط أمها من على الأرض هاتفة بغضب:

ـ عليك اللعنة يا شهاب، أتضرب أمي؟! أهذه هي أخلاق الإسلام التي تطبقها كما تقول؟

بينما هو واقفٌ بجمودٍ يرمقهما بقسوة دون أن يتأثر بدموع أمه المسكينة، تجمَّد قلبه وصار أشبه بحجر يابس مصقول بشدة، وعقله لا يعرف سوى كلام الجماعة الذي لا بد أن ينفذ.

ـ لا بد من تربيتكِ يا زينب؛ فأنتِ السبب.

كانت السيدة العجوز تلتقط الهواء بصعوبة بالغة مُترجية إياه بأن يتوقف:

ـ ولدي، دعها وشأنها.

تجاهل كلام أمه المُستلقية على الأرض، وتوجه نحو زينب التي ما إن رأته يتقدم ناحيتها حتى تحركت بسرعة في محاولة بائسة للهرب منه، ولكنه أمسكها من شعرها ودفعها للداخل وصفعها مرة تلو الأخرى دون أدنى اهتمام لصراخات أمه المُترجية.



ترتجف أوصالها بعنف، نظرة الشاب الواقف بالشرفة المقابلة لها لم تكن بريئة، فهما كانت جنسية إيف فهي فتاة، وتكاد تقسم بأن تلك النظرة تحمل معاني وقحة، أعادت لها سنين مرت بذاكرتها وقتما مررت أناملها لذلك الجرح القديم بصدرها. ذلك الجرح الذي ربما شُفي جسديًا، ولكنه لا يزال ينزف بغزارة داخليًا.

زفرت الهواء مفُكرة في جاؤون، عليها أن تخدمه ولا تنسى فضله حتى إن كان سفارديم حقير كما نعته أبيها، في الحقيقة

هو ليس كذلك، هو من تبناها ببيته دون أن يسأل عن سرها الذي تحرسه بين جنبات قلبها، حنون معها بعكسه، استطاعت أن تتبنى شخصية الابنة التي لم يرزق بها جاؤون، وإن وقفت أمامه فتقول بكل صوت تملكه: أنا إيف جاؤون باخوم.

بدأت تقلق عن مكانه ومكان يوسف، خاصة أن الساعة الآن الحادية عشر. تمددت على الفراش وحركت ذراعها تحت الوسادة لتخرِج سكينًا قديمًا صدئ به دم متخثر على طرفه، أطبقت عليه بأناملها ونظرت نحو الباب تطمئن أن لا أحد قادم.

تنفسها يزداد سرعة وهي تمشط بعيونها كل جزئية من جزئيات الغرفة، تنقلت ببصرها ناحية خزانة الملابس وجدتها مغلقة.

زفرت الهواء بارتياح هامسة:

«**أما آن الأوان لتتخلي عن هذه العادة يا إيف؟! لقد مر أكثر من ثلاثة عشر سنة وأنتِ لستِ بإسرائيل، أنتِ بمصرايم، ولا أحد سيقوم بأذيتكِ هنا.**»

وضعته تحت الوسادة مرة أخرى وحاولت الاسترخاء والنوم بهدوء، إلا أنه ما لبثت أن تغير الأمر بدقات باب عالية، وصوت رجولي يصرخ:

ـ عمر، افتح الباب.

ذلك الصوت حفز كل خلاياها المضطربة لتسحب السكين من تحت الوسادة، وتقفز من الفراش وهي تشهق بصوت مسموع ناظره بأرجاء الغرفة بجنون.

عاد الصوت مجددًا فتحركت بقلق ممسكة بالسكين وارتدت روبًا حريريًا بحركات مُضطربة، وتوجهت بخفة ناحية الباب، ووضعت أذنها لتسمع الحديث الدائر:

ـ لقد أخبرتك بأنني حاولت من قبل ولم يرد عليّ أحد.

ـ أصمت، أحدٌ ما يسترق السمع! عُمر، افتح الباب لنتحدث.

أخذت نفسًا عميقًا للاستعداد، وأمسكت بيدها السكين تضعه خلفها، وبيدها الأخرى فتحت الباب، ونظرت للواقف أمامها وذلك الشخص المقعد قائلة:

ـ نعم، من أنتم وماذا تريدون بهذه الساعة؟ ولمَ كل هذه الجلبة؟!

تحدث الرجل المقعد بحزم:

ـ من أنتِ وأين عُمر والسيدة عائشة؟

ابتسمت إيف نصف ابتسامة مُفكرة أنهم عرب وعليها البدء في رسم خطط للدفاع ولن تتبع ما قاله جاؤون عن إخفاء هويتها اليهودية، فلا لتلوين الحقائق بعد اليوم، ستظهر عرقها المتبجح وستخبرهم، عليها أن ترى نظرة الاحتقار والصدمة والاشمئزاز التي سوف تنبع من قلوبهم، لتخبر نفسها بأن تلوين الحقائق لا يفيد، فهم سيعرفون بنهاية المطاف، وعليها أن تختصر الأمر.

وبلسان عربي فصيح وضحكة شيطانية أجابت:

ـ لا أحد يسكن هنا يسمي عُمر ولا عائشة.

ـ كاذبة.

تحدث الرجل وهو ينظر لها بنظرات استنكار، بينما هي كان دمها البارد يحكم تفكيرها، وقررت إسداء لمحة غضب لأوردته، فتحدثت بسعادة باللغة العبرية:

ـ شمي هوو إيفت كاهانا، أتا يخول لهكيد لي إيف، أني أيشا ميْ إزرائيل، مي أشكنازيم.

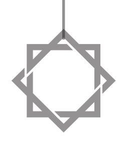
وتوسعت عينا الرجل المُقعد دهشة، فأجاب محاولًا إحكام سيطرته على مشاعره:

ـ من أو ما أنتِ؟

واتسعت بسمة إيف الاستفزازية:

ـ لقد كنتُ أتحدث بالعبرية، وسأعيد كلماتي بالعربية وأضيف قليلًا؛ اسمي إيفت كاهانا، ويمكنك أن تقول ليّ إيف، أنا امرأة من إسرائيل بالتحديد من الأشكناز، أنا من الجيران الجدد القاطنين هنا.

وضحكت بقوة حتى دمعت عيناها وذهبت أنفاسها وكادت أن تُعيد ترديد الكلمات، غير أن استوقفتها رؤية جاؤون ويوسف وهم يصعدون على السلم، وقد سمعوا كل كلمة قالتها.



# الفصل الثالث

ضحكها المرتفع حلو المذاق على السمع كالفاكهة، يُسكر ويُغيبُ عقول الرجال كما كلماتها، استشعرت بتجمد أوصال الجميع وسكونهم بسكون ضحكاتها، لمحة الغضب التي فكرت بإسدائها لهذا الرجل كانت لمحة برود، والبرود المُتصف به جاؤون يتغير. تحرك نحو إيف وتمتم بصوت منخفض جدًا ببضع كلمات باللغة العبرية لتدخل على الفور للداخل بينما محمود تحدث قائلاً:

ـ من أنتم وكيف جئتم إلى هنا؟!

سؤاله جوهري ولديها الإجابة عليه، هم أو هي من يهود أوروبا الغربيين أو ما يُسمى لديهم الأشكناز، أعلى فئات اليهود غرورًا وبرودًا، وربما مكرًا، من أم بريطانية الجنسية يهودية الديانة وإسرائيلية المنشأ، وُلدت بأرض الميعاد، أرض ماضٍ أليم يشابهه جمال.

ـ سأخبر عنكم الشرطة، أيها الأوغاد.

ـ نحن لسنا إسرائيليون، أنا اسمي عبد القدوس سعيد، وهذا ابني يوسف، وأنا مصري الجنسية، ولديَّ كافة الإثباتات التي تؤكد صدق كلامي.

ـ لن أصدقك، فأنتم تحيكون المكائد والهراء بطريقة مُتقنة. أين عُمر والسيدة عائشة؟ أقتلتموهما لتأخذوا المتجر ومنزلهما؟!

ـ يا سيدي الفاضل، لقد قامت السيدة عائشة ببيع المتجر والشقة لي بعقدٍ مسجل بالشهر العقاري بتاريخ أول أمس. نحن نمتلك كل شيء بشكل قانوني.

ـ أبتِ، لا يهمنا ماذا سيقولون، لقد وقعت المصيبة و...

ـ يوسف، أصمت. لا داع للشرطة سيد محمود.

ـ هيا بنا يا أمير، لن أتوانى في إخبار الشرطة عنكم، فلا بد أنكم جواسيس.

الضجيج والحديث المرتفع لجاؤون وذلك الشخص ويوسف ضايقها، فأغلقت الباب حتى لا تسمع المزيد من الترهات، وضعت السكين تحت الوسادة وألقت برأسها عليها لترتاح؛ فهي لم تذق النوم جيدًا منذ أن أتت لهنا من أسبوعين مروا بثِقَل.

أمسكها من ذراعها أشخاص ضخام الجثة عريضو المنكبين، أشداء بعكس جسدها النحيل فصرخت:

ـ أين أنا وماذا تفعلون بيّ؟! ماذا تريدون مني؟

دفعوها بسيارة جيب مسلحة، ولم يلقِ تعليقها أي أثر، فلقد كانوا صامتين كالتماثيل الكبيرة. تلفتت حولها مُلتاعة ومُضطربة خيفة منهم ومن المجهول الذي ينتظرها فاتحًا ذراعيه على وسعهما.

وصلت بلمح البصر لمكان به خيمة بيضاء كبيرة، دفعوها خارج السيارة فوقعت على وجهها لتختلط أنفاسها بالغبار، سمعت أصوات قدم تقترب منها فرفعت برأسها قليلًا فوجدت حذاءً أسود اللون لامعًا براقًا أمامها، تطلعت بنظرها أكثر ووجدت شخصًا يرتدي بذلة عسكرية، ملامحه مألوفة لديها، ويحمل بيده سكينًا به أحرف مطبوعة عليه.

ـ هل تفضلين أن تقتلي أم تلقي مصرعكِ؟!

تحدث الرجل بلهجة عبرية ليست بها أي لكنة مشوهة، إنه إسرائيلي!

هل عادت لإسرائيل؟!

لم ولن يتركوها بسلام أبدًا!

عاود الرجل بصوته الرخيم سؤاله مجددًا قائلًا بصيغة أخرى حديثه:

ـ ماذا تحبين، أن تقتلي أو تكوني مقتولة؟!

نهضت مُنفضة عنها ذرات الغبار مُحدقة به بغرابة، وتحدثت ناظرة حولها:

ـ أين أنا؟!

ـ لم تجيبي على سؤالي لكِ؟

تحدث الرجل بتروٍ كمن تضغط عليه ليتحدث.

وكررت حديثها بهستيريا مُضحكة:

ـ لم تجب عن حديثي، أين أنا؟

ـ هل تفضلين الحياة أم الموت؟!

ـ أحب أن أعيش بالطبع، ولكن...

ـ رائع، إذًا ستقاتلين بالطبع.

ـ إن كان شخصًا يهدد حياتي فلا جدال فيه، عدا ذلك فلن أقاتل.

ـ ولكنك لن تنتظري حتي يقوم بتهديد حياتكِ، عليكِ أن تقطعي رأسه قبل أن يفعلها.

همت إيف لتفتح شفتيها اعتراضًا على الحديث، غير أنه ليس كذلك بل واقع حقيقي، إن كنت تعيش في مكان وأنت تشعر بأنك مهدد من قبل شخص ما فلن تتوانى عن إزاحة ذلك الشخص من حياتك حتى تعيش في راحة وسلام، ولكن هذا ليس صحيحًا مئة بالمئة؛ إن كان الاعتقاد في الشخص خاطئ هل أقتله وهو بريء؟!

تردد هذا السؤال بعقلها لتجِب عليه مناجية:

«هذا لا يجوز كما قال من قبل وعلمني... بل إنه يجوز يا إيف، حب البقاء يفرض عليكِ أن تقاتلي وأن تدافعي عن حقكِ في العيش كما فعلتِ من قبل.

على دماء الأبرياء!

وهل سيكونون أبرياء إن قاموا بقتلكِ؟! لستِ بريئة بنظرهم ولا بنظر نفسكِ، ولكنهم أبرياء في نظري أنا إيفت.»

قاطع الرجل أفكارها مُتحدثًا:

ـ كم عمركِ؟!

ـ خمسة وعشرون عامًا.

صمت الرجل طويلًا وأشار لها لتتبعه، فظلت هنينة تتلفت حولها برعب وجسدها يشهد اختلاجات عنيفة قبل أن تخرسها بحركة متقهقرة للوراء لتهرب بعد أن اختفي في قماش الخيمة، واصطدمت بشيء صلب فاستدارت لتجد الجنود تشكلوا كحائط بشري، هزوا رأسهم بإشارة مفادها أن لا تُقدم على شيء أحمق، فبلعت ريقها بصعوبة خوفًا من لغة عيونهم الآمرة وتبعته لداخل الخيمة.

فور أن أزاحت الستار وجدت أشخاصًا يبدو أن أعمارهم تتراوح ما بين الخامسة عشر والعشرين من الذكور والإناث، مدججين بالسلاح، وكان الرجل الذي تحدث معها يشير بيديه إلى خريطة:

ـ هنا تقع قرية دير ياسين، والتي بعد دقائق سنقتحمها. علينا أن نكون في منتهى العزم والقوة، وأن نعيد أمجاد اليهودي الشجاع الذي لا يهاب أحدًا، تأكدوا بأن حياتنا ومستقبل

بقائنا في أرضنا الأم يتوقف عليكم. هيا يا شباب وفتيات، لنذيق العرب أبشع أنواع العذاب.

جحظت عينا إيف دهشة، وسقط فمها مذهولًا وهم ينصرفون من أمامها، بينما ذلك الرجل اقترب منها وقال وهو يعطيها السكين بابتسامة مقززة:

ـ أشرفي عليهم، حولي تلك القرية لحادثة تجعل قلوبهم تخرج من بين ضلوعهم لفظاعتها، أريد أن أسمع أخبارًا بشعة بشكل رائع.

سحبها بقسوة نحو السيارة مع الشباب المسلحين، وما إن وصلت حتى دفعها لتخرج وألقى بجانبها السكين مُتحدثًا بصوت مرتفع:

ـ اجعلي جدك جورج كاهانا فخورًا بكِ عزيزتي إيفت.

وجال بعيونها إجابات لمئات الأسئلة استشفتها من ملامحه التي لم تختلف كثيرًا عن ملامح والدها الذي لا تفضل الحديث عنه. لم تتحرك من وضعيتها رافضة أوامره ورافضة أن يستغلها أي شخص من عائلتها مرة أخرى، حادجة إياه بنظرة حادة وبصوت عالٍ:

ـ لن أنفذ أوامرك، لن أكون عبدة مطيعة، ليس لك وليس لأجل أبي.

جز على أسنانه مشيرًا:

ـ لنصيغ الأمر بصيغة أخرى، إن لم تتحركي من مكانكِ سأقتلكِ بنفسي، ما رأيكِ؟!

هزت إيف رأسها نافية:

ـ أنت جدي، لذا لن تقتل ذريتك.

قهقه الرجل بصوتٍ عالٍ، ولمعت عيونه ببريقٍ فيه نوعًا من التحدي:

ـ أنتِ أكثر من يعلم بما يقوم به رجال كاهانا، ولا تظني أن هذا سيمنعني عن قتلكِ، لدي مبدأ، ولطالما أخبرتك به، وهو (**إن كانت الذرية فاسدة وعار علينا فسأقوم باقتلاعها شخصيًا**). والآن خذي السكين واذهبي لتنفذي أوامر وطنك الغالية.

وأشار برأسه لأحد جنوده ليساعدوها على الوقوف، وأعطاها السكين بنظرةٍ آمره، فأخذته غصبًا وتحركت دفعًا للقرية، وحينها تغير المشهد للدم، من صراخ وركض ودم يروي الأرض، جنود يطاردون عرب هاربين من بيوتهم ومن الرصاص المُتطاير خلفهم، وبداخل أحد البيوت رأت سيدة تجلس بجانبها زوجها النائم بفراشه والتي فور أن رأتهم حتى صرخت:

ـ يا أعداء الله، أيها الخونة الأعداء، تريدون قتلنا ونحن مسالمون! أقتلونا أو قوموا بتمزيقنا فلا نبالي، سيكبر أولادنا ويعيشون ليقتلوكم ويستردوا كل الأنفاس التي أخذتموها.

وحديثها انتهى بذبحها وزوجها النائم بالسكين بيد فتاة صغيرة بطريقة وحشية.

حاولت إيف الهرب من البيت الملعون، لكن استوقفها صوت خفيض قادم من غرفة أخرى لم يدخلها أحد، وكل خطوة منها يزداد الصوت بعدها وضوحًا، ينطق بضع كلمات مُرتلة عربية وقادم من خزانة ملابس متهاوية الأرفف.

فتحت الباب فوجدت فتاة صغيرة ذات خمسة أعوام تضع على رأسها بشكل غير محكم حجابًا، فانسلتت منه بضع خصلات سوداء تحتضن طفلًا لم يُكمل السنة وتقرأ من كتاب ما، تجاهلتها مُسترسلة قراءتها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

كلامها غريب على أذن إيف، ليس لأنه عربيًا، فهي تتقنها جيدًا، ولكن لمعانيه التي لم تفهمها. نظرت باستغراب لقدرتها على قراءة – أيًا كان ما تقرأه ـ بهدوء بينما الصراخ من حولها يكفي لإذابة أي درجة من الصمود يتمتع بها أعتى وأشد الرجال. ذلك الصوت الشجي كان يجبر يداها على الاهتزاز بسكينها ليسقط عنها في خشوع فأجفلتها تلك الحركة، فتحدثت إيف مطمئنة:

ـ لا تخافي يا فتاتي لن أقتلكِ، أخرجي من مكانكِ، سأساعدكِ على الهرب من هنا.

والفتاة ساكنة تمامًا، ترمقها بثبات بطولي وبعيونها الكهرمانية مسحة من الكبرياء والعنفوان تجلى بصوتها المُرتفع:

- سأحاربكِ أنا وسأقتلكِ، فنحن وأنتم لا نجتمع بوطن واحد، يا أعداء الله...

كممت إيفت فاهها، وبصوتٍ خافت تحدثت:

- هشش، لا تصرخي، تعالي ولا تفتعلي جلبة، واقتليني إن أردتِ، أنا مستعدة لدفع ذنبي وذنب جدي، خذي أخيكِ وكتابكِ وكوني ورائي، سأسحب يدي عن فمك وأرجوكِ لا تصرخي، موافقة؟

وفعلت مثلما قالت، وتحركت بخطوات متأنية للباب لتراقب الطريق ومدت يدها ترجوها أن تثق بها ولا تخاف، فتقدمت الفتاة نحوها بحركة مضطربة ساحبة معها أخيها وما إن لمست إيف حجاب الفتاة حتى فاضت عيناها بالدمع، إنه شبيه بها. تمالكت مشاعرها لثانية وشدت على يدها قائلة:

- هيا أسرعي، وحاولي أن لا تنظري حولكِ.

وتوجهت راكضة لخارج القرية دون أن يراها الجنود المشغولون بحرق الجثث وطمس معالم المجزرة، ودموعها تتدفق كالشلالات على أثر تلك المجزرة التي ارتكبت باسم الوطن الأم وباسم عقيدتهم، والتي أخبرها حبيب القلب الييشوفي من قبل بخطئها، وها هي تتبع مبادئه بمساعدة تلك الطفلة لتكفير ذنب تحمله على عاتقها.

أحست بتوقف الفتاة عن متابعتها فاستدرات لتجدها قد وقعت بالأرض دفعة واحدة، فعادت مسرعة وهي تلهث ناظرة حولها:

ـ هل أنتِ بخير؟

تأوهت الفتاة مُجيبة:

ـ لا أستطيع الركض أكثر من هذا، تعبت.

ـ لم نبتعد عنهم بالقدر الكافي، هيا تحاملي قليلًا.

وحاولت جذب الفتاة من ذراعها عبثًا فأجابتها وهى تهز برأسها نافية وصدرها يعلو ويهبط بسرعة كبيرة:

ـ لا أستطيع الوقوف على قدمي.

ـ حاولي عزيزتي، أعطيني أخيكِ لأحمله بين ذراعي.

أعطتها الطفل فهدهدته إيف ليهدأ بينما استطاعت الفتاة الوقوف على قدميها بعد عناء، فتبسمت إيف برقة قائلة:

ـ هل أنتِ بخير الآن؟

أومأت الطفلة برأسها، وتحركت بصمت، فتبعتها إيف بهدوء ما لبث أن تغير عندما سمعت صوت سيارات مقبلة وصريخ باللغة العبرية باسمها، فأمسكت يدها لتهتف بقلق:

ـ أسرعي، إنهم قادمون.

قلبها يتسارع وأنفاسها تضطرب، تركض بلا هدى في الليل المُوحش، وأصواتهم المُنادية إياها تُحاصر أذنيها، وفي ثوانٍ وجدت العربات تحيط بهم من كل اتجاه مشكلين شكل دائرة،

وظهر الرجل في الطليعة ممسكًا بالسكين بعد أن قفز من السيارة مُتحدثًا بالعبرية:

ـ أنتِ عار على كل عائلة كاهانا، لا تستحقين اسم أبيكِ.

وكأن تعليقه قد ضغط على زرًا ما فيها، ضحكت بعنف وبقوة ثم أسدته لمحة قوية قائلة:

ـ لا أريد شرف هذا الاسم، يذكرني بحقارته، مثلك.

اقترب الرجل بهدوء لاعبًا بالسكين بيده ناظرًا إلى ما تحمله:

ـ سأعتبر حديثك هراء، وسأبقي على حياتك إن تخلصتِ من تلك القاذورات. اقتليهم وإلا قتلتك.

وعيونها الزبرجدية قوية، تنظر لعينا الرجل دون ارتجاف وهي تُجيب، إلا أن اهتزازهما بفعل الذاكرة صبغ آخر كلماتها:

ـ أفضل أن أموت قبل أن تلوث يدي بدماء شخص آخر.

ـ هذه أمنيتكِ.

ولم ينطق بكلمة أخرى وقد تغيرت ملامحه بلحظة لتشبه الوحش المُتهيئ للانقضاض على فريسته، وانحنى ليهمس في أذنيها:

ـ وسأحققها لكِ، وأظن أن أباكِ استمتع بحياتك ولن تهمه وفاتك.

واختتم جملته بطعنها ببطنها ليخترق السكين جسدها وجسد الطفل العربي، وصرخت إيف حد انسلاخ صوتها من حنجرتها

وتهاووا بالأرض. أنفاسها تلتقطها بصعوبة ورؤيتها تضمحل. لمحته من بعيد لتبتسم رغم الألم مُناجية إياه:

ـ أبقيت على مبادئ لأجلك إيزرا، آسفة لأنني خذلتك من قبل.

ثم سمعت صرخة مكتومة ليتهاوى جوارها جسد دافئ، فحركت رأسها لتجد الفتاة صاحبة العيون السوداء الآسرة وهى تهمس بصوت ضعيف:

ـ أبقي على نبتة الحب بداخلكِ، ولا تحاولي انتزاعها من قلبكِ.

ثم تمتمت الفتاة بصوت أكثر انخفاضًا:

ـ ليس لكِ ذنب في مقتل رجاء، سامحي نفسكِ إيف.

ثم ملأ وجه الفتاة ابتسامة مُشعة وأغلقت عينها بسرور وطمأنينة قبل أن تفارق رئتيها الهواء.

نهضت من منامها المضطرب. إنها لا تكف عن الحلم بها، يعذبها طوال سنوات منذ الفاجعة الكبرى.

قامت من فراشها وهي تزفر الهواء بقوة وبتنهيدة طويلة مصحوبة بآهٍ موجعة جدًا.

عرقها متسخ بدماء الأبرياء، جدها كاهانا الكبير من أحد رجال المنظمة التي قامت بالعديد من المجازر في فلسطين، أما عن أبيها فيفضل أن يكون بالنسبة لها بلا اسم.

فكرت في الرجوع لإسرائيل ولعناق إيزرا الحبيب الغالي، فغدت أفكارها تضطرب يمينًا ويسارًا.

«**ولكن أباكِ يا إيف!**»

ـ أتمني أن يحترق في نار الجحيم، وأن يتعفن بالمكان الذي به.

ـ ربما هو قد مات.

ـ ولكن جدك أعتقد أنه حي ولم يمُت، فهو قال لكِ من قبل سأعيش حتى أكمل المئتين!

ـ عليهم اللعنة جميعًا.»

مررت أناملها على ذلك الجرح القديم الغائر بصدرها، وانتابها شعور بالوجيعة ما لبث أن تبدل لنيران من الرغبة في الانتقام. أغمضت عينيها للحظة لتهدأ ولتحاول البدء في يومها الجديد، مُدركة بأن جاؤون لن يتركها قبل أن تفسر ما سبق وقالته لهؤلاء الرجال العرب.



ـ تناول طعامك يا أبي، الكشري رائع.

قالها أمير وهو ينظر لطبق أبيه الذي لم يُمس، وتذكر أنه أمضى طوال الليل يفكر بتلك الشقراء حتى أصبحت محط اهتمام أحلامه، لقد جاءته في الحلم بخيالاتها الفاتنة، إنها جاذبة بشكل مخيف وضحكتها مغناطيس، لم يتذوق حلمًا بتلك العذوبة من قبل.

أما عن أبيه، فما قالته جعله طوال الليل، يتقلب بفراشه أرقًا، بينما أنعام فلقد قلقت من شحوبهم الواضح، وعيونهم تحكي بالكثير ليعلموه، والقليل مما علموه عن هؤلاء الأغراب.

«**ـ إيف كاهانا.**»

صدى كلماتها تردد بزوايا عقله، لم تخف من قول اسمها وجنسيتها رغم تأكيد الرجل على مصريتهم، كيف تدعي مثل هذا الادعاء الخطير؟!

هناك لغز وسر خطير ومؤلم يحيط به هالة من الغموض، ورغم كل هذا هي جميلة بشكل يأسر الألباب.

تحدث السيد محمود بحزم:

ـ سأخبر الشرطة ولن أنتظر أكثر من هذا، أنت تحاول إقناعي بالعكس، ولكني لا أجد سببًا مُقنعًا لأؤجل الأمر.

ـ أخبرك الرجل بأنه يملك كافة الإثباتات التي تؤكد ادعاءه، ثم وماذا ستقول لهم؟ جيراني إسرائيليون! سيقولون وماذا

فيها؟. صدقني أبي نحن لا نستطيع فعل شيء دون وجود إثبات قوي.

دق محمود المنضدة بيديه باحتجاج:

ـ تلك الفتاة تحدثت بالعبرية بطلاقة كالعربية، أليس هذا بإثبات قوى؟! لا بد أنهم جواسيس، جاؤوا كي يدمرونا ويقتلونا كما قتلوا بليغ وأبي والكثير من الشهداء.

سرح بفكره نحوها مُحدقًا بطبق الكشري لبرهة، ثم تحدث عندما أنهى أبوه حديثه:

ـ إن قمنا بأي خطوة تجاههم فلن نكسب شيئًا، علينا الانتظار ومراقبتهم جيدًا، وفور وجود شيء يثبت صحة أقوالنا سنخبر الشرطة بلا تردد.

سكت ثم أضاف وهو يشير برأسه للطبق الممتلئ:

ـ والآن، هيا تناول طعامك قبل أن يبرد حتى أعيدك للمنزل، ودع كل شيء ليّ ولا تقلق يا بطل.

هز محمود كتفيه بيأس؛ فهو رغم كل شيء عليه التريث، ربما يقدموا على خطأ واحد وحينها ستثبت الشكوك ويزجهم بالسجن، ولكن لم يخطر على بال محمود أن الخطأ لا يعرف للسيد عبد القدوس سبيلًا.



تناولت إيف طعام الفطور سريعًا وباكرًا، ثم ارتدت تنورة قصيرة صفراء وقميصًا أبيض تركت أحد زرائره مفتوحًا، واكتفت بمُلمع للشفاه كمادة للتبرج، وبعدها خرجت من غرفتها لتجد جاؤون مُستيقظًا وبجانبه يوسف ينظر لها شزرًا.

ابتسمت ابتسامة صفراء لتقل وهي ممسكة بحقيبتها بعبرية:

ـ بوكير توف، هشاعا شيفع، إتيم أَرُوخات بوكير. (**صباح الخير، الساعة السابعة، تناولوا الفطور**)، أني... (**أنا...**).

قاطعها جاؤون وهو يجز على أسنانه في محاولته الهدوء، فكيف يمكنها التحدث مرة أخرى بالعبرية بهذا الصوت المرتفع، ألا تخاف أن يسمعها أحد!

ـ تحدثي بالعربية، وليس صباح الخير، بل ليس خيرًا إطلاقًا بعد...

وقبل أن تدعه يفتح جدالهم الحاد قاطعته ببرود:

ـ حسنا جاؤون، سنتأخر، أنا سبقتكما، الفطور في المطبخ والملابس أخرجتها ووضعتها بغرفكم.

تقدم جاؤون منها، ورفع سبباته نحوها وقال:

ـ لقد أخليتِ بعهدكِ معي مثل كل مرة، ولم أستطع محادثتكِ أمس لأنكِ كنتِ نائمة، ولم أشأ إيقاظكِ. إيف، أنا أحاول بكل مرة أن أكون لطيفًا معكِ وأتركِكِ تنفذين كل ما تهوينه، ولكن هذا لا يعطيكِ الحق في الظن بأنني موافق على أفعالك. تحدثنا من قبل بضرورة إخفاء هويتنا الدينية،

وضربتِ كل هذا بعرض الحائط، ولا تكتفي، بل تقولين أننا إسرائيليون! أتريدين قتلنا؟!

حركت إيف كتفيها بلا مبالاة:

ـ اهدأ جاؤون، ما حدث كان يجب أن يحدث، فلا بد من إخبار الجميع بهويتنا علانية ودون خوف، يهوديتنا جزء منا، وُلدنا على ديننا بفطرة الاضطهاد؛ فمنذ فجر التاريخ ارتبكت المذابح بحقنا، لماذا كل من يقول أنا يهودي يتعرض للقتل أو الاضطهاد؟! لماذا لا يحدث مع المسيحيين والمسلمين مثلما حدث معنا؟! كل مصيبة حدثت أو لم تحدث في الوطن العربي أو خارجه يقولون نحن السبب فيها، نحن على مر التاريخ تعرضنا لظلم واضطهاد كبير في روسيا، بولونيا، ألمانيا وبكل دولة، لِمَ علينا أن نسير بجانب الحائط ونتخفى من ديانتنا هُنا؟! لقد فاض بيّ الكيل. سأقول علانية وبفخر ديانتي للكل، آسفة جاؤون، ولكنني لن أتبع رأي أحدٍ سواي.

ـ حتى لو أدى الأمر إلى رحيلنا من هنا؟!

ـ في جميع الأحوال سيعرفون، وسنُطرد كما حدث بالكثير من الدول العربية، فما الذي يجعل الأمر مختلفًا كثيرًا هنا؟!

ـ نحن بمصرايم، موطني الحقيقي، هنا كان يعيش أعمامي وعائلتي منذ آلاف السنين قبل أن أرحل قهرًا لإسرائيل.

صمت جاؤون لفترة كان فيها ينظر لإيفت بعجز مُتمتمًا:

ـ أتحبين العودة لإسرائيل وأنتِ أول من أقنعنا بجدوى الهرب منها؟! لا أفهمكِ، لماذا بكل دولة تصرين على افتعال المشكلات؟! سأقولها بمنتهى الصدق يا إيفت، إما العيش وفق شروطي أو سأضطر آسفًا لإخبار أبيكِ بمكانكِ و...

مستها قشعريرة باردة لذكره فصرخت بهستيريا:

ـ لا، أتوسل إليك جاؤون إلا أبي، سأنفذ كل ما تقوله، فقط لا تجعلني أعود إليه.

ـ هدئي من روعكِ إيف، لمَ كل هذا الخوف منه؟! إنه أباكِ و..

ـ سأصمت ولن أتحدث العبرية، أخبر الجميع بأنني مجنونة ولا أفقه شيئًا، وأنني مترجمة أعمل في ترجمة الكتب العبرية وهذا أثر على عقلي، إن كنت تريد تغطية مناسبة لما حدث، سأفعل أي شيء تطلبه شرط ألا تتصل بأبي.

زفر يوسف الهواء وتحدث مقاطعًا حديثهم بنفاذ صبر:

ـ وهل تظنون أنه سيقتنع بذلك العذر الواهي؟! مع هذا الرجل العربي أشك في أننا سننعم بالسلام، مثله مثل كل العرب، سيخترع بعقله الفارغ أشياءً، وربما يهول الأمر. هل رأيته عندما اتهمنا بأننا جواسيس لمجرد أن تلك الغبية تحدثت بالعبرية؟

أشار جاؤون إليه وقال بحزم:

- يوسف، لا تنعت أختك بالغبية، لكل مشكلة حل، وعن هذا الرجل سأجعله ينسى كل ما قالته إيف. اصبر، فالصبر مفتاح الفرج، كما يقول المصريون.
- لا أظن بأنهم سيتركوننا وشأننا.

سكت يوسف لبرهة، ثم نظر لها مُتابعًا:

- وستكونين أنتِ السبب في هذا، ستكونين جذور المشكلات كعادتكِ يا إيفت.

قاطعه جاؤون بنبرة آمره:

- اصمت، وهيا اذهب لتغتسل وتغير ملابسك، واهدأ؛ لا يمكن لأحد هنا أن يقتلعنا، اتركوا الأمر لي.

زفرت إيف الهواء براحة، ودون أدنى اهتمام لما تفوّه به يوسف أخذت المفاتيح قائلة:

- سأسبقكم أنا إلى المتجر، ولننسى جميعًا ما حدث أمس، شالوم عليخم (**السلام عليكم**).

فتحت الباب لتخرج دون أن تنتظر ردهم، كانت تتهادى بمشيتها غير عابئة بالناس الناظرة لها بوقاحة، بل تعبأ بالكثير من الأفكار التي غزت رأسها:

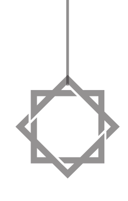
**«هل عليها أن تظل هنا؟ أن تتخلى عن شخصيتها لتكون حورية؟ هل عليها أن تجد هنا أرض الوطن؟ ولكن الأرض معه، في حضنه وكفى، غير أن العودة لها مُحرمة».**

وصلت لخان الخليلي ووجدت ذلك الشاب المتبجح يقف أمام متجرهم وكأنه ينتظرهم، كانت تقف أمامه راسمة خيالًا بعيدًا لإيزرا، وهاجمتها مشاعر كانت ولا زالت متجذرة بها، وكان يتقدم بثبات نحوها ويبدو أنه لم يتأثر بما قالته، لم يكن بعيونه لمحة استفهام أو كراهية، بينما هي فلقد خانتها قدميها وعدم الانصياع لأوامر العقل بالابتعاد.

«**حسنا، إن كانت أطرافكِ لا تعمل فعليكِ أن تخبريه بأن يتنحى جانبًا**»

وقبل أن تتحدث أمسك ذراعها بقوة غريبة، فجحظت عينا إيف من الدهشة، وقبل أن تتحدث بصريخ هاجمها بانحنائه طفيفة زافرًا الهواء بحرارة على وجهها:

ـ أنا أحبكِ.



# الفصل الرابع

ـ أحبكِ.

ترددت بالأجواء ثانية وهو يتأملها وهي فاغرة فاها فاقدة للنطق، يتأمل رفعة حاجبيها لأعلى وعيونها الزبرجدية الشفافة التي يطل من انعكاسهما بريقٌ مظلم.

ـ ماذا تقول؟

تحدثت باهتزاز في محاولة للتحرر من قبضته، مُستعيدة عقلها الدائر منذ قليل لتردف بصريخ:

ـ اتركني وإلا جعلتك تندم على هذا، واذهب بتفاهاتك وهراءك بعيدًا.

ـ أتجعليني أندم وأنا غارق بحبكِ؟!

أجابها ببضع كلمات غريبة جعلت الحديث ينحشر بحنجرتها، فأردف وهو يحرك شعرة وقعت على جبينها سهوة:

ـ هذا الأمر جنوني بالتأكيد، ولكن أنا لا أكف عن التفكير بكِ، وكأن الكون ومشكلاته الكبرى أصبح أنتِ، وكأنني أسيركِ، ولهذا أشعر بأنني معجب بكِ.

وانتفضت مُبتعدة كأن مستها الكهرباء، كيف يجرؤ على التغزل بها؟!

وكيف هي عاجزة عن الرد عليه؟!

أخرستها الكلمة وذكرتها بلقاء عاصف مليء بالشوق وقلة الحيلة، وفي آخره غضب.

ـ أهربي ولا تراسليني حتى لا يعرف بمكانكِ عن طريقي وأكون سبب أذيتكِ. أنتِ الآن حرة منه.

عيونها مُشبعة باللون الأحمر حد الثمالة، ودموعها تجري على وجنتيها حد التمزق، صراخٌ صامت يقطع نياط القلب بداخلها، وأشعه الشمس الغاربة تلامس خلايا جسدها المرقع بالكدمات الزرقاء، وهي واقفة تتطلع بوجهه بدون كلمة.

أمسك يدها ووضعها على قلبه، ومسح بالأخرى الدم على شفاهها المتورمة، وأنهار الدموع الغريرة على وجنتيها الباهتة. استجمعت شجاعتها لتتحدث:

ـ اهرب معي، لا تتركني بمفردي بالحياة، إن ابتعدتُ عنك سأموت. أحبك إيزرا.

وكان الرد هو الضم.، حيث في أحضانه الملاذ، فهو ملاذها وقت أن ضاقت عليها الأرض بما رحبت. قبَّل رأسها وتنفس بوجع قبل أن يتحدث:

ـ وأنا بكل حروف وعدد لغات العالم أحبكِ، ولكن لا يمكنني ترك رؤيين أو شموئيل بمفردهما، فهذا يعد أنانية، لا بد أن أظل هنا وأنتِ تعلمين لمَ.

ـ أتفضلهما عليّ؟ وتقول أنانية! إنك بكل الأحوال أناني.

وكلما حاولت الابتعاد لضربه كان هو يزيد في احتضانها ليتمزق كل شعور بالحركة، وتستكين بقلة حيلة.

ـ أنتِ أغلى شيء بحياتي، لا تظني عكس هذا، أنا أريد البقاء رغم أنفي هنا، لأحميكِ وأحميهم.

واجهشت بالبكاء وغرزت بأظافرها قدر استطاعتها فيه:

ـ أنا أحبك إيزرا، كن معي، لا تتركني.

ـ لا مزيد من الكلمات التي تستنزف بداخلنا الروح. كيف يمكنني أن أكون معكِ بدون ضمان بأن رحيلي لن يسبب أذى لأي شخص؟!

أغمضت عينيها مُتنفسة رائحة الكولونيا المنسلة خلسة من طيات ملابسه، وحركت شفتيها بارتعاش:

ـ أعطني ذكرى منك تعينني على الاستمرار بالحياة، أعطني لمحة منك، قبلة، أتوسل إليك إيزرا، لا ترفض هذا الطلب.

كان يمسد بيديه العاريتين المنبتة حديثًا بالشعر ظهرها ورأسها، وفور سماعه حديثها توقف مُبتعدًا:

ـ لا أستطيع، لا يمكنني خدش براءتكِ، إنكِ بالثانية عشر عامًا، كيف تطلبين مني هذا الطلب؟!

لو أنه عرف لمَا توقف لثانية معها.

ابتسمت والدموع تغرق وجنتيها، ثم ما لبث أن تحول وجهها بثوانٍ لصراخٍ حاد وبكاء هستيري لم يسكن إلا بأحضانه، ولبرهة أنسلت من شفاهها حكاية بشعة بقول مهترئ وغير مفهوم.

ـ لقد اقتلع البراءة من داخلي إيزرا.

حاول الابتعاد عنها ليستفهم، ولكنها كانت تتشبث به بقوة كالغريق الذي يتشبث بطوق النجاة، وتحدثت برجاء قاتل:

ـ بحق حبك لي فقط قبلة تمحي ما دُمر!

لحظة الوداع والإفصاح عن المكنونات المطمورة بالنفس لحظة قاتلة، كمن مرر على عنقك سكينًا باردًا. لأول مرة ينطق بكلمة أحبكِ ووقت الوداع، شعورها بأنها محبوبة كأنثى قُتل بلحظة. هذا المكان الذي شهد بقاؤهما بكنف السلام والعشق يشهد وداعهما، اللحظة الوحيدة والأخيرة بحياتهما، وبعدها ستلقى للمجهول الذي لا تعلمه.

انحني ليستجيب لرغبة كانت بأعماقه وتنفيذًا لطلب عزيزة قلبه، وقبل أن يصطدم شفتيه بشفتيها اعتدل ليطبع القبلة على وجنتها قائلاً:

ـ سأكون معكِ بقلبكِ عزيزتي، سأرشدكِ وأحميكِ وأكون معكِ عندما تحتاجيني في أحلك أوقات حياتكِ، وداعًا يا قصة حبي، لِهيتْرَؤوت ليخ لِيشلوم (**إلى اللقاء ومع السلامة**).

كل شيء تم بلمحة بصر، لم يعد إيزرا موجودًا.

وضعت يديها على وجنتيها للتأكد من أنه لمسها هنا، رأته مبتعدًا يركض بالاتجاه الذي تعلم بأنه خطأ، نظرت ليديها المنبسطة في الخواء متعجبة، لقد كان هنا ورحل هاربًا بروحها!

دفنت رأسها بين راحة يدها وهزتها رافضة الفكرة، ثم اغرورقت عيونها بالدموع وركضت بدربها بلا هدى.

حدقت بالرجل العربي الوقح الواقف قبالتها يتبسّم بنصف ابتسامة وكأنه واثق من إحرازه الهدف بشباكها بترديده أروع وأجمل كلمة يمكن من خلالها أن تخر المرأة صريعة، ولكن ليست إيف أو إيفت، لا اختلاف بالاسم سوى حرف، ولكن الفرق بينهما شاسع.

ولكن يقول أحبكِ بعد أن أعلنت وبوضوح أنها إسرائيلية؟! ما المتغير وما الذي يخبئه بجعبته؟! أيحاول معرفه جنسيتها الحقيقية بهذه الطريقة؟! هل يظنها غبية يتغزل بها فلن تستطيع الصمود أمام جاذبيته وستخبره بأنها إسرائيلية للجذور؟!

ما هذه التمثيلية الساخرة التي لا يستطيع أن يصدقها طفل صغير؟! إنه عربي كالأفعى بتلك القصة العبرية المسماة «**البدو الرحل والأفعى**» والتي سمعتها وهي صغيرة، غير أنها كالبطلة

ستفضل الهرب واللدغ من الأفعى على الانجذاب، وبخاصة لعربي لعين.

ابتسمت بدورها نصف ابتسامة مُفكرة بضرورة قتل كبرياءه:

ـ لم أكن أعلم بأن تأثيري مدمر للمشاعر حد أن تتمسح بيّ كالجرو، إذا كنت تحبني فكن خاتمًا بإصبعي أحركك مثلما أريد، إذا تحبني فقبل يدي كما السيد وتابعه الصعلوك، أو نقول الشحاذ المتسول للحسنة وسيدته.

ومدت يدها نحوه باستعلاء مُفكرة بأن العرب بطبعهم دمائهم حارة، لا يحبذون من يسيئ لهم بأي شكل من الأشكال، ولكن ردها طبيعي نابع بالفطرة، ربما لشعورها بوجوب الكراهية والبغضاء بين عرقها وعرقهم، أو شعورها بأنها متفوقة عنهم.

أشار أمير بسبابته نحوها وهو ينفث الهواء بغضب:

ـ لن أسمح لأي شخص حتى لو كان من أحب أن يهينني، أنا أمير خان الخليلي كله، ولست صعلوكًا.

شهقت ساخرة:

ـ وأنت تظن أن بإمكانك اللعب بي وقتما تريد، ولكن ببساطة حورية غير مُتاحة لأي شخص.

هز رأسه بلا مبالاة:

ـ موقفك العدواني استنتاجه شيء واحد فقط، وهو أنكِ خائفة من الوقوع بحبي، فكل فتاة قابلتها كانت تخاف من وسامتي.

إجابته أفقدتها الهدوء، فضحكت بصوت مرتفع، وما إن هدأت:

ـ إنك أكثر العرب غرورًا، أخاف منك أنت؟ المصري؟ أغبي البشر؟!

غمز بعيونه قائلًا باستخفاف:

ـ دعكِ من السباب واعترفي بعدم مقدرة قلبكِ على تحمل طاقة الحب المتمثلة فيّ أنا.

إنه يشع تعجرفًا!

أشارت بيدها في الهواء مُستديرة صوب الدكان:

ـ أغرب عن وجهي أيها البغيض.

كادت أن تنحني لتفتح الدكان بالمفاتيح لولا أنها جذبت من يديها وأُلصقت بجدار الدكان، وكان ذلك الفج يحاصرها بجسده.

لحظات من الرعب أغارات عليها فور أن رأت عيونه تقدح شرارًا ويصطك بأسنانه الجلية وكأنه يمنع نفسه عن تمزيقها، جال بعقلها سيناريوهات قديمة عن خوفها واقترابها منهم، ومشاعر محمومة تُذكرها بإيزرا.

كيف أصبح الآن شكله يا ترى؟!، هل أصبح شابًا مثله؟!

وبتلك اللحظة تذكرت مقولة جدها:

«**العرب كالحشرات السامة، يتنظرون الفرصة لينقضوا علينا طالما بهم جزء حيّ يتنفس، لهذا علينا أن نقتلع جذورهم من الأرض.**»

حركت ركبتها لتخبطه، فتأوه بعيدًا وهو يشتم ويصرخ:

ـ يا غبيةِ، لِمَ فعلتِ هذا؟!

فور أن رأته يتقوس هكذا ويقفز في مكانه حتى انفجرت بنوبة من الضحك، سرعان ما تلاشت فور أن تذكرت منذ أمد بعيد لم تشعر بأن من الممكن أن يكون السبب في ضحكتها رجل وعربي!

أشارت مُتوعدة:

ـ إن اقتربت مني مجددًا فسأذيقك ضربًا موجعًا، اتركني وشأني.

كان يحدق بها وهي تتلون كما الحرباء، تارة بلون جميل، ساحر، ساطع الألوان، وتارة أخرى بلون أكثر غموضًا وظلامًا، مُستغرقًا في التفكير بفترة من الصمت خيمت بينهما، كأن كل منهما يعيد حساباته فيما يدافع وفيما يتحدث، ثم أخرج بضعه نقود من محفظته الجلدية:

ـ أراهنكِ بعشرين جنيهًا على أنكِ من سيقترب مني!

«**يا له من مغرور تافه! أيظن الحب لعبة في نظره؟ لقنيه درسًا واقبلي التحدي إيف.**»

استغل فترة صمتها ودهشتها ليُردف بتحدٍ:

ـ هل سترفضين لأنك ستخسرين؟!

ـ أحذرك، إن قبلت بهذا الاتفاق فسأدمرك لوقاحتك تلك.

رفعت ذقنها لأعلى بسمو وفخر، تحاول أن تثبت أمامه بأنه إذا كان هو هكذا فهي ملكة الغرور. غير أن ذلك المشهد المتوج بلمحات القوة لم يصدقه أمير، فهي لن تقدر على مضاهاة عقله وحيلته، فتحدث بسخرية:

ـ أووه! أنا أترعد خوفًا، هي مجرد كلمة واحدة نعم أو لا، دعكِ من التهديدات.

ضمت يدها بشدة وأخذت نفسًا عميقًا لتهدئ به حالها حتى لا توجه له لكمة:

ـ موافقة، لأثبت لك بأنك معتوه وتعيش بخرافات خيالية.

ـ سنتقابل لمدة ثلاثين يوم بلا انقطاع في أي مكان وبأي وقت.

كيف تنجرف لمثل هذا الأمر المهين؟! أتريد إرجاع أمجاد الماضي القذر بالسماح له باستغلالها بأبشع الطرق؟!

ـ المدة تبدأ من الغد ليس الآن، دعني وشأني.

ـ فلنتصافح، المصافحة تعني وعد.

وفور أن لمست يده حتى جذبها نحوه مُردفًا بدفء:

ـ الكلمات تخونني لوصفكِ؛ أحبكِ جدًا وجدًا، وأرفض من نار حبكِ أن أستقيلَ. بانتظاركِ في الموعد.

أفلتها وهو يقهقه ضاحكًا مبتعدًا لدكانه رافعًا يديه لأعلى في إشارة بالاستسلام وتركها بحالها. فهزت رأسها عجبًا منه ثم فتحت باب الدكان، وبدأت بترتيب بضاعتهم المطمورة في الغبار، والتي لم يدخل عليها أنسي منذ أكثر من سنة، مُفكرة بالرهان وعن مقدرتها في التفوق على ذلك الغبي، وبالتأكيد ستفعل؛ فهي الحية إيفت.



الحارات الضيقة يتخللها روائح مصرية فواحة، نرى فيها الصغار يلعبون الكرة، والسيدات بالشرفات ينشرون الغسيل الذى يغرق طرقاتها، وجاؤون يسأل عن بيت إليعاز أو عبد القدوس ،والإجابة دائمًا:

«**لا أعرف، أنا جديد في المكان، لاوجود لمثل هذا الاسم هنا**».

ويوسف جواره تعبٌ ومُرهق وغضب وربما فرح، شعوره غير مفهوم، من أقوال أبيه عن مصرايم (**مصر بالعبرية**)، استوطنت بذرة رؤيتها بفؤاده، غير أن الحب الأكبر – حب الرؤية والوجود – لتل أيفيف (**تل أبيب**) بإسرائيل.

ـ لماذا تصر على معرفة مكان إليعاز هذا يا أبتِ؟ هذه الحارة الثالثة لهذا الأسبوع دون جدوى!

ـ إنهم أعمامي الذين تركتهم منذ حرب أكتوبر، ولا بد من معرفة مكانهم.

ـ أتعلم أبي، أنت تشعر بأنك ذو مكان هنا بوجود عائلتك، ولكن لست وحدك بهذا الشعور، أنا أشعر أيضًا بمكاني، في إسرائيل.

ـ قلت لك لا عودة لنا لإسرائيل، لن أسمح بأن يخربوك بني، إنهم لعناء، أنت لا تحب أن تكون منهم، من كاهانا.

ـ ولكن دمائي دماء كاهانا.

ـ لن أكرر كلامي، لقد أنهيت كل ما بإسرائيل، وهنا أعيد وصل جسور عائلتي المفقودة بعد أن ضاق بي الحال في التجوال خارج بلدي. اسمعني بني، كل ما يربطنا هناك لم يعد موجودًا بموت ماجي أأ...

ـ أبتِ لا تكمل.

قالها يوسف بحدة حتى لا يبكى، إنه إسرائيلي وجندي شجاع لا يعرف العواطف ودفع بأبيه وبكلمات جافة أردف مشيرًا لشيخ عربي جالس على دكة خشبية:

ـ لنسأل هذا الرجل، مساء الخير.

ـ مساء الخير، أي خدمة أستطيع تقديمها لكما أيها السيدان؟

ـ نحن نسأل منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، لا أعرف المكان بالتحديد فقد تغير الكثير، ولكن هل تعرف عائلة عبد القدوس أو بيت السيد علي أكرم زهدي؟

كان يوسف يحدق بغباء مطلق لأبيه عن الاسم الأخير الذي قاله، أهو مصري عربي أم مصري يهودي؟! ما هذا الاسم الجديد الذي جاء في لحظة مفاجئة؟!

ـ وماذا تريد منهما؟

ـ هل تعرف منزلهما؟

ـ أعرف منزل السيد علي، ولكن من أنت؟

ـ صديق قديم.

أشار الرجل صوب اليمين حيث بيت متهالك بشروخ عملاقة، يبدو وكأنه على وشك الانهيار:

ـ إنه يسكن بهذا المنزل.

أمسك جاؤون ذراع يوسف وقال مُندفعًا:

ـ شكرًا جزيلًا، هيا يوسف.

ـ من علي هذا يا أبتِ؟!

ـ صديقي المصري.

وانطلق الرجلان نحو صفحة من ماضٍ قيم وقد حان وقت المواجهة المُرتقبة، بأمل أن تكن السنين غيرته كما غيرت عبد القدوس تمامًا.



تتلفت حولها بحذر، تتبع الإجراءات المُلزمة عند وصولها، حجابًا تضعه للتمويه ويخفي شعرها النحاسي وديانتها، فلن يفتشها

أحد حتى يرى الصليب على يديها مثلًا أو يعبث في حقيبتها ليعلم أنها مسيحية من كتاب الإنجيل بها!

وصلت لأحد المنازل وبدأت بالدق على الباب بعصبية وهي لا تزال تحملق في البشر بشيءٍ من الخوف، وتتأكد من أن نظارتها الشمسية مثبتة على وجهها بإحكام، همست بخفوت:

ـ كيرلس، افتح، أنا ريتشيل.

فتح الباب بشيءٍ من الحذر وصوت خفيض:

ـ هل معكِ أحد؟

ـ إنني بمفردي.

فتح الباب على مصراعيه لتدخل، ونزعت النظارة والحجاب بسرعة شاعرة بالتقزز منه. دخلت بقدميها للمكان الشبيه بكنيسة مُصغرة، وجدت عجوزًا ترتدي خمارًا أسود كبير على رأسها، ويبدو عليها بأنها راهبة، التفتت نحوها مُبتسمة بتودد:

ـ مرحبا بكِ بيننا، تقدمي فلن أعضكِ.

وارتمت ريتشيل بأحضانها على الفور لتربت على رأسها مُردفة:

ـ الأخ كيرلس حكي لي عن مدى إيمانك القوي بالمسيح.

وانسابت دمعة خفيفة لتذكرها حضن أمها الدافئ والراحل، فتمالكت نفسها مُبتعدة لتجيب باقتضاب:

ـ شكرًا جزيلًا، وأنا أحببت أن أنضم إليكم في ذلك التنظيم.

ـ هي جمعية محبة المسيح لا تنظيم، نحن نهدف لمواجهة المسلمين المتعصبين حفاظًا على المسيحين من الاضطهاد، وخاصة بعد وصولهم لسدة الحكم، هدفنا وصول أصوات الأقباط الحقيقية لوسائل الإعلام، وكشف حقيقة المسلمين.

وريتشيل تستمع بأذن مرهفة حديث الأخت مريم عن الجمعية، موقنة بأنها تورط نفسها بأمر لا يعنيها، ولكن الأمر مختلف؛ فإرادة المسيح والرب لا بد من تنفيذها حتى لو كان الأمر يصل لحد القتل!



زفرت إيف الهواء بعصبية، وأغلقت المتجر بعد عناء واقتناع بأن جاؤون ويوسف لن يحضرا، وذهبت رامقة بغيظ الشخص الذي يتبعها وينظر لتمايل خصلات شعرها الأصفر يمينًا ويسارًا مع نسمات الهواء.

الحياة بمصرايم تشبه المطاط، تكون شديدة الصعوبة وفي نفس الوقت لينة.

وصلت إلى المنزل، وقبل أن تدخل كان أمير يحتجزها مُجددًا بين ذراعيه، فهتفت صارخة:

ـ لا تلمسني وإلا فسأصرخ...

تلاعبت شبه ابتسامة ساحرة على ثغره:

- ومن قال أنني مهتم بما ستفعلينه؟ أنا أنفذ شروط اتفاقنا الآن.
- قلت غدًا.
- لا تكوني جبانة.
- لست جبانة، وأنا مستعدة لتلقينك درسًا في الأخلاق.

نفث الهواء بسخرية قائلًا:

- أنا سأكون في السطح أنتظر تلقيني الدرس، فأثبتِ هذا.

وتحرك مُبتعدًا فتحركت لتلحق للمجهول بقدميها، لا تعلم لما هي تفعل هذا، أهي محاولة لفهم ما الذي يخبئه؟! وهل يقتضي ذلك الفهم بأن تصعد للسطح وتريه؟!

وفي السطح، الشمس غاربة بكبد السماء بمشهد أثار بنفسها الكآبة والصمت، ووجدت على يمينها حظيرة صغيرة متهالكة، وعلى اليسار ذلك الكائن المهيب رافعًا ذراعيه ليطير الطائرات الورقية ونسمات الهواء تلاعب شعره البني، كأنه منحوتة حجرية فائقة الجمال، تحدق به بثبات مُتخيلة لو كان هذا إيزرا، ربما يعادله في نفس العمر.

شعرت وهي تتحرك نحوه بأنها مثل الطائرة الورقية، يسحبها بقوة عنيدة نحوه حتى ضمن أنها في يديه، وإن أحب ستكون بين ذراعيه بلا مقاومة بالتأكيد. لقد صدقت توقعاته، إنها لا تسيطر على رغبات إيفت، إيفت كانت تعشق امتصاص رحيق الحب من بين شفاه الرجال.

نظر أمير إلى طائرته الورقية مُبتسمًا بخجل:

ـ الطائرات الورقية وسيلتي للهروب من واقعي، هذا سري الرهيب الذى أحببت أن تشاركيني إياه، أحب أن أعرفكِ على عالمي، كما أود أن.. أراكِ جيدًا.

ـ لكل منا عادة سرية يخفيها عن الآخرين، وهي بشكل ما تكسبنا سعادة خاصة.

أجابته بنفس البساطة والتلقائية وهي تتبسم بحنو، وساد صمت بينهما لفترة قطعها أمير بالحديث:

ـ وأنتِ ما هي عادتكِ السرية؟

كلمة صغيرة ولكن ذكرتها ببشاعة الماضي وصرخاتها، هزت رأسها بالنفي مُتمتمة باقتضاب:

ـ ليس لدي سر.

قال برجاء وهو يومئ رأسه بابتسامة مؤدبة:

ـ من المؤكد أنكِ تحبين فعل شيء بعيدًا عن أعين الناس.

عاود الألم ليتشكل في شكل صداع رهيب يتشح بالذكريات المليئة بالصراخ والهمسات الساخرة، أجابته بهمهمة بسيطة وهي تفتح زرائر قميصها علها تتنفس بعد أن شعرت بالاختناق:

ـ لا شيء.. آآه.

ـ ماذا بكِ؟

تحدث وهو يبلع ريقه بصعوبة مُتنقلًا ببصره بها بطريقة فجة، أما عنها فبدأت تترنح قائلة:

ـ ألم برأسي لا يُطاق.

بدأ في التنفس بتوتر حينما بدأ الشيطان يلعب بعقله ويجعله يزيح ما تبقى من قميصها، جل اهتمامه في تلك الثانية من التعقل والشيطان، هو ذلك الجسد، كم يود بكل جوارحه الهروب، وكم يود إبليسه استكشافه ومعرفة كل خباياه الكامنة قبل الظاهرة، وبخاصة تلك الندبة الغامقة المُتحركة بصدرها:

ـ إحم، دعيني أساعدكِ.

نظر نحو عيونها الماسية وهي تدور في دوامة غير محددة الاتجاه، وشفاهها الوردية جعلته يفكر بشيطانية، ولمح من بعيد تلك الغرفة التي بناها لأجل الحمام، وفتح بابها وبداخله رغبات كثيرة يؤججها إبليس بالاتفاق مع يده كلما أحس بملمس بشرتها الباهتة.

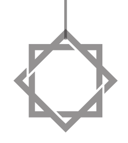


بدأت زينب في إخراج الملابس من المغسلة بفرح، لقد ذهب أخيها، أحيانًا تضايقها فكرة أن تتمنى السوء لأخيها، ولكن هذا أفضل من أن تتمنى لنفسها الموت؛ فالحل الأفضل إما أن تموت هي ويعيش هو، أو يموت هو وتعيش هي، فلن تستمر الحياة بوجودهما فيها سويًا.

ابتسمت ابتسامة خفيفة وعدلت المنديل المقيد لحركة شعرها الأسود الفاحم، ثم انطلقت نحو السطح كي تتابع ابن الجيران بعشق ووله وهو يطير الطائرات الورقية. أميرها وفارسها النقي، ومخلِّصها من هذا العذاب الأبدي، تتمنى شيئين بالحياة، أن تكون زوجة تحت حماية أي رجل، والثاني أن يكون هو.

لمحت بعيونها ذات الأحداق العسلية المائلة للبني الداكن فارسها ومخلصها يقف على باب تلك الحظيرة، ووجهه مرتبكًا يقطر بحبات العرق. شهقت زينب في صدمة حيث رأت فتاة متقوقسة بالأرض، وعيونها تحكي رعبًا يسيل من جسدها العاري. وبهذا اهتزت صورة الحامي والبطل المغوار لتفقد الأمل بلحظة الالتقاء، ويبقى جزءٌ صغيرٌ ضئيلٌ متعلقٌ بنظرة أمير وكأنه يقل:

ـ لست وحدكِ من قتل بداخله روح الأمل والفارس والإنسان.



# الفصل الخامس

محمود يجاهد نفسه مُتظاهرًا بالانصياع لكلمات ابنه عن جيرانهم الجدد القادمين من الجحيم. ما المانع عن طرد عائلة هذا الوغد وتمزيقه كل ممزق؟ ما الذى منعه عن مواجهتهم مرة أخرى؟! ولمَ يتلجأ لشقة مايكل الخاوية صباحًا؟!

المانع والقاتل له هو ذلك الكرسي اللعين.

ضغط بأنامله الخشنة على ذلك الكيان المعدني الذى انصهر منه وانصهر فيه ل ٣٩ سنة. «**الكاذب لا بد أن يدفع ثمن كذبه.**» وهو دفع كثيرًا دون أن ينتهي الحساب طالما العمر باقِ.

مد أنامله خلف ظهره حيث الشظية التي تسببت بها الحرب التي دخلها سليمًا معافى لا يتعدى السابعة عشر وخرج منها مشلولًا، زور العديد من الوثائق كي يضمن دخوله للجيش بعمر كاذب يُدعى ثلاثة وعشرون، والنهاية لتلك الحكاية انفجار بالقرب منه واصطدام عنيف بجسده على الأرض، وفقدانه

الدم والجسد والأصدقاء وبآخر القائمة روحه، وكسب الحرب والكرسي المُتحركِ.



ضي النجوم البيضاء المنسلة عبر الخشب التالف يضايق عيونها الزرقاء، إنها خامدة بشكل غريب، تستمع لألحان تلك النجوم وهي تلامس بشرتها لتمنحها السكينة والرضا، تذكرها بحال تلك الطفلة الصغيرة الراقدة بكفون الظلام والصارخة برجاء وبعبرية:

ـ أنا آسفة أبتِ.

ظلت تخبط بعزم وبقوة في ذلك السد الأسود المشيد أمام ناظريها، والمكان هنا مخيف وبارد.

شعرها مشعث وثيابها رثة متسخة، اليوم بالنسبة لها غير معلوم، فهو ليل طويل لا ينتهي.

تراجعت للوراء بخوف فور أن فُتح الباب لتهمس بعبرية:

ـ لا تتركني بمفردي من فضلك.

وأكملت جملتها بالعديد من الاعتذارات، ولكن ردًا جامدًا جعل فرائصها ترتعد:

ـ تناولي طعامك.

وأعقب الصوت أزيز اصطدام إناء بالأرض، كان قويًا بما يكفي لأن يضايق أذنها الضعيفة، وبعدها أردف بغلظة:

- بسرعة.

والصرخة جعلتها تنتفض بجلستها وتسرع في التهام الطبق متحملة مذاقه البشع وألم احتراق أناملها وحلقها بسبب سخونته.

تنفسها كان شبه طبيعي، شعورها بأنها واعية شبه حقيقي، ما يضايقها تلك الرائحة الرجولية التي تخنقها وتجلدها بسياط الضعف والرغبة.

۞

- توقف عن التحديق بالزجاج يا محمود وحاول مساعدتي بشيء.

صُعق بمكانه لحديث إنعام وكأنه قد كُوي بالنار أو بالكهرباء، تحادثه عن المساعدة وهو عاجز؟! لا تكف عن تذكيره بعاهته حتى تقتل روحه.

- ابتعد بكرسيك عن السجاد، لقد قمت بتنظيف الشقة أمس واليوم ولم يتبقى لي سوى تلك الغرفة، هيا.

دون كلمة دفع بيديه الضخمتين الكرسي لتحمل السجاد خارج الغرفة، وبعد هنيهة تحدث بصوت جهوري:

- إنعام، هل التقيتِ بعائشة؟

وجاءه صوتها مُجيبًا:

- كنت مشغولة بالبيت ولم أرَها، ولكن سأزورها بعد أن أنتهي.

زفر محمود الهواء بضيق ويأس ليلقِ بجملته الأخيرة بوجهها:

ـ لقد باعت عائشة البيت والمتجر وذهبت.

ـ بالتأكيد مزحة منك، ففي آخر لقاء بيننا تحدثنا عن الحياة وقلة الرزق وقاتل عوض الذى يمشي فرحًا مغتالًا دون عقاب، وأنها تسعى لتوفير المال لعمر لإنشاء عمله الخاص، وخاصة أنه رافض العمل بالخان ويود السفر، تعلم كلام النساء.

زفر محمود الهواء بإحباط، لا شيء مهم في حديثها، وعقله ينسج حكايات جائرة على الحق من أن الإسرائيليين قاموا بقتل عائشة ودفنوهم بالشقة؛ ففي عُرفه كل يهوديّ سفاح بالفطرة.

الحزن يملأ خوالجه، وكل شيء دمر كيانه، مقتل أبيه، بليغ، الحرب، الكرسي، حتى أنعام.

وكله بسبب اليهود، سواء كانوا ملة أو أشخاص، فما الفارق بين اليهودي والصهيوني؟ كلهم بلا استثناء بعُرفه قتلة والتاريخ هو الشاهد، وأوصلوا الجميع لعدم استحالة العيش معهم بسلام. يقينًا يعلم بأن كراهيته العمياء لا تجعله أفضل منهم، ولكن على الأقل تقيه شر نفسه.

هزته أنعام برفق، فلقد كان يتابع حديثها بنصف مخ:

ـ أين شرد عقلك؟

وبنظرة خاوية وعقل مُثقل بالأسئلة أجاب:

ـ ها! لقد كنت أفكر في الجيران الجدد.

ـ ألم تسمعني أتحدث؟!، قلت أنها لم تفعل شيئًا سوى الحديث.

صرخ بها وهو يشد على كرسيه المعدني:

ـ وأنتِ لم تسمعي ما قلت؟ لقد رحلت، ألا تفهمين؟! لا تتجرأي وتدقي باب هذا المنزل، فلا شيء فيه سوى مجموعة من الأوغاد الإس... أتركيني أنعام، لقد.. من فضلك أتركيني.

صرخ بوجهها مُجددًا، والأدهى أنه لم يتحمل لمستها وابتعد فور أن انتهي من كلماته. أخرسها قليلًا أذان العشاء الذي يعقبه أحيانًا مجيء أمير، وبعده تحدثت بنبرة باردة باقتضاب:

ـ ذاهبة لأصلي العشاء.

أومأ محمود برأسه وأدار كرسيه بعيدًا، بينما هي راقبت موقفه الجامد الصلف كالعادة بعينين دامعتين، تعلم بأنه غير مقتنع بحياتهم وتشكيكه الدائم بحبها أصابها باليأس، فلم تحاول فتح الملفات القديمة حتى لا تصاب بجروح جديدة تُضاف لقائمة جروحها على مر الزمن؛ لذا تتصنَّع البسمة ودور الزوجة السعيدة للرمق الأخير، وكل هذا ضريبة وفدية للحياة المثالية لأمير.

توضأت وأخذت سجادة الصلاة، وقبل أن تصلي دخل أمير للمنزل وقد كان صامتًا ونظرته غريبة ووجهه شاحب وهيئته غير مرتبة، ويسير منكس الرأس وهو يدلف لغرفته قائلًا باقتضاب:

ـ مساء الخير، أنا سأنام فلستُ جائعًا.

وأغلق الباب خلفه حتى لا تسأله أمه، فهو الآن بمرحلة انهيار بعد تماديه باللعب مع تلك الفتاة، كل ما يتردد بعقله مذاق شفاهها والندبة العملاقة بصدرها، وحالة الجمود التي أصابتها، وما زاد الأمر بلة زينب، نظرة عيونها واندهاشها أصابته بالوتين.

وضع يديه على رأسه مُغمغمًا بضيق:

ـ لم تحسب حساب خسارتك أنت يا أمير!



رائحة الطيب تتنفس بالمسجد الطاهر، الثياب البيضاء والركوع والبكاء بخشوع أحد سماته، وفي أحد أركانه يجلس شيخًا وأمامه مجموعة من الشباب وقلوبهم مليئة ببقعٍ سوداء تتصاعد بكل نفسٍ يأخذوه.

وبعد دقائقٍ دلف شهاب للمجلس ليجلس جوارهم قائًلا:

ـ السلام عليكم ورحمة الله، وتقبل الله صلاتك يا مولانا.

اهتز الشيخ ذو اللحية البيضاء والجلباب الأسود يمينًا ويسارًا مُسبحًا بمسبحته الصغيرة بصوت خفيض ببعض الأذكار. الشيخ الإمام حمزة الصديق والمعروف باسم الأمير، صاحب وقائد إحدى المجموعات الإسلامية، ابتسم بمودة مُتحدثًا:

ـ مرحبًا بك أخي شهاب بيننا، لمَ لم تصلي معنا العشاء؟

ارتبك مُفكرًا في سبب تأخره، مراقبة تلك الفاتنة المغرية التي لم يجد أحدًا بمثل تفاصيلها الرشيقة الجميلة. هز رأسه وتنحنح مُصححًا أفكاره المُلتوية:

ـ لقد سبقتكم عندما حل العشاء عليّ بالطريق، فصليته بأحد المساجد القريبة من هنا.

أومأ الشيخ برأسه بإعجاب لشهاب المُنتمي لهم منذ فترة وجيزة، ولكنه متعلم بارع فطن ويطبق الشريعة بالخان، وسيعرف كيف يستخدمه كمن سبقوه.

ـ تقبل الله منك وقوى إيمانك يا أخ شهاب.

وابتسم شهاب لتصديقه عذره، وعقله يسافر لجدائل الفتاة الذهبية ولقدها، وعن ما سيفعله معها إن كانت زوجته.

ـ سأتلو عليكم بضع آيات الذكر الحكيم وتفسيرها.

صوت الأمير أفاق شهاب من تخيلاته ليقطع حديثه:

ـ يا مولانا، لقد جهر أحدهم بالمعصية.

انكمشت ملامحه، وانعقد حاجبيه الكثيفان اللذان يتوسطهما زبيبة الصلاة الكبيرة، وبدأ يفرك لحيته بعصبية:

ـ من الذي جهر بالمعصية؟

ـ عمر، وهذه المرة لدي الدليل.

وفور نطق الاسم حتى أضرمت نار الحقد ورفيقه الأزلي الغضب بنفوس المحيطين، وصدرت همهمات مخيفة عن الفتك به، فأشار الشيخ بالصمت وتحدث باهتمام:

ـ أخبرني وبالتفصيل.



دق جاؤون الباب بنفاذ صبر وبعصبية، ليُفتح وتطل سيدة عجوز ترتدي جلبابًا مزركشًا واسعًا وغطاء رأس كبير ليهتف بفرحة:

ـ هل السيد علي أكرم زهدي موجود؟ أنا صديق قديم.

تحدثت السيدة وهي تتبسم، وقالت بحنو وغنج:

ـ موجود، تفضلوا بالدخول.

نظر يوسف باشمئزاز إلى البيت المزري، فالأريكة حشوها قد أكله السوس، وخلفها حائط باهت أصفر اللون به شرخ عملاق. هراء جاؤون هذا يصيبه بالملل، ولكن وفقًا لتعليماتهم عليه أن يجد كل أسرار هذه البلد وأهلها.

حادثته السيدة قائلة بمودة:

ـ اجلس بني لترتاح من السلم العال.

أشار يوسف بثبات وبهدوء بارد أجاب:

ـ أنا مرتاح هكذا.

زمت السيدة شفاهها بلا مبالاة:

ـ كما تحب، هل يمكنني أن أعرف من يريده؟

وانحشرت الكلمات بحلق جاؤون، يحاول تلخيص سنوات الفراق عن موطنه مصرايم بحروف، عاش لفترة بإسرائيل، ولكن ولاءه لم يكن إلا هنا، بنيلها الأزرق الصافي، بمروجها الخضراء اليانعة وعظمة وشموخ أهراماتها، الحب الوهاج لفجرها وأزقتها وبائعيها، الكثير من الأشياء، والقليل من الكلمات، ليقل عبد القدوس أشعاره في حبها، وينهض من ولادة مُتعثرة هنا، وينتهى دور جاؤون باخوم السفارديم الجوبييم الحقير كما كانوا ينعتوه هناك.

ـ قولي له صديقه العائد من أهوال الغربة عاد للوطن.

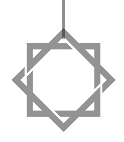
ـ من دق الباب؟ إن كان فتحي فأخبريه بأنني...

وعليّ خرج من غرفته حينما نطق تلك الكلمات، وقد شمر عن ساعديه مُستعدًا للوضوء، وتخل صوته عنه عندما ضاقت عيناه باستغراب التحقق مما يراه، هل هو رفيق الدرب المكروه والمحبوب؟! وكل ما جل بعقله بهذه اللحظة هو جملة واحدة:

ـ عبد القدوس!

وترقرقت العيون بالمحاجر فرحة للقاء وهمسة دافئة انطلقت من صدره:

ـ علوي، إنه أنا... صديقك اليهودي.



# الفصل السادس

الألم محبوس ولا يخرج، ضلوعها تتكسر مع أنها لم تسقط، والعيون تتذكر وتملأ كل المشاهد الناقصة، شفاهها ترتعش بقوة تغسلهما الدموع، النفس يتمزق بكل شهقة وزفرة، وجع يتسلل بالأوردة ليضعف القلب المُتكسر، تتحرك بصمت ثقيل لغرفتها، حبيبها المخلص والمُخلص خائن. ومنذ متى كان حبيبًا؟ فلم يصرح بها، أخبرها فقط ذات مرة أنه قلق ومهتم لأمرها، فهل العشق اهتمام أم تصريح؟!

كل هذه تهيؤات يا زينب، إنه لا يحبكِ.

الخلاص والحمى من قسوة الأخ ليس إلا ذكرى للأمل وقد مات للتو، ولتحل ذكرى وجوده بأحضان أخرى بعقلكِ، كل أيام الانتظار والأمل في النجاة من البطش تبخرت، فلا انتظار ولا نجاة.

ـ أين المفر يا ربي من هذا العذاب بقلبي؟!

غمغمت بخفوت قبل أن تدخل غرفتها وأبصرت أمها ساجدة تدعو:

ـ يا أرحم الراحمين، اهدِ ابني على أخته، وابعث زوجًا كريمًا يريح قلبها من عذابه.

دعوة أصبحت شعار حياتها ومُلخصها:

«**إيجاد زوج صالح ينقذ من جحيم الأخ**»

وأضافت مُؤخرًا:

«**إيجاد طريقة للموت ينقذ من جحيم الأخ بعدما فُسد الزوج الصالح**»

ارتمت بثقلها على فراشها، واجهشت بالبكاء كاتمة صريخها بوسادتها، بللتها بدموعها وجسدها يهتز مع كل لحظة شهيق، ويتقوس مُتوجعًا مع كل زفير.

ـ أأنتِ هنا يا بنيتي؟

سمعت الباب وهو يفتح فكتمت أنفاسها المتلوية، وأغمضت عيناها الدامعتين خشية أن تراها على هذا النحو، فأردفت الأم:

ـ هل أنتِ نائمة؟

ولم ترد، فدثرتها وقبلتها على شعرها:

ـ دائمًا تنامين من دون غطاء. تصبحين على خير بنيتي، كل ما أملكه أمام جبروت أخيكِ هو الدعاء لعل القدير يستمع لي ويرزقكِ بالصالح.

كادت أن تتخلى عن هدوءها وتقفز بحضن أمها باكية لترتاح من الألم، غير أن أطرافها تخدرت بفعل الألم. وبعد أن أقفلت الباب وظلت بمفردها صرخت بقهر مكتوم بوسادتها، فهذا أقصى ما تستطيع فعله بحالتها، الصريخ الصامت.

◇

ـ كما قيل في رسالة يوحنا الإصحاح الأول «**إِنَّ اللهَ نُورٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمَةٌ الْبَتَّة إِنْ قُلْنَا إِنَّ لَنَا شَرِكَةً مَعَهُ وَسَلَكْنَا فِي الظُّلْمَةِ، نَكْذِبُ وَلَسْنَا نَعْمَلُ الْحَقَّ وَلَكِنْ إِنْ سَلَكْنَا فِي النُّورِ كَمَا هُوَ فِي النُّورِ، فَلَنَا شَرِكَةٌ بَعْضِنَا مَعَ بَعْضٍ**»، أي أننا بنا الظلمة لكن من يتقرب للرب يستنير، والرب يعرف ضعفنا لذلك وضع لنا الحل لمغفرة خطايانا وهو التوبة والتطهير منها.

دخل مايكل للكنيسة غير مهتم بحديث الأب بولوس عن نور التوبة، فجل ما يشغله هو أنه فقد ريتشيل بالزحام وأمل أن يجدها هنا، حاليًا التجارة والمتجر وحتى جاره المسلم غير مهم، فاستغراقه السابق بمشكلاتهم كلفه ريتشيل، ولن ينجرف للأمر مرتين، ولن يسلم بأنها تعيش بحالة من المراهقة المتأخرة؛ لذا سيواجه مشكلات ريتشيل تلك المرة، وسيراقبها كما حدث صبيحة هذا اليوم ورآها متنكرة بزي ما غير أنه فقدها بآخر لحظة.

ـ عذرًا أحبائي، سنكمل الحديث بوقت آخر.

توقف القسيس عن خطبته فور أن لمح صديقه مايكل واقفًا يدقق بالناظرين وبالتأكيد ريتشيل السبب، فهي مُتعبة منذ الصغر ومشكلاتها تزداد يوميًا، توجه ناحيته مُستقبلًا:

ـ أهلا مايكل، تفضل برحاب المسيح وبركة العذراء، هل أتيت لتسمع خطبتي؟!

هز الرجل كتفه نافيًا وأطرق برأسه للأسفل بخجل مُضيفًا:

ـ أنا أبحث عنها، لا أدرِ ماذا أقول لك؟

ربت القسيس على كتفه:

ـ هون عليك، كلنا خطاؤون وتجرفنا الرغبات الحياتية وننسى أمورنا الدينية، وريتشيل لم تحضر اليوم، لقد أخبرتك من قبل بأنها تلتقي بالأخت مريم، وهي ليست بمتسامحة إطلاقًا.

ـ وهذا ما يقلقني، أخبرني أبتِ هل يقتضى الإخلاص للرب بالتطرف بالمعيشة؟ هل تقتضي العبادة بوضع حياتك كلها لكراهية شخص ذنبه الوحيد أنه لا يتبع ملتك؟!

ـ الرب أرادنا أن نعمل بالخير ونتواصل سويًا بالمحبة.

لم تشفِ إجابة القسيس عطشه بمعرفة الأسئلة التي تُصب فوق رأسه وتدفعه للجنون، فصرخ بهستيريا ناسيًا مكانه:

ـ أين ريتشيل الآن؟! إنها تضيع من بين يدي مُجددًا.

واجهش الرجل بالبكاء رغبةً في إزاحة ثقل الأسئلة عن كاهله وعن حياتها غير المتزنة ما بين الانحراف التام أو التطرف

حد التعصب، مُدركًا أن موت الأم السبب الأول، غير أن بالحقيقة تعصب ريتشيل للدين هو رغبةً في الانتقام من النفس ومن القلب.



فاضت الدموع بعينا الرجل اليهودي مُفكرًا، لم يكن بإسرائيل سوى شيء من الجوبييم (**الغرباء**) الوافدين للبلاد من اليهود المزراحيون، أي القادمون من الشرق والذين كما قال عنهم بن غوردن عاداتهم مثل عادات العرب وقد يأتي اليوم الذى ينحازون لهم حيث لا فرق بينهم وبين العرب من جميع النواحي.

فاضت دموعه من الفرح ورفع يديه في إشارة ليأخذه صديقه بالأحضان ويخبره بمدى اشتياقه للصحبة، ولكن السيد عليّ لم يتحرك قيد أنمله ووجهه باهت بلا أدنى تعبير، وصوته خرج خالِ من المشاعر:

ـ بأي حق تطأ به قدميك النجسة بيتي بعد كل هذه السنوات؟!

وتلعثم جاؤون بكلماته خافضًا يديه المنبسطتين:

ـ أأنا... عبد...

ـ أعلم من أنت، ولقد قلت لك بآخر مرة لا تعود، أنا لست صديقك ولن أكون أبدًا.

ـ أما زال يا صديقي قلبك حجر عليَّ.

كسرت كلماته القاسية روحه وأمله في أن يفتتح صفحة جديدة لعبد القدوس، وغادرت الفرحة عينيه ليستكمل عليٌّ حديثه بصريخ الذكريات:

ـ من أعطاك الإذن لتدخل لا بد أن يعطيك الإذن أن تخرج.

بدأت نفسية يوسف تعج بالكثير ليتدفق بأوداجه سم الغضب ليحركه من مكانه ثائرًا:

ـ من منا الحثالة أيها القذر العربي؟، أنت...

وقطع جاؤون حديث ابنه بأمر وعيونه تفيض بالعتاب:

ـ يوسف، أين أخلاقك؟! لا تتدخل بني بيننا.

أمسك علي ياقة قميص يوسف وجاؤون ودفعهم صوب الباب المفتوح:

ـ لتحلو مشكلاتكم بعيدًا عن بيتي، لا تعد إلى هنا وعد لوكرك الذى كنت به.

وقف جاؤون بحسرة ويوسف بغضب، وود لو كسر الباب وفتك به جراء طردهم كالشحاذين ولم يراعِ وجود ابن يستمع لإهانة والده.

تمتم جاؤون بحزن:

ـ لنعد إلى البيت.

تحدث يوسف برد مقتضب منطلقًا بطريقه:

ـ عد أنت، سأعود متأخرًا، شلوم.

ولم يعقب على ابنه بشيء، فكل ما جال بخاطره أنه محكوم عليه أن يبقى بلا أرض، بلا وطن، وهذا فقط لأجل هويته.

فمصر وأهلها ترحب بالجميع إلا اليهود، ولا تفرق بين يهودي وصهيوني، فالكل واحد، الكل يتبع عشًا واحدًا.



سار يوسف بلا هدى بالطريق، وصدره ملبد بكوكبة من الأحاسيس المؤلمة، تكويه، تضايقه، حتى الهواء لا يتحمل استنشاقه. كيف يتعامل مع العرب هنا بحب وهم طعنوه بالقلب؟!

أصبح بفضلهم سيد الظلام والحزن بلا منازع، وسيدفعون على يده ثمن خطاياهم كما دفعوا هم ثمن خطايا الآخرين، خطايا دخولهم الحقول الخضراء على ظهر الدبابات وإيجادهم بالعنف الأرض والجذور، والثمن لكل هذا، أرواح أحبائه ودمائهم ترويها.

تذكر تلك التفاصيل الخاصة بينه وبينها، كيف كان يلعب بشعرها البني بين أصابعه وقراره العنتري الصبياني لطفل لم يبلغ الأربعة عشر عامًا بضرورة الزواج بعدما أصبح أب، قرار كان سيقوله لأمه بعد المدرسة في يوم صيفي هادئ؛ كُتبه بحقيبته التي على ظهره، لمحها من بعيد جدًّا بجدائل شعرها المعقود في ضفائر ومع أستاذته الحنونة، مر بجانبهما طفلٌ فلسطيني، بالتأكيد من ذلك العقال الأسود والوشاح الفلسطيني والجاكيت الضخم المرقع وبنطاله وذلك القبقاب الخفيف برجله.

توقف يوسف في مكانه ولوح لها بالمثل، وفتح شفاهه ليصرخ بأعلى صوت له:

- جي...

وحدث انفجار مروع ومدوي جعله يسقط أرضًا واضعًا يديه فوق رأسه ويمنع عينه من النظر، وبعد هنيهة فتح ليرى منظرًا مروعًا، المدرسة مدمرة ورائحة غريبة للحم متفحم تزكي أنفه.

أسرع باتجاه الحريق، ولكن تباطأت قدماه عندما أبصر ذراع آدمي به رسمة بالقلم الأزرق الجاف لقلبين وتحتها اسم يوسف، وخصلات من شعر أمه الشقراء.

كل حياته كانت عبارة عن لحظات غاضبة أو فرحة، عيونه لم تنساق يومًا لدوامة الدموع، ركبتاه الضعيفتان لم تستطع احتمال ذلك الاهتزاز المصاحب لرعشته، فتهاوى في الأرض صارخًا بأقصى قوة:

- جيليلا.

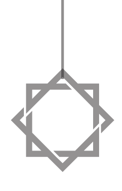
وتوقف عن استطراد الذاكرة، وإعادة إحياء المشاعر الميتة، غير أن أفكاره من بعد الحادثة لم تهدأ، فبنظره العرب همج ومتعطشون للدماء وإرهابيون، وهم لهم الحق في الدفاع عن أنفسهم بكل الطرق المُباحة، لو كان يفهم بتلك الصورة الواضحة لما ماتت أمه ولا جيليلا.

ورغم ذهاب الروح بالروح إلا أن جيليللا لا زالت تعيش بصحراء قلبه القاحلة، ولن يجعل رحيلها يمر هباءً دون أن ينتقم. وعليه فلا بد من التركيز بمهمته القادمة.

دخل يوسف لأحد صالات الديسكو حيث فيها يعيد شحن نفسه وإيجاد عملاءه، فهنا سيجد الفاسدين والفاشلين وأشباه الأحياء من النظام البائد وكل ما يحتاجه دفعة حجر صغير ليسقطوا واحدًا تلو الآخر مثل أحجار الدومينو المتراص.

ارتشف بضع قطرات من كأسه، ثم أخرج هاتفه الذى يرن برقم دولي من إسرائيل، ففتحه ووقتها تسللت خيوطًا بيضاء مشبعة بسواد غريب بمقلتيه لتشكل عتمة رمادية طلت منهما، وابتسامة تتسع قائلًا بصوتٍ خالٍ من المشاعر إلا إحساس واحد؛ إحساس عميل الموساد الجديد الذي يتلقى التعليمات:

ـ بانتظار أوامرك يا خالي.



# الفصل السابع

السماء زرقاء بصفاء، لا يشوبها سوى قطع النجوم المتناثرة البيضاء، ورائحة الصنوبر والمسك تفوح من الأشجار العتيقة، وسنابل حقول القمح الشاسعة ترقص بتمايل على لحن الرياح، ورغم برودة الجو إلا أنه يشعر بدفء أحضانها. همست بأذنه بترنيمة حبها الأبدية ليتلو هو الآخر بقصائده في العشق:

ـ أنتِ وطني، ملجأي، وأماني الذى لا يستطيع أحد نزعه مني جيليللا.

ـ جيليللا من هذه؟!

والصوت لم يكن لها، وجنة الخيال تحولت لجحيم الواقع، فهو يهذي بفعل الشراب بحلمٍ مر على عقله بحدة السيوف ليذبحه. هز رأسه وأجاب بغلظة مُرتشفًا آخر قطرة من كأسه:

ـ ليس هذا شأنكِ ولا أتذكر دعوتكِ لطاولتي، لا أطيق رفقة الحيوانات.

واختم جملته ببسمة باردة دون أن ينظر للفتاة الغاضبة والتي تتوعد له بحراسها وتسبه بكل شكل ممكن، أشار للنادل بصب كأس آخر وبشكل مفاجئ قبض على ذراعيها مُردفًا حديثه بنبرة غليظة وتعبيرات وجه مُخيفة:

ـ اذهبي من هُنا وإلا فصلت رأسك عن جسدك!

وامتقع وجه الفتاة وتجمدت العروق بجسدها لترحل راكضة من أمامه، ويوسف عاد لوضعه البارد ناظرًا لقعر كوبه الفارغ ومُفكرًا في كيفية تجميد عاطفته تجاه ذكرى المغدورة مثلما فعل لعاطفته القومية التي منعته من الاندماج مع العرب إبان وجوده بإسرائيل، زفر الهواء بوجع ثم همس لنفسه متألمًا:

ـ كنتُ سابقًا بالمنطقة الوسط، لم أتحيز لطرف والدي المُتسامح أو طرف والدتي التي تظن بأن قوتنا توحدنا وأن باندماجنا معهم نتفرق، ربما كان السبب هو جيليللا، كانت بوصلتي واتجاهي وإيماني وعقيدتي، وبعد رحيلها تشوشت ولم أدرِ أولدت خاليًا من الحقد تجاههم أم أنه مزروعٌ بي في احتياج لحافز؟!

وزفر آخر هواء بصدره بلا إجابة شافيه لعقله، وبإحدى الأركان هنالك ذكرى أخرى.

ورودًا تُلقى مع التراب على القبر ومشاعره ترتطم بالأرض دون صوت، أخل القدر بعهدهما بعدم الفراق لترحل للمكان

الوحيد الذى يصعب عليه اللحاق بها، ورحل الأشخاص والصريخ وبقي هو وحيدًا حزينًا ينظر لحروف اسمها على الجرانيت.

مرت عليه أيام وليالي لم يفارق فيها قبرها، وكل مرة يسأل دون إجابة عن مدى شوقه لها، وكيف هم لم يعطوهم الفرصة ولا الفرحة وهي من الأموات وهو من الأحياء!

كانت العشق الذى عندما رحل لم يعد يسمع أو يرى أو يشعر، ببساطة أصبح كائنًا ميتًا يُدعى إنسانًا محمول على قدمين، يتمنى لو ضمها لحنايا صدره مرة أخرى، وكم يود أن يبيع نفسه للشيطان حتى ليراها ولو لآخر مرة. همس باكيًا بقصيدة عبرية مسماة «**ثقب بالقمر**» ل «**الي لولي، باروخ إسحاق، وداني رخت**»:

«بداخلي جرح عميق، وأود المواصلة
كأني شبح إنسان
أو ثقب في القمر.»

وسقط بالأرض صارخًا بقوة باسمها، وحينها سمع من يُكمل له القصيدة:

«في ضوء شاحب، وعجلة من الزمن
جاء ملاك، وما ظنكم بفعله،
كالمباعد بين الخير والشر،
هذا أخي.»

فصمت يوسف عن أنينه عندما وجد جده جورج كاهانا – الرجل الذي يظن بأنه سيعيش ليكمل الثلاثمئة عام إن أراد – يمد يده:

ـ كيف حالك يوسف؟

أجاب بجفاف دون أن يمسك يده:

ـ مريض بقلبٍ قد مات أثرها!

زفر كاهانا الهواء بغلظة ليهتف:

ـ فلتتماثل للشفاء بالانتقام، ولا تهدر أنفاسك باكيًا كالنساء، أليس هم السبب بفقدها؟ لا تكن مريض قلب، بل مريض نفسي ينتقم من العرب، انتقم لأجل وطنك الأم!

مسح يوسف دموعه وأمسك حفنة من تراب الأرض ليقسم أمام جده بأنه سينتقم من كل العرب، لا طفل يشفع ولا جنين ببطن أمه سيُوقفه حتى الموت، فسلميته وتقاعسه عن الانحياز لطرف عصبيته القومية قتلوها.

ومن هُنا تحول الحب... لراء الحرب.

لمح يوسف على إحدى الطاولات الخاصة برجال الأعمال رجل مهيب الطلة، يرتدي بذلة رمادية وحذاء أنيق، يشتغل بفمه سيجارًا كوبيًا فاخرًا، ذو خصلة بيضاء وحيده بشعره الأسود.

أمسك يوسف بالنادل وهمس بنبرة قاسية:

ـ من ذلك الشخص الجالس هناك؟

مشط النادل القاعة مُجيبًا بعدم فهم:

ـ من تقصد؟

وضع يوسف بضعه جنيهات له مُردفًا ومُشيرًا بيده:

ـ ذلك الرجل هناك.

ـ آهااا، تقصد السيد إكرامي الغول، من أحد عناصر الحزب المُنحل وهو من أهم رجال الأعمال.

وتهلهلت أسارير يوسف بخبث، لقد وجد الحجر المفقود من أحجار مصر المتراصة.



دخل زاهر الشاب السمح كريم الخلال بيته واضعًا عمامته والقفطان على المشجب وهمس بقلق بعد أن أحسّ بسكون البيت على غير العادة:

ـ أمي، لقد أتيت. أبي، أين أنتم؟!

خرجت الأم بحبور وسرور للقاء ابنها الأزهري، قائلة:

ـ حبة قلبي وحشاشة كبدي، حمدًا لله على سلامتك.

ـ سلمكِ الله يا أمي، أين أبي؟

ـ يُصلي، أأعد لك الطعام؟

أومأ برأسه لتذهب وجيدة إلى المطبخ، وذهب لأبيه الجالس والباكي وبين يديه القرآن، فأخذه بأحضانه قائلًا بفزع:

ـ أبي، ماذا بك؟!

والسيد عليّ خجل من ابنه ونادم أشد الندم على فعلته ومخالفته لفطرة الإسلام السوية، فتحدث بصوت متهدج من أثر البكاء:

ـ لقد كنتُ مثلهم، طردتُ ضيفي وصديق طفولتي بدلًا من إكرامه، غلبتني الكراهية يا بُني.

ـ ما الذي حدث بالضبط يا أبي؟!

هدأ علي لدقيقة يشرح بها كل ماضيه عن جاؤون يتيم الأم والأب والذي كان يعيش بالقرب منهم ببيت أعمامه إليعاز وإلياس، لم يفترقا طوال ٢٠ عامًا، كان جاؤون يهودي مصري على شفا الإسلام، واسمه بينهم عبد القدوس.

كانوا يتجادلون دائمًا حول وضع اليهود بفلسطين والمجازر التي يرتكبونها، وأحيانًا تنقلب المجادلة لمشاحنة، والسبب في أن جاؤون يقول دائمًا أن الإنسان عندما يُولد يكون نقيًّا بغض النظر عن ديانته، ثم يكبر ليتبع أيدولوجية مجتمعه، ويكن ضحية أفكار غُرست به منذ الصبا؛ فلم يولدوا قتلة، بل مجتمعهم صنعهم هكذا. وعليٌّ أصرَّ أنه يُبرر موقف قومه، وبخاصة عندما قُتل أحد أقاربه بسيناء؛ فحتى وإن كان المُجتمع يُكرِه لا بد أن تأتي المقاومة من داخل الأفراد. وتطورت إحدى المشاحنات لقطيعة، وبعدها سافر جاؤون لإسرائيل، ولم يرَه عليٌّ قط إلا اليوم.

كان زاهر يستقبل الحديث بغم، وبعد أن انتهت الحكاية كان له حق التعليق:

ـ وهل أمرنا الله بهذا يا أبي؟ أليس رسولنا رحمة للعالمين ودينيا رحمة بالمخلوقين؟!

ـ بالله عليك لا تزيدها عليّ.

وانهار الأب ببكائه، وشرد الابن يفكر ويدعو الله بأن يرفق الناسُ بالناسِ دون النظر لعقائدهم.



بعد جلسة طويلة من الوعظ الديني لا بد أن تهدأ النفس، ولكن بحالة ريتشيل لم يكن الأمر هكذا؛ فلقد ملأها الكُره والتعصب تجاه المسلمين، وبخاصة هو؛ فهو سبب وجودها هُنا كما كان سبب رفقتها للمنحل سامي، والذي بسببه لم تعد ريتشيل الفتاة اللطيفة الهادئة، بل أصبحت ذات الصوت العالِ والملابس القصيرة والوشوم والخمر، وكل هذا بسبب ذكرى ما زالت تنحرها من الوريد للوريد.

نظرة مُستنكرة وصوت به ومضات التعجب:

ـ أجننتِ يا ريتشيل؟!

وأمسكت يده علها تقترب منه، وبكل الأحاسيس الغارقة في الحب أجابت:

ـ قلبي يكن لك المشاعر يا أمير، فهل العشق جنون؟!

وعيناها تضحكان بأمل الاعتراف، وحينها إن تأكدت من حبه ستصرخ معلنة للجميع بأن أمير يحب ريتشيل الفتاة المسيحية،

وحينها الخطوة القادمة أن تقنعه باعتناق المسيحية، أو تعتنق هي الإسلام.

وأمير يسحب نفسه بعيدًا، وبعينين رافضتين الفكرة أجابها:

ـ أنا أحبكِ مثل أختِ ريتشيل، لا شيء أكثر من هذا.

الوداع قاسٍ بعرف العشاق، إلا أن الرفض أغلظهم، وكأن أحدهم أخرج قلبك من صدرك ومزقه أمامك، وحينها لم يفلح الخمر والحشيش على النسيان، بل أدى لألم بالرأس صباحًا ووجع متجذر بالقلب؛ فكل الأسباب والشواهد تقل بأنه لم يحبها لأنها مسيحية، وفي دينهم ينصبون المحارق والمشانق لكل من تسول له نفسه إصهار الديانتين، وكأن الجميع نسوا أنهم بالنهاية يعبدون رب واحد.

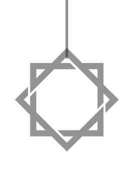
لمح شهاب يسير مع رفاقه المسلمين الذين بصقوا بالأرض لمجرد رؤيتها متمتمين:

ـ كافرة.



ـ قلبي يحترق لأجلكِ جيليلا، أريدكِ يا حبة قلبي.

خيال لشبح سائر على قدمين، يصرخ ويدندن أحيانًا على أنغام قلبه الذبيح، اقترب من ريتشيل حتى وقع على ركبتيه، وحينها فقط أدركت حجم الكارثة عندما لمحه شهاب ورفاقه، رائحة المنكر تسيل من فم يوسف، وبالتأكيد سيدفع الجزاء.



# الفصل الثامن

ذلك الجاثم تحت قدم محبوبته، يلعق نعليها ويشم رائحتها التي لم تفارِق خلاياه، يبكي الآن محروقًا ومناديًا بجيليللا.

ـ إنه سِكير، ما هذا الفجور البيّن؟!

وريتشيل تنظر برعب نحو قطيع الرجال المُتحدثين، يدورون حولها كالنمر حول الفريسة، بلعت ريقها بصعوبة لتتحدث:

ـ يا من تجلس في الأرض، انهض، رجاءً!

ـ هل تعرفينه؟!

تحدث شهاب مُمسكًا بالعصا الغليظة، وينظر لها في تلهف وتوعد، بينما ذلك العاشق المحموم يهتف بهذيان:

ـ أخبريهم عن ابننا.

ـ ابنكم!

وبلا وعي تجاهلت ريتشيل الأصوات وأضاء بعقلها شيئين، أولًا أحسَّت بشفقة على حال صاحب العيون الجليدية، حيث وجدت بهما ظلاً لامرأة ما تسكنه، والثاني أنه بحالة سُكر، ويتفوه بكلام سيؤدي لمصرعهما.

ـ أقسم بالعذراء أنا لا أعرفه، أيها اللعين ستتسبب بمقتلنا!

تململ يوسف بمكانه مُجيبًا:

ـ لم أعتبر نفسي حيًا بعدكِ.

ـ هذا يكفي!

قالها شهاب وهو يرفع بيديه في الهواء مردفاً حديثه:

ـ يا شباب الإسلام طبقوا حد الله على هذا الشاب، واتركوا الفتاة لي.

الدائرة تتقلص والفريسة لا تجد مكانًا للهرب، أمسكها شهاب ليُردف بصوت هادر:

ـ ستكونين التالية، بعد أن نطبق الحد على حبيبكِ.

وسحبوا يوسف من قميصه وضربوه بعنف حتى تخضب رأسه وشفاهه بالدماء، فصرخت بهلع بأول اسم خطر ببالها:

ـ النجدة، أمييير.

صرخ شهاب وهو يشد على عنقها:

ـ لا تذكري ذلك اللعين الحقير وإلا فسأدق عنقكِ.

ويوسف مسجي على الأرض يبصق دمًا ويمد يده نحوها قائلًا:

- دعها.

وتهافتوا مجددًا لضربه، لتصرخ ريتشيل للمرة الثانية وليخرج الجميع من الشرفات ومن منازلهم، وتجمع الناس حولهم، فصاح مهددًا الجميع:

- هذان تربطهما علاقة آثمة، وشرع الله بيّن، ومن سيمنعنا عن تطبيقه سيلاقي نفس مصيرهما.

وجاؤون يصرخ مُتوسلًا برجاء شاخصًا بصره ناحية يوسف المتخضب بالدماء:

- أرجوكم، اتركوا ابني.

وهرول مايكل للشارع، وخلفه أمير ليصرخ هو الآخر مُتوسلًا:

- ما الذي يحدث بحق المسيح والعذراء؟! ما الذي فعلته ابنتي حتى تُمسكوها؟!

حدجته شهاب بغل مُجيبًا:

- تطبيق الشريعة حق على من يأتِ بالفاحشة.

هب أمير ليقف أمامه كالأسد الغاضب مكشرًا عن أنيابه ليحرر ريتشيل من سطوة شهاب، ونفخ نفسه مُستعرضًا نفسه ومُرسلًا نظرات تحذيرية للكل:

- من يقترب لريتشيل منكم فسيلاقيني!

تمسكت بكتفه وقد اغرورقت عيناها بدموع الإحباط، خوفه الحالي لا يتعدى خوف أب على طفلة صغيرة، وهذا أكثر ما يؤلمها. بمجرد رؤيته تبعثر كل شيء جاهدت ببنائه، ولن يمكنها

مهما بلغ الوضع اعتياديته أو أشده أن تكون نفس الشخص الذي اعتاد أمير أن يراه؛ فهنالك خلف أضلعها شعبًا يهتفُ مناديًا باسمه بأصواتٍ عالية متناسقة كليًا مع حركة نبض قلبها منتظرًا لحظة الانصهار والانشطار والانكسار.

أسكته شهاب وهو ينفخ نفسه كالديك:

ـ أصمت ولا تتكلم يا فاسد، هذه المرة لن تنفعك حججك، لقد اعترف وعلينا تطبيق..

قاطعه أمير بعصبية محاولًا صرف انتباهه عن التعدي عليه بالضرب:

ـ ومن أعطاكم الحق بتطبيق شريعة الله بالقوة؟! بسببكم هرب عمر وترك المكان. سأقولها لكم وللمرة الألف: الله عز وجل لن يطلب منكم ضرب الناس أو التعدي على السيدات، وأنصحكم أن ترحلوا بالحسنى، وإن لم تفعلوا فلن يخلصكم مني أحد.

وشهاب يصرخ مندذًا بالمعركة:

ـ لقد اعترف بعلاقتهما، لا تستطيع إنكار هذا.

وريتشيل تصرخ نافية وبعيونها مئة حكاية لم تقل، فجسدها كما قلبها مفاتيح بيد شخص واحد، شخص لا يُعيرها أي اهتمام رجولي.

- يقول ديننا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، فهل تحققتم قبل أن تصدروا الحكم؟!
- أخبرنا بنفسه وهو مخمور فا...

ابتسم أمير بخبث وتابع قائلًا:
- أنت قلتها، (**مخمور**)، فهل يمكنك تصديق شخص لا يعي ما يقول؟!

ازدادت الهمهمات من حول شهاب يستشف فيهم الخسارة. أمير يعرف كيف يتلاعب بالكلمات ويصوغها كيفما يحلو له.

لمحه يضحك بتشفٍ فوَدَّ كسر فكه بقبضته، ولكنه لم يستطع؛ فالجميع هنا تحت إمرته والمعركة غير متكافئة.

تململ يوسف بهذيان:
- أقسم بما تعبدون إنها عشيقتي.

نظر شهاب نحوه، فقام بسحبه من قميصه المملوء بالدم:
- وماذا عنه؟ هل لديك آية تحلل الخمر؟

من الشرفة صرخ محمود بصوت جامد:
- شهاااااب، أترك أنت وجماعتك ريتشيل، فهي خط أحمر، بينما ذلك المُدعي فافعلوا به ما تشاءون.

لم ترن كلمة بعد الذي قاله، فالجميع يهيبونه ويبجلونه. ضربوا يوسف ضربة أخيرة، فهرول جاؤون إليه بعد أن لاذ كل شخص بفلذة كبده:

ـ بالله عليكم، اتركوه، لن يفعلها مرة أخرى.

أشار شهاب بسبابته نحو يوسف قائلًا بتوعد:

ـ إن قبضت عليك بنفس الجرم، الموت نفسه لن يخلصك مني!

نظر لأتباعه وأردف قائلًا:

ـ هيا يا أخوتي، فيبدو أن من جئنا لأجله لم يعد هنا.

وشعور الظفر مسيطرًا، عليه فالآن أصبح لكل شيء معنى، وابتسامة اتسعت أكثر، لقد رحل من كان يعد حنظلًا مرًا بحلقهم.

ـ كدت تخاطر بكشفنا أمام المصريين يا يوسف.

قالها جاؤون واضعًا ابنه بالفراش، فتأوه يوسف مُجيبًا:

ـ ماذا.. آآه.. فعلت؟!

ـ لا تراوغ يا يوسف.

مسح بقماش مبلل وجهه ابنه الدامي مُردفًا:

ـ أنت تعلم. أنا أسألك لمَ؟!

ويوسف لا زال يهذى ويصرخ متأوهًا:

ـ وأنت لمَ خنت أمي؟! تضع يدك بيدهم وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنهم لم يقتلوها!

هز جاؤون رأسه نافيًا وهو يعصر القماشة:

ـ لم أخنها، إنها حياتي...

صرخ يوسف من الألم العضوي والنفسي بوجه أبيه:

ـ أنت تكذب جاؤون، إذا كنت تحبها لمَ هربت من إسرائيل؟! عصيت كلامها وكلام مائير، أمثالك من المسالمين كانوا سبب مقتلهم. لن أسامحك أبتِ.

صمت لبرهة بعد أن أنهكه تحمل ألم ضلوعه، ثم أكمل وهو يهز رأسه بحسرة:

ـ قتلوا بدماءٍ باردة. من يطفئ تلك النيران المشتعلة بروحي؟ مَن يرحمني من التفكير بالموت بكل ثانية وبكل إغماضة عين؟!

ـ كفى تعذيبًا بحق نفسك. مهما تحدثنا فالكلمات لا ترجع من مات. لا تظن بأنني مخلوق عديم الشعور، إنني محترق مثلك، ولكنني ليس لدي أي ضغينة تجاههم، فهم لا يفعلون شيئًا سوى الدفاع عن أنفسهم.

وضع يوسف يده على رأسه وأغمض عينيه بقوة قائلًا:

ـ كفى أقوالًا مغرضة، أكرهك جاؤون.

لطالما شعر جاؤون بأن يوسف به جزء مظلم، ولكنه لا يعرف إلى أي درجة، هل هرب به من إسرائيل بعد فوات الأوان؟!

تمتم جاؤون وهو يمسد وجهه مُجيبًا:

ـ نم واسترح بني. اكرهني متى شئت، ولكنني سأظل وراءك حتى ترى الحقيقة كاملة.

ظل يوسف يتمرمغ بسريره بين التأوه والنوم، يتفوه بألفاظٍ بذيئة بالعربية والعبرية لأبيه ولمائير وجيليللا، وبعد فترة استكان بجلسته وهدأ، فقَبَّل جاؤون صغيره على وجنته، وإيفت تقف متفرجة وهي عاقدة ذراعيها متكئة بجذعها على الباب، وبعيونها لمعة مظلمة جعلتها تتحدث بآلية:

ـ غريب جاؤون، أليس كذلك؟!

ـ ما الغريب يا إيف؟!

ابتسمت إيفت نصف ابتسامة دون أن تتحرك عن وضعيتها:

ـ أن تكون بوطنك ولا تشعر بالأمان يومًا، وأن تكون بكل مكان لاجئ حتى بإسرائيل، وخرجنا منها هاربين ببقايا آدمية، بقايا بشر جاؤون، عشيق محموم بعشيقته الميتة، ابنه فقدت...

صمتت هينهه ثم أردفت زافرة بعمق:

ـ دُمرنا جاؤون، إسرائيل لم تكن إلا وحش يأكلنا ويستنزف روحنا، ليس العرب وحدهم من جعلوا حياتنا جحيمًا، بل نحن من زرعنا أنفسنا وسطه.

ـ ولقد هربنا منها.

ـ لنقع فيما هو أسوأ. جاؤون، ألا تدرك بأن العيب فينا؟ العيب بنفوسنا وأسمائنا وهويتنا الحقيقة.

زفر جاؤون الهواء بثقل وأجاب بنبرة مستاءة:

ـ أعلم إيف، ولهذا سميت نفسي عبد القدوس، هربًا من الاضطهاد ومن ديانتي، كرهني صديقي لأنني يهودي، لقد رأيت الجحيم بالفعل؛ ولكن إن عاد بي الزمن فلن أقترف غلطة رحيلي لإسرائيل مرة أخرى، فهنا مسقط رأسي، هنا أطمئن أنهم لن يُدمروا ما تبقى مني ومن ابني.

هزت رأسها بتعجب:

ـ كذبت الكذبة وصدقتها؛ ابنك دُمر، وأنت لست عبد القدوس.

ـ كسبتِ الجدال، فماذا نفعل الآن، هل نعود بعد أن مزقتنا جميعًا أم نلقي أنفسنا بالنيل لنتخلص من هذا البؤس؟!

ابتسمت بسخرية وعيونها الزبرجدية تجوبان الفراغ بتيه:

ـ الحل الثاني هو المنقذ لنا، ولكن كلما أقدمت على تنفيذه كلما تراجعت أكثر، الحياة تبدو أحلى وقتما تحاول التخلص منها، ربما لعلمك بأنه حل غير مجدي وأنك ستفتقد الكثير. أما العودة فهي كإعطاء السم بالعسل.

وبنبرة شخص ميت أخافته شخصيًا أردفت إيف:

ـ لم تسألني قط عن السبب الذي دفعني للهرب معكم من إسرائيل، لمَ جاؤون؟ هل خفت على مشاعري؟ أم خفت أن تكتشف جحيمي؟!

وبسرعة آليه للغاية غيرت إيف الحديث فور أن لمحت يوسف، وبصوت ضاحك تحدثت:

ـ يوسف مظهره مضحك جدًا، ولكن رغم هذا سأساعدك في معالجته. جاؤون، أنا آسفة على كل ما فعلته، أنت لا تستحق هذا.

ربت على ظهرها في لفتة أبوية مُجيبًا:

ـ لا تشغلى نفسكِ، لي حديث مع السيد محمود وفيه سأوضح له كل شيء.

وفور نطق اسم الأب تذكرت الابن، أمير ولقائه المزعج المريح، وشعورها بالانجذاب تجاهه، وما حدث بينهما خير دليل، أطلق بداخلها أشياءً تجاهد لكي تُبقيها قيد الاحتجاز، أشياء تُدمر، تحرق الأخضر واليابس، تنزع ثمار القلب من الصدور، ولا قِبَل لأحدٍ ولا حتى أمير على مجاراتها والتحكم بها.



يأكل الطعام دون حديث جانبي متذكرًا أحداث الليلة الماضية ومُفكرًا بنظرة زينب، نظرة مليئة بالعتاب واللوم والشفقة، تخبره بأنه فعل شيئًا لا يُغتفر.

كلا، لقد قاوم بشكل ما، قاوم غزل شفاهها وبشرتها لبصيرته؛ فأمير ليس خسيسًا أو منحطًا، ولكنه بشر ينزلق بقدميه للخطايا!

عليه مقابلة زينب وشرح الحقيقة بدلًا من أن تظن به الظنون.

ولمَ يشرح؟

لأنه معجب بها بطريقته، فهي ليست حب عمره، ولكنها تعجب خصال الذكور به، يحب خضوعها وهدوءها وفقط، مسالمة بشكل يثير التقزز والحمى بنفس الوقت، فهي ليست بمستواه العلمي، ليست كحب كلية الهندسة ريم نجلة إحدى أهم العائلات الأرستقراطية الجميلة والمتعالية، أو غيرها من الفتيات اللاتي عرفهن. لم يفقد أمير نبض قلبه لأجل فتاة قط، بل فقد عينيه مع ألف غيرها، للتسلية ممكن، للعب أحيانًا! ولكن مع إيفت الأمر تعدى اللعب مع الفتيات، أصبح لعبًا على الأخلاق، وسلم للشيطان نفسه ليبعثر ما تبقى من المسلمات.

ـ أمير، افتح الباب لأنعام.

قالها محمود بحزم قبل أن يدلف لغرفته، ليقوم أمير من مكانه مُجيبًا على الطارق.

هل اختبرت شعور فقدان النبض باسم الحب أو الخوف؟!

إنه يمر بثلاث لحظات؛ أوله: تتسارع دقات قلبك، ثانيه: ينتابك ارتجاف شديد وكأنك يعصف بك زمهرير، ثالثه: تتجمع غيوم بعينيك فلا ترى. وكل هذا لأجل الطارقة التي هبَّت بأحضانه هامسة بأذنه:

ـ افتقدتك كثيرًا أمير.

وأمير لا ينطق بحرف، يبتعد عنها بشكل آلي وعيناه تنضحان بكلمتين فقط ولا شيء غيرهما «**يا للهول واللعنة**»!

فأبيه إن رآها سيموت كمدًا، وأمه فستحاول الاستفسار عنها ثم تصرخ ثانيًا، واللعنة المُتحركة تردف حديثها وهي تسحبه من يده كأن لم يحدث شيء:

ـ الاتفاق ما زال ساريًا، والدور عليّ تلك المرة، هيا معي إلى...

صوتها بآخر كلمة كان مرتفعًا، فكتم حديثها بيده قائلًا بصوت خفيض:

ـ لا أعرف ماذا تتعاطين الآن، ولكن دعكِ من تلك المسرحية وارحلي واتركيني.

دفعته من عليها قائلة بتحدٍ:

ـ بعد ما حدث! أبدًا، ما حييت.

جذبها لخارج البيت متحدثًا بصوت عالٍ لأبيه:

ـ أنا خارج يا أبي مع أصدقائي، ولن أذهب للخان، طاب مساؤك.

وأردف بعد أن أقفل الباب مُتوعدًا:

ـ إياكِ أن تتفوهي ولو بنصف كلمة عنه، إن علم أبي به فسأقتلكِ.

ابتسمت إيفت نصف ابتسامة ورمقته بنظرة مظلمة مُجيبة ببرود:

ـ حسنًا، لن أخبر أحدًا، شرط أن تنفذ الاتفاق. سأسبقك إلى الشارع، وفي خلال خمس دقائق إن لم أجدك خلفي فأظن أن والدك الجميل لن يُسر بما سيسمعه، سلام.

توابع الليلة الماضية لا نهاية لها، وهي ليست إلا ملاكًا أتى من الجحيم إليه، ملاك يسير وسط الناس بأنوثة مميتة وعينين زبرجدية مُظلمة حينًا وضاحكة حينًا آخر، وهو لا يملك سوى الطاعة.

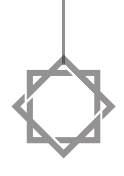
فأمير الآن أصبح أسيرًا.



احتست أنعام القهوة بسعادة، فهي من يد زوجة ابنها المُستقبلية. صحيح ستكون هنالك عقبات لزواجهما، إلا أنها ستحل، بداية من ذلك النائم بالغرفة المجاورة ونهاية بالعريس نفسه.

ـ سلمت يداكِ يا زينب. آمال، لقد جئت إليكم لأطلب يد زينب لابني أمير، ما رأيكم؟

فور أن سمعت زينب الخبر حتى انتفض قلبها بعنف، فيوم جبر كسرها وزواجها آتٍ بشكل مختلف عن ما توقعته، بشكل مؤلم عن ما عاشته. أطرقت وجهها للأسفل حزنًا، وتركت الأمر دون إجابة.



# الفصل التاسع

ملامحه بالذاكرة مشوشة، مضى عليها ثلاثة عشر سنة، كانت بها طفلة بضفائر ذات أمل لم يُفقد مع الصراعات اليومية، وكان هو سبب اتزانها، راحتها النفسية والعقلية والقلبية، كانت تراه خلسة وقت أن ينام أبيها.

كانوا بمكانهم المفضل بأحد سفوح سهل عكا يتلو عليها الشعر والتاريخ الإسلامي والتصوف كذلك، فلقد كان مولعًا به بشكل مرضي، وانتقل هذا المرض إليها.

أحيانًا تتمنى لو كان الزمان يتوقف عند تلك اللحظة فحسب، حيث لا ألم آتٍ ولا راحل، فقط تعيش بحضن إيزرا العمر كله يتلو عليها الحكايات.

- يرن بأذني نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة وانتقلوا لحوزان شرقي الأردن، ركب الرجال الحمير ومشت النساء ورائهم باكيات يقبلن الحجارة

والتراب، إن شراء أراضيهم يترك بقلوبهم جرحًا لا يندمل، وفي النهاية سيعملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب، هذا الشعب كبير وكثير ولا حاجة لبعثه لأنه لم يمت أبدًا ولم ينقطع وجوده يومًا، وينبغي ألا نستخف بحقوقه، وعلينا ألا نستغل ضده خبث بعض إخوته الذين يظلمونه. لا تتحرشوا بأسد نائم، ولا تأمنوا لجانب الرماد الذي يغطي الجمر، فقد تنطلق شرارة تسبب حريقًا لا ينطفئ.

أردف ناظرًا لعينيها الجميلتين:

ـ هذه مقولة بقلم يتسحاق أيشتاين، نشرت بمجلة هيشيلوح عام ١٩٠٧ التي يحتفظ بها أبي.

أشار بيده نحو السماء مُردفًا:

ـ تلك النجوم البيضاء هي العرب، وذلك السواد الحالك نحن، أو بتلك الحالة أنتم؛ وجودكم يدفعهم لمحاربتنا سويًا، لا يؤمنون بوجود الإنسانية فيكم وفينا، نحن اليشوف القدماء – اليهود العرب – نمثل المنطقة الرمادية، لانعرف لنا لون، هل لأنني يهودي لا بد أن أتبع المُتبع؟ أم لأنني عربي فسأرفض أن يأخذ أرضي أحد؟ تلك هي المعضلة الكُبرى.

قبض حفنة من التراب بيده ليُردف بفلسفية:

ـ رغم هذا نشترك في حبُنا لتلك الأرض، إنها غالية لدى الجميع، يهود، صهيون، عرب، كل منا يحاول الدفاع عن حقنا بها مهما تعددت الوسائل والأساليب والأفكار.

ابتسم إيزرا بحزن مُكملًا:

ـ بجانب الكراهية التي نشترك بها جميعًا فإن الفارق الوحيد المميز لنا أننا ندافع عن مبادئنا، ما تربينا عليها وخلقنا لأجلها.

زفرت إيف الهواء بتعب ناظرة للسماء بتيه:

ـ ما الذى يجعلنا بشر؟ أهو الفؤاد؟ فماذا إن كان صلدًا كالألماس؟ أهو العقل؟ أحيانا يصبح مشوه ومغيب، التنفس؟ سمة أساسية يتشارك بها البشر جميعًا، ما الذى يحدد وجود الشعور البشري بنا؟ أن يكون لجدى وأبي القدرة على الشعور...

وغيرت دفة الحديث لتسأل أخطر أسئلتها:

ـ لماذا لا نعيش في سلام نحن وهم بدلًا من أن نعيش نحن أو هم؟ لِمَ لا يتركون فلسطين بسهولة بدلًا من محاربتنا؟

ابتسم ابتسامة خافتة وقال:

ـ أنتِ لا تصغين لحديثي جيدًا، ولكن سأجيبك، أو بمعنى أصح سأجيبك بما قاله صديقي العربي أبو عمار «**اطلب من رئتي التوقف عن التنفس أو من قلبي التوقف عن الخفقان، فحينها فقط ستخمد نار مقاومتنا، المقاومة هي هويتنا وحياتنا**».

وهربت الذكرى وحضر الواقع، تباطأت يد أمير بفخر متحدثة بطفولية:

ـ أين سنذهب؟ إذا كنت تأخذ رأيي فالحسين قريب من الخان!

قبض أمير على لحم ذراعيها وهزها بقوة كاد أن تنخلع لها كتفها:

ـ أنتِ بالتأكيد تتعاطين شيئًا!

ـ أتعاطاك أنت.

ـ ما نوعك يا امرأة؟!

نظرات الاستنكار من عينه أصابتها بهستيريا ضحك متواصل، لتجيب بصوت مرتفع ذو نكهة أليمة بإحساسها الوقتي:

ـ امرأة للعرض والطلب.

ـ كنت أعرف بأنكِ رخيصة.

ابتسمت نصف ابتسامة وهي تجيبه بتحدٍ مهينة إياه:

ـ لن أكون أرخص منك.

واقتربت منه كثيرًا لتهمس بأذنيه بنبرة مغوية:

ـ أستطيع الشعور بدمائك الحارة تندفع داخل جسدك، أرى تصبب جبهتك عرقًا وارتباكك، وجودي بجوارك يسبب لك مشكلة أخلاقية، والآن ما رأيك بالسينما أم نجعلها بموعد آخر؟ وجدتها...

باردة، مغوية، وقحة؛ ثلاث جمل أصابتها كوصف وأصابته بالحنق فصرخ مُقاطعًا إياها:

ـ اسمعيني جيدًا، أنا بالكاد أتمالك نفسي كي لا أضربكِ...

وكرد فعل لها شهقت بتصنع قائلة بسخرية:

ـ يا لك من عنيف إلا أنني أعشقك، ولكن لأذكرك بما قلته؛ قبولي الاتفاق يعني دمارك أنت.

اعتصر لحم ذراعها بقوة ليهتف كببغاء:

ـ اصمتِ، اصمتِ.

واحتدت المشاعر والحديث، وتفوهت إيف بأول ما جال بعقلها من أسئلة:

ـ لماذا قلت بأنك تحبني؟! كم ذبحت فتاة مثلي بتلك الكلمة. ولماذا اقتربت مني بالمقام الأول برغم ما قلته، كنت تريد اللعب بي أم التعرف عليّ؟ أخبرني.

سحبها أمير من ذراعيها بقوة متمتمًا بغضب:

ـ سيري معي ولا تفتعلي جلبة.

نفضت يده بقوة وباشمئزاز وقالت بغلظة:

ـ إياك أن تلمسني مرة أخرى.

ولمح أمير منها نظرة مخيفة باردة، وبأقوالٍ أخرى غريبة، خاصة عندما أردفت حديثها بنبرة ودودة وهى تتابطأ ذراعيه:

ـ أوه، هذا لا يهم الآن، فلتخبرني عن ما فعلته من قبل يا شقي!

قالت كلمتها الأخيرة وهي تلمس وجنته غامزة بوجهها، بينما أمير كان يسير ببلادة هامسًا لنفسه:

«**مرتبط بمجنونة**».

◇

ـ موافقون بالطبع، فلن تجد زينب أفضل من أمير زوجًا لها، وهي ليست ممانعة الزواج منه، أليس كذلك يا زينب؟

صرخة خرجت منها بدون وعي وانهالت دموعها وهي تشهق وتزفر بصعوبة، فهي بين شقي الحرب، المطرقة والسندان، إن رفضت فستبقى مع أخيها ولن يأتِ أحد لينقذها، وإن وافقت فكيف سيبرر أمير أفعاله أمامها؟ ماذا ستفعل؟!

ستصبر أم ستصمت؟

في كل الأحوال هي ستختار العادة، فهي قليلة الحيلة والموشومة بالقسوة، ضعيفة الإرادة، وهي زينب!

انحنت أنعام ناحيتها وهي تمسد بيدها على ظهرها قائلة:

ـ زينب، أتبكين؟!

كان شهاب قد نهض من نومه العميق، وأثناء توجهه لغسيل وجهه والوضوء للصلاة سمع صوت أمه:

ـ لا بد أنها دموع الفرحة.

تقوس حاجبيه باستغراب وتوجه ناحية غرفة الضيوف ليسمع الحديث الدائر:

ـ قولي موافقة يا بنيتي ولا تصمتِ ولا تخافي من شهاب، فسأواجهه أنا و...

ـ ما الذي توافق عليه؟

هذا الصوت الرجولي الغليظ حول حياتها لنوع من الإجبار، في المأكل والملبس، باختصار رسم نفسه رجلًا قويًا عليها.

وقفت آمال على قدميها من الخوف عندما وجدت شهاب ينظر إليهما مُستفسرًا ومُحتقنًا بالغضب لتتأتئ بحديثها:

ـ السيدة أنعام هنا لترانا وتطمئن...

ـ أنا لست غبيًا، وأظن أنني أفهم ما يجري هنا، ليس لدينا بنات للزواج، زينب مخطوبة لمولانا حمزة.

قلبها الحزين انفطر لشقين وكذلك عقلها، فبدلًا من أن تبكي وجدت نفسها تصرخ وتضحك بهستيريا مُفكرة بمرارة:

«**حتى الزواج سيجبره عليّ، لن يتركني بحالي، حتى إن مت، وكله بما لا يخالف شرع الله**»



يشحذ الحديد متحملا الحرارة ومُفكرًا بحياته بيورشليم وإيف، يتتوق إليها كلما كان بسهل عكا، رفع الغطاء المعدني ومسح بيده جبهته المتعرقة ناظرًا لأخيه رؤيين ذو العشرين ربيعًا فلأجله ولأجل شموئيل تخلى عنها.

ولا يعرف أي خيط لمعلومة صغيرة عنها، وذلك لثلاثة عشر سنة وثلاث شهور ويومين بما يعادل ٤٧٢٠ يوم، وهذا جيد حتى لا يعرف الشيطان طريقها، فعزيزة قلبه قست المُر من ذلك القاسي الجلف مُتبلد المشاعر، والذي لم يسلم الجميع مسلم كان أو يهودي عربي من شره، فهو لا يقبل الدخلاء ومن ليس دمائهم صافية مثله، ولا يطيق إيزرا رحبوت حاييم الطبيب ليلًا والحداد صباحًا، لأنه يتعامل مع العرب ولأن دماءه دماء ييشوف قديم.

ابتسم مُتذكرًا أول مرة يراها فيها، كان عمره ستة عشر عامًا، وبرغم كراهيته للاشكناز إلا أنه لم يستطع كراهية تلك الطفلة قريبة جاؤون الصغيرة والبريئة ذات النظرة القاتمة بمقلتيها والخجل الذي يرافق وجنتيها. وثابر حتى افتتح قلبها واستوطنت هي قلبه.



سابحًا بملكوت عالمه الخاص ذو الأساس المشوه بحب ممزق، والمُتمثل بصورة عُرسه. كانوا بسن العشرين حينها، بعد أن استغرقه التعافي من إصابة الحرب ثلاث سنوات ولم يمروا بسلام أيضًا؛ فلم يستطع إدارة متجره بشكل جيد رغم مساعدة أنعام له، وبالتبعية لم يستطع إدارة مشاعره تجاهها كذلك.

أنعام بالنسبة لمحمود مركز الألم الكلي بجسده، تممت زواجهما المُتفق عليه رغم أنف الجميع ورغم أنفه شخصيًا، وبعدها أبقاها على هامش حياته بنظره وبنظر الجميع زوجته وأم

وليده، أبقاها بعيدة عن قلبه الذي مات كذلك بالحرب ولهذا؛ يكره نفسه ليكرهها.

وضع الصورة بالعلبة وأخفاها بدرجه، ولا يزال يفكر بسؤاله الأبدي: لماذا لم تقتنع أنعام بأن حبهما انتهى بعدما أصبح عاجزًا؟ ولماذا أصرت وتمسكت بزواجهما؟!

دق جرس الباب فصرخ بصوت عالٍ:

ـ ادخلي يا أنعام، لا تدقي الجرس، أنا قادم.

والدق مُستمر ليدفع مشاعره لحافة الغضب وليتلو إجاباته:

«**أبقت عليك زوجًا لتهينك وتذكرك بعجزك وحبكما شفقة**».

دفع كرسيه نحو الباب ليفتحه لتتوقف الكلمات بحلقه لرؤيه جاره الجديد السيد عبد القدوس حاملًا بيده إناء ساخن به حساء عدس.

ـ صباح الخير يا سيد محمود.

لم ينبس محمود بشفا كلمة مُكتفيًا بالتحديق الذاهل له، فأردف وهو يمد يده بالطبق:

ـ لقد أعددته بنفسي، أتمنى أن يحوذ على إعجابك.

ضاقت عينا محمود باستفهام مفكرًا بكلماته، وعن هذا الحساء لا بد بأنه مسمم ليقتله ويستولي على بقية الشقق والمتاجر، بينما عبد القدوس استكمل حديثه مُعطيًا إياه ورقة قديمة:

ـ صدقني يا سيد محمود أنا لا أضمر لك ولا لعائلتك الشر، ما حدث سوء الفهم، فابنتي حورية مترجمة كُتب عبرية ومتأثرة بها للغاية، وهذه أوراق إثبات شخصيتي، أنا مصري.

ـ أتتوقع أن أصدق تلك الكذبة البلهاء؟ تفنن بأخرى أكثر إقناعًا.

وأغلق محمود بوجهه الباب، وبهدوء نظر بالورقة الصفراء المهترئة ليفغر فاهه غير مصدق قائلًا بدهشة:

ـ الجنسية: مصري!



ناظرة لذلك الجسد الأسمر الضخم الملتحف بقميص أرزق مقلم وجينز من نفس اللون، يتمايل برشاقة يمينًا ويسارًا بالًكرة أو يحركها على مشط قدميه ويرفعها على ركبتيه ويجعلها تتلاعب بمكر على صدره العريض ثم يسدد بها ركلة صاروخية ناحية الهدف، وما أجمل أن يحملها على جبهته ليصفعها بقوة راشقًا إياها في الشباك، لقد أتى بها لمباراة كرة ودية مع صديقه أحمد بدران بعد أن وجدهما صدفة وألح على حضورهما.

صرخت مُشجعة أمير متجاهلة نظرات الجميع التقييمية لها قبل أن يركزوا بالمباراة الودية التي دائمًا ما يتجمعون لأجلها.

حادثه عاشور أحد رفقائه:

ـ من تلك الفتاة؟!

أجابه أمير بحنق من بين أسنانه المطبقة:

ـ قدري الأسود.

قهقه ضاحكًا:

ـ قدرك الأسود رائع الجمال!

بعد انتهاء الشوط الأول جلس الجميع بجانب إيفت للاستراحة، ثرثرت معهم عن حياتها كمغتربة بلبنان وسوريا وسائر الدول العربية، بينما أمير يجلس منزويًا عنهم، يغرق رأسه بالماء محاولًا تهدئة تلك الجمرة المستعرة فيها، فكلهم حولها كما الذباب حول الحلوى.

بدأ الشوط الثاني سريعًا، ومعه بدأت استفزازات إيفت لأمير تتزايد، تخبره أن يحصل على هدف لأجل أبيه وحينها فقد صبره وركل الكرة باتجاهها مُباشرة، وعندما أصابت الهدف ابتسم بشماتة مُفرطة.

ركض الجميع صوبها للاطمئنان عليها، بينما هي مسحت الدماء من أنفها موجهة حديثها لأمير وهي تستعد للرحيل من المكان:

ـ الاتفاق أُلغي، وسأخبر أباك عنا.

ودون أدنى اهتمام بتساؤلات أصدقائه عنه ركض وراءها، قلبه يتسارع كلما ابتعدت الشقراء بعيدًا عنه، وبسهولة ذوبان السكر بالماء اختفت من عينيه.

ستخبرهم وينتهى أمره، هذا إن لم يسبقها للبيت! وبسرعة البرق توجه للمنزل ليجد أمه تستعد لدخوله حاملة أكياسًا من السوق، وما إن رأته حتى حدقت به بغرابة:

ـ لماذا تلهث؟ هل حدث شيء ما؟!

تمتم بنفاذ صبر:

ـ كلا يا أمي، هيا لنصعد للمنزل.

وما إن خطى بقدميه ناحية المدخل حتى سمع صرخة عدم تصديق بها توليفة من الغضب من أبيه فهرول ليجد إيفت أمامه.

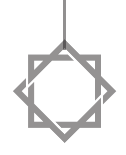
كررت حديثها الذي قالته من قبل:

ـ ابنك اعتدى عليّ وكسر أنفي وهددني بالقتل لكيلا أقول شيئًا.

وكل شيء بعدها تحرك ببطء سينمائي مُهيب، فإيفت تنظر ضاحكة بتشفٍ وأبيه جاحظ العينين، أما أمه أنعام فلقد وقع كل شيء تحمله بالأرض قبل أن تقهقر للوراء غير مصدقة، فنبتة حب الابن تمزقت ومن السبب؟!

أهو غباء أمير أم دهاء إيف؟!

حقًا لا نعرف.



# الفصل العاشر

الصمت ليس واجبًا مفروضًا عليه حتى ينتقيه، عامل التصديق والغضب كان أحد اختياراته عندما انتفض بكرسيه صارخًا ومنددًا بما قالته:

ـ أنتِ كاذبة، ابني لا يخطئ.

ببسمة باهتة ميتة وإشارة من يدها أجابته:

ـ اسأله بنفسك.

تحولت نظرات الجميع إليه وهو يقف حائلًا بينهم وبين نفسه، لقد أعلنت رسميًا انتهاء حياته بجملة واحدة، ورغم شعوره بانهيار كل شيء من حوله إلا أنه تحدث بنبرة هادئة للغاية مُتحاشيًا النظر للجميع:

ـ إنها كاذبة.

يعلم بأنه هو الكاذب، وكل هذا لأجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه والخلاصِ من الموقف بأقل خسائر ممكنة، حتى وإن أصبح وغدًا بكل ما تحتويه الكلمة.

صرخت به بصوت أعلى من صوت الجميع وهي تمسكه من ياقة قميصه:

ـ أنت كذاب، اعترف بالحقيقة.

وعلى أثرها خرج جاؤون ويوسف من الباب المقابل، وفور أن رأى إيفت تشتبك مع أمير أمسكها محاولًا تهدئتها:

ـ حورية، ماذا تفعلين؟!

ـ ذلك اللعين، اعتدي عليّ وينكر فعلته، خذ حقي منه يا أبي.

ـ أنا لا أنكر ولا أكذب، لم يحدث شيء بيننا.

إما هو أو هي، معادلة بسيطة تحتاج لفائز واحد فقط، وفي رحى حربها يتخلص من بقايا الشيء المُدعي ضميره. فابتسم ببرود مُردفًا بصوت منعدم المشاعر:

ـ أنتِ إنسانة مختلة عقليًا، أنتِ من كانت تتبعني خلال اليومين الماضيين، طلبتِ مني أن نختلي ببعضنا بمكان خاص، ولكنني رفضتك، فلهذا تنتقمين.

وبسرعة هائلة تحررت إيفت من جاؤون لتضرب أمير على صدره ووجهه صارخة بهذيان:

ـ أأنا من قلت لك هذا أم أنت؟!، كذاب، أفاق، سأقتلك.

وأمير ملتزم أقصى درجات الهدوء وضبط النفس، وبداخله يقسم بجعل حياتها قطعة مصغرة من نار جهنم ثمنًا لكل ضربة على وجنتيه.

ـ ابتعدي عنه أيتها الغوغائية وإلا فسأكسر لكِ يدك، ومهما فعلتِ فلن أكذب من لحمي ودمي حتى لو أتيتِ لي بما يؤكد حديثك.

واحتواها جاؤون ليهدئ من مشاعرها المُتفجرة، وليُجيب على حديث جاره بشدة:

ـ سيد محمود، أنا أعرف ابنتي مثلك تمامًا، وإذا قالت بأنه حدث فأنا...

قاطعه محمود بحدة:

ـ اسمع يا هذا، أنا أحذرك الاقتراب من عائلتي فهي خطوط حمراء لا تتعداها، وبدلًا من أن تخبرني بتفاهات أجبرها على قول الحقيقة، لا بد من أن غرر بها شخصًا وحملت منه سفاحًا ولم تجد سوى ابني الشريف لتلفق له تلك التهمة.

زمجر جاؤون غضبًا وكاد أن يتحدث معترضًا لولا أن إيفت سبقته بالحديث:

ـ اقرأ شفاهي واسمع كلماتي وافهمها، ابنك السافل مثلك انتهك سترتي، صدقت أم لم تصدق لن أصمت عن حقي، وسأخبر الشرطة إن لزم الأمر.

ضغط محمود بغل علي كرسيه المتحرك، هو بطل حرب أكتوبر وسليل عائلة الأبطال سافلًا! لو كان يملك ساقه لجذبها من شعرها حد إخراجه من مكانه:

ـ صوني لسانكِ يا...

أشارت بسبابتها بوجهه مقاطعة إياه:

ـ إن تفوهت بإهانة في حقي صدقني ستندم.

ـ أنا لا أخاف منك أبدًا.

وأنعام دخلت للمنزل بهدوء تاركة المعمعة على بكرة أبيها، ومتيقنة من شيء واحد فقط، أمير ابنها يكذب، فهي تعلم حركاته جيدًا يهاجم عندما يشعر بالخوف، ويصرخ ليحاول إثبات موقفه، والأمر المقيت هو تصديق محمود له. أما أمير فلقد قرر إنهاء الموقف عند هذا الحد فتحدث بثقة:

ـ كفى هراءً، لا يوجد إثباتات على ما تقوله، إنها كاذبة.

وعيونها الزبرجدية توحشت حد السعار، فصرخت منددة ومهددة بالأفعال:

ـ بحق من خلقني وسواني امرأة لأجبركما على التفوه بالحقيقة، هيا أبتِ، لا تجهد نفسك بالكلام مع أناس أصماء.

لم يدرِ حقًا يوسف وهو يتابع تلك المعركة الخامدة بين الجميع بماذا يفكر أو يقول، كل ما شغل باله ضرورة تنفيذ كل خططه ولتذهب إيفت ومشكلاتها للجحيم فليس هذا يخصه.

ابتسم مُتذكرًا السيد إكرامي، سيستدرجه ببطء ليكون ضمن عملاؤه من الساسة وهو بانتظار الأوامر من مائير للبدء.

لم يكن تجنيده بالموساد رغبة بالانتقام أكثر من المواساة؛ فالانتقام غاية للشخص الذي فقد حقه وينوي استرجاعه بشتى الوسائل، وينتهي بمجرد الحصول عليه وغالبا ما يحرق صاحبه، بينما المواساة شعور يكتسبه الفرد بعد المصيبة لتعينه على تقبلها والتعايش معها والاستمرار، وكل هذا لأجل جيليللا وليست ماجي أمه؛ فجيليللا الأم والصديقة والحبيبة والزوجة.

هي كينونة حياته الرائعة بإسرائيل وأساس وجوده بالدنيا، خُلق لأجلها، كَفر لأجلها وسينتقم لأجلها أيضًا.

أما ماجي والدته فكانت تبدي عاطفة وقتما تشاء، وكل ما استمرت بقوله منذ نعومة أظافره ألا يختلط بالعرب ويحب إسرائيل.

زفر الهواء العالق بصدره بوجع تام؛ فهو لا يزال متكسرًا من تأثير ضربات أمس، حمدًا للرب أنه لم يهذِ إلا باسم جيليللا، دخل لغرفته مغلقًا عليه الباب مُفكرًا بخبث وشيطانية:

«**شهاب هو خطوتك القادمة يا يوسف.**»



ـ خرجتِ من دون إذني ريتشيل، لا فائدة بعقلكِ اليابس، ما الذي يصيبك؟! تخرجين بجنح الليل وتعودين بأوقاتٍ

مُختلفة محملة بعبق الكحول، أو تركضين وراء أناس متطرفين دينيًا!

سوت ريتشيل شعرها النحاسي الكث وهي تتثاءب مجيبة:

ـ لهذا جعلتني أستيقظ يا أبي؟

جلس مايكل جوارها مُتحدثًا بألم:

ـ أعترف بأنني لم أكن سوى الأب لكِ، وأنني فشلت باحتوائكِ عاطفيًا كأم، ولكن بحق العذراء حبيبتي أخبريني لمَ تتصرفين هكذا؟ منذ أن ابتعدتِ عن أمير تغيرت أحوالك!

العشق داء ودواء، ببساطة يدخل إليك كالهواء، يستقر بأنسجتك ويحتل فؤادك مثل كرات الدم البيضاء، يجعلك تدافع عن حبيبك وتتمسك به لتقوى عافيتك، ويجعلك تضعف عندما يرحل. احتار العلماء والأدباء بتفسيره مثلما احتارت ريتشيل فيه.

ما الذي يجذبك لشخصٍ ما عن غيره؟! الملامح، الشخصية أم ماذا؟!

ومايكل أيضًا بحيرة، فماذا يفعل لها؟ تعذب منذ طفولتها الشقية وحتى دخولها الجامعة، أمها مارينا لفظت أنفاسها بسبب أنها كانت حاملًا بأخيها وهي مريضة بروماتيزم القلب رغم تحذيرات الأطباء لها، وكانت ريتشيل وقتها طفلة بمرحلة الابتدائية، ولم يكن مايكل كأب وأم كافيًا بعدها. على القلب اللعين أن يتعلق بأمير الجار المسلم والذى بصفاقة وسذاجة حطم مشاعرها ولمِ يُبال بكسر قلبها.

كيف تشفى من الجروح التي بالروح؟!

ربما بأن تحب مرة أخرى أو تساعد من أدخله العشق لنار الجحيم كمثل ذلك الشاب السكير ذو العيون الرمادية المُخيفة.

ـ أخبريني حبيبتي، لمَ ترافقين مريم ومن قبلها سامي، ما الذي يجذبكِ لهؤلاء دونًا عن أبيكِ؟!

وصمت منتظرًا الإجابة فهي مدينة بالشرح، لعله أخطأ بحقها لهذا تغيرت، لعل السبب هو تحكمه فيها وتسليطه لأمير بأن يصطحبها بكل مكان تذهب إليه وكل هذا لأجل تشتيت ذهنها عن سامي، وبرغم من هذا تركت أمير وعادت لتقابل ذاك المختل، وكانت تبيت بشكل دائم عند خالتها لا تأتي للبيت إلا لملمًا.

ـ سأخبرك أبي، أنا أحب...

ورنين هاتفها الجوال قاطعهم، فنظرت له لتعلم أنها بالتأكيد مريم تود إخبارها عن ميعاد نشر الفيلم المسيء للإسلام، تابعت حديثها:

ـ بالنسبة لسامي فمشاعري كانت مراهقة متأخرة، فبعد تخرجي أحببت اكتشاف الدنيا والخروج من قوقعة اللطيفة ريتشيل، أما مريم فهي سيدة طيبة وتساعدني على التوبة تكفيرًا لآثامي.

اختتمت جملتها بابتسامة باهتة تعكس حالتها فكيف يمكننا الشفاء من شيء لا نعرف أسبابه أصلا؟!



صوته عالٍ ويده التي تطبق على خصلات شعرها أعنف:

ـ ألم أحذركِ من الخروج بدون حجاب!

وآمال تحاول الفصل بينهما:

ـ يا ولدي، أنا من طلبت أن تقابل أنعام بدون حجاب، دعها بالله عليك.

ـ لمَ؟!

صمت لبرهة وأردف مُشيرًا بسباباته:

ـ أعلم ما تسعون إليه، وأنا غير موافق على زواج زينب من أمير بالأخص، بعد ثلاثة أسابيع سنعقد قران زينب على مولانا حمزة.

وبكاء آمال أصبح ضروريًا مُجيبة:

ـ أتتزوج رجلًا مسنًّا ومتزوج ولديه أحفاد وهي ما زالت صغيرة؟!

ـ إنه من أشرف وأكرم الرجال، ومسلم وسيتقي الله بها.

جثى على ركبتيه مُقتربًا من زينب:

ـ أنا أعمل لمصلحتكِ، حمزة إنسان جيد ورائع ولديه أموال تجعلكِ تعيشين ملكة، وافقي حبيبتي، كوني مطيعة.

تعريف فقدان الأمل: شعورٌ يقلك لنهاية العالم، تقتنع تمامًا بأنك لا فائدة منك، ولا في الناس. باختصار لا تجد إجابة لسؤالك الأزلي: لماذا خُلقت؟!

ويمر بثلاثة مراحل؛ أولًا: تبتسم بتيه في أصعب المواقف وأتفهها.

ثانيًا: تترك الآخرين يختارون لك، إيمانًا منك بعدم جدواها أصلًا.

وثالثًا وأخيرًا: تفقد القدرة على الإتيان بردة فعل يذكر.

فقدان الأمل بمعنى آخر؛ خضوع لا تقدر أكبر ثورة بتاريخ العالم كله على تكسيره، وهذا ما اقتنعت به وهي تومئ برأسها:

ـ كما تريد، لن أعترض.



بعد مرور أسبوعين..

اليوم غير معروف.. مجرد اسم على صفحةٍ بيضاء نقلبها.

ما نوع اليوم؟

إنه شيء يخبرنا بالسير وفق ساعة رقمية بيولوجية.

الحالة النفسية لعائلة أمير يكسوها هدوءٌ مُميت، وبخاصة أنعام، الكرب بصدرها يتزايد يوميًا، وخاصة بعد قرار محمود بعدم التحدث بموضوع تلك الفتاة، وها هي الآن تقف بالمطبخ تعد الفطور عندما أتاها أمير مُتحدثًا:

ـ أشتهى تناول البازلاء على الغداء من يديكِ الغالية، هل يمكن؟

غسلت أنعام أحد الأطباق دون حديث، ليردف مُقبلًا رأسها:

ـ هل ما زالتِ غاضبة يا أمي؟ صدقيني أنا لم...

أجابته إنعام بجفاء:

ـ أمير، بعد ما حدث لم تعد لي السلطة في التدخل بشؤونك، حتى زينب التي اخترتها لك ستتزوج بآخر؛ لهذا تتزوج، تصاحب فتيات، أنت حر بحياتك.

دق جرس الباب فصرخ محمود:

ـ الباب يدق.

دفعته أنعام عنها قائلة باقتضاب:

ـ هيا افتح الباب، أنا مشغولة جدًا.

هز أمير رأسه دون أن يعقب، وذهب للخارج؛ حالته النفسية ممتازة، وبخاصة عندما صدقه أبوه، بالإضافة إلى أن الشقراء اللعينة حلَّت عن رأسه أخيرًا. كان يصفر بسعادة لرجوع كل شيء لسابق عهده، وما لبث أن تحشرجت أنفاسه للطارق؛ فالشقراء اللعينة ما زالت سارية المفعول، في يدها ورقة صغيرة، وباليد الأخرى هاتفها المحمول، وبصوت وضَّاح جهوري:

ـ سيد محمود، اظهر لي.

ـ ماذا تفعلين هنا؟!

رمقته بازدراء متجاهلة الحديث معه:

ـ إليك تقرير الطبيب الشرعي الذي يثبت أفعال ابنك يا سيد محمود، وبيدي تسجيل لاعترافه.

ويمكننا أن نصف الصدمة التي أصابت أمير وقتها، إحساس يجعلك تقف بلا حراك وباندهال تام، تشعر بأن من حولك ليس لهم وجود، تخرج عينيك من محاجرهما يليه انقباضة قوية بالقلب، مع شعور دفين بأن كوكب الأرض خرج عن مساره مُتوقفًا بغباء مطلق بأرجاء الفضاء، ولو شئت وهذا ـ بأقصى أعراضه ـ ستصفق صارخًا على أنك أغبى كائن على سطحه.

ومحمود لا يصدق ويتحدث بصريخ:

ـ أنتِ مجددًا.

تبسمت إيفت نصف ابتسامة، وتحركت صوب أنعام ملقية الورقة بيدها:

ـ طالما ابنك هنا سأظل هنا، هذه نسخة تثبت ما فعله، أريها لزوجكِ واسمعي هذا.

وأسمعتهم تسجيلًا لحديثهما السري ثم حدجت أمير بابتسامة صفراء مشيرة بأصابعها في الهواء ومحركة شفاهها دون صوت:

ـ أمير «١»، حورية «٢».

وأطلقت ضحكة سخيفة مردفة:

ـ ليكن لديكم علم بأنني سأبلغ الشرطة، ولهذا أترككم للتشاور العائلي، سلام.

وأقفلت الباب ليخيم الصمت، تعبيرات تتدفق بغزارة على وجنتي أنعام، وبعيونها نظرات اتهام متشككة:

ـ قل أنه ليس صحيح وهذا ليس صوتك.

بينما محمود كان غير مصدق، يتخبط كصرصار تلقى ضربات قاسية، وبأبسط معانِ اللغة العربية (**حزين**).

تعريف الحزن: شعور بانطباق الضلوع على القلب بقسوة حد ضيق نفسك بصدرك، تحس بأن هناك شيئًا ما يؤلمك مع أنك لم تتعرض لأذى جسدي، الدنيا بعينيك أضيق من فتحة بنافذة، سواد لا تعرف من أين أتى أصلًا يحتل نواظرك. غالبًا يستمر معك إلى ما لا نهاية، وأقسى أعراضه أن ترى ابنك مات على قيد الحياه.

فتحت أنعام الورقة الجديدة لتقرأ:

«**تبين بالكشف حدوث اعتداء جسدي عنيف من الجروح العميقة بجسد الضحية**».

جلست على الأريكة وغمغمت بحزن:

ـ من حملته بأحشائي يعتدي على الفتيات! يا ليتني مت قبل أن أرى هذا اليوم.

بينما محمود استقبل الورقة بهدوء، وعيونه أصبحت قاسية ومظلمة كالجلمود:

ـ أهذا صحيح؟!

الضمير عاد بجسده ليذكره بما كان في غياهب النسيان، تلك اللحظة التي انفجر شيطانه بعقله لينزع ملابسها ويخرس حركاتها المضطربة أرضًا، ندبتها الكُبرى المحفورة بصدرها، كان ليثًا مسعورًا يرى لحمًا ثمينًا مستعينًا برائحتها الشهية، يتذكر نظرتها المريبة العاجزة وقبلتها له المُضطربة وأنينها الشبيه بعواء ذئب

جريح في البرية، ما لبث أن تحول لصراخ ومقاومة وغمغمات موجعة.

ـ اتركني.

عندما سمع النبرة، الوحش الضارِ داخله خمد أو أحس باشمئزاز من النفس، فعلاقاته مع الفتيات كانت بريئة بعكسها، ربما لظنه بأنها أجنبيه فأمر الزواج لا يعنيهم. إن أراد تلخيص الأمر فسيصفه على أنه كالتالي:

الفتاة ذات فتنة وأنوثة طاغية + كانوا بمفردهم + اقترب متأثرًا بعاطفة = إثارة العواطف للرجل تعني كارثة.

ـ حدث ولكن...

لم يدعه نحيب أمه التي كانت تهز برأسها يمينا ويسارًا لطمة خديها يكمل، حتى محمود كان يغمغم بحزن:

ـ يا ليت لدي أرجل حتى أصفعك ليبرد قهري.

أطرق أمير رأسه للأسفل وتوجه ناحيته وبكل عزة يملكها جثى على ركبتيه ليطول مستواه، يرتجف كطفل منتظرًا العقاب، وبخاصة أن صاحب العقاب لا يملك أن ينهض إليه، ضربه محمود ضربتين بكل ما أوتي من قوة حتى أنهكته تمامًا، فهو في سنته السادسة والخمسين، بينما أمير ابتلع التأديب مراقبًا أبيه يتنفس بإجهاد قبل أن يتساقط في كرسيه، وما أن حاول لمسه حتى صرخ:

ـ لا أريد أن أراك أمامي، اذهب.

تركهم دون كلمة، وصعد إلى السطح متيقن من وجودها به، وجدها كمن يستعد للانتحار حيث أنها تقف على الحافة شاخصة بصرها للفضاء، وفاردة ذراعيها على وسعهما ومرجعة برأسها للوراء متمتمة بصوتٍ عالٍ:

ـ في حياتي نوافذ عديدة، وقبور عديدة، وأحيانا تتبدّل الأدوار.

وما إن رآها حتى هب بكل جوارحه المستشرسة صارخًا:

ـ لمَ فعلتِ هذا؟! لمَ حطمتني بهذا الشكل؟!

التفتت نصف التفاتة وتبسمت بوجهه قائلة بتروي تحسد عليه:

ـ لا أعرف، أم... مممم آآآه لقد تذكرت، لنبدأ من الصفر؛ أولًا اعتديت عليّ بالضرب ووصفتني بالكاذبة المختلة، كثير... كثير يا أمير.

وأردفت وهي تقفز للأرض بخفه الغزال:

ـ في الواقع لقد كنت أفكر بالأسبوعين الماضيين بكيفية تدميرك، وتقريبًا أنجزت المهمة.

ضغط على فكه واستنشق الهواء بعمق ليهدئ من خوالجه المستعرة، فيكفي جريمة واحدة، لا يجب إضافة جريمة قتلها إلى لائحة الاتهامات.

ـ لمَ لم تلتزمي باتفاقكِ على أن أتركك وشأنك؟!

ـ نحن لا نلتزم بالاتفاقات يا أمير.

- بحكم ماذا؟!

أجابته بهدوءٍ شديد:

- بحكم دمي اليهودي الصهيوني.

شهق أمير بتمثيلية:

- أأنتِ يهودية؟!

زفرت الهواء وقلبت عيناها بتذمر:

- أووف! توقف عن ادعاء الجهل، كلانا يعرف الحقيقة.

ارتفع أحد حاجبيه بغيظ وهو يقاطعها:

- الحقيقة هي أنني تركت أبي ذاهلًا وأمي تكاد تفقد الوعي، يا ليتك تعفنتِ بذلك البلد الذي كنتِ به، يا ليتك متِ قبل أن أراكِ.

- صدق أو لا تصدق، من أمامك إنسانة ميتة، ومع هذا دمرت حياتك.

هل لنا أن نصف الغضب عند الحاجة إليه؟!

إنه شعور بوصول الأدرينالين لنخاعك الشوكي، يختمر برأسك ليحركك كالدمية، أحيانًا عيونك لا ترى سوى ما تريد أن تراه فحسب، لأنك لو رأيت ما يراه الآخرون فسيهدئ ذلك من وتيرة اندفاعك؛ لذا عزيزي باختصار شديد تصبح كالحيوانات في طريقة التعامل، وربما قد يصل بك الأمر لتطبيق مبدأ العنف أولًا ثم الحديث. وهذا ما فعله عندما صفعها بقوة حتى شج

شفاهها وانبجست منه الدماء، فما كان منها إلا ابتسامة مريضة وهي تمسحها لتردف:

ـ برغم ما حدث، أحسدك؛ فلديك كل شيء، ولكنك لا تراه كافيًا، بل تتمتع بتدمير حياة الآخرين.

أشار بيده ناحيتها وهو يتحدث:

ـ أنتِ لا تعرفين عني شيئًا، فمن أنتِ حتى تحكمي عليَّ؟!

ـ ولا أنت، ولا الجميع يعرف عن حورية شيئًا.

أمسكها من ذراعها وهزها بعنف:

ـ لتكفِ عن الهراء، وقولي من أنتِ ولماذا تركتِ إسرائيل يا... إيفت.

تحدثت بشرود مُتذكرة ما يخص (**تل إيفيف**) تل أبيب:

ـ اترك هذا الموضوع.

وشعر أمير بالظفر، لقد لمس نقطة ما لصالحه، فتحدث مستزيد بالضغط عليها:

ـ أيؤلمكِ التحدث به؟! ليؤلمكِ أكثر أيتها الحية، لمَ تركتيها؟!

وبهت وجه إيف وجسدها ينتفض بخوف متمتمة بهذيان على تركها ليردف أمير بلا مبالاة:

ـ إذا كنت سأغوص في الجحيم بسببك فلا بد أن أجرك لجحيمك.

كانت تنظر بشرود في كل أرجاء المكان بعيونها، وما أن استجمعت قواها حتى ابتسمت ابتسامة باهتة ذاهلة وكأنها شخص مُقدم على إعدام نفسه لتجيبه بهدوء:

ـ أتريد أن تعرف أنني يهودية؟ أم أتريد أن تعرف بأنني هربت من إسرائيل خوفًا من أبي بعد أن حاولت قتله، وخوفًا من أصدقائه السكارى الذين اعتدوا عليّ وأنا طفلة عمري لم يتعدَ الثانية عشر عامًا!

وتكهرب جسد أمير من الدهشة ليتركها مُحدِّقًا بها بذهول ولتتابع حديثها:

ـ هل أكل القط لسانك؟ هل تظن بأن حياتك أصبحت جحيم؟! أعد التفكير، حينها ستجد أنك مهما حدث لا زلت تعيش حياة رغيدة.

صمتت لبرهة وترقرقت الدموع بعيونها مردفة حديثها:

ـ هذه هي أنا، يهودية أبيها حبسها بالخزانة وانتهك سترتها مع أصدقائه وجارية اشتراها بثمن بخس، ظننت بهروبي أنني نجيت، ولكن اكتشفت مؤخرًا لو ذهبت لأقاصي الدنيا فلا مكان لي مع بؤسي وعقدي، ولا نجاة لشخصيتي؛ ولهذا توقفت عن الركض تعبًا ومللًا من البحث عن من يعيد وطني وبه سكني وراحتي.

مسحت دموعها وقالت بنبرة تهكمية مغيرة حديثها، فهي لا تريد الشعور بالشفقة منه:

ـ أود أن أعانقك أمير، فهل سيكون هذا غريبًا؟!

صمتت لبرهة وأقبلت نحوه فاتحة ذراعيها على وسعهما لتغوص في أعماقه، استغرق الأمر لتشعر بيده تحوطها فتابعت حديثها:

ـ بك شيء مختلف يجعلني لا أستطيع تحديد ما يتخلج بداخلي، مهما فعلت بك لا تتركني، أنا بحاجة لشخص يكون بجانبي.

اشرأبت على أصابع قدميها لتأخذ رشفه من شفاهه، وليذعن بثورته لحالة ما لا يستطيع التحكم بها، وحينها فقط استعاد رشده ليبعدها عنه قائلًا بأنفاسٍ متهدجة:

ـ أيًا كان ما تفعلين بي، حرريني.

ـ حاول أنت تحرير نفسك مني.

ـ أنتِ ملعونة ومجنونة.

قالها وهو يجاهد بعبث السيطرة على العنفوان المتفجر بداخله، بينما هي كانت تنقر بأصابعها على قميصه وهمت لتقبيله مرة، أخرى ولكنه دفعها ليُردف:

ـ كل ما قلتيه منذ قليل يدل على أنك تختلقين القصص لتوقعيني بحبالكِ!

ابتسمت ملء وجهها، مغرور ووقح وغير مبالٍ بشيء، هزت رأسها موجهة ضربة بالصميم:

ـ كبريائك يصور لك، ولا حاجة لي بافتعال مواقف لاستمالتك، ولأنعش ذاكرتك على ما حدث هنا.

ـ لقد أوقعتني بالمرة الأولى، ودفعتني لأن ألمسكِ، ورغم هذا اقتصر الأمر على تبادل قبلات وحسب، لقد استطعت التحرر من شرّك بآخر لحظة.

كلما خطت خطوة نحوه ابتعد، فتحدثت بنغمة مدلله قائلة:

ـ إذًا لماذا تبتعد؟ اعترف أنك خائف من وجودي معك.

خيّل إليه بتلك اللحظة أن إيفت أشبه بفهدٍ أسود ذو عيون زرقاء واسعة يترصد له بنظرة شرسة، وكأنها نظرة قاتل مأجور لرجل على شفا قتله. وبدون تركيز أو حتى احتجاج رشقت بصدره ليفقد عقله مع أريج شعرها الذهبي الهائج كشعر غجري لحورية لعينة قادرة على سلب عقول أعتى الرجال، كان مستسلمًا لكارثة عاطفية أخرى، غير أنه أدرك زينب بطرف عينيه تركض للداخل بعد أن رأت تلك المسرحية الفاشلة، ليدفعها عنه صارخًا:

ـ زينب!

استوقفها بنبرته الحنونة، فنظرت إليه من زاوية عيونها قبل أن تدلف في ظلامها الخاص، ثم هرول وراءها دون أن يقل لإيفت: سنكمل حديثنًا بوقت لاحق!

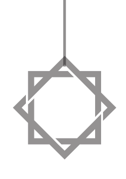


النحيب اختفي منها فور أن توضأت وصلت وأمسكت المسبحة بين أصابعها تسبح بحمده باكية، علَّها تتطهر من المعاصي التي نزلت ببيتها، إلى جوارها محمود شارد لم ينطق إلا بعدما أنهت طقوسها قائلًا بتيه:

ـ إن جاءت الشرطة فسأقول بأن ابني كان معي وقت الحادثة، لن أسمح لتلك الفتاة أن تنال من ابني مهما كان الثمن.

وعندما يفيض بك الكيل فغالبًا لا ترى، لا يهمك الأخضر واليابس وتطيح بالجميع، وهذا كان شعورها وهي تصرخ لأول مرة بوجهه:

ـ إن جاءت الشرطة فسأخبرهم أن ابنك فعل كل ما تقوله، وسيتزوجها كذلك لنستر فضيحتنا الكُبرى، وإن رفضت فسأتوجه بنفسي للشرطة وأخبرهم بما حدث، لن أغضب الخالق ولن أطيع مخلوق على معصيته.



# الفصل الحادي عشر

تبدو الدنيا بنظرها بلونين رغم اتسارع إيقاعها وسط الزحام، ونفسٌ تلومها بكل خطوة تخطوها خلال البشر المُتحركين حولها، تحججت لأمها لتهرب من المنزل لعله يتبعها.

لمَ فعلت هذا؟ ما الذي يملكه أمير عليها لتكن رهن إشارته ورهن الأمل باللقاء؟ أتحاول أن تستجديه لأن يطلب يدها من أخيها؟ أم تخبره ألا يحاول مخاطبتها؟ من هي تلك الفتاة وما علاقتهما بالتحديد؟!

عقلها متزاحم بالأفكار والأسئلة تاركة يدها تتأرجح بالهواء إلى أن احتوتها يده وعيونها قابلت عيونه، فأجفلت لبرهة وحاولت الابتعاد عبثًا، فيدها خانتها وآثرت اقترابه منها.

ـ كدت أفقد الأمل بخروجكِ من المنزل.

أجابته بتورد وجنتيها خجلًا عندما حدقت بعيونه طويلًا وتدفقت عبرات من أعينها، فترك أمير يدها ليمسح تلك الدمعة مُتابعًا:

- لا تبكي حبيبتي زوزو، فدموعكِ غالية عندي، أنا آسف، وتعالي معي زينب ل «**جروبي**» فلا بد أن أشرح لكِ.

انقطع عنها التنفس لشعورها بملمس يده الخشنة يمر ببطء مريع على وجنتيها، ولسماعها صوته الجذاب النابض بمشاعر قلبها، لتتحرك دون مقاومة أو حديث، لن تخبره أن يبتعد فهو الترياق الشافي الذي تحلو معه الأيام. الاستماع لنبض قلبه بهذا القرب يجعلها تطمئن بأن الفارس موجود وهي الأميرة.

ابتسمت شاعره به يطوقها بذراعيه القويتين واختارت كعادتها الصمت، فهي ظلمت بحياتها وصمتت، تُضرب فتصمت، يخونها وهي متأكدة ومع هذا باقترابه منها وبهمسة حنونة تصمت.

جلسوا بالمقهى، داعبت حجابها المحكم حول وجهها بخجل والتقطت قائمة المشروبات بإهمال، تفعل أي شيء لعدم تلاقي أعينهم.

- أأطلب لكِ المثلجات يا زينب؟!

نظرت لحذائها البالي غير معقبة وأحست باختناق حاد بالكلمات، فأردف بارتباك:

- زينب، هل يمكنكِ النظر بوجهي؟ أنتِ لا تسهلين الموضوع، هل تنوين الزواج من شخص آخر غيري؟!

أيحاول التشويش على عقلها وإثبات أنها مخططة وأن ما رأته محض هواجس؟! لم يتكلم بما يجب عليه شرحه، بل يسألها عن زواجها. إن مجرد قبولها للمجيئ معه لا يمحي فكرة أنه خائن. وهي لن تؤثر الصمت أو تترك حقها دون إجابة، وبلا مقدمات ولا أي دخل للمشاعر، حسمت زينب أمرها واستجمعت أحبالها الصوتية لتواجهه بالحقيقة:

ـ وماذا عليّ أن أفعل في من يتقدم لخطبتي؟! لقد كنا سويًا قرابة الشهرين ولم تخبرني أبدًا بأنك تريد التقدم إليّ رسميًا، ثم بأي حق تسألني وتجلس أمامي وأنت...

توقفت كلماتها بالحنجرة، راقبت عيونه المتفحصة لها بأسف، هل ترحل أم تبقى؟!، أمسكت يده تقبلها في هذيان بعد أن فاز قلبها على عقلها بمعركة الكبرياء:

ـ أنا مُكرهة على الزواج من حمزة، أتوسل إليك أن تتزوجني حتى وإن كنت لا تحبني، لن أكون عائقًا أمام سعادتك وحبك مع الشقراء، اعتبرني الخادمة وسأكون غير مرئية لك، سأنام بأي غرفة تحددونها لي، لن أكون عبئًا عليك، لقمتي ومصاريفي قليلة، فقط أنقذني وتصد لأخي، فلا أحد قادر على الوقوف ضده سواك، أرجوك أنا قليلة الحيلة أمامه.

احتواها أمير بلحظة مُجيبًا وهو يربت على كتفها مواسيًا:

ـ أنا أحبكِ زينب، وسأتزوجكِ، وسأقف أمام شهاب، وعن تلك الشقراء أنا لم أمسها زينب، لقد حدث سوء فهم.

ـ أصدقك، أصدقك.

وضعت يدها الواهنة على وجنتيه وابتسمت مقتنعة بكذبه، نظرة الشك تأخذ رحالها وتمضي بسبيلها، سيكون الفارس الأبيض الذي يحميها، ستقبل قدمه ألف مرة باليوم لو أصبحت تحت حماه، وستقبل يد امرأته الشقراء أيضًا، المهم ستتخلص من الجحيم للأبد حتى لو أصبحت تعيش بذل؛ فما الفارق بين الخضوع والذل؟!

الفارق هو أنها مقهورة طواعية وليس غصبًا.

لمحت من بعيد شخصًا أهوج عيونه محمره من فرط الغضب، يرتدي جلبابًا أسود كحال قلبه، هاجم بشراسة ذئب أمير ليطرحه أرضًا وسحبها من حجابها بقوة صارخًا:

ـ أتخرجين مع الشباب يا فاجرة؟ مستباح دمكِ يا زينب، سألقيكِ بنفسي لمولانا الأمير وستتزوجينه دون تأخير لعله يعرف كيف يعيد تربيتك من جديد.

وصرخت ملتفة صوب أمير الذي كاد يضحك فرحًا للخلاص منها، لم يحاول تخليصها منه ولا حتى الدفاع عنها، حتى الفارس أصبح الشرير!

اختفى من ناظريها وسط الحشود، وحينها بدأت تفكر بعقلانية، ستتقبل قدرها المختوم بكونها جاهلة، فعندما يتولد الجهل يكن رفيقه الصمت، وحينما ينتظر الخضوع بلهفة لأن

يتسلم زمام حياتها. فأمير الجامعي وخريج جامعة مرموقة بالقاهرة لن يقبل بالزواج من فتاة لا تعرف حتى تهجئة اسمها.

عندما وصلوا للبيت ألقاها شهاب بالأرض صارخًا بأمه ومانعًا لأي حوار جانبي:

ـ تلك الفاسقة سأعقد قرانها على مولانا الأمير، وأنصحكِ أماه ألا تتدخلي حرصًا على ألا تموت في يدي من البطش بها.

وعندما ذهب وتركهم دفنت زينب رأسها بصدر آمال باكية:

ـ لا تدعيه أمي يتمم زواجي بحمزة أرجوكِ.

أمسكت أمال طرف كم الجلباب لتمسح وجه زينب قائلة بابتسامة علها تبعث فيهم الأمل:

ـ ليتولاكِ الله برحمته، ليس هذا ما حلمت به كعريس لكِ ولكن، ربما سيريحك من العذاب هنا، لا تبكي وافرحي حتى لو كان الأمر مُر.

ستُزَف للموت برجليها دون أن يكون هنالك اعتراض من الجميع، نظرت لفستانها الأبيض بحسرة وعدم تصديق، وكانت أحيانًا تأبي أن ترتديه إلا أن أنعام حاولت تهدئتها لترتديه في النهاية – بعد مُضي ساعات من الإقناع – وهي تبكي بغزارة.

وبالخارج شهاب يجلس جوار المأذون وقد أتم عقد القران بسرعة، زيجة مُباركة وهو يعلم، فمولانا الأمير غني وسيغرقهم بالنعيم، وسينقذهم من التسول لمصلحة المعاشات.

وثواني وطارت لشقة عش الزوجية والتي بها كل أفراد الأسرة الذين اصطفوا من كبيرهم لصغيرهم ليروا زوجة الرجل الكبير وليباركوها وهم يقيمونها. وأُغلق الباب لغرفة الإعدام.

وسويعات، وما بين شد وجذب، استلزمه الأمر قوته الباقية كلها ليستطيع إخضاع ذلك الفرس الصغير، أما هي فلقد كانت عيونها تزاد اتساعًا وخوفًا ورهبة، وتستعطفه أن يتركها بحالها، كانت تكافح قبل أن تستسلم للنهاية وهي تقول: هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟!

بعد دخولها في فقاعة من المشاعر التائهة وإحساسها البشع المقزز بذلك الراجل المضطجع جوارها، فكرت وهي تنهض من الفراش ساترة نفسها بأن القتل للنفس أسلم حل.

ذهبت بلا وعي للحمام بعد أن دلها حمزة على طريقه، وقفت أمام المرآة تتطلع بنظرة ميتة لنفسها، تبرجها أزيل بالكامل، روحها ضائعة، تلوم النفس أكثر من مرة لخضوها والسماح بانتهاك آدميتها بذلك الشكل؛ فهي السبب فيما هي فيه من قهر، لا شهاب ولا مولانا الأمير ولا حتى أمير.

التقطت موس حلاقة ومررته بسرعة على العرق الأزرق الشاحب المنسل خلسة من طبقة جلدها، تدفقت نافورة من الدماء من عنقها ورغم هذا ابتسمت بسعادة، وسويعات وسقطت بالأرض مراقبة للغرفة التي تضيق وتتسع كيفما يحلو لها، تتحشرج كلماتها وتتهدج أنفاسها، تتحرك لا إراديًا سابحة ببركة دمائها، ثم

استسلمت للغرق بضباب الظلام للأبد، لتتسلق سلم الحرية الذي هو الآن فقط ملكها، وبعينها سؤالًا مُعلقًا على وجوه الجميع عن من كان السبب؟!

ـ أأطلب لكِ المثلجات يا زينب؟!

سألها وهي محدقة بقعر حذائها البالي فأفاقت فورًا من لحظة غفوتها السريعة، بلعت ريقها بصعوبة وعادت تتفحص المكان لتجده عاقدًا ذراعيه بتوتر.

هل كانت تحلم؟!

هل أعطاها الرب فرصة أخرى لتجد الوسيلة؟!

هل تستغلها أم تكرر ما حدث في حلم اليقظة؟!

هل ستضمن أنه سيوافق؟

وفي غمرة الأسئلة أجابها الضمير الميت بالإجابة الشافية:

«**أنتِ بالفعل تستحقين التعاسة، خضوعك سيكلفكِ حياتكِ**».

وحينها تمالكت ما تبقى منها لتُجيب بقوة:

ـ ماذا أكون بالنسبة إليك أمير، لعبة؟ تسلية؟

واهتز أمير بعنف لقوتها التي ظهرت على غير العادة، فباغتته زينب مُردفة:

ـ أتريد الاستمرار بحديثنا بشكل عادي مع أن كلانا يعلم بما رأيت؟!

انقبض قلبه بسرعة لهجومها الحاد، المقابلة التي تعمد أن يجعلها تدور حول زينب ترتد عليه. ليس هذا بالوقت المناسب للحديث عن إيفت، فهي التي تعرف كيف تستغل عواطفه، أما زينب فهي تستغل مرؤته وشجاعته، هي التي تُشعر الرجل بقوته وبهيمنته على حياتها، أما إيف فهي التي تعرف كيف تلاعبه. زينب هي التي تظهر أفضل ما فيه، وإيف تظهر أسوأ ما فيه. وهي لم تدعه يجيب، بل استسلمت لغضبٍ عائدٍ للحياة، بعد أن مات بمهده منذ زمن، لعل ما حلمت به بلحظة بمثابة إنذارًا لتفيق من غيبوبة اختارتها بإرادتها:

ـ هذا الحديث لا يدور عني، الحديث عنك وإذا أردت الهرب منه فعد لها، فلن أعاتبك، ولن أقل لمَ فعلت هذا، لقد رأيت ما يكفي من الخضوع بحياتي، وإن استمريت على هذا المنوال فسأفقد نفسي وديني.

نهضت زينب من مكانها بوتيرة من المشاعر المندفعة، فاستوقفها أمير قائلًا:

ـ لا تذهبي! سأشرح لكِ.

ـ أنت تعجبني كثيرًا، ولكنه إعجاب وقتي، انتهي بمجرد رؤيتك مع أخرى، أنا موافقة على الزواج، فلا شيء يدعوني لرفض عريس تقدم لي والتمسك بخيالات، وإن ظننت بأنني دمية بلا شعور فأنت مخطئ.

وسحبت يدها منه بعنف مُردفة:

ـ لا تتعرض لي مجددًا بأي شكل، وداعًا.

ورحلت تاركة إياه يتخبط بالدهشة؛ فتلك الزينب مختلفة عن الأخرى.

هل هو السبب أم أن الضغط يولد الانفجار؟!

راقبها تبعد وعقله مشغول بالسبب؛ بامرأة أخرى وليست أي امرأة، إنها إيفت كاهانا؛ مصيبة لا يستطيع أن ينساها ولو لثوانٍ.



التهديد أصبح قائمًا وخطيرًا، الرجل اليهودي سيدخل بيته وسيصاهره، وأنعام السبب. ناظرًا ليده المُتورمة من أثر الصفعة القاسية على وجنتي أمير مُفكرًا، لقد خاب أمله فيه. وبعد أن أنهت أنعام حديثها تحدث هو باحتجاج:

ـ أقسم بالله العظيم أنني سأفتعل جهنم على الأرض لو تزوج ابني من تلك الفتاة.

جففت أنعام دموعها وأجابته بنفس النبرة الحادة:

ـ العرس سيتم، لقد صبرت وتحملت وصمت عن كل شيء؛ ولكن أن يصل بك الفجور إلى التستر على الحق فلن أصمت.

بدأ محمود يستشيط غضبًا يهز الكرسي ويخبط يده الحديدية:

ـ قلت لا، لن أدعكِ تنفذين ما برأسكِ.

مسحت أنعام دموعها، وقامت من مكانها متوجهة صوب الهاتف، ورفعت السماعة متحدثة:

- قل كلمة واحدة أخرى وأنا سأتصل بالشرطة وأزج بابنك في السجن.

كان يحاول استيعاب الموقف، فتحدث متأتًا من الدهشة:

- أيطاوعكِ قلبك على سجن ابننا؟!

صمت لبرهة يستعيد تنفسه وتفكيره، فهي تضعه بين الأمرين، إن رفض ستبلغ الشرطة، يعرف نظرة التصميم بعيونها، ولهذا فيضعها هو الآخر بين الأمرين.

- إن طلبتِ الشرطة فسأطلقكِ، أنتِ محرمة عليّ إن جعلتيها زوجة ابني، إنها يهودية، أتسمحين بمصاهرة اليهود!

سيطلقها لأنها تنصر الحق، سيلقي سنين من التعب والتحمل بالهواء وببساطة، وكأن ليس لها أي أهمية. هل بقاؤه في ذلك الكرسي اللعين حوله؟! غيره؟! هل إدمانه على القساوة أصبح متحكمًا به؟!

ترقرقت عيونها بالبكاء مُجيبة:

- أتريد الخلاص مني؟!

- افعليها ليكون آخر يوم بحياتنا معًا.

تنفست أنعام بصعوبة مراقبة إياه يطعنها الطعنة الكبرى، وضعت السماعة على الهاتف ونظرت لبسمة الظفر التي نالت من ثغره بألم قبل أن تذهب لغرفتها دون كلام.

ـ ابننا كان معنا، ولم يغِب عن أعيننا إن جاءت الشرطة، هل تسمعينني أنعام؟!

يسخر، يأمر، يقهر، هذا ما شعرت به أنعام؛ ولأجل هذا فإن الكفاية فرض عين، خرجت من الغرفة حاملة حقيبتها قائلة:

ـ بعد ما قلته لم يعد لي مكان هُنا، لقد جئت بالقاضية يا محمود، كلامي واضح، أمير سيتزوج من تلك الفتاة، وإن رفضت تلك الزيجة فطلقني، طلقني، فبعد كل هذا العمر أثبتَّ لي خطأي عندما تزوجتك وأحببتك.

تحرك محمود بكرسيه بسرعة ناحيتها، كان يُريد أن يُصرح بحبه ولكن نبتة الحب داخله متأذاه، دمرتها عوامل عدة، أمسك يدها الحاملة للحقيبة مترجيًا:

ـ أنعام، لا تصعبيها عليّ.

تركت أنعام الحقيبة، ولمست يده، ووضعت الأخرى خلف رأسه لتضعها على صدرها بعد أن جلست على ركبتيها قائلة:

ـ طوال السنين الفائتة محمود كنت أتحمل قسوتك عليّ، لأنني أحبك، ولطالما قلتها لك، ولكن عندما يصل بأنك تخيرني بين الحب والحق فسأختار الحق، لأن الحب مع الظلم لا يجتمعا، آسفة محمود ولكن هذا قراري.

قبلتْ رأسه المليئة بالشعر الرمادي، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تستعد للهرب من أمامه قائلة:

ـ بما أنك تصر على الظلم فوداعًا يا عشرة عمري، يا خليلي وحبي.

كانت تحاول الانتفاض من يده، ولكن محمود ضغط بالقوة الباقية له عليها، يحاول إخبارها بأن الحياة لا تسير إلا بها، وأنه يفعل هذا لأجل ضمان عدم اختلاط الدم بالقذارة، صحيح معاملته لها نزقة وأحيانا يكرهها، ويتمنى الابتعاد عنها؛ ولكن بغض النظر عن مشاعره المضطربة لن يتخلى عنها مهما حدث، ولن يتخلى عن موقفه أيضًا.

ترقرقت عيناه بالدموع مُتحدثًا بحذر:

ـ أنعام، لا تتركيني، أنا... أنا أحبكِ.

إعلان قد مات، انتهى قبل أن يبدأ. يقول أحبكِ بعد أكثر من عشرين سنة كانت فيها حياتهما تتأرجح بين الحب والكراهية.

سحبت يدها منه بالقوة:

ـ إن أردتني أن أبقى فسأبقى شرط ألا تظلم، اظلمني أنا إن أحببت، ولكن إلا المحرمات يا محمود.

ترك يدها فورًا ومسح دمعه، لقد ظهر جزءًا من كرامته وأهدرها وهي لا تبالي، تململ في جلسته على الكرسي وأداره بقوة وتحدث بخشونة مُتحاشيًا النظر لها:

ـ اذهبي للجحيم حتى فلن أوافق، الأمر لا يحتاج لخياراتٍ عدة؛ فإما أنا أو هي.

حدجته أنعام بنظرة مكسورة وهي تفتح الباب:

ـ لا أنت ولا هي، بل سأختار طريق الحق يا محمود.

خطوات بطيئة تفصل بينها وبين خلي القلب، ابتسمت ابتسامة حزينة مُفكرة بتلك الكلمة، حيث تبادر إلى ذهنها الفتاة الصغيرة الحالمة التي عشقت فارسها، كانت عقدت شعرها في ضفيرة واضعة، يدها في جيب فستانها المنقوش فاتحة المذياع عن أغنية مسجلة على شبكة راديو العرب لعبد الحليم. لعبت بضفائرها وهي تراقبه من المشربية تدندن بتلك الأغنية: «**يرضيك نحب الحب ده ونعيش بعاد بالشكل ده، عايز أحس بحبي مال كل لمحة من وجودك، عايز أحس إن ابتسامتك دمعتك فرحة شبابك لون خدودك**».

ترددت تلك الأغنية في أذنها قبل أن تغادر من المنزل، ونظرت له عله يرجع، عله يلين فتمتمت ببقية الأغنية بصوت مرتفع تودعها وتودعه بها:

«**يا خلي القلب يا حبيبي، لو في قلبك قد قلبي حب يا حبيبي، لو بتكوي النار نهارك لو بتسهر زي ليلي، لو صحيح بتحب كنا نحضن حبنا ونبعد بعيد بعيد عن عيون الدنيا عن كل العيون، لو في قلبك قد قلبي حب كنا نمشي نمشي ألف**

**ليلة، ليل ونهار.. لما نوصل نجمة مالها أي دار ولا نسكن لؤلؤة في أبعد بحار**».

ابتسمت ابتسامة حزينة وهي تنطق آخر جملة، قبل أن تهرب من المنزل:

ـ يا حبيبي وخلي القلب وداعًا محمود.

كان محمود جالسًا واضعًا ذقنه تحت يده يسمعها تقول تلك الأغنية، تذكره بما نساه بحياته، تذكره بجمر حبها الذي يكويها، هموم وغيظ وقهر وغضب تجمعوا في نفس واحدة، نفسٍ عجزت عن احتضان نبتة الحب فأصبحت كائنًا حيًّا مشوَّهًا رويٍ بالدمع وتعرض لشمس القساوة.

انتباه، خوف، شعور غريب غير محدد المعالم، بقدر حاجته لها إلا أنه يشعر بخليط من الفرح والخوف، لقد جاء اليوم الذي يستطيع أن يودع فيه أنعام بكل سهولة، يستأصل ذلك الألم المصاحب له بعلته وللأبد، يرى ذلك الكيان الذي أصابه بتساؤلات عدة انتهي، مات كما خيّل إليه أنه مات.

بعد أن أقفل الباب عليه حرك يديه الاثنتين كي يلحق بها، سيوافق؛ فبعد انقضاء العمر تأكد أن استئصال الألم سيتبعه نزيف حاد وسيؤدي لمصرعه. لم يتحمل كرسيه وزنه الزائد، فسقط عنه محدثًا ضجة مكتومة، لم يستسلم فزحف على يديه صارخًا بكل قوته:

ـ أنعااااام.

لم تجب فواصل الزحف، زحف على أشواك العجز يستخدم ذراعيه ليتحرك، بدلًا من قدميه، جل تفكيره أن يلحق بأنعام، صرخ مجددًا:

ـ أنعاااااام.. أنقذيني.

وصل للباب المغلق بصعوبة ورفع ذراعه بعد أن تهدمت كل قوته، وبتلك المرة فتح الباب وظهرت أنعام تبحث بعينها ناحية الكرسي الخالي والساقط على الأرض، استغرقتها ثانية حتى تراه مسجى، هرعت نحوه وقالت له بعينين دامعتين بعد أن التقطت رأسه على صدرها:

ـ محمود، هل أنت بخير؟!

ظل ينهج ويلتقط أنفاسه بصعوبة ناظرًا لعيونها متأملًا كل تفصيله فيها فقالت باكية:

ـ لماذا تعذبنا؟ لماذاااا؟

تحدث محمود بنفسٍ مقطوع وهو يداري رأسه بحضنها، خائفٌ ذليل:

ـ النار بصدري تأكلني أنعام، أنا... أقسم لكِ.. بأنني دونك.. لا شيء، لا تصدقي تلك القساوة المغلفة بنفسي، لا تصدقي بأن نبتة الحب مشوهة أو أصبحت رماد؛ فالرماد هو القشرة الحامية لنار عشق قلبي لكِ ولكن تلك...

ـ إن كنت تحبني لا تفكر بشيء سوى بغضب الله علينا إن ظلمناها أرجوك!

تمسك بها أكثر:

ـ إنها يهودية يا أنعام..

هدهدته لتخفف من بكاؤه الرضيع وقالت وهي تلمس جبينه:

ـ الله لا يفرق بين الناس، وإسلامنا لا يفرق بين مسلم ومسيحي، مهما كانت ديانتها فهي فتاة، نحن لا ننتهك أعراض الفتيات يا محمود، إلا المحرمات، سأقولها حتى يجف لساني، فما حدث من أمير هو ابتلاء لنا، وعلينا أن نصبر وألا نظلم أبدًا، أرجوك، لتحافظ على ما تبقى من حياتنا بشكلٍ نقي، طاهر.

صمتت أنعامٍ وهي تحتضن محمود وبكت معه، سنوات العمر ليس بسهولة بيعها، وحتى إن ظن ذلك فهو أكبر وأهم شخص عرفته البشرية، وإن ظن بخيالاته وتحججه بماضيه مع اليهود بأنه يستطيع الهروب من المأزق فهو أكبر طاغية بمصر.

استنشق محمود الهواء لفترة وابتلع الغصة في حلقه، فلقد أتلف كبرياءه وتمرمغ بالوحل بعد أن رأته أنعام عاجزًا كما هو لأول مرة.

ـ موافق، موافق على تلك الزيجة.

وتابع وهو يرفع رأسه ببطء لينظر إليها لأول مرة نظرة خالية من القساوة ما عدا شيئًا رفضه في أعماقه:

ـ بشرط واحد، ستتم الزيجة بشرط واحد فقط.

۞

كان شهاب مع الجماعة يتفق مع الأمير حمزة على الفرح الإسلامي، يشعر بالسعادة لأن زينب تستحق فرحًا كبيرًا حتى لو كانوا قليلوا الدخل.

شهاب خريج كلية التربية الاجتماعية بعد أن فشل بدخول كلية الشرطة لأسبابٍ تتعلق بالوساطة، وكلمة «**خطر على الأمن**» التي وضعت ظلمًا على ملفه، وتلك الكلمة بسبب أبيه الذي دخل السجن بقضية اختلاس كلاهما يعلم بأنها ملفقة، ولكن أمه والبقية لا يعلمون هذا، وتطلقت منه بعد أن ثبتت عليه التهمة، بعدها مفهوم رجل البيت تغير، أو هو موجود منذ البداية.

الرجل القوي المهيمن على بنات العائلة، زرعها فيه أبوه (**أبو الفتوح**)، فهو كان رجلًا صعيديًا بكل ما تحتويه تلك الكلمة، منع تعليم زينب بحجة أن (**الفتيات لهم بيت وعائلة ولا حاجة لتعليمهم**)، أما هو فله كل الحق في التعليم وأن يصبح كما قال له أبوه «**شرطيًا عظيمًا ببذلته البيضاء بالصيف والسوداء بالشتاء**» وكل هذا تغير بمجرد أن وضع أبوه يده على استمارة كلية الشرطة ليفشل هو فيها ويدخل أبوه السجن ويصبح المسؤول عن العائلة ويدخل أي كلية لا تليق به، وعاطلٌ بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف، طاردته فكرة ابن المختلس المرتشي بالجامعة وبكل مكان حتى أصبحت متعمقة بشخصيته.

الظلم من مجتمعه لم يطل أباه فحسب، بل طاله هو أيضًا، وهو الذي دفعه لحالة من التخبط والانحدار، تارة يكون متدين يذهب لاجتماعاتهم، وتارة أخرى في الخفاء يجتمع بأصدقاء السوء ويدخن معهم (**الفودو**) ويتحدث عن النساء وتفاصيلهم الخاصة ويسكر لعله ينسى ما حدث على يده، فالظلم وقلة الرزق وضياع الأحلام كان من صنع المجتمع العتيد.

تثاقلت الهموم فوق صدره ليستأذنهم وهو يخرج من المكان بعد تأكده أن كل شيء بخصوص زينب تم ترتيبه على أكمل وجه. وضع يده بجيب جلبابه وبدأ يمشي بتثاقل في الطريق، يركل ذرات الحصى متذكرًا ما غيره، من انتزع كرامته انتزاعًا ولم يبالِ، ابتسم بشرود وهو يفكر بأبيهم، (**أبو الفتوح**)، العامل في مصلحة البريد والمقيم حاليًا بسجن طره بمنطقة المعادي، يسير هائمًا بطريقه كورقة انتزعت من شجرة لتتلقفها الأهواء والضياع ناسيًا من يراقبه تلك المرة.

فلأول مرة بحياته يشعر شهاب بأنه مراقب، التفت وراءه ليرى من ذلك الشخص الذي يتبعه، وكان هو الذي يكرهه والذي أقدم على الإتيان بمعصية.

كان يوسف.



جالسًا في كرسيه الوثير، ينظر بعيون جائعة ضحاياه الذي فرغ منهم للتو، يميل على كلابه المفترسة من نوع (**دوبر مان**) يدلك عنقهم متجاهل الزبد المتناثر بين شدقيهم. سيطعمهم حالًا من اللحم البشري الموجود بغرفته حتى يضمن سكوت ضحاياه للأبد، فلا أحد يجب أن يعلم بما يجري في مزرعته منعًا لتشويش على مركزه المحترم بالجيش الإسرائيلي، وخاصة بأنه كاد يتورط بقضية تحرش وقضايا تهريب مخدرات للجيش.

عيونه زرقاء شفافة توارثها من عائلة العريقة، هو فخر لكل الإسرائيليين بالأراضي المقدسة. داعب خصلات شعره الشقراء المليئة بالرمادية والتي أضافت إليه وسامة مرعبة. صحيح أن سنه يتجاوز الخمسين، ولكن لديه صحة شاب.

نظر لارتجاف تلك الطفلة الملتحفة بشراشف الفراش مُتذكرًا ابنته، فأشار إليها أن تقترب وتطمئن، فلم تجبه، وأشار لتلك الفتاة الإسرائيلية اليتيمة جوارها والتي أنقذها من شوارع إسرائيل لتكون منقذ شهيته الكبيرة التي لا تشبع أبدًا، لتتحدث بارتباك:

ـ بحياتك، ماذا فعلت؟!

أجابها ببرود وهو يمد أنامله إلى علبة الهيروين الموضوعة جواره، والتي يستخدمها لأجل التخدير وليس الاستمتاع:

ـ لا شيء.

إضافة الهيروين لتخدير الفتيات إضافة جديدة حرص على جلبها بعد أن تسببت عدم وجودها ندبة محفورة بوجهه، كان خطئه، كان يجب ألا يتركها مستيقظة وقتها، كانت ليلة لا تُنسى، فلقد استطاعت إيفت أن تقتل يهودا. إيفت ابنته من صلبه، وكانت أشرسهم جميعًا، أشرس ضحايا مائير.



ترجل من سيارته واضعًا نظارته الشمسية على عيونه، مسح بيده على شعره الأسود المتناثر على جبينه، استعاد غروره من بذلته البيضاء، كان يبتسم نصف ابتسامة ناظرًا لمخفر الشرطة، لقد مر وقتٌ طويلٌ على تركه. أتاه صوتٌ مرتجفٌ يتبعه ملامح عسكري صغير بالسن:

ـ سيادة الباشا ضياء، مرحبًا بعودتك لنا.

أومأ برأسه بدون أن يجيب محدقًا باتجاه المخفر الذي أجبر على تركه لمدة سبعة أشهر ويمكن أكثر، قضاها بسجن بيته، وكل هذا بسبب تهمة قتل المتظاهرين والتي أُثبت بعدها براءته.

هز ضياء رأسه نافيًا وتجاهل ترحيب العساكر به، وأشار بيده بكلمة واحدة قائلًا:

ـ أحضروا لي أمير العصامي بأي شكل.

جلس على مكتبه دون أدنى كلمة أخرى، يتلمس الحروف المكونة لاسمه:

«**ضياء العزبي**».

اسم الخصم العنيد لمنطقة أهل الخان وصاحب حسابات بينهم وخاصة بين أمير وشهاب ولا بد وأن تُصفى.

لقد عاد إليهم ولن يفرغ منهم بسهولة.

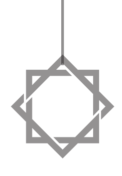


كان يركز في دراسته للعلوم الفقهية متذكرًا اللقاء الغريب الذي جمعه بمقره بمشيخة الأزهر بفتاة باكية.

ـ صوت هاتفه الجوال كان يرن، فالتقطه ليظهر رقم أستاذه، فأجاب مُسرعًا:

ـ مرحبًا أستاذ ممدوح، كيف حالك؟ أنا بخير، ممم لا أظن أنني مشغول بهذا التوقيت، حسنًا سأذهب أنا لعقد القران، هل معك العنوان؟، من قلت العريس؟ حمزة الصديق، ألم يكن متزوجًا منذ فترة قليلة؟، طلق! حسنًا، أراك لاحقًا.

تبسم باستنكار وهو يقفل هاتفه، لقد وضع القدر زاهر علي زهدي في خططه ليكن مأذون فرح مولانا الأمير حمزة الصديق.



# الفصل الثاني عشر

ـ دخل أمير لمخفر الشرطة بعد أن اقتادوه من مقهى (**جروبي**) دون أن يعي السبب، وعندما رأى ضياء العزبي جالسًا بكرسيه واضعًا قدميه الاثنتين على سطح مكتبه أدرك السبب.

ـ أمير العصامي، معاليك.

ودون أن يتحرك من جلسته أشار بنزق للعسكري:

ـ اتركنا بمفردنا يا عسكري.

اعتدل عندما سمع ارتطام الباب وحدجه ببسمة سامة مُردفًا:

ـ كيف حالك يا رجل؟ هل افتقدتني؟ لقد افتقدتك جدًا!

صمت لبرهة وتابع وهو يعتصر قبضة يده :

ـ افتقدت تلك الشكوى الصريحة بقتلي للمتظاهرين أثناء المحاكمة، هل ظننت أن بفعلتك تلك ستهرب من عقابي؟! أقسم بحق رتبتي لأجعلك تنسى اسم أمك الليلة.

لم يبالِ أمير بمشهد ذكر الطاووس المجروح بكبريائه ليجيبه بنزق:

- ليس لديك أي حق لتعتقلني.

نهض من مكانه ومشى بخيلاء وغرور مُشيرًا للنسر الرابض على كتفيه:

- أترى تلك الشارات؟ يمكنني بها احتجازك بتهمة الاشتباه لمدة ٢٤ ساعة.

وحينها نطق أمير بأسئلة كان يحتجزها بثنايا عقله:

- كيف خرجت؟ كيف سمح لك دياب ب...

ضحك ضياء عاليًا لمجرد ذكره الأمر، وبعد أن هدأ من هذيانه نظر لعينه مُتحديًا ومفرغًا كل ما حدث معه بجمل معدودة:

- يا بني، إن ظننت أن الثورة غيرت شيئًا فتأكد من أنها غيرت وجوهًا فقط، لم تنالوا منها إلا البؤس، وأكبر دليل على صحة كلامي أنني هُنا أمامك، ودياب كان كبش المحرقة.

صمت لبرهة وأكمل مناديًا:

- يا عسكري.

فتح الباب وطل منه العسكري الشاب قائلًا برسمية:

- تمام معاليك.

- ألقوه بالسجن.

وأمسك بأمير الذي كان يتمتم بتوعد:

- ستعرف ماذا سأفعل لأجل هذا يا ضياء.

وبقي ضياء بمفرده في مكتبه يفكر بطريقة يصرف بها نظر العيون والشؤون القانونية وينتقم من أهل الخان شر انتقام، وأن يتريث ولا يكن جانحًا ويسوق بنفسه وعائلته للتهلكة مجددًا.

مشاجرة بين أمير وبين أحد المجرمين بالسجن مثلًا تحقق مأربه، ولكن ليس الآن، فهو سيبيت الليلة بالحبس ثم غدًا أو بعد غد ينال ما يستحقه؛ فمرارة التجريح والغضب الذي اضُطر ضياء لابتلاعها لن ينساها بسهولة، ولن تستحق انتقامًا سريعًا كذلك.

حمدًا لله على وجود حماه اللواء فؤاد دويدار الذي أخرجه من ضيقته بالطبع بعد ضغط كبير من ابنته المصونة «**گُولنار**» وأيضًا التلويح ببعض المستندات المخفية للاستجابة لضغطها، وقد أتى أخيرًا بثماره، فخرج من السجن وألقيت التهم على زميله دياب الذي يشهد له الجميع بنزاهته حتى بأوقات الثورة.

لمس مكتبه بفخر كبير وجلس عليه بكل فخر واضعًا ذراعيه خلف رأسه وهو يفكر في القادم، خطوة خطوة ويصل للنجاح؛ فحياة الفرح التي عاشها الخان ستتبدل بمأتم.



- بشرط واحد، كلا بل شرطين؛ الأول بعد أن يتزوجا لا تخطو عتبة هذا الباب إطلاقًا، والثاني أن يطلقها فورًا.

ـ محمود، أتريد أن تشوه سمعة الفتاة؟! من العريس الذي يطلق زوجته ثاني يوم؟!

ومحمود رغم أحزانه اكتفى ببسمة ساخرة، فيكفيها أن دمها أكبر سمعة بشعة. وأردفت أنعام حديثها بهدوء شديد:

ـ أنا موافقة على الشرط الأول، سينتقلان لشقة اخترتها وقريبة من هنا.

صمتت لبرهة ودمعت عيناها مستذكرة فرحتها الوليدة بشأن الشقة التي تدخر جزءًا مما تتحصل عليه من أموال المتجر لتشتريها فور أن تخطب له ابنة الحلال التي تستحقه، كل هذا التخطيط ذهب أدراج الرياح. أخذت نفسًا عميقًا مُردفة:

ـ أما بالنسبة للشرط الثاني فلن أوافق عليه.

غمغم محمود بعجز قائلًا:

ـ أرجوكِ أنعام كفاكِ تحطيمًا بي، ليس من السهل عليّ أن أوافق على هذا الشرط، لا أريد أن يكن حفيدي يهودي؛ لذا الطلاق أمر مُريح للجميع.

ـ حسنًا محمود، لك هذا، ولكن ليس في الأيام الأولى للزواج، مع أنني أفضل أن يعرف أمير بشروطك.

ـ سيوافق، أعرفه لا يُكسر لي كلمة، ساعديني لأجلس على الكرسي واذهبي لتتصلي به.

وضعته على كرسيه دون كلمة، تعلم بأنه يشق عليه أن ترى عجزه وقلة ضعفه، ودائمًا ما يصاحب ذلك حالة من الصياح

الدائم، حياتهما كانت مخبئة عن الجميع وعن أمير، فهي كأي زوجة مصرية تحفظ مبدأ أسرار البيت لا يجب أن يعلمها سوى اثنان فقط.

حاولت الاتصال بأمير، ولكن كان هاتفه مغلق، فتحدثت بقلق:

ـ إن هاتف أمير مغلق على غير العادة.

هز محمود رأسه نافيًا، وقال بصعوبة كلمات لم يستطع تصدقيها وهي تخرج منه هو:

ـ هذا لا يهم، هو ليس في موقع يخوّل إليه التحدث في شيء، المهم دعينا نخبر الرجل اليهودي بترتيبات الزفاف، وعندما يأتي أمير سنقيمه، سيكون سريعًا وبلا أثر من فرح.



جلس جاؤون شاردًا غير مهتم بالصبي الذي وضع عند منضدته كوبًا من الشاي الأخضر، ينظر إلى تلك اللوحة المطلية بالأزرق والأبيض المكونة لكلمة: «**قهوة الفيشاوي**» مُتذكرًا تاريخها بالخان حيث يرجع تاريخ تأسيسها لعام ١٧٦٩م.

سرح بفكره صوب إيفت ومشكلاتها متسائلًا عن علته وذلك البرود القاتل الذي أصابه عندما دخل لبيتهما دون كلام بعد تلك المعركة المحتدة بينه وبين الرجل المصري.

ما الذي أفقده الشعور؟ أم أنه احترق من الداخل حتى تفحم بالكامل؟!

هل لأنها ليست ابنته فأمرها وقضية اعتداء المصري عليها غير مهمة؟ أم لأنه يشعر بضرورة الانشغال بمشكلاته؟! أم لأنه أقدر شخص يعرفها ويعرف أن بإمكان تلك الدماء الجارية بأوردتها أن تحل أتفه معضلة بدون أن يتدخل هو، والدليل تلك الأوراق التي جاءت بها فيما بعد له، لم يندهش عندما رأى فحواها، ولم يقل أنه سيخبر الرجل المصري بنفسه عنها، بل تركها تنفذ كل ما ترغب بفعله.

شرد بتفكيره ناحية ماجي، أيقونة الجمال الأوروبي ذات الملامح التي لا مثيل لها بأرض مصر السمراء، ابنة زعيم المستوطنة كاهانا الأكبر، وكانت هي المشرفة على كل اليهود العرب الذي يُسخروا لزراعة الأرض غصبًا وطواعية.

هي بعرقها الأشكنازي تحمل الغرور المراق بدمائهم، ولكن عندما تُشرف عليه وتراه يكد ويكدح في عمله بالأرض ترق لحاله وتأتي له خلسة بالطعام والمياه، كانت لديها نظرية خاصة مختلفة عن باقي أقرانها، وهي أن كل من يحمل اليهودية إسرائيلي بالفطرة، حتى اليهود العرب إن أرادوا أن يكونوا يهودًا مئة بالمئة فعليهم استئصال تلك العلقة المسماة العربية.

ناظر للأرض التي تحدد منطقة الحسين والخان، فالأزقة فيه متراصة كحبات عقد ومتداخلة بألوانها كقوس قزح، والأرض

مبلطة بحجر بازلتي أسود لامع. والسوق مسقوف بخشب أنهكت عوامل التعرية في النيل منه، ولا زال يفكر لماذا تزوج منها؟

سؤالٌ ضئيل الحجم مقارنة بالسؤال الصعب: لماذا ذهب لإسرائيل؟

بالنسبة لأمر الذهاب فالأسباب شبه معروفة، أما ماجي فلايدر أهي ذروة اندفاع في مشاعر العشق جعلته يخالف أمر زعيم المستوطنة ويلوذ بالفرار بابنته، أم مجرد تحدٍ؟!

أيًا كان السبب، فلقد انتهى كل شيء عندما وقفوا أمام كاهانا بورقة زواجهما ليتقبلهم على مضض متحملًا ذلك «**الجوبييم العربي**» كما وصفوه هناك.

حسنًا وماذا عن الاستمرار؟

لقد لمس الاختلاف بين عقائدهم منذ البداية واستمر، أنجب يوسف واستمر، إرهاصات الدولة الأم قتلته فاستمر، انقطاعه عن أخبار أهله بمصرايم واستمر، الاضطهاد البشع المتمثل في إرهاقه يوميًا في العمل بالمزرعة وعدم قدرته على متابعة يوسف والاطمئنان عليه، حتى ماتت هي وهو يبذل العرق بأرض الخير وظل بحالة «**أستمر**».

تعلم مع مرور ٢٦ عام بإسرائيل على التسليم والاستمرار، غريزة البقاء أو الاستسلام يمكن أن تصفه بالشكل الواضح. ويوسف بعد الحادثة أصبح غريبًا عنه وكاهانا السبب، لا زال يتذكر كلماته حينها:

- «**استمر بالعمل وإلا فلن ترى يوسف مدى العمر، أو الأسوأ، سأقتله، فلا تنسى أن الذرية الفاسدة سأقوم باقتلاعها شخصيًا، ويوسف ذرية فاسدة، يكفي أن نصفه دماءٍ عربية، وإن رأيتك ولو لمرة واحدة تذرف الدمع على ابنتي سأقتلك، وإن أطعتني فسأبعد يوسف بمنأى عن صراعاتنا معًا**».

فضل الصمت والتصرف بطبيعية، والذهاب للمزرعة والهلاك فيها مطمئنًا لوعد كاهانا بعدم حشر يوسف بصراعاتهم. ولكنهم كذبوا عليه، شكلوه، عبثوا بعقله وعقل صغيره، ولم يدرك تلك الحقيقة إلا بعد أن أخبرته إيفت يوم هروبهم بأن كاهانا يحاول تجنيد يوسف وإشراكه بعمليات القتل مع أبيها، لم يصدقها، فأخبرته عن مقالات بروتوكول حكماء صهيون المُندسة بفراش ابنه، وعندما رآها وقرأ حروفها شعر بأن ابنه سيتغير وسينحرف عن مساره، سيقتلون به كل نبتة خير وحب قد تولد والفطرة التي خلقها الله بعد وقف أن فتح عينيه على الدنيا.

وكان القرار للهرب من دائرة الاستمرار؛ وذلك حتى لا يصل به الحال لتأليبه ضده. أو لم يفعلوها؟!

تنهد جاؤون بثقل مُكملًا مونولوجه الداخلي:

- «**ماجي، لم أستطع تعريف شعوري تجاهكِ، لم أذرف دمعة واحدة عليكِ، ليس خوفًا منهم، بل لأنني أشعر بعدم حبي لكِ بالشكل الكافي، حتى يوسف بعدكِ، لم نجد**

**بيننا أرضًا صلبة لنلتقي أو نعيد جسور الثقة المفقودة بيننا، اتفقنا - ضمنيًا - على الحفاظ على ذكرى موتكِ وألا نتطرق للماضي، لكل منا تاريخ يفضل الاحتفاظ به لنفسه، نسير دائمًا هائمين وهاربين. هل كثرة التعرض للألم أفقدتني الشعور؟ أم لأن دمائي اليهودية تكسبني قناعًا غريبًا من الصقيع؟ إن كانت حياتي كلها كذبة فالحقيقة هي عشقي الأوحد لمصرايم وأهلها.»**

تذكر نشأته في أكناف بيت علي وأبيه الذى رق بحاله ودعاه ليبيت في بيته بعد أن طرده عمه شمعون لمطالبته بطعام العشاء. غير أن دوام الحال من المُحال، فطرد من رحمة علي ليصبح بلا أعمام وبلا صديق، ورغم رجوعه بعد قضاء كل هذا الوقت لم يحمل ضغينة تجاه الجميع، بل بالعكس، يود معرفه أحوالهم.

وبهذا نعود لإجابة سؤال كبير آخر، ما سر بقاء نبتة الحب لكل هذا الوقت؟

أما آن لها أن تتغير وتجد أرضًا مُرتبة بالانتماء لهم؟!

صمت جاؤون لفترة واستنشق الهواء مردفًا حديثه لنفسه:

- **«لأنني ذقت حلاوة الإسلام، وأنني هنا أقضي ما تبقى من عمري وأبذل آخر نبتات حب لي بترابها بدلًا من أموت غريبًا منبوذًا على صخرة بلا هوية، بلا وطن».**

اعتدل بجلسته، وارتشف القليل من الشاي الأخضر، لم ينسَ طعمه مثل أول مرة جاء لهنا مُستمعًا لثرثرة المارة عن حال البلد الآيل للسقوط، وانتشار البلطجية بكل مكان، والرزق الذي بدأ يتجه للشُّح.

أنهى مشروبه وحدق ببصره نحو الأزقة والحواري التي تحتاج لعبقرية فنان لسبر أغوارها، وفي الزوايا تتسلل حوانيت مشكلة سراديب تحكي عن كنوز وعظمة مصرايم، وبقايا المشربيات التي عفا عليها الزمن لا تزال تحتج بشبابها، ماء السبيل المزين بالنحاس الذي يروي ظمأه ولا يشبعه، يسمع عبارات الترحيب التي لا تخلو من ترك فم كل بائع وكل صبي في المقاهي، ويرى البائع المتلهف على عرض ما لديه من بضائع بحجة كسر قلة الرزق، يتألم وهو يعرف، ومع هذا لا تفارقه ابتسامته، بل وتسيل من فمه كلماتٌ عن جودة بضاعته، وأنها صنعت خصيصًا لعشاق الفن اليدوي.

أبعد كل هذا يكرههم؟!

كلا والله، إنه ليجور على الحق إن قال: بأنها كسواها من البلاد، إنها مرتع لمن ليس لهم وطن، وللذين ينهبون من خيرها بلا اكتفاء.

بعد دقائق وصل لبيته ليجد إيفت واقفة أمام الباب وبعيونها الزبرجدية بهجة مُريبة:

ـ مرحبًا أبتِ، هل ذهبت للخان؟

ـ مرحبًا، كلا لم أذهب للخان، حتى يوسف أصبح مُقل بالتواجد هناك بعد حادثته مع الشباب.

زمت شفاها بخجل مُجيبة:

ـ عذرًا أبتِ، أنا كذلك مشغولة بما يحدث معي.

وبينما هم يتحدثون إذا بالسيدة أنعام تفتح الباب قائلة:

ـ أووه، عذرًا، كنت أود مقابتلكما معًا، من الجيد أنكما هنا.

زفرت إيفت الهواء تأففًا بينما جاؤون ابتسم ببشاشة مُجيبًا:

ـ مرحبًا، نحن على وشك الدخول، تفضلي معنا، فلا يصح الوقوف هنا.

هزت رأسها نافية وقالت باقتضاب غير مبالية بنظرات إيفت المتفحصة:

ـ شكرًا لك، أنا أفضل الوقوف هنا، فزوجي بالداخل بمفرده، لن أطيل بالأمر كثيرًا؛ لذا سأختصر قدر المستطاع، لابد من إتمام الزواج بين ابننا وابنتكم حرصًا على درء الشبهات والفضائح لكم ولنا.

ونظرت لإيفت الذاهلة بحديثها لتردف:

ـ أأنتِ موافقة ابنتي؟

وحيرة إيفت لم تكن طويلة الأمد، فما بين ذهول للحديث والتفكير بالانتقام كان ردها جاهزًا وتمثيلها الساخر ساحر، ترقرقت الدموع بعينيها مُجيبة:

- إنه مُنى عمري أن يكون لدي عائلة وأم، أنتِ لا تمانعين في قول أمي، أليس كذلك؟

رفعت أنعام ذراعيها لأعلى وكأن رجلًا شرطيًا يصوب باتجاهها الرصاص من جراءة إيفت ناظرة لجاؤون الذي كان يفكر مليًا قبل أن يرد عليها جاذبًا إياها بعيدًا:

- أعطينا مهلة لنفكر بالأمر يا سيدة أنعام، وسأخبركِ وقتما نتوصل لقرار.

وحياها بأدبٍ قبل أن يقفل الباب بوجه أنعام ولسان حالها يقول:

«**مهلة! أي رجل هذا الذي يفكر في ستر فضيحة ابنته؟!**»



توقف يوسف بمكانه وابتسامة ماكرة تزين شفاهه، يحدق بطريدته في تقييم، كلاهما يقف بوضع دفاعي عن ممتلكاته، الند بالند.

خُلقوا ليكونوا أندادًا وأسيادًا على الضعفاء والكاذبين والفاسدين، وكل ما يندرج تحت كلمة أشباه بشر. هل تعلم أن الرجال يحبون مشهد الطاووس وخاصة في وجود الأنثى؟!

هل تعلم بأن شهاب ويوسف كلاهما يستعد الآن للتطبيق مبدأ أنا طاووس المكان، حيث فيه يبدأ كل ذكر بالانتشاء بنفسه قدر الإمكان؟!

كلاهما يبدأ بالتحرك بشكل دائري لتأمين المكان بالطبع، يحاولان الأخذ أكبر قدر من الهواء ليتسع صدرهما مستعرضان عضلاتهما تمهيدًا - من جانب واحد بالطبع - بالبدء بضرب الآخر ضربًا مبرحًا، والآخر بالبدء باستعمال عقله متحذلقًا، يبتسم بمكر الثعالب، والأسود ويرسم الخطط ليوقع غريمه من دون أن يكلف نفسه ببذل نقطة عرق واحدة. أحدهما يزهو بطاووس العضلات، والآخر يزهو بطاووس العقل.

تحدث يوسف عاقدًا ذراعيه:

- شهاب أليس كذلك؟!

ضغط شهاب بفكه وقاوم رغبته الملحة بأن يضع قبضته في أنف ذلك الغليظ الآثم قائلًا بنزق:

- لا تلطخ اسمي على شفاهك النجسة، أنا أذكرك جيدًا، أنت من كان يسير مخمورًا.

زادت ابتسامة يوسف مُقتربًا منه:

- شهاب، أنا مظلوم، لقد تعرفت على أصدقاء سوء هنا، وأنت أقدر شخص يعلم كيف يمكن لأصدقاء السوء أن يفعلوا بالبني آدم، أتتذكر الفودو الذي دخنته مع أصحابك؟ حسنًا دعك من هذا، هل يعرف الأمير حمزة بمغامرتك الصغيرة بغرف خادمات العقارات الصغيرة و...

صرخ شهاب مُقاطعًا إياه فهو ينشر غسيله الوسخ علانية:

ـ أصمت، أنت لا تعرف من تحادثه، مَن قال لك هذا الافتراء الكاذب؟ أقسم بحق ديني أن...

قاطعه يوسف مُبتسمًا باستفزاز:

ـ أنا أعرف ما أنت بالضبط، لقد قضيت الأسابيع الماضية بالبحث بماضيك، ودُهشت مما يقوله أصحابك عنك، لم يتحدثوا عنك بالبداية مباشرة، ولكن قد تندهش أنت شخصيًا لمعرفة كم المعلومات التي سحبتها منهم بقوة المال إذا فشلت قوة الإقناع.

ـ قلت لك أنها أكاذيب، تفاهات، أنا رجل دين ولا أعرف هذه الأمور.

ابتسم يوسف بخبث وهو يغمز له:

ـ حقا! هل تنكر ضربك بيد أحد الخدام بعد أن قبض عليك عندما مزقت ملابس الخادمة؟

بلع شهاب ريقه بصعوبة وتحدث بصوت مهزوز:

ـ أستغفر الله العظيم، أنا!

نظر يوسف متذمرًا:

ـ دعك من هذا المظهر الطاهر الرث فإنه لا ينطلي عليّ، ماضيك ليس بصندوقٍ أسود مدفون لا يستطيع أحد الوصول إليه. شهاب إذا كنت لا تحبذ سماع الأمير لتلك الحكايات القذرة فاستمع لي.

كاد شهاب يتخلى عن شكيمته الهادئة ويقفز على رقبة ذلك الوغد ويقتله، فهو يهدده بنشر ماضيه ومعاصيه للعلن، رفع قبضته عاليًا وقال وهو يمسك يوسف من ياقة قميصه:

ـ يمكنني أن أضربك وأقول أنك مخمور، وحينها لن يصدقك أحد، لقد تبتُ عن فعل الفواحش.

نظر يوسف لقبضته المهتزة ولم يتأثر، بل لم تتحرك فيه شعرة واحدة، ابتسم ابتسامة عريضة أغاظت شهاب، فحرك قبضته ليجعلها تسعد بهناء كبير في لمس وجهه المفلطح، فابتعد يوسف من أثر الضربة ولا يزال يبتسم مُتحدثًا ببرود:

ـ هل شعرت بالارتياح الآن؟، هل الضرب في البشر هو ما تعلمته؟، إنك رجل بلا عقل.

صرخ به شهاب رافعًا قبضته مرة أخرى مُهددًا:

ـ إياك أن تتلاعب بأعصابي، أحذرك أن...

لمس يوسف وجنته قائلًا بتوعد خفي:

ـ لو كنا بظروفٍ أخرى لجعلتك لا تستطيع رفع أصبعك هذا.

ـ أحذرك يا رجل أن تبتعد عن طريقي، فأشبال إبليس تتزاحم بعقلي الآن، وكفاك مني تلك الضربة بدلًا من أن أقتلك بيدي، إن سمعت تلك الأحاديث قد وصلت لمسامع جماعتي فلن ينقذك مني أحد.

عدل يوسف هيئته التي تبعثرت بدقائق، وقال بمنتهي البرود:

ـ شهاب، شهاب، عيبك الوحيد هو قوتك البدنية وليس عقلك، أخبرني بماذا أستفيد من فضحيتك؟ بل من قال لك أنني سأخبرهم؟! لن يعرف أي شخص عن هذا الحديث، لقد أصبح بطي الكتمان، ولا يمكنني أذيتك، ليس لأنني خائف منك؛ ولكن لأنك ببساطة تروق لي، باختصار أنا أود أن أكون صديقك، لأنك ستخدمني بمصلحة هامة جدًا، ومن ينفعني بشيء فهو صديقي.

صمت لبرهة وهو يراه قد بدأ طاووسه في الانتقاص ويحل محله رغبة غريبة في الاندهاش ومحاولة السؤال، فاستطرد يوسف كلماته وقال:

ـ فكر بعقلك ولو لثوانٍ، بإمكاني أن أجعلك تجلس على عرش العالم بأكمله، كل ما أملكه لك هو وعدين؛ أولهما المال، والثاني أن نكون أصدقاء مدى العمر بميزة إضافية وهي الانتفاع بالطبع.

أنزلت قبضة الطاووس المنتش بألوان عضلاته الزاهية، وحل محلها ليس خوف بل سيلًا، عارم من الأسئلة يطيح بما تبقى من عقله، فأخبره أول سؤال خطر بباله:

ـ لقد قمت بتهديدي، وقمت بضربك فكيف بحق الجحيم تقل أننا أصدقاء؟ ما سر هذا التحول الغريب؟

تحدث يوسف مادًا يده للمصافحة:

ـ إن أردت بك سوءًا، فكن متأكدًا، من أنك لن تسير، على قدميك بالخان، لا يسعك سوى أن تثق بي، اعتبر ما حدث مني منذ فترة شيء ضبابي، لم يكن وأنا سأعتبر كل ما أعرفه تاه عن ذاكرتي، حتى كل ما أملكه ببساطة احترق. ها ما رأيك بالمصافحة لنبذ خلافاتنا؟!

تردد شهاب وهو يقيم ذلك الرجل الهادئ تجاهه، لم يكن له أبدًا بالخان أصدقاء، بالإضافة إلى أنه سيعطيه النقود إن أطاعه.

شراكة وصداقة ماذا يستفيد منها هذا الرجل؟ وهل خُلق شهاب ليفكر؟ إن الأموال لا تحتاج للتفكير بل تأخذها وحسب.

أيًا كان ما يخطط له ذلك الرجل لك، فهو بالتأكيد لصالحه وليس لسوءٍ يضره، وغالبًا ما يكن الأصدقاء أعداء ببداية تعارفهم.

ـ كيف أعرف أنك لن تقوم بخيانتي؟ كيف آمن لك؟!

بسمته السذاجة أصبحت قاسية، ونظرته الجامدة أصبحت مشتعلة بالخبث والصدق بآنٍ واحد عندما أجاب بعمق:

ـ لا يمكنك أن تؤمن لي، ولكن ثق بي، كن معي بالفريق الرابح، وستأخذ لقب السيد اللا متنازع عليه في الخان. أما كان هذا حلمك أن تتخلص من الفقر وأن يكون تحت أمرك المزيد من الرجال، وأمير، تتمنى أن ينكسر تحت كلمتك صحيح؟ أنا لا ضمانات معي، ولكن الفوز دومًا حليفي.



لقد جاء وقت الفرح حيث ستزف فيه كل عروس لعريسها، ويقتل فيها البراءة وكل ما حملته بقلبها من صبر وتجلد، حلمها باليقظة لم يتغير، مستقبلها مثل حاضرها. لم تتأثر عندما لم تجد أمير يثور وينتزعها من يد أخيها ويخبره بوقاحة أن لا يجوز التصرف في زينب لأنها ملكه، ليس لأنه أمير، بل لأنه لا يملك حريتها من الأساس.

لقد ذهبت لمشيخة الأزهر لطلب حل في معضلتها، فأكد الشيوخ لها بأنه لا يجوز شرعًا، فعندما يقدم طلب الزواج يسأل المأذون الفتاة إن كانت موافقة أم لا، فيكون جوابها إما بالإيجاب أو الرفض، إذا كانت الفتاة غير موافقة على الشخص المتقدم لخطبتها وغير قادرة على التصريح بذلك خوفًا من تهديد ما فيمكنها بالإشارة، فيستطيع المأذون أن يستشف عدم موافقتها على الزواج خاصة إذا لاحظ وجود فارق بالسن للخاطب أو عيب ظاهر للمأذون أو ما ينفر على الزواج؛ فالزواج بالإكراه من أنواع الزواج الفاسد، فلا بد أن يتم الزواج بالرضا سواء الخاطب أو المخطوب، هذا من الناحية الشرعية، وإن استمر الزواج فسيكون زنا وهو من الكبائر.

ظلت تبكي لسماعها هذا الرد، ولم يخرجها ويهدأ روعها قليلًا إلا ذاك الشاب الواقف مع شيوخه قبل أن تهرب مسرعة من الأزهر، وكل ما جال بخاطرها أنها إن وافقت على مضض

فسترتكب الكبائر، فهل سيحاسبها الله على خطاياها إن أقدمت عليها مرغمة؟!

كل شيء حول زينب يتوقف، الضحكات والمباركات والأناشيد التي تصدح بأرجاء المنزل، وذلك الفستان المصنوع من نارٍ يحرق جسدها، كل هذا يقف كفيلم نقف بجزئية فيه قد تبكينا وقد تجعلنا نفكر.

وهمسة لأخٍ قرر بيعها باسم الشرع:

ـ زينب باللهً عليكِ، لا تكوني عابسة الوجه، أنا والله شاهدٌ على كلامي هذا، أنا لا أجبركِ على الزواج، ولكن أجبركِ على نسيان كل ما تخطط أمكِ لكِ، أمير أعرفه أكثر منكِ، إنه كافر، وكل شباب الخان معدمون أغلبهم لا يجد قوت يومه، لا يوجد فيه شخص يستحقكِ، وأقسم بالله العظيم أنني أرى حمزة مناسب أكثر منهم، أنا أريد راحتكِ، الرجل على شفا الموت، وسترثين منه تلالًا من ذهب، أنا أخوكِ ولا أضمر لكِ السوء أبدًا مهما قسوت عليكِ، لا تكوني مبتئسة، رجاءً!

وكردٍ باهت دون كلمة عتاب أو حتى رجاء ابتسمت بسكون، وأبسلت عينها سابحة في ملكوت خاص بها، وحدها موقنة بأن حكم الإعدام لا يمكن تأجيله.



زاهر بطريقه ناحية الفرح مرتديًا الجلباب والقفطان، وواضعًا نظارته الطبية على عيونه يحاول شحذ همته للخلاص من هذا الواجب، عليه أن يكون المأذون لذلك العجوز المتصابي، ثم بالتأكيد سيطلق من يتزوجها بعد أن يمل؛ فالشيخ حمزة يحب تجديد شبابه كل فترة عندما يود ذلك.

تنحنح بقوة وهو يدخل لمنطقة الفرح، حيث العديد من المصابيح الملونة تزين واجهة المنزل، وفي الشارع يوجد سرداق كبير يجلس به الكثير من الوجوه الملتحية، والذين وقفوا تحية له، فبادلهم التحية بصمت، وجلس متجاهلًا مباركات الجميع قائلًا سؤاله الذي كان ثقيلًا على نفسه:

- أين العريس؟!

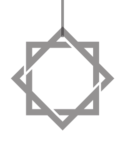
انتفض من آخر الزقاق ذلك الكهل الجالس بكل شموخ بجانب تلاميذه، وبينما زاهر يستعد لبدء فتح ملفاته والابتعاد قليلًا عن وخز الضمير بضرورة تدمير ذلك الفرح، تسلل أمير للشارع وهو منهك ومجروح وتوجد لديه عين واحدة يرى بها، والثانية غير قادر على فتحها بصعوبة بسبب كمية الورم المحيط بها، ورث الثياب، وبقدر ألمه الشديد الذي تسبب فيه ضياء، كان التشفي هو سيد الموقف لكل الواقفين والجالسين في الشارع، كان يمشي مترنحًا فأسرع زاهر ناحيته وهو يقول متفحصًا إياه:

- هل أنت بخير؟!

أردف موجهًا حديثه لشهاب العاقد ذراعيه بهدوء قاتل:

ـ يا شباب، ساعدوا هذا الرجل.

لم يجِبه أحد، وكأن هذا الشخص المتحرك بصعوبة يحمل مرضًا معديًا، ولم يفكر بأن هذه هي النتيجة الطبيعية لكل فرد يفكر بتحدي ملكية الخان؛ فالخان ليس له مجموعة من الأسياد، بل سيد واحد فقط والكل سيطيعونه.



# الفصل الثالث عشر

ظل زاهر يحث الكل على المساعدة، فهذه هي التعاليم الحقة، وليس التعاليم المزينة بذقون، وأمير بوادٍ آخر يغمغم بكلمات غير مفهومة، لقد كان يتعذب طوال الأسبوع الفائت في الحجز الاحتياطي، ففي ثاني يوم له بالسجن كان يجب على ضياء الإفراج عنه، فتصيد له أحد المتدينين أتباع شهاب وقام بضربه مما أدى لحبسهما ثانيًا. كان العيش في الحجز يمر على هذا المنوال، كلما يخرج يُضرب، ويضطر ضياء على مضض – زائف بالطبع – أن يقوم بحبسه تطبيقًا لفكرة أنه بحاجة للتأديب، وأنه مشاكسٌ وتسبب في ضرب أحد الأشخاص ودخل المشفى، مع أن أمير من كان بحاجه للمساعدة، حينما تدمرت قواه لم يصبح قادرًا على تحريك أنمله، فأعتقه ضياء وهو يخبره بأنه لم ينته منه، أما أمير فلن ينسى ثأره وسيكيد له كما فعل من قبل.

ـ هل تستطيع الوقوف على قدميك؟ ما بالكم يا شباب؟ لمَ لا تساعدوه؟!

وقف أمير بصعوبة على قدميه مُتحدثًا:

ـ شكرًا لك يا صديق، أنا بخير، أنا أعيش بهذا المنزل.

ـ أأصطحبك للإسعاف؟!

غمغم أمير قبل أن يستدير ليولج لباب العقار:

ـ كلا، أنا سأصعد للمنزل، شكرًا لك.

ودخل للعقار، وكان يقع أكثر من مرة على الدرج ومتمتما بكلمة «**أنا بخير**» كجهاز تسجيل به شريط مسف.

بعد أن اطمئن زاهر عليه تراجع لكرسيه وفتح دفتره قائلًا:

ـ أين العروس؟!

تحرك شهاب ناحيته وقال بصوت رخيم:

ـ أنا أخيها، تفضل بطاقتها الشخصية.

نظر زاهر للبطاقة الحاملة صورة الفتاة وفغر فاهه كمن تملكته صاعقة ناظرًا للعريس بدهشة.

هل تعلم بأن هناك أُناس لا يمكن أن يصمتوا عن الحق مهما كلفهم؟! هل تعلم بأنك من الممكن أن تتدخل فيما لا يعنيك فتسمع ما لا يرضيك ومع هذا تظل تتدخل؟! ما سر هذا الفعل؟! هل سألت نفسك لمَ؟!

أخبرك وقد تكون إجابتي قليلة، أعطني ورقة وقلم ودون الآتي:

أنا مسلم ومعتدل، أؤمن بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام بأن «**الساكت عن الحق شيطان أخرس**»، أتدخل لأمنع الناس عن ارتكاب الحماقات، ظنًا مني بأن الحياة قد تكون أفضل إن اتبعنا الصحيح في طريقنا فيها.

هل انتهيت من تدوين الإجابة؟!

لنطبقها ولدينا أفضل مثال، خيرة شباب الخان وأفضلهم زاهر علي، يبدأ بالتحقق مجددًا من الصورة والمعلومات المرفقة بعد التأكد من العريس مرارًا وتكرارًا، يحسب الفرق بينما فيجده مهولًا، بالإضافة إلى أنها ذات الفتاة الباكية التي كانت بمشيخة الأزهر، بدأ يزوم ويزمجر بصوت عالٍ معترضًا:

ـ هذه جريمة! الفتاة رافضة لهذا الزواج، أنا لن أعقد هذا القران، هذا زواجٌ باطل.

هدوء شهاب قد تغير، حتى سعادته برؤيه أمير مكسور تضاءلت بجانب من يهدده بصوته المرتفع المحتج، فنهض من مكانه وقال بصوت رعد:

ـ فلتنفذ ما يطلب منك بهدوء، اعقد القران.

قام زاهر وهو يلملم أشياءه:

ـ على جثتي الهامدة، الفتاة غير موافقة بهذا الزواج.

استنشق شهاب الهواء بضيق:

ـ إن الفتاة موافقة وإلا لما أتممت الزفاف. لن أكرر كلماتي مجددًا، اجلس واعقد القران.

ـ أقسم بالله العظيم لن أتمه، إن هذا الزواج باطل، الفتاة رأيتها وأكدت لي عدم موافقتها، وهذا بشرع الله حرام.

تجاهل شهاب التعليقات الأخيرة وأصدر أمرًا لجماعته أن لا يحاولوا الفتك بهذا الرجل؛ فهو في عرفه ليس بحرام، بالعكس إنه حلال وشرعًا؛ فزينب ليست بقاصر فهي تعدت السن القانوني بعمرها الواحد والعشرين. رمقه الشيخ حمزة بدون سؤال ذلك لأن الإجابة واضحة، وكز زاهر بصدره:

ـ لا يحق لك أن تقرر ما هو حلال من حرام، أنت مجرد مأذون ندفع له لأجل عقد القران فاجلس واعقده.

نظر زاهر ليد شهاب وهي تدفعه بصدره فاستشاط غضبًا وأنزلها من عليه:

ـ أبعد يدك عني، ولن أتمم هذا الزواج، وافعل ما شئت لا أخاف سوى الله عز وجل.

في تلك الحالة لم يعد الهدوء أمرًا ممكنًا، وتغلبت القوة على حكم المنطق لديه، فأمسك زاهر من ياقة قميصه:

ـ ستنفذ ما آمرك به، مفهوم!

لم يتعود زاهر على الخوف، فهو لا يعرف في الحق لومة لائم، سلاحه دينه وأخلاقه القويمة، وهذه الإجابة الحقة لكل من يتدخل في شئون الناس لأجل الإصلاح وليس التلصص.

أبعد نفسه بمنأى عنه، وأمسك كتبه ودفاتره وهو يقول:

ـ أبدًا، وسأذهب من هنا ولو أتممت هذه الزيجة سأخبر الشرطة.



كان واقفًا يسحب شبكته من قعر البحر، تتلاعب تيارات الهواء بتلابيب قميصه ويتحرك شعره يمينًا ويسارًا بهدوء تمام، مستمع لزقزقات طيور النورس التي تحوم حول بقعة الأسماك، نظر لشبكته العامرة بالخير قبل أن يرفعها لسطح مركبه الصغير بامتنان للرب.

جلس وهو يمسح حبات عرقه عن جبينه محدقًا بالبحر من حوله، كم يشبهها وكم افتقد وجودها بجواره. دونها لم يبق إيزرايل بل كان إيزرا فقط، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يحبه هنا بهذه الأرض، السماح للجميع بقول اسم التحبب خاصتها له، دقات قلبه تعلو عندما أدار دفة المركب ليتجه لشاطئه يخيل إليه أنها تنتظره.

ها هي، بعد مرور أكثر من ١٣ سنة على فراقهما، كيف أصبحت الآن يا ترى؟! أصبحت شابة بالخامسة والعشرين.

كان يجدف باتجاه الشاطئ وعيونه تركب مشهدًا خياليًّا لها بجسد امرأة يافعة وبعيون زبرجدية خائفة وشعر أشقر كأشعة

الشمس، تلوح، تصفق، تنادي بعشق قديم، رائحتها كشجرة الصنوبر والمسك.

ترك الدفة وخرج من المركب متجهًا لذلك الهيكل الذي تشكله عيناه، احتضن وجهها المتناثر متعمقًا بتفاصيلها لأقصى مدى، يتذكرها كيلا تسقط سهوًا من ذاكرته، يتمتم الحديث بصوتها ونفسها بعقله:

ـ كيف أصبحتِ؟

ـ لم أشعر أنني بوطني إيزرا.

ـ ومتى شعرتِ أنكِ بوطنكِ إيف؟!

ـ عندما أكون معك، فأنت وطني.

ـ إيزرا، إيزرايل...

التفت بغتة لمصدر الصوت الرجولي ليتناثر طيفها ويحدق بذلك الجسد الأسمر المهرول ناحيته مُردفًا كلماته:

ـ إيزرايل، حمدًا للرب بأنك هنا، إن كاهانا على وشك الموت ويطلبك بشكل خاص.

لم يستوعب الموقف بشكلٍ كامل، فبدأ يتحدث بشكل متأتأ:

ـ من قلت؟!

وصل رؤبين إليه وأخذ يضع يده على ركبتيه محاولًا التقاط أنفاسه:

ـ كاهانا، لقد بعث أحد الجنود لمتجرنا ليطلبك.

ـ سأذهب له، ولكن قبلها سآخذ السمك للمنزل.

استنشق الهواء بصعوبة وهو يمط شفاهه قائلًا:

ـ كلا يا رجل، إنه يود التحدث معك قبل أن يموت.

ضحك إيزرا لذلك التعليق وقال:

ـ أمعقول سيموت بالخامسة والثمانين؟ ألن يُكمل المئتين؟!

ـ يبدو أن الرَّب لن يعطيه أكثر مما أعطاه.

ـ حسنًا رؤبين، خذ أنت صيدي وعُد إلى المنزل، وأنا سأذهب لأراه.

أومأ برأسه بدون أن يكلف نفسه ردًا، بينما إيزرا ذهب على مضض لمقابلة الرجل العجوز آملًا أن يكون يحتاجه في شيء به خير.



تأوه بصوتٍ خفيض وهو يفتح الباب ولمح أمه تصرخ لمَرْآه:

ـ أمير، يا إلهي، ماذا حدث لك؟!

ـ أنا بخير، حادث بسيط.

تحدثت أنعام مقتربة من وجهه تتفحصه:

ـ لا فائدة بعندك الأرعن، ورثته عن أبيك بالتأكيد، تبيت خارج المنزل لمدة أسبوع وتغلق هاتفك وتعود ووجهك مجروح وشبه تالف وتقول حادث بسيط!

صمتت لبرهة بعد أن أحست بغريزة الأم الحنونة تحركها، تتلهف عليه وتقلق من أقل شيء، فلملمت مشاعرها وحزمت أمرها أن تتحدث بهدوء وبدون عاطفة.

ـ إذًا كان الأمر بسيط، اجلس واسترح، سنتحدث بأمر الفتاة.

تبعها صوتٌ غليظٌ يزحف مثله خارج غرفته، كان محمود يدفع كرسيه بحزم قائلًا:

ـ ما الذي حدث بوجهك؟!

دمدم أمير بنفس كلمة الشريط المسف الذي لم يقتنع به أبيه ليُردف بعملية:

ـ لندخل بصلب الموضوع، أنت ستتزوج الفتاة وبشروطي.

نظر أمير لهما في استغراب وتحدث متعجبًا:

ـ أتزوج من العاهرة اليهودية؟!

تحدث أنعام بحنق:

ـ تلك العاهرة اليهودية أنت من قام بوصمها كذلك، ستتزوجها يا أمير ولا نقاش بهذا، ربما أسأت بتربيتك، ولكن لن أسمح لك بالنفاذ من العقاب أناسأخب...

هز أمير رأسه وهو يقول بتجلل:

ـ أقسم.. بأنني.. لم..

ضحكت أنعام بسخرية لاذعة قاطعة حديثه:

ـ أتكذب مجددًا؟! وذلك التقرير والتسجيل، ليس صوتك؟! أو شخصٌ من كوكب المريخ هو من تلبس روحك وقام بفعل ذلك؟!

رفع محمود كفه مقاطعًا حديثهما:

ـ أنعاااام، يكفي هذا. أمير، إنها كما قالت أمك تمتلك أدلة تفيد تورطك بقضية شرف، وأمك مصرة على موضوع الزواج وإلا فستخبر بنفسها الشرطة وستشهد ضدك، وأخشى أنني مضطر للموافقة حتى لا تضعك بالسجن.

صاح أمير مستنكرًا:

ـ رتبتم كل شيء من دون إذني! أنا لن أوافق على الزواج من امرأة مستهلكة ومسها المئات.

تحدثت أنعام بسخرية غير مصدقة لما تسمعه وتشهده من أخلاق ابنها عديم التربية:

ـ وهل كنت تريد زوجة بورقتها؟! ثم لم يمسها المئات، بل أنت من أفسدها وهي غلطتك، فتحمل نتيجة أخطائك وكن رجلًا.

نظر محمود لأنعام نظرة طويلة مظلمة، لم يرق له فكرة سخريتها من أمير، ولكن هي تتألم كأي أم، وتصرفها اللا مبالي هو دفاع عن تربية ظنت أنها نفعت ولم تكن.

زفر الهواء وغمغم بحزن:

ـ للأسف ابني، أمك على حق، أيًا كان ما فعلته الفتاة، المشكلة تعد خطؤك، بالإضافة رقابنا تحت أيديهم، فلا أحد يمكن أن يعرف بما تقدر عليه وبحوذتها تلك الأدلة.

هز أمير برأسه وقال بتصميم:

ـ أنا على استعداد لدخول السجن، إلا الزواج من تلك..

صرخت به أنعام:

ـ اسمع كلامي جيدًا يا أمير، ستتزوج تلك الفتاة وغصبًا عنك، هي موافقة مبدئيًا على الزواج منك، علينا التستر على فضيحتك وإن رفضت سأعيد ما قلت، سأسجنك وبنفسي، وهذا آخر قرار لي.

صمت أمير لبرهة وهو يحاول التفكير في المصائب التي تأتي تباعًا، وكل خططه تقوده بشكل عكسي.

ليس بشكل عكسي تمامًا بل هو ما كان بحاجه إليه بالضبط، هي وافقت على الزواج، ترى لماذا؟ لمحاولة الانتقام منه أم لأنها تحبه؟!

هي لا تعرف الحب بالطريقة العفوية الطاهرة التي يعنيها ويسعى إليها. التيار شديد للأسف، وهو يسبح عكسه بدلًا من الوقوف معه؛ ولكنها لن تكون أول فتاة تكسر أمير العصامي أبدًا، ولن يجعلها تظن بأنها استطاعت وضع اللجام حول عنقه.

بدأ يستشيط غضبًا وقرر الذهاب لتكسير رأس تلك الأفعى؛ فهو لن يوافق على الزواج أبدًا، وسيجبرها بالقوة على تخليصه من هذا الموقف الذي وضعته به.



عيونها من خلف النقاب زائغة، تحدق بالبشر بريبة، تصارع نسمات الهواء التي تنحت بملابسها فتكشف تفاصيلها، مدت يدها لتسحب النقاب شاعرة بانزلاق القيود من عليها، خطوتها التالية لا تعرفها، أما خطوتها الماضية فسعيدة بانقضائها وبابتعادها عن ذلك السرداق الكبير دون أن يستدل أحد عليها، مشغولون بذلك الجدال الصاخب بين أخيها وبين المأذون والذي كان يحرك أشياءه بغضب ومتمتمًا بأنه سيطلب الشرطة، فاستغلت الفرصة الثمينة لتهرب من الخان وللأبد.

حركت قدميها بيقين تام أن الحرية تسعى نحوها هي الأخرى، ستجد أي فندق يأويها وتستقبل اليوم الثاني بالبحث عن وظيفة، أحست بعبائها تزيح عنها أحمالًا معيدة لها إحساسها الآدمي، ستتخلى بالهروب من مستقبلها القاتم بلقبها كنعجة لا تفهم، لا تقرأ، لا تكتب، وأمها ستكون سعيدة بحالتها، ستواجه غضب شهاب قليلًا ثم تضحك على كيفية هروبها من المكان، فلقد استغلت وجود إحدى صديقات أمها المنتقبات معها بالحمام بحجة أن سحاب الفستان ضيق وتحتاج لمساعدة وما إن دخلت

معها حتى قامت بضربها على رأسها لتفقد الوعي وأخذت ملابسها وهربت من المنزل.

لن يجدها شهاب ولو بعد مئة سنة، ستتعلم القراءة و... بمناسبة القراءة، هل ستحاول نطق الكلمات الصعبة؟ فكل ما تعلمته عن طريق التلفاز والأغاني فور تركها شهاب تتنفس، قصيدتها المفضلة لمغنيها العظيم «**كاظم الساهر**»، تذكرتها وقت أن أذهب السهاد الحب بعينيها وعقلها، دندنت بها في الشرفة: «**قولي أحبك كي تزيد وسامتي فبغير حبك لا أكون جميلًا**».

كان حلمها أبسط من وجود ورقة بكتاب ومن جرة قلم فيها، أن يزور شروق شمس كل يوم بيتها، وأن تجعل زوجها يتذوق من كعكها، أن ترزق بالأطفال وستعلم الابنة إن رزقت بها، والآن هذا الحلم ما زال حلمًا ولم يتحول لكابوس، فهي بعيدة عن شر الأخ وغدر الحبيب.

استقلت الحافلة وظلت واقفة حتى خبط بها رجلٌ كان استقلها للتو فتمتم معتذرًا:

ـ عذرًا، آسف لم أقصد.

ـ لا عليك، لم يحدث شيء.

تحدثت وهي تطالع عيون كهرمانية من خلف نظاره طبية، سماحة وجه جعل قلبها ينبض بشكل غريب، شفاه رفيعة يحددها شارب وذقن خفيف، خصلات من الشعر البني تنسل من تحت طاقيته، حاجبين مزججين معقودين بارتباك، هيئة أزهرية تتيج

للخشية والإجلال بدخول النفوس، لم يكن سوى الأزهري زاهر الذي قابلته من قبل.

ـ لقد كنتُ على عجلة من أمري.

لمح شخصًا يفسح لنفسه المجال ليترجل، فأردف زاهر بصوت خفيض:

ـ تفضلي اجلسي.

تمتمت زينب وهي تحدق للأسفل بخجل:

ـ شكرًا لك.

تبادر لذهن زاهر وهو يفسح مكانًا لها لتستطيع الجلوس، تلك النغمة الخجولة والمشية المُتخاذلة وهي تجلس متطلعة كل لحظة وأخرى حولها. كانت العربة تهتز يمينًا ويسارًا ويهتز معها الكائن الرابض بداخل زاهر يقاوم بشدة سؤال تلك الفتاة، النطق بكلمة:

«**هل أعرفكِ؟!، عيناكِ ليست بغريبة عليّ!**»

قام شخص بجانب زينب بالقيام من مكانه فجلس زاهر مسرعًا بدلًا عنه، ولم يتوقف ولو للحظة عن متابعة حركاتها الخائفة، وبوصوله لهذا الحد من التفكير سعل بشدة، ونظر للجانب الآخر مطبقًا «**غض البصر**» ولم يصل به هذا الحل لفترة من الهدوء، فالتفت ناحيتها مجددًا وسألها سؤالًا توترت لأجله معدتها:

ـ آسف لسؤالي هذا، ولكن لا أستطيع كف الفضول عن مناوشة عقلي ولا بد أن أسألكِ، هل أعرفكِ أو سبق والتقينا؟!

فور سماعها ذلك التعليق أحست بأنه عرفها وسيقوم بإعادتها لشهاب، كل مصائب الدنيا تراكمت فور قوله هذا، لاحت ابتسامة مؤدبة بين شفاهه الهادئة وهو يردف بصدق:

ـ إن كنت ما أفكر به صحيح، فأنتِ زينب، أنتِ العروس الهاربة!



أزيز صادر من أحد الأجهزة الطبية، شاشة مرسوم عليها خط أزرق باهت يتحرك كالأفعى، هنالك رجل يسعل بقوة قد تعدى الخامسة والثمانين من العمر، أصبح بركانًا خامدًا ومياهًا راكدة، أخذت الدنيا عافيته ولم تبقى سوى أعماله التي سيقابل بها رب العباد يوم القيامة، هناك أنابيب معلقة بخياشيم أنفه تعيد إليه التنفس، وأنابيب تبحث عن الوريد الهارب لتحنقه بكمية الجلوكوز، صوت يشبه حفيف الشجر بسكونها ينطق بالعبرية، بينما يجاهد بعيونه معرفة القادم بتلك الساعة:

ـ هل أنت السيد إيزرايل.

كان إيزرا واقفًا محدقًا بصمت، يتابع عينا كاهانا الزرقاوتين الشاحبتين الفاقدتين للحياة وهما يتجولان ببنيته، أو يتابع شاربه الأبيض المنحوت على عظام وجهه، بقاؤه طريح الفراش لأكثر

من شهور بسبب المرض أفقده وزنه فقل النصف، أصبح بمثابة هيكل عظمي.

تحدث بصوت بارد مُخيف:

ـ ماذا تريد كاهانا؟

أجابه وهو يشير بيده الواهنة ناحيته:

ـ هل تتكلم العبرية؟

زفر الهواء بملل؛ فهو متعمد سؤاله بتلك المنطقة الشائكة، حتى يذله بخصوص تخلفه ورجعيته، فهو يعلم بأنه كشخصه محافظًا على تقاليد اليشوف القدماء ولم تمت بمرور السنين بنفسه، تحدث بملل وهو يعد الثوانِ ليرحل عن ذلك الشيطان:

ـ نعم قليلًا، ولكني أتكلم العربية، كيف أستطيع مساعدتك؟

تحدث كاهانا بشفاهٍ قلقة واهنة من تأثير المرض:

ـ الحق.. إيفت.. مائير ينوي قتلها، انقذها.

لم يبالي إيزرا بتلك الكلمات وقال بتهكم:

ـ لعبة جديدة منكم، تريدونني أن أرحل لأي مكان لتستولوا على عقل أخوتي، لن يحدث هذا.

تحدث كاهانا وهو ينازع نفسه الأخير:

ـ سأذهب معك، لمصرايم فهي تعيش هناك.

بدأ الشك يساوره، كلمات هذا الرجل المفارق للحياة والموت قد تكون صحيحة، كلا هو لن يؤمن به، إنها خدعة بالتأكيد ليقوموا بتجنيد أخوته أو الاستيلاء على أراضيهم.

تحدث مخرجًا كل أسئلته:

ـ أنا لا أفهمك، في البداية احتجزتموها رغمًا عن إرادتها، وآخر مرة رأيتها كانت ليست بحال جيدة، وأنت لم تفعل شيئًا لإنقاذها، والآن تريد ذلك، كيف هذا؟! هل الضمير من يحثك؟! أين كان هذا الضمير وأنت من تعمد بالضغط بنفوذه على تدليس حقائق قتل مائير لأمها لأنها أغرمت بعربي؟

جزع الرجل الميت بمكانه وتحدث بتأتأة:

ـ كيف عرفت؟!

ابتسم إيزرا بتهكم:

ـ غسيل عائلتك الكريمة منشور ومعروف منذ قديم الأزل، والثرثرة التي تعمدت خنقها بخصوص الموضوع محفوظة بألسنة العرب واليهود. دعك من الدفاتر القديمة، حتى لو صدقتك وكانت إيفت في مصرايم كما تقول.

تحدث كاهانا بأنفاسٍ مضطربة:

ـ مائير هناك، ينوي قتلها بسبب زواجها بعربي، هو خائف من أن تتكرر تجربة أمها، إن يوسف أخبره بهذا، وهو الآن بطريقه لشرم الشيخ ومنها للقاهرة، إن قتلها هناك فلن أستطيع إنقاذه.

توالت الحقائق تلو الأخرى، كانت كثيرة وكبيرة فلم يفهمها، أو تعمد ألا يفهمها حتى لا يشعر بالألم من فكرة علاقة إيف،

فأبعد ببصره بعيدًا يداري شكوكًا وغضبًا وحقدًا ولم يخرجه من تلك الحالة سوى إمساك العجوز بيديه الواهنة، وترديده لكلماته بالعربية المتكسرة:

- سأذهب معك، إنني أعلم أين تسكن، ليست لعبة، أنا على شفا الموت وعليّ أن أفكر بخطوة أخيرة أدخل بها رحاب الفردوس.

أزاح إيزرا يده وقال وهو يتحرك ليخرج قائلًا:

- أريد الذهاب، ولن أسمع لكلماتك تلك، بريئوت شليما «**أتمنى لك صحة سليمة**».

ابتسم كاهانا بمكر وهو يردف كلماته بصوت مرتفع أنهكه قبل أن يتوارى عن ناظريه:

- أعلم بأنك ستعود إليّ، سأنتظرك إيزرا.



عاد ضياء لمنزله مُتجاهلًا ترحيب بواب العقار، ثم دلف بسرعة لشقته، تاركًا كل ما يخص أمير وشهاب جانبًا؛ فأمير نال جزاءه، أما شهاب مجرد بيدق سيحركه بالوقت المناسب. استقبلته بحفاوة امرأته، فقام بسحبها لغرفه نومهما بدون أن يقول كلمة واحدة ولا حتى مساء الخير، كل همه إفراغ طاقته في اللقاء الزوجي المرتقب.

كولنار ابنه فؤاد دويدار، إضافة رائعة لحياته المهنية، انتشلته من مكانه ورفعت به لعنان السماء، زادت جوابات التزكيات والترقيات المحتملة، ساعدته على المستوى الشخصي، إضافة ملكة جمال التركي الأثر لبيته، بعيونها الملونة وجمالها الأبيض المثير، وكعادته لم يتحدث وأغمض عيونه مفكرًا بأسئلة حياتية دائمًا تساوره.

س١: هل أضافت تلك المدعوة كولنار شيئًا على الصعيد القلبي؟

ج: كلا.

س٢: هل هناك شيء ناقص بحياتك المثالية؟

ج: نعم.

س٣: هل تعرف هذا الشيء وإن كنت تعرفه فما هو؟

ج: نعم إنه الحب.

س٤: هل تظن أن الحب سيأتي مع مرور الأيام بتوطيد علاقتك مع زوجتك؟

ج: لا أظن، إنها شيء لإمتاعي وفقط.

س٥: «**وهو سؤال إجباري ومهم**» هل هذه طريقة لعيش حياة؟!

ج: هذه أسوأ الطرق لعيش حياة كحياة ضياء العزبي.



دق عنيف على الباب، تلاه صوت أنعام ومحمود الحازم:

ـ أمير ماذا تفعل؟! عد هنا، لم ننه حديثنا بعد.

لم يفكر أمير في تلك اللحظة بالتعب أو أي شيء آخر، بل كان يفكر في تعذيبها لإجبارها على قول الحقيقة، ولم يهدأ من فوران أعصابه إلا عندما فُتح الباب وظهر جاؤون وإيف بملابس النوم، فتحدث مُسرعًا ساحبًا إياها من ذراعيها بقوة:

ـ أريد التحدث مع خطيبتي.

تحدثت إيف بعدم فهم مصطنع:

ـ ماذا؟!

مط أمير شفاهه وهو يلاحظ بشرتها الشفافة والنظرة البريئة بوجهها، اللعينة لها قدرة غريبة عجيبة لتلوين وجهها بمشاعر مختلفة.

ـ ألم توافقي على تلك الزيجة، تصبحين بحكم خطيبتي التي يحق لي التحدث معها.

وصعد بها إلى السطح غير مبالٍ بنظرات الاستفهام التي تذيل موقفه الأخير، وما أن وصل للسطح حتى دفعها بقوة:

ـ أخبريهم الحقيقة وأنني لم ألمسكِ، وأن التقرير لا يخصني، بحق الجحيم سأتزوجكِ نتيجة لفعل لم أرتكبه!

ابتسمت إيف نصف ابتسامة وقالت بمكرٍ أطل من عيونها الزبرجدية:

ـ سأخبرهم بأنني رفعت من درجة حرارة الجو عندك لتنزع ملابسي، واحتضنتني بقوة وقبلتني، وعندما حاولت الهرب منك استخدمت قوتك، وكانت نيتك الاعتداء عليّ، هذه هي الحقيقة.

قاطعها وهو يشد على يده من الغل:

ـ سأطبق لكِ وجهكِ هذا إن لم تفعلي ما آمركِ به.

تشاغلت بالنظر لأصابعها بعدم اكتراث:

ـ ممم، حسنًا سأخبرهم بأنك قبلتني ونزعت ملابسي، فقط.

يا لذلك البرود! وكأنها بحضوره تصبح قطعة من ثلج، أو هي تستمتع بكون أعصابه محترقة وكذلك عقله.

جز على أسنانه مُتحدثًا:

ـ أُفضل دخول السجن على الزواج بكِ.

نظرت لوجهه المتورم وهو ينكمش بصعوبة في تحمل طاقة غضب مدفونة:

ـ تعجبني قسوتك تلك، لا تخيفني، بل تغريني!

ـ إنكِ لم تري شيئًا منها، ماذا تريدين مني؟!

ـ قل ماذا كانت لعبتك أنت، لو كنت تفكر بأنني مثل الفتيات التي تعرفت عليهن فكن على علم بأن عظمي مُر، وتذكر

بأنك من سعيت لقربي، وصدقني من يسعى إليّ وكأنه يسعى لحفر قبره بيده.

ـ ألم تفكري ولو للحظة...

ـ بأنك ماذا؟ تحبني؟! هراء تصدق به نفسك، قل ما تحب أنا لن أصدقك.

ـ إذا كنتِ تظنين الأمر لعبة أنا سيد الألعاب.

ـ لقب مثير، ستكون أُلعوبتي.

رفع أمير سبابته بوجهها متوعدًا:

ـ إن أُتم هذا الزواج سأجعلكِ تتمنين الموت.

أكملت إيف له باستهزاء:

ـ إن أُتم هذا الزواج ستلعق أصابع قدمي.

هذا كافي للغاية، يتصارعون كالديكة، يتنازلون ويدمرون كل ما يقف في طريقهم من مشاعر، إعصار وكتلة من النار مقابل هدوء وبرود منها. راجع سابقًا كل مواقفها معه فوجد أنهما لم يتحولا أبدًا لحالة عاطفية، بل لم يجد أبدًا لحظة منها؛ معها يشعر بضآلةٍ غريبة.

جز على أسنانه وتمتم بضيق:

ـ قلت لكِ سابقًا، أنا أمير الخان وليس...

ابتسمت بسخرية:

ـ ستكون عبد الخان.

انتشى أمير للحظة وهو يجيبها، يثبت لنفسه أن لا أقل منها:

ـ وأنتِ ستكونين أمة، نقطة ضعفكِ هي أنا!

هزت رأسها بيأس وقلبت عينيها بتذمر:

ـ دائمًا تظن الأمور تدور حولك، حسنًا، لنرى من سيجعل الآخر يخضع.

صمتت وهي تتابعه بعينيها وقبل أن تتحرك لتذهب أرسلت له قبلة في الهواء قائلة:

ـ أراك قريبًا يا عريس. بالمناسبة ليس هذا يخصني ولكن حاول تصحيح ما حدث بوجهك، قطعة من اللحم النيئ كفيلة بحلها، أحتاجك أن تكون بكامل نشاطك يا عريس، فقد لا تقدر عليّ.

تلك الكلمة كانت حافز دافع للثور الأحمق فيه ليتحرك ناحيتها ويمسكها من خصرها بقوة قد أفزعتها عندما لاح في عينيه البنيتن أسدًا شرسًا أطلق سراحه:

ـ نشاطي سأجعلكِ ترينه اليوم، واعلمي بأنني أقدر شخص على رد ألعايبك.

دفعها بقوة لينزلوا ووجد أبيهم وأنعام وجاؤون وافقون بصمت، قرر بلحظات دفع الأمر وقتلهم، فشد على خصر إيفت مُبتسمًا بغل:

ـ تحدثنا أنا وخطيبتي الحبيبة، سأعترف، أنا أغويتها ولكن عذري أن حبي قوي، وبما أنني أخطأت سأصححه، سنتمم الزواج.

وأكمل باقي جملته لنفسه وهو يبتسم ابتسامة صفراء لإيفت المدهوشة ناحيته:

«**لأجل ما قلته وذبحت به عائلتي كوني متيقنة بأنني سأجعله زواج جهنم لكِ**».



كانت تلهث بأزقه المعز، قلبها يدق بسرعة عجيبة، الظلام حالك، لا شيء يُنير سوى نور مصباح متراقص يزهو بطوله بآخر ذلك الزقاق، يتبعها شخص ما، قد يكون سامي!

بدأت تسرع في خطواتها، بالتأكيد ينتظر الفرصة لرد تلك الصفعة على وجهه عندما حاول الاعتداء عليها، أفاقت حينها من الأوهام على كارثة كادت أن تقضي على شرفها، لعنت وقتها ثقتها بنفسها وبأخلاق سامي وظنها الغبي بأن هذا هو البديل الشافي لحبها لأمير ولم يكن.

ـ هاي، أنتِ.

كان يدمدم بتلك الكلمات وهو يسرع معها، تعثرت خطواتها فسقطت على الأرض واتسعت حدقة عينها رعبًا لرؤيتها لذلك الكائن يتقدم منها ببطء.

ـ سامي؟

تحدثت بصوت متأتأة، وتحركت خطوات للوراء، بينما الكائن لا يزال بوضعيته. نور المصباح المتراقص انعكس في محاجره الرماديتين، أنارت نصف وجهه وهو ينحني ناحيتها آخذًا بذراعيها ليوقفها بينما هي تمتمت بخوف:

ـ من؟ من؟

قربها إليه واضعًا يده على خصرها، ومرر أنفه على وجهها وتمتم بحديث غير مفهوم، والتقطت فجأه اسم «**جيليلا**» ودفعها باتجاه الحائط مراقبًا إياها بصمت ولصدرها الذي يعلو ويهبط بخوف كبير.

لمحت ريتشيل تهديد خطير من ذلك الرجل، ولم تفكر بالابتعاد عنه أو حتى الصراخ، عيناه استحالت رمادية مليئة بخيوطٍ غريبة، وأحست بأنها أيقظت عفريتًا من قمقمه فور أن مرر أنامله على بشرتها قائلًا والخمر يفوح بشكل خفيف من بين شدقيه:

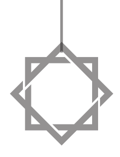
ـ ريتشيل، لقد تعبت من مراقبتكِ يوميًا. والآن، حان وقت تقابلنا، أنا يوسف، أنا الجني الذي سيكون تحت أمرك وأمر مريم، سأخلصكِ من كل عذاب عشتيه، الجنيّ الذي سيخرج من المصباح ويقول شبيكِ لبيكِ سيدتي.

ـ اتركني.

كان يحدق بها بسكون، مفكرًا بأهميتها هي وكل معارفها المسيحيين، إضافة رائعة لقائمة عملائه المحتملين وإضافة مذهلة لفراشه بالتأكيد، ولم يتمالك يوسف نفسه عندما اقترب منها وعيونه الخطرة تتحول لنظرة هيام بمعبودته الجديدة، وبشكل باغت له ولها قام بتقبيلها. صفعته بقوة لتداري خوفها منها، وسيلة دفاع تؤمن لها الهرب، وقبل أن تدفعه عنها أمسك بمعصميها وقال بصوتٍ ميت غير مبالي من أثرها على جلده:

ـ لن تضربي من يقدم لك الخير، فهذا يعد تحرشًا بشيطان كافر، وأنتِ في غنى عن غضبه.

لم تفهم مغزى حديثه ولا نظراته المهددة لها، فتحدثت بتأتأة ليبتسم بتهكم. داعب نور المصباح عينيه الرماديتين الجليديتين لتخفي انعكاس وحشية غريبة طلت وقت أن شعر بخوفها الجلي بصورة عرق يتفصد من جبينها، وفكر في دفع ورقة حتى يضمن ولاءها بالوقت الملائم.



# الفصل الرابع عشر

جاؤون يصف أوراقه ببطء وبحكمة، يحاول أن لا يندفع فينكشف، كيف بحق الرب كنت ستأتي بحق إيفت من دون أن تنكشف ديانتك؟ أكنت ستتهرب من الزواج أم ستزور في الأوراق الرسمية؟

ناظرًا لجاره العربي الذي يكاد ينحشر لسانه بزاوية حلقه قهرًا، واللمعة بعيون أمٍ صالحة تسمع بتباهٍ ابنها بالفحشاء، استنشق الهواء بغتة ليساعده ًعلى تصفيه العقل من شوائب الحسابات ليتحدث بهدوء:

- بما أنهما موافقان على أمر الزواج، لا بد من إخبار الجميع بالحقيقة، أنا يهودي الديانة مصري الجنسية، رتبت أمر تحولي للإسلام ولكن حدثت ظروف و...

قاطعه محمود بصوت عميق قبل أن يلج للداخل:

ـ لا يهمني الاستماع لحكايتك السخيفة، نحن نعلم من أنتم والله وحده يعلم ما أشعر به للتو، الزفاف سيتم بالشهر العقاري.

وأمير ينظر للجميع بصمت، يحتاج لوقتٍ لترتيب أوراقه بتروي، سينازلها نزالًا عادلًا وملتويًا، وسيجبرها أن تنفذ أوامره، سينتقم لكرامته المهدرة ولكل مصيبة أنزلتها على رأسه، ولكن ليس قبل أن يرد استقبال ضياء له.

هب أن يركض وراء أبيه وأمه لولا همسة إيفت له:

ـ ما الذي فعلته؟!

لمس ذقنها مُجيبًا بنبرة ماكرة:

ـ أستمتع باللعب معكِ، كوني مستعدة ليوم الزفاف، ونصيحة تمتعي قدر ما تشائين من الرجال لأن أيامكِ معهم ستكون معدودة.

وهرب من أمامها ناحية البيت مُغلقًا الباب خلفه.

بينما إيفت كانت مبتسمة شاعرة بظفر أو مشاعر غريبة، فاللعبة تتغير قواعدها لأن خصمها مختلف، يجيد التلاعب بكافة أدواته. ولكن عن أي رجال يتحدث؟! ألا يعلم ما بها؟! مجددًا وبوقاحة كاملة يصفها بأصلها. يصفها بالغانية التي تمقتها.



وضع بجانبها فنجان القهوة فارتجفت، فابتسم بهدوء مشجعًا إياها ألا تخاف فهي بأمان معه ومع والدته ببيتهم حيث لا مكان للشيطان بهذا الوقت. جلس وهو لا يزال يبتسم وأدرك أنه حدق طويلًا بوجهها من دون نقاب، وأنه يوحي بفتنة وبراءة قادرة على غزو رغباته فقرر غض البصر مُتحدثًا:

ـ تفضلي القهوة يا زينب.

ارتشفته ببطء قائلة بصوت خفيض:

ـ شكرًا لك، القهوة طيبة، سلمت يداك يا...

أجابها من دون أن يرفع نظرة عينه عن الأرض:

ـ زاهر.

وقتها بدأت السيدة وجيدة أمه بمناداته من بعيد فأومأ برأسه قائلًا:

ـ أستأذنكِ، أمي تحتاجني.

ـ تفضل.

وعندما رحل ارتشفت القهوة وكانت تستلذ بطعمها شاعرة بالهدوء، لقد لمست بزاهر حب المساعدة وقد يكون حب الاستطلاع، ولكن بغض النظر عن دوافعه فهي سليمة، ابتسمت بخفوت عندما كانت مرتبكة منه بسبب سؤاله عن أنها زينب، ولشرودها بمصائبها أجابت بنعم وبدون خوف. القدر يجمعها معه، بالمرة الأولي كانت بالأزهر والثانية بالحافلة؛ لعله الفارس القادم!

يا لعقلها التافه! كل همها الشاغل إيجاد الفارس، ألم يكن هذا حلمًا قد انتهى!

هزت رأسها عاقدة العزم على أن تتغير، ولكن كيف؟!

فلا مأوى لها، وحتي عندما تعرف زاهر عليها ظنت أنه سيعيدها لأخيها أو ينصحها بالرجوع إليه، ولكن لم يفعل، بل بالعكس، أثنى على قرارها الجريء وأخبرها أنه لحسن حظها كان هو مأذون الفرح ولم يتمه لعلمه عدم موافقتها على العريس.

وماذا بعد؟!

سؤال يطن بأذنها طنينًا مزعجًا، هل ستبقى أو ستوافق على دعوته هنا؟!

كانت تفكر بهدوء وتروي خطوتها القادمة، بينما زاهر يستمع لحديث أمه:

ـ من هذه الفتاة التي جئت بها؟!

تحدث زاهر بصوت منخفض خوفًا من أن تسمعهم:

ـ إنها زينب، تعرفت عليها بمشيخة الأزهر وهي واقعة بمشكلة كبيرة وأود مساعدتها.

ـ أبوك لم يأت من مصلحة الشهر العقاري بعد، وإن جاء ورآها ماذا نقول له؟! إنها صديقة ابنك وتود المبيت معنا! أظن أنه لن يُرحب بها، فهو في الآونة الأخيرة متغير كثيرًا، ولا أعرف بماذا يفكر، من الممكن أن يطردها أو يتصرف تصرفًا أهوج!

كان يعلم بقلقها من وجود فتاة، ولكنه أراد أن يمنح لزينب الحرية والمأوى والأمان، ولم يجد سوى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يهدئ من روع أمه:

ـ كوني مطمئنة بشأن أبي، من فرج على مسلم كربة من كرب يوم الدنيا...

هزت وجيدة رأسها زافرة الهواء باستسلام:

ـ فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، صدق رسول الله «**صلي الله عليه وسلم**». أعانك الله يا ولدي على فعل الخير دائمًا، هل ستبقى لفترة طويلة؟

ـ لا أعلم، ولكن أعتقد ستبقى حتى أجد لها عملًا شريفًا ومكانًا مناسبًا لها.

ـ أتمنى أن لا يأتِ من ورائها مشكلات.

ـ لا تقلقي، خير إن شاء الله. لقد تأخرنا عليها ولا يصح تركها بمفردها، دعي حلها لله وحده.

ـ حسنًا يا بني.

خرجا سويًا، فنهضت زينب من مكانها ناحيتها مُقبلة يدها:

ـ شكرًا على استضافتكِ لي، أنا شاكرة لكِ.

فأجابتها وجيدة ساحبة يدها بسرعة:

ـ أستغفر الله العظيم يا بنيتي، لا شكر على واجب، لا داعي للقلق هنا فأنتِ بمأمن عن الأذى حبيبتي، تفضلي بالدخول لغرفة الضيوف ستبيتين فيها حتى نحل مشكلتكِ.

وتسمروا بأماكنهم جميعًا حيثما سمعوا صوت المفتاح يدار بالباب، وعليّ يدخل، وما إن رآها حتى أسرع زاهر بالحديث دافعًا أمه برفق:

ـ أَدخلي يا أمي زينب لغرفة الضيوف.

تحدث عليٌّ باستغراب:

ـ ما الذي يحدث؟! ومن هذه؟!

ـ سنتحدث سويًا بالشرفة يا أبي، تعال.

هز عليٌّ رأسه وأشار لوجيدة أن تأخذ الأشياء التي يحملها، وذهب مع ابنه ليعرف ما السر، ومن تلك الغريبة.



صدرها لا يزال يعلو ويهبط، دموعًا تعبر وجهها كشلالات، شفتيها ترتعشان بقوة، وعقلها يحاول الخروج من ما أصابه، هذا الشاب الواقف قبالتها بصمت الموتى قبلها وهي تبكي، قبلها كامرأة ناضجة، وسامي أخبرها بأنها شابة مليحة وجميلة، لمَ أمير لا يراها كذلك؟! لمَ دعاها للدخول لعالمه ثم أغلقه بوجهها؟!

لحظة مرت بحياتها، أو يمكننا تلخيص حياتها كلها بلحظات ارتباك، شك، يقين.

ارتباك: وقت أن مات الطفل وأمها، فقدت ما يحث المرء على الشعور بالطمأنينة، لا أم، لا حياة فترتبك، تحاول الفهم ماذا حدث؟، ما الذي أخذها، وكيف ولماذا؟!

شك: تبدأ بفهم الأحداث فتشك، لماذا كان الإصرار على جلب الطفل؟ ألا يكفيها حبها هي؟! أمعقول تفضل إنجاب صبي على صبية؟ لمَ السر وإخفاء الحمل؟!

يقين: اليقين من احتمالية ضياع الحب بينها وبين أمها وتستبدله بحب النوع الآخر (**أمير**)، كانوا أصحاب وزملاء دراسة، وبالنسبة لها كان حب الأم والأب وكل شيء بالدنيا.

ابتسمت بخفوت وقت تذكرت انطلاقها معه في مغامرة مجنونة على متن دراجة بخارية، يدها مستميتة بالتمسك به، وخوفها المطرد من السرعة ويقين من أنها أحبته حبًا جمًا، صارحته ليصدمها فتعود لنقطة البداية: ارتباك فشك فيقين، وهي لا تزال في مرحلة الشك، بينما يوسف كان يمسح دموعها مُتحدثًا:

ـ رجاءً لا تبكي، أنا آسف، آسف لمَا فعلت.

وصمت لبرهة لاعنًا نفسه ولسانه، فهو يوشف الإسرائيلى الذي لا يعتذر عن الخطأ، ولا يعرف الأسف ولا الأسف يعرفه.

فكر مليًا بعقله المشبع بالكحول عن خطة ملائمة للدخول لعقل ريتشيل ومسح ما تعلق بذاكرتها عن مواقفه السابقة، فتحدث مُبتعدًا بأنين صادر من روحه:

ـ اعذري صفاقتي، أنا معذب بحب لا طائل منه، جرحتني حبيبتي بقولها أنني مجرد أخٍ، ولهذا أسكر حتى أنسى، تعبتُ ريتشيل من إخفاء ألمي ومأساتي عن الجميع وحتى أبي، هل تعرفين هذا الشعور؟ أن يكون لديكِ عبء يثقل

كاهلكِ ولا يمكنكِ الإفصاح عنه؟ أن تحاولي ترميم ما دمره الحبيب من نبات الحب؟ على كلٍ لستِ مجبرة على سماعي، سأرحل ولن أزعجكِ.

وترك جملته الأخيرة معلقة في الهواء، وأعطاها ظهره ليرحل، كان يحسب كل ثانية وهو يتحرك من مكانه؛ المعلومات عن ريتشيل لم تكن صعبة، دفع الأموال لذلك الشاب المدعو سامي ليخبره بكل شيء، وهذا بالطبع بعد أن قام بتهديده بالموت إن اقترب من ريتشيل تلك. ميزة فيه أنه يجمع كل المعلومات عن عميله المستقبلي ويحميه قبل أن يورطه ويسحب رجليه ببطء إلى الشبكة.

قائمة طويلة بدأت بشهاب وستنتهي بعميله الذهبي الذي لن يشك أحدٌ فيه، غير أن إيقاعه سيكون شاقًا إلا إذا كُسرت معنوياته حد الموت، إلا إذا وقع صيدًا بشبكة ظروف يصعب الخروج منها، إلا إذا وجد ثمنه الحقيقي.

هكذا تعلم وتتلمذ منذ عام ١٩٩٨ حتى ١٩٩٩ – مدة إقامته بإسرائيل بعد موت جيليلا – بما يعادل سنة وبعدها هرب مع أبيه لخارجها، ظن جاؤون أنه استطاع إبعاده عنهم، ولكنه لا يدري أن السبب الوحيد لهروبه معه هو أن يتطور كإنسان صهيوني إسرائيلي ويدمر الدول التي سيكن بها.

ـ انتظر يا يوسف.

خمس خطوات فارقة عنها، خمس نقلات داخل العقل ليُجبر البلهاء على الوقوع بالفخ واللعب بعواطفها كما يريد، وحينها توقف واستدار ليراها تستوقفه؛ فلكل شخص ثمن مادي أو عاطفي.

ـ أنا أشعر بك، لقد كنت مثلك، ولكن الرب أعطاني فرصة أخرى وأود بكل قوتي استغلالها.

ابتسم مدعيًا البراءة والإلهام، فلقد وجد ثمن ريتشيل. أما هي فلا تدري لمَ تحدثت بدون تفكير، لعلها كانت بحاجة لسماعها بدلًا من أن تظل داخلها، لعلها كانت بحاجة لتبرير كافة أفعالها السابقة واللاحقة.

بينما يوسف ابتسم بتهكم، فهو غير مؤمن، لا يشعر به، وقت أن ماتت جيليلا كفر، أحيانا بقمقمه يود الصراخ لعله يسمعه:

«**لمَ أخذتها مني؟!، لمَ خلقتني؟! لتعذبني!**»

ويوسف صامت يراقب ريتشيل وهي تردف عن نور الله الموجود وعن أننا خُلقنا لسبب كما لكل شيء أصابنا سبب. بعد أن أنهت هراءها الديني كما يظن حاول رسم قناع الجدية على وجهه، وتحدث مُحاولًا بشدة كتم ضحكه:

ـ هذا حق بالفعل، لعل سبب من أسباب تعاستي ابتعادي عن الصلاة، هل تعرفين الطريق الأسهل للصلاح؟!

ـ هل أنت مسلم أم مسيحي؟!

كان سؤالها عفويًا، فتردد يوسف بالإجابة، لعله لم يحسب حساب تلك الفتاة، أو كان حسابه خطأ:

ـ أنا مسيحي.



كان أشبه بالثور، يثور ويطيح بالكل، يضرب كل من يخبره بعدم إيجاده لزينب، أمسك بقسوة يد أمه:

ـ أين زينب؟

تأوهت آمال بحديثها من فرط الألم:

ـ يا ولدي أنك تؤلم يدي، دعني بالله عليك، أنا لست في مثل سنك.

كان يتنفس بصعوبة وكل خلية بجسده مستثارة لأقل خطأ، لو أمه كانت تكذب لن يمنع نفسه من التطاول باليد عليها.

ـ لا تراوغي، أين هي زينب؟!، كيف تسمحون لها بالهرب؟!

علا رنين هاتفه النقال ليقطع مشهده البائس بفرض السيطرة، فأخرجه ليجد رقم يوسف ففتحه ليتحدث بحنق:

ـ أنا لست بمزاج رائق لاستقبال مكالمات، لا أريد مقابلتك، لا تظن بأموالك يمكنك شرائي بأي وقت، أنا بمصيبة، أختي هربت.

دق جرس الباب بتلك اللحظة وظن أنها زينب، فأغلق الخط في وجهه وفتح الباب، وكاد أن يقفز على رقبتها لولا أن الطارق كان يوسف يرمقه بنظرة عدوانية وهو يدفعه ليدخل:

ـ أتغلق الهاتف بوجهي، ستحاسب على ذلك فيما بعد.

زفر شهاب الهواء، فهو ليس بمزاج رائق حتى ليرد عليه أو ينهره، بل إن قام بضربه فسيشفى غليله ويمحي تلك الابتسامة السخيفة عن وجهه، تمتم بحذر:

ـ لماذا أتيت؟! قلت لك بأنني لن أتحدث معك في شيء، زينب مفقودة.

ابتسم يوسف نصف ابتسامة وقال:

ـ أعلم، الخان وأصحابه لا يكفون عن الثرثرة عن الفتاة الهاربة.

لمح أمه مُحدقة له بريبة، فأكمل بدون أن يدعها تسأله:

ـ عمتِ مساءً، أنا صديق مقرب لشهاب و...

لم يدعه شهاب يكمل حيث جذبه من ياقة قميصه لخارج المنزل وأغلق الباب عليهما وقال:

ـ تذكر بأنني في مصيبة ولستُ متفرغًا لهرائك.

ويوسف يحدق به بنظره ماكرة، عليه أن يعيد ترويض شهاب؛ ففي الوقت الراهن يبدو كلبًا مسعورًا لا يعرف الفرق بين الناس وسيده.

نزع يده من عليه مُجيبًا بتحدٍ:

ـ تذكر بأنني أمتلك أدلة، أقصد وسائل لإقناعك، كن لطيفًا واترك موضوع أختك، لا بد أنها ستعود إليك.

رفع شهاب إحدى حاجبيه غيظًا:

ـ هل رجعت للشرب؟! لقد هربت مني، كيف سأبرر للشيخ حمزه عدم عثوري عليها؟!

زفر يوسف الهواء بإرهاق مُتحدثًا باستخفاف:

ـ حمزة، حمزة، أوف! ما هذا الهراء؟! أختك ليست بمشكلة وأنت عليك ألا تنسى.

أجابه شهاب وهو يربت على جيبه:

ـ إذا كنت تظن أنني عبدٌ لك بتلك الأموال فهي لا تزال بجيبي، سأردها لك.

هز يوسف رأسه نافيًا واستعان بمثل مصري سمعه ليستعيد سيطرته:

ـ كما تقولون، دخول المرحاض ليس كمثل خروجه يا محترم، الإيصالات والشيكات التي حررتها لي أحتفظ بها، حتى لو رددت الأموال سآخذها وسأزجك بالسجن بها أيضًا؛ ففي النهاية ما يثبت أنني أخذت منك أموالي ها؟ لا بد من كتابة خطية بالتنازل، وأنا لن أفعلها.

أراد أن يصبح بأمواله سيدًا، ولكنه لم يدرك أنه اشتري حريته بدلًا من سيادته، وها هو الثمن، يتمثل في فقدان شهاب النطق واستكمال يوسف حديثه بهدوئه المُتبع:

ـ أُذكرك بالوسائل المتاحة أمامي، إن لم تنفذ أوامري وتكن متاحًا خلال ال ١٢ ساعة المُقبلة، فلدينا موعد مع قريبي بشرم الشيخ ولا يجب أن نتأخر عليه.

كاد شهاب أن يجن ويضربه حد الموت، إلا أنه صرخ بصوت مرتفع:

ـ تهددني وتتحدث معي، ما نوعك أيها الرجل؟!

نظر يوسف بنظرة مظلمة واتسعت بسمته الشيطانية ليقل بصوت خالٍ من الإحساس:

ـ نوعي إنسان متطفل، أعيش على الغسيل الوسخ للناس، أنمو وسط القذارة، شجره جافة وسط الصحراء.

أردف وهو يعطيه مزيدًا من المال بجانب كيسًا به مسحوق أخضر اللون:

ـ ولكن تلك الشجرة يمكنك أن تستظل بها وسط القيظ. اسمعني جيدًا إذا كنت تفضل رجوع زينب إليك..

ـ هل أنت من اختطفها؟!

ضحك يوسف من غباء هذا الشاب، ألم يقل عقله في عضلاته وحسب، سيكون مفيدًا جدًا للأشياء التي سيفعلونها سويًا فيما بعد:

ـ كيف أختطفها وأنا لم أرَها أبدًا؟ وماذا سأفعل بها؟ حقًا إنك محدود التفكير وغبي.

زفر شهاب الهواء بضيق:

ـ هاي، لا تنسى نفسك وتهينني.

ابتسم يوسف بتهكم قائلًا:

ـ يا حبيبي، لا تنسى مع من تلعب، خذ الأموال وتصرف بطبيعية، أجل أمر الزواج بحجة تعب مزمن حدث للعروس واضطرت للذهاب إلى المشفى ولم تخبر أحدًا بهذا، تحجج بأي شيء، المهم تخلص من تلك الورطة حتى نستطيع السفر لشرم الشيخ، سآخذك إلى عالم يعادل الجنة بجمالها، إن لم تفعل سآخذك لجهنم بيدي، موافق؟

عندما وقع شهاب اتفاقية الشراكة ظن بأنه يمكنه التحرر منها متى شاء، غير أن يوسف لا يحل أحدًا من قيده إلا عندما يحب ذلك، وحينها زفر الهواء باستسلام وخيبة، واضطرار لبلع هذا الرجل وعدم التفكير بمخالفته مُتمتمًا بضيق:

ـ موافق.



ـ لِمَ السرعة يا أنعام؟!

ـ لا بد من تحضير الشقة قبل تحديد ميعاد الزواج.

ـ تتصرفين وكأنهم سيعيشون الدهر بأكمله!

ـ هل تقبل أن يعيشوا معنا؟

ـ لن تطأ بقدميها النتنة هذا البيت.

كانت هذه محادثة صباحية أصبحت سمة هذا المنزل منذ أن تجرأ وتلفظ بقوله الدنيء، مر على ذلك الموقف أكثر من يومين أمضاهما بغرفته يفكر وغالبًا معظم تفكيره منحصر بصب لعناته عليها، فحياته انتهت وانقلبت رأسًا على عقب بوجودها بالواقع كما انتهى حلم الهندسة بالتكسر على صخرته؛ فالخان وبلاده قتلوه ببطء مرير طوال سنوات حياته، قصوا حياته بمقص الفقر والحاجة، فترك لقب المهندس ليبقى مجرد بائع بالخان، أصعبها وأمر الأوقات فيها تلك التي يتذلل فيها للسائحين لشراء بضائعه التي يصنعها بيده، كأنه وضع قطعة من جمر بفمه.

من الذي كان يُحلي أيامه في الخان؟ عوض!

وقف بجواره منذ أن كان صبيًا بالخان وعلمه صنعة الدق على النحاس، ولكنه لم يستمر طويلًا.

شباب، دماء، نيران، وقوفه بوجههم، زئيره القوي، صوت رصاص شق الليل، ارتخاء جسد ينبض بالموت، خضم ذكريات القيود محرق للعقل، وروحه التي عرفت الرق تتألم من طوق الزفاف المُكره عليه، من كان يمتنع عن الزواج بزينب الشريفة لأنها ليست ملائمة لمستواه التعليمي أصبح الآن سيتزوج بامرأة عرفها غيره. لم يغمض له جفن من يومها، يفكر بنقلات ذكية

لحركته التالية، سيعرف كيف يقلب الأمر لصالحه، ما عليه سوى التنفيذ.

دق جرس الهاتف برقم عاشور صديق كرة القدم ليجيب بفرحة:

ـ مرحبًا، هل عرفت آخر أخبار ضياء؟ ذلك الكلب لن يترك عادته السيئة، هل أنت متأكد؟ مممم حسنًا راقبه جيدًا وقبل أن يذهب اتصل بي وداعًا.

أغلق هاتفه مُبتسمًا، لقد بات قاب قوسين أو أدنى من هزيمة ضياء، فهو لم ينسَ عاداته؛ فضياء يستغل سلطته بقضايا الآداب ويعرض حلًا مناسبًا للمتهمة، وقضايا السرقة إن تورطت فيها فتاة يخيرها بين السجن أو قضاء سهرة معه.

كانت ورقة أمير القديمة ضده عندما كان يتردد على الخان ويطلب فرض إتاوات عليهم لأجل تأمين البضائع من السرقة، ومن لم يفعل ينل جزاؤه من تكسير واجهات متجره أو سرقتها.

كان الجميع يخشونه ما عدا أمير وعمر، كانا غير متفقين على موضوع الإتاوات وقررا إزاحته من الشرطة بمساعدة دياب زميله بالقسم، وكانت مهمة دياب التحري عن مكان ضياء ويأتي عمر وأمير للعنوان المقصود بغرض إظهار فضيحة وإجبار من يتم الاعتداء عليهن من الفتيات على الوقوف بصفهم والشهادة ضده. هذه هي الخطة قبل ثورة يناير، غير أن بعدها تغيرت الحسابات واستطاع أمير أن يربط وجود ضياء بمكان الحادث الذي تم

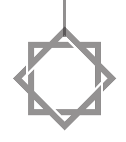
فيه قتل المتظاهرين بالمحكمة، ظنًا منه أنه بهذا قد أخرجه من الساحة.

ولكنه عاد أشرس من ذي قبل ليعد هو الآخر للخطة الأولى.

ابتسم أمير بتشفي قائلًا لنفسه:

ـ روحك يا ضياء أصبحت بيدي، سوف تنال جزاءك قريبًا.

وسقط من السماء حلٌ سحريّ على رأسه العبقري، وحينها ضحك طويلًا قبل أن يحضر حاله للخروج، فسوف يضرب عصفورين بحجر واحد.



# الفصل الخامس عشر

كانت امرأة طعينة الفؤاد، تلفظ أنفاسها بصعوبة، تتذكر بكاءها كل ليلة بصلاة التهجد، تركت لله أمر ابنها وأبيه، لعلها تستطيع الحصول على راحة البال قبل أن تموت، ولكن أين تلك الراحة؟ فلقد كان هذا متوقع فلم تعهد أمير إلا متهورًا، وكذلك عمر، كثيروا الشغب، يقذفون على المارة حبات البندورة أو الماء، ولم ينج شخص من أذاهم الطفولي.

أخرجت الشكمجية التي بها كتاب القرآن الكريم وبعضًا من مصوغاتها من درجها القديم، مذ أن وعي أمير للدنيا وهي تخطط لعرسه ومصوغات عروسته التي على ما يبدو لا تستحي.

قررت الذهاب لشقتهم رغم أن هناك شيء ضئيل يحثها على التراجع عن الاحتكاك بها، تجاهلت وجود محمود تمامًا بالصالة والذي كان يخبرها عن مقصدها، فأيًا كانت تلك الفتاة فهي كسرت تابوه وضعته لنفسها، فلن تنحني، لن تركع لمحمود،

لن تتقبل الإهانة منه وعليها أن تتعرف بشكل مقرب على من حررها.

وسويعات وفتح لها جاؤون الباب ليقل:

ـ مدام أنعام! أهلًا وسهلًا بكِ، تفضلي..

ردت عليه بالشكر وبضرورة رؤية ابنته فحياها بأدب وأدخلها للشقة، مكملًا حديثه وهو يُدخلها لغرفة إيف:

ـ تفضلي، إنها موجودة بالداخل ومستيقظة، حورية لدينا ضيوف.

دخلت لغرفتها حيث كانت جالسة على فراشها، وتأملتها أنعام جيدًا قبل أن تداري نفسها بدثارها الأسود غير المحكم الإغلاق، تمتمت بصوت خفيض:

ـ مرحبًا.

كانت إيفت خجلة بعض الشيء من السيدة العربية، ورمقت جاؤون بنظرة تأنيب إذ جعلها تراها على هذا النحو، فتمتم جاؤون باقتضاب:

ـ أترككما بمفردكما.

كان الصمت وثيرًا، فتحدثت أنعام لتقطعه مقبلة ناحيتها:

ـ مرحبًا ابنتي، لعلنا تقابلنا بظروف سيئة ولكن عليّ الترحيب بزوجة ابني، اعلمي أنني معكِ ولستُ راضية بما فعله ابني، ربما تكوني يهودية واليهود نكرههم ببلادنا، ولكن لا أستطيع مخالفة ضميري والوقوف ضدك فأنتِ بالنهاية فتاة.

صمتت لبرهة وأردفت طاردة كل أفكار إيفت جانبًا:

ـ لعلك تتسائلين الآن كيف أبدو وأي أم أنا التي ترضى بمصاهرة اليهود، كيف أبدي تفوقًا وكرمًا للأخلاق عن زوجي محمود! الإجابة واضحة؛ إن رسولنا الكريم قال الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يقل المسلمون ولا المسيحيين، كما قال أن الله لا يفرق بين مسلم وآخر؛ فلماذا أخالف تقاليد إسلامنا وأظلم شخصًا لمجرد أنه لا يتبع ملتي؟!

صمتت وهي تغمر كلماتها بالدموع ممسكة بالمصوغات مقتربة من إيفت:

ـ أنا جئت لهنا للتقرب منكِ، لمعرفة كيف ستكون زوجة ابني، ربما محمود يظن بأنه سيفرقكما، ولكن مهما حدث لن أدع ابني يتخلى عن المسؤولية، سأدافع عن حقكِ حتى النهاية.

صمتت لتستعيد أنفاسها مُكملة:

ـ إن محمود قد جن، يتحدث عن إنهاء الزواج بأسرع وقت ممكن وأسايره حتى أضمن حصول الزواج والعدالة لكِ، خوفي من غضب الله عز وجل أكبر من أي فوارق دينية وموضوعات جانبية.

تابعت وهي تعرض الزينة مكفكفة دموعها:

ـ كنت أحتفظ بتلك المصوغات لزوجة ابني، لذا فهي لكِ بعد مشاورة ربي وقت الصلاة، كان الله بعونك على هذا النذل أمير، اجلسي ابنتي، أود أخباركِ بشيء.

أجلستها دون أن يكون هنالك رد منها، كانت مستمتعة جدًا بحديث المرأة العربية، لم تكن بنظرتها ما يدعو للسخرية، لعل بهم خير فعلًا كما قال الحبيب من قبل.

مسدت أنعام شعرها الذهبي مُكملة:

ـ إنكِ جميلة للغاية، حفظكِ الله من كل سوء، ولأجل أن يتزين جمالكِ بالبهاء عليكِ ارتداء ملابس محتشمة، ربما بيننا وبينكم اختلاف بطبيعة الحياة، ولكن كما أحرص على اتباع التقاليد عليكِ أيضًا اتباعها، فأنتِ بمقام ابنتي الآن، ومهما حدث بينك وبين أمير ستظلين بنظري ابنة تحتاج للأم، صحيح أين أمكِ؟

نظرت إليها إيفت طويلًا بغباء مجيبة بتلقائية:

ـ أبي أخبرني وفاتها.

شهقت أنعام بأسف وأمسكت يد إيفت مغيرة دفة الحديث:

ـ رحمها الله وحفظكِ لأجلها. أتعلمين، أمير ليس سيء هو طفولي بعض الشيء، يحب البازلاء، كان سيصبح مهندسًا كبيرًا لولا الظروف، فُرض عليه أن يختار بين السعي وراء حلم وظيفة المهندس التي لن تأتي أو يبقى مستمرًا كغيره

بالخان، أنا شهدت احتراقه كل ليلة به. تحمليه، قد يبدو عصبيًا، ولكنه بالكلمة الحلوة يتغير، أنا أدرى الناس به، فيه نبتة حب أكبر من كل شيء، إن كنتِ بخطر فسيحميكِ، فكوني السند له، لا تكترثي لكلماته الحادة فغالبًا ما يكون خلفها ألمًا يداري به نفسه.

ترقرقت الدموع بعينيها شاعرة بالألم لمَا تمر به أنعام وبإحساسها بأنها رخيصة بنظره، لهذا يتصرف بعدوانية معها.

لماذا تفكر فيه؟ ولماذا هو بالتحديد عن الآخرين يبدو مثيرًا؟!

يتعلم النقر بقوة بإيفت ليظهرها كشيطانة وهو إبليس.

تلمست القلادة الذهبية بأناملها وكادت أن تتخلى عن وضعيتها الجامد وتضع رأسها على صدرها وتبكي طويلًا بكل المرار التي اضُطرت لملاقاته، لولا أن لمحت كتابًا أخضرًا بالشكمجية، وتذكرت حروفه وتذكرتها.

- هل يمكنني قول أمي؟

كادت أن تبدي شيئًا من حذر مشوبة بكلماتها المتقطعة بعد أن أراقت دمعها وماء وجهها أمام تلك الغريبة.

- نعم يا ابنتي.

زفرت إيفت الهواء بتعب أثقل كاهلها وهي تردف:

- هل يمكنكِ قراءة بعض آيات منه؟ لم أسمعه منذ فترة، ولقد كان يريحني.

ـ هل كنتِ تستمعين إلى القرآن؟!

زفرت إيفت بنعم من دون صوت، فأدركت أنعام أنها بحاجة ماسة له، ففتحت الكتاب ورتلت به آية تعزها من بين معجزات آياته سبحانه وتعالى:

ـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

مشاعرها تغيرت تمامًا، موجة من ألحان مُنسقة تعصف بها وتحملها فوق السحاب والسماء، وفور انتهاء الصوت شعرت بأنها تقف بالفراغ، فتحدثت مترجية أن تعيدها للتحليق مُجددًا:

ـ رجاءً أكملي، إن فيه شفاء لروحي.

ـ حسنًا يا ابنتي، طالما هذا يريحكِ.

واستمعت ودموعها تغرق وجهها مُفكرة ما أحلى ذلك النغم، عليه طلاوة بالحديث ويريح إيفت من عذابها القذر، وينشئ إيف من جديد، يقذف بكل مساوئها لأبعد نقطة عنها، يجعلها تتذكره، وتتذكر تلك الطفلة التي كانت ترتل القرآن بصوتها الشجي، والتي أجبرها أبوها وجِدّها يومًا ما على إخراسه للأبد.



الانتهاك: يأتي من فعل ينتهك، انتهك أي اقتحم، احتل، أي تعدى بدون حق، اغتصاب حقوق الآخر بالحياة، تعدي الحدود أو بإساءة، أن تتاجر بشيء ليس ملكك.

معانٍ كثيرة تجلت ولم تتخل عن تأثيرها بحياتها، منذ أن هربت يتراءى لها أينما ذهبت، كانت صدمتها الكبرى بعد العديد من الصدمات الصغيرة التي أفقدتها إنسانيتها، بدأت تصرخ بقوة أجبرته على صفعها، لم تعد تفكر في ما الذي يحدث بالضبط، بل أحست بأنها بحاجة له، شهقت محاولة الاستنجاد به، فتوالى صفعها مرة أخرى ليفقدها النطق.

مُدت أنامل خشنة على عنقها تخنقها، فتأكدت بعودتها لنقطة الانتهاك. ما الذي حدث أو يحدث هي تعلم، للإجابة سنعود بالذاكرة للوراء بأكثر من ساعتين.

كانت الشمس حارقة ككل يوم من أيام شهر مايو الصيفية، وأمير قرر مقابلة إيفت بعد عودته من الخارج، دس ما كان يضعه بجيبه ودق الباب قائلًا للفاتح بابتسامة سمجة:

ـ مرحبًا أود مقابلة حورية.

ـ إنها مع أنعام، لحظة أناديها لك.

اعتدل أمير عن ابتسامته التافهة فور ولوج جاؤون للداخل دون أن يأخذ باعتباره أن أنعام ببيتهم، لا بد أنها تريد سماع ما حدث برواية أخرى، آملًا أن تكون إيفت حلت بقلبها الرحمة وقالت لها الحقيقة أنه تحرش بها جسديًا بعد أن نزع ملابسها، قرر أن يبتعد مثلما ابتعد عنها وألا يحاول فعل شيء، وزفر الهواء بهدوء يرتب ما سوف يقوله وداعيًا من كل قلبه ألا تكون أساءت لها بأي كلمة؛ ولكنها أطاحت بكلماته وبدعائه في الهواء عندما

تقدمت بدثار نومها المخملي الأسود المثير الكاشف عن أغلبية جسدها. صوتها يضحك بغنج غالبًا عبرات روحها المكسورة على أعتاب أنعام منذ قليل:

- أبى أخبرني بأنك تريد الحديث معي، أمك بالداخل، مسكينة، تكاد تموت من القهر بسببك.

تنفس أمير بعمق مُتجاهلًا محاولاتها لإثارة أعصابه، وفكرة ضربها التي لاحت بعقله بقوة وتحدث بهدوء مُبتسمًا بتكلف:

- هل اشتقتِ لي حبيبتي؟!

اقترب منها دافعًا إياها نحو صدره بقوة مُردفًا وهو يمرر أنامله على بشرتها:

- أتطلع ليوم زفافنا، فأنتِ لا تعلمين مدى شوقي لكِ.

انزوت شفاهها بنصف ابتسامة مجيبة:

- وأنا أيضًا، ولكن كُفّ عن تلك الابتسامة، فلا تليق بك، يليق بك الغضب، أحب تدفق العروق وزحفها كلبلاب بمقلتيك.

- ولكنكِ تحبيني، لذا أحبيني بكافة حالاتي، وأنا بمزاج رائق جدًا ولن أسمح لمحاولاتك باستفزازي. كل ما عليكِ فعله هو الاعتراف بحبي.

كادت إيفت أن تضحك لولا استسلامها لقربه، هلاوس تمر عليها لتعيد تشكيل مفهومها عن سر الانجذاب لهذا العربي الوقح، قد يكون حب أو شيء آخر.

وبنفس مُجهد من القرب أجابت باقتضاب:

ـ أبدًا.

ضاقت عيناه بشراسة وهو يبتسم قاصدًا إرباكها:

ـ ولكنني بكل الأحوال أحبكِ، ولسوف أتلو قصائد العشق على مسامعكِ حتى تليني وسأحاول فتح صفحة جديدة معكِ.

نبضات قلبها تبدأ بالتسارع بشكل مرضي، أمير لم يكن فكرة قصد التدمير، بل أمير كان قصد الاجتياح والاحتياج، غير أنها ترفض أن تُستغل وأن تشعر بأنها على شفا حرب غير متكافئة بين رغباتها وما يجب أن تكون عليه، لأن بالنهاية ستنتصر إيفت بكل قذارتها.

ـ أراكِ مولاتي بعد دقائق بالأسفل، سآخذكِ لمكان خاص بمفردنا.

وتحرك من أمامها مصيبًا إياها بالإحباط وبالتفكير فيما يقصد ب (**خاص**).

أغلقت الباب ودخلت بسرعة البرق لغرفتها حيث أنعام تنتظرها، فأنهت حديثهما وهي تأخذ حاجيتها لتغير ملابسها:

ـ معذرة لقد حدث لي موقف طارئ، ولا بد من أن أذهب.

نهضت أنعام من مكانها مدركة أنها تُطردها بشكل لطيف:

ـ حسنًا بنيتي، سأرحل أنا إذًا، صحبتكِ السلامة.

ورحلت بهدوء مفكرة في أن تلك الفتاة ليست طبيعية.

وأمير بالأسفل يقف مُصفرًا بهدوء بأغنية قديمة، حتى رأى إيف وتوقف عن التصفير محدقًا بها بغيظ، فلقد ارتدت تنورة رمادية قصيرة وقميص أبيض مفتوح الأزرار.

تحدثت حورية بابتسامة ماكرة بعد أن رأته فاقد النطق:

ـ هل أعجبك؟ تلك الملابس أطول ملابس لدي.

أومأ برأسه وقال وهو يتنقل بعيونه بوقاحة فيها:

ـ أجل، هلا نسرع حتى لا نتأخر.

ـ هل أشم رائحة استعجال وتلهف!

ـ كلا يا حبيبتي، أحاول ألا نتأخر بطريق عودتنا حتى لا نثير الشكوك.

ـ شكوك! وهل نحن مراهقين؟!

ـ سؤال؛ هل أمي تعرف بوجودي معك؟

ـ سأجيبك بشرط، سؤال مقابل سؤال، اتفقنا؟

ـ أوف.. ت...

ـ لماذا تريد أن تعرف؟

ـ لا تماطلي وأخبريني.

ـ عموما هي لا تعرف.

ـ جيد.

ـ هل يمكنك إخباري بما تخطط، هل تفكر بضربي أو قتلي؟!

ضحك طويلًا لدرجة أنه لم يستطع التنفس، لأنه كان يفكر بهذه الاحتمالات، وانزوت شفاهه بخبث مُقتربًا منها:

- ألم يفكر خيالك بشيء آخر.

أجابته بتحدٍ وبغطرسة ممررة له ضربة بالصميم:

- لم أفكر سوى بعبد الخان الذي سيكون زوجي، والذي خربت له حياته، أصبح لعبة طوع بناني ويتمسح بي.

ظل أمير لفترة صامتًا؛ فلولًا أنه لا يريد إفشال خطته لانهال عليها ضربًا حتى انسلخ جلدها ولحمها عن عظمها. أزاح خصلات شعرها الأشقر عن جيدها مُفكرًا بالانقضاض عليها كمصاص دماء، وتمتم مُمررًا أنامله على شفاهها:

- دعكِ من محاولات استفزازي، فتلك الشفاه تسعي إليّ، وأنا بحاجة لرشفاتها، تلك هي الخطة بكل بديهيتها.

وتجاهلت إيفت كل شعور بالعقلانية أو الاحتمالات التي تدعها تفكر بخدعة، مستجيبة لكلماته التي تلكزها بسيل عارم من المشاعر المُحرمة، لتجيب بسرعة وبفرحة:

- هيا بنا إذًا يا حبيبي، أظن بأنني فهمت مقصدك بخاص جدًا.

راضاها بابتسامة متواضعة، تشبه من على وشك التقيؤ وإفراغ معدته، وما إن أعطته ظهرها حتى باغتها بمنديل مشبع بدواء كلوروفورم المخدر ليجبرها على استنشاقها وكاتمًا لصرختها ومفرغًا سوس كلامه الحقود ليأكلها:

ـ وأنا أخبئ لكِ مفاجأة، لولا أنني لا أحبذ السجن بتهمة قتل أمثالكِ لكان بيدي حقنة بها هواء فقط ليدخل بعروقكِ، اهدأي واستسلمي، كلما قاومتِ كلما ازداد تأثيره سريعًا.

لم تعرف إيفت فيما تفكر، كانت أشبه بالدجاجة التي يحاولون بحياء ذبحها؛ فأمير مسيطر تمامًا على حركتها وهم بمدخل العمارة المقفل، وكل همها النجاة، فظلت تدفعه يمينًا ويسارًا حتى استكانت وغرقت في النوم وتهاوت ساقيها بالأرض، وقبل أن يدعها تسقط حملها بين ذراعيه القويتين.

كانت خفيفة جدًا وشعرها يتساقط للأسفل بعيدًا عن وجهها، وقميصها انفتح بفعل الحركة مبرزًا ندبتها الأزلية على صدرها، تأملها لبرهة مُفكرًا بأن تلك البراءة المشعة بابيضاض وجهها لا تعكس حقيقتها، تمنى لو أن لديه يدًا ثالثة ليزيح تلك الخصلة العالقة بين رموشها الكثيفة.

تساءل هل لو كانت مصرية كانت لتحرك قلبه؟ هل كان سيحافظ عليها؟ وقبل أن يسترسل في المزيد من الأفكار هز رأسه وتحرك خارجًا: فالخطة لا بد أن تكتمل.



كانت طفلة، منذ أن استقبلت الحياة استقبلتها بدورها بنصيبها من الجروح، حالة من التيه تعتريها وتدخل لخوالجها، هناك ستائر حمراء تنساب لنظرها المشوش، ومنه للفراش الملون

بالأحمر، والإضاءة خافتة وتزيدها عتمة، بالإضافة للحوائط المطلية ب «**قنالتكس**» به زخارف رخيصة الثمن.

تأوهت مُتحركة بترنح بفراشها، ذلك اللعين أمير خدرها وأتى بها إلى هنا، ولكن ما هو هنا؟! سمعت حديثًا بالخارج.

ـ عواطف، إن اكتشفوكِ رجال المباحث مرة أخرى فلن أنجدكِ، احمدي ربكِ بأنني عدت للخدمة، وإلا لكنتِ تعفنتِ بالسجن.

ـ أعدك بأن أخفف نشاطي قدر استطاعتي.

ـ هذا لا يخصني، لقد حذرتك وهذا يكفي، أين ترضيتي؟

ـ أتيت لك بفتاة شقراء، سائحة تائهة، أعطيتها مخدرًا لتكن سهلة، ستجدها بالداخل.

ـ أصبحتِ عالمية يا عواطف! وعمومًا التغيير واجب، فلن أنسى فتاة الشوارع التي اضطررت لاحتمال رائحتها البشعة.

ـ تلك مختلفة، صدقني، ستأكلها أكلًا.

انتفضت إيف بمكانها عندما عصف الباب لتجد شخصًا يرتدي بذلة بيضاء، رجل شرطة! وضع قبعته جانبًا دون كلمة وفك زرائر بذلته بعملية وكأنه معتادٌ على هذا الوضع، لكن الجديد بعرف ضياء هو انبهاره بتلك الآية من الجمال الموضوعة بالفراش، حاليًا يود التهامها بنظراته فالنظر وحده متعة.

بدأت تتحدث باستفهام عن مكانها، فأمسى جالسًا بالقرب منها واضعًا يديه على شفاهها يأمرها بالتزام الهدوء، ثم انقض عليها، فقاومته صارخة وهي تلك التي عدنا بها بعد ساعتين عن لحظة الانتهاك.

كان ضياء يصفعها ويخنقها، فهي ساديته التي يحب ظهورها بالشكل المناسب له، والتي يفرغها بين أحضان الغواني، ذلك لأن كولنار الحبيبة لن تسمح بهذا، بل أي أذية صغيرة ستؤدي لتدميره؛ لذا هو سعيد طالما يفرغها بالمكان الصحيح وللفتيات المناسبين.

ومن خلف الأسوار المغلقة كان أمير يتابع ما يحدث ببرود، ينظر للفيديو الملتقط لكاميرا الغرفة بتشفي، ولكن شيئًا ما أخبره بأنه لدقائق أخرى سيظهر بمظهر النذل ومظهر آخر لا يفضل الدخول فيه طويلًا، يكفيه أن يشبهه بمشهد فيلم (**القاهرة ٣٠**) عندما ترك الرجل زوجته مع رجل آخر.

هل هو أصبح مثله؟!

تبدلت ابتسامته وبدأ يشعر بشيء، الحقد يمزقه لأشلاء، فهل سيظل بموقف المتفرج طويلًا أم للضمير رأي آخر؟!



صرصار الليل ينعق كضفدع ميت، وحوش الصحراء تنتظر فرائسها الغبية، قلب صلب ينبض بثبات داخل شهاب يحاول أن يتابع بتلذذ ذلك الانفجار الضخم الذي أشعل فتيله.

نظر ليوسف بجواره والملتحف بثياب عربية شأنه، وذلك الشال الأبيض فأسود المغطي معظم وجهه ما عدا عينيه، لم يكن يعرف بأن يوسف هذا سيقنعه لتفجير محطة الغاز الطبيعي! ألسنه النيران الصفراء تكاد تخترق الغلاف الجوي، ويوسف ينظر بانبهار مثله، لم يبدي شهاب أي نوع من التردد وهو يهاجم الجندي المصري ورفاقه بمعاونة يوسف وبعضًا من الشباب – لا يعلم من أين أتوا – فهم بنظره أعداءه، حرموه من أشياءٍ كثيرة.

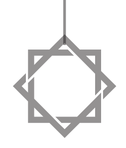
ذلك الملازم سيترقى ليصبح ضابطًا في يوم ما وسيظلم أحد، سيحرمه من وظيفة الشرطي التي يتطلع إليها، كأن بحاجه لإثبات سيادته – غير صك عبوديته ليوسف – وأنهم بلا حول ولا قوة أمامه، لم يظن ولو للحظة أن الشراكة مع هذا الرجل قد تصل لهذا الحد، ولكن لها طعم خاص مختلف، تجعله يطلق كافة مكنوناته.

همس يوسف بشَرٍّ مكتوم:

- إنهم من كانوا السبب في دخول أبيك السجن، إنهم أعدائك وأعداء ربك، فانتقم لكل ما مررت به بحياتك.

كان مستمعًا لصرخاتهم بأن يدعوهم يعيشون ومستمعًا لذلك الصرصار الميت الناعق بالشرر المتطاير من عينيّ يوسف وأتباعه، والابتسامة متعلقة بالجو لعِلم يوسف بأن خطته المتمثلة بالسيطرة والتلاعب، فالإقناع أنتج ثماره عندما قتل شهاب هؤلاء الجنود.

أخرج يوسف هاتفه ليُرسل رسالته الأخيرة لمائير بعد ابتعاده هو وفرقته – التي جمع أفرادها من صديقه الغول رجل الأعمال – بطبقات الرمال منعدمين الإحساس.



# الفصل السادس عشر

تنفسها يزداد سرعة مع كل صفعة، تشعر بأن يدها لا زالت مقيدة وتؤلمها، تلك الحالة التي بها لا تختلف كثيرًا عن حالة تلك الفتاة التي كانت تجثم فوق الفراش مقيدة الأرجل والأيدي، ترى بنظر ضعيف مجموعة من الرجال السكارى المترنحين يتنابون عليها وهي لا حول لها ولا قوة، حتى ذلك السكين المحتفظة به أسفل وسادتها لا يزال نائم بهناء تحت رأسها.

كانوا يملؤون أفواههم بالخمر قبل أن يحددوا من التالي، وكانت وقتها أهلكت قواها وصوتها اختفى من كثرة الصراخ.

توجه إليها يهودا وتمتم بالعبرية متسائلًا عن كونها مستيقظة، وعاود النظر لأصحابه الذين كانوا يقفون منتظرين بلهفة نتيجة المعركة التاريخية، كانت تشد الحبل المقيد لحركتها بالقوة الباقية لها حتى أدمت يديها الاثنين، أغمضت الطفلة عينها حتى لا ترى الوحش القادم، وأغمضت إيف عن رؤية ذلك الشرطي وهو

يخنقها، وكل ما جال بفكرها أن على أمير أن يختار عذاب أقل وطئًا من هذا، ألا يكون مثل أبيها تمامًا.

فكرت في إيزرا الذي كان لا يعلم عن حياتها بالمزرعة، كانت لديها مربية عربية ظلت معها حتى بلغت الثلاث سنوات، وبإحدى المرات ذهبت لغرفة والدها ولم تعد، الشائعات تضاربت برأسها عن كونها حقيقية أو لم يقم أحد بتربيتها وأنها تتخيل وجود مربية لها.

جُهل مصيرها بالنسبة لإيفت، ولكن الحقيقة التي لا تعلمها بأنها قتلت لأنها جميلة، وكانت محط أنظار مائير منذ أن وطأت أرض المزرعة، ولأنها كانت تقف ضده دومًا فيما يخص إيف، وكان لا بد من إزالتها والاستئثار بها قبل الموت، وعندها لم يصبح لإيفت حامي وبعد بلوغها الخمس سنوات جعلها محط تسلية الجميع، فكان يستخدمها جارية تلبي طلبات أصدقائه السكارى، ولم يكن باستطاعتها الرفض أبدًا.

الهواء يقل والعنف يزداد وهي لا تملك صوتها لتصرخ. رسمت ابتسامة مريعة على فمها قبل أن تخذلها عيونها وتسقط بأذنها بنحيبها المائي.

لأنها قوية جدًا اجتازت ما حدث من أمير بالسطح بسلاسة وكأن شيئًا لم يحدث، ولأنها قوية جدًا ستسقط ما يحدث من ذاكرتها كما ظنت تلك الطفلة الصغيرة أنها فعلتها يومًا ما، ولأنها لا زالت قوية فستبكي احتقارًا من تلك النفوس التي تنتزع حقها.

عليها أن تستسلم لتلك النداهة الخفية التي تهمس بأذنها وتدعوها أن تجد الراحة بنفسها.

ما الذي جلبها للحياة؟!

سؤالٌ عجزت عن معرفة سِرَّه؛ لذا أمسكت بيد النداهة لترحل بعيدًا.



ـ هااي، أفيقي!

هوى بكل قوته لصفعها صفعة كادت أن تشج رأسها، ولكن لم تبدِ أي نوع للتأثر، فهزها بعنف وضغط بقوة على عنقها بحزام سرواله لعل الهواء القليل يجبرها على فتح عينها، ولكنها لم تسعل حتى، أمسك بشعرها بعنف حد أنه أخرج بصيلاته بيده، ولكنها لم تتحرك قيد أُنمله كمن أغمي عليه وعندئذ صرخ:

ـ عواااطف.

توجه صوب الباب ليفتحه ووجد أمير مبتسمًا ظافرًا:

ـ هل جئت بوقتٍ غير مناسب؟!

ولاحظ تيبس فك ضياء وعيونه المُتسعة من الدهشة ليردف بضحك:

ـ هل صدمت لوجودي؟ لمعلوماتك أنا هنا منذ أن أتيت، وكنت أحضر لك مفاجأة، هل استمتعت بتلك الدقائق

القليلة؟ أخبرني لأن أيامك الحالية ستكون الأسوأ وستعود للسجن.

ـ كيف...

ـ كيف عرفت أم كيف أتيت؟ عمومًا لا تشغل بالك بالتفاصيل، فالمهم أنني هنا.

صمت أمير لبرهة واستطرد باستخفاف:

ـ أين هو لسانك الطويل؟ وأين رجالك إذًا ليضربوني؟ لقد أصبحت تحت رحمتي يا ضياء الكلب.

وما إن أنهى حديثه حتى التقطت عيناه بحركة تلقائية إيفت والمتكومة على الفراش، فبلع ندمه بسرعة وهو يوجه نظراته لضياء:

ـ كل شيء هنا مسجل، وحتى لا تتهور وتقدم على شيء تأكد من أن عواطف ليست هنا، والشريط المسجل مع عاشور وبطريقة لإدارة العلاقات العامة ومرفق معه خطاب تزكيه لأجلك، والذى شاركت بديباجته وكانت: «**إلى السيد اللواء مدير العلاقات العامة بمباحث أمن القاهرة، تحية طيبة وبعد، مرفق لحضراتكم (سي دي) به فيديو مسجل لواقعة اغتصاب فتاة على يد السيد الضابط ضياء العزبي، بالإضافة إلى شهادة موثقة بخط اليد وببطاقة الرقم القومي على شكوى بشأن استغلال السلطة والابتزاز والرشاوي، إلخ**»

وقتها أفاق ضياء من ذهوله وتحدث هاجمًا عليه:

ـ سأدفنك هنا، لن أدعك تهزمني مرتين!

ولم يتبق من حدثيهم الضئيل سوى لحظات قليلة، حيث أنهم بدأوا بتبادل اللكمات والجذب من الملابس، وكان ضياء يبحث عن مسدسه، وجل ما فكر به هو أن كبرياءه العزيز لن يتأذى مرة أخرى، سيتخلص من أمير والتغطية لجريمة القتل جاهزة، فهو كان بشقة مفروشة يقوم بأعمال منافية للآداب حينما وصلت إخبارية لضياء – سيتدبر أمرها لاحقًا – مفاداها وجود شبكة من الدعارة هنا بتلك الشقة، وقتها صعد ليجده أمامه وقاومه فاستل ضياء – رغمًا عنه – سلاحه وأثناء عراكٍ هائلٍ انطلقت منه رصاصة أصابته. السيناريو محبوك وبقوة وتلك الفتاةً حتى يضمن سكوتها سيقول أنها أيضًا حاولت التدخل بينهما لتقتل على الفور، لن يترك خلفه شهود على قصته الكاذبة.

ضغط بقبضته على فك أمير ليتراجع ويترنح في وقفته فاستغل ضياء هذا وبحث بسرعة عن مسدسه مرة أخرى ولم يجده سوى بجانب الفتاة على الفراش، فأسرع نحوه وخلفه أمير بعد أن استعاد لدقائق توازنه وأدرك إلى ماذا يسعى، وبين الشد والجذب وتبادل اللكمات مرة أخرى أستطاع ضياء الوصول لمسدسه وقبل أن يحرره من جرابه أمسك أمير به وبدأ يجذبه ناحيته قائلًا:

ـ أتريد قتلي يا حقير؟ إن فعلتها فستنتهي.

ـ لن أسمح لك بالفوز عليّ يا أمير، سأقتلك قبل أن ترى ذروة انتصارك عليّ.

وتحرر المسدس من قبضة الجراب ليرفعه ضياء لأعلى بعد أن مد أمير أنامله للوصول إليه قبله، وكلاهما يسعى لإنقاذ نفسه، ولكن مَن سينقذ مَن؟!

دوي صوت رصاص تلاه شهقة عالية صدرت من حنجرة شخصٍ قلبه يحتضر، كانت الإجابة والحل لكل تلك الطلاسم المخفَية.



دخلت بعد أن دقت بأناملها على الباب ثلاث مرات، تداركها استحياء لفكرة الدخول لهنا فبررت موقفها بأن نادت بصوت منخفض باسمه متبوعًا بصيغة الاحترام التي يفرضها عليها الموقف:

ـ سيد زاهر، هل أنت بالداخل؟

أخفضت بصرها احتياطًا وخجلًا من أن يكون بملابس غير ملائمة، أو يدرس، مستجيبة لفضولها المؤرق لها لأيام وأكثر هم ثمنًا وجودها بهذا المنزل.

نادت مرة أخرى وعندما لم يجب أحد اضُطرت لرفع نظرها لرؤية المكان الذي لم تأتِ فرصة لدخوله نظرًا لأنه مغلق طوال اليوم وصاحبه نادرًا ما يأتِ مُبكرًا، ولكن اليوم مختلف؛ فصاحب الغرفة آتِ على غير العادة بوقت الغداء لتضطر السيدة وجيدة

وهي بذروة انشغالها بالمطبخ أن تدعها تسأله إن كان سيتناول معهم طعام الغداء أم لا.

وجدت نفسها أمام تلال كبيرة من الكتب المتراصة فوق مكتب متواضع، فتقدمت نحوها بفرح. هل هذا شكلها؟

تلمست الكتب بأناملها متحسسة تلك النقوش الذهبية فيها، وأخذتها بين أصابعها الطويلة الشاحبة ودققت النظر، فوجدتها أشكالًا غير مفهومة، كل ما احتاجت لتفسره عنها هي أنها خطوط مستقيمة تأخذ حركاتٍ متمايلة وأشكالٍ مختلفة.

- زينب!

التفتت بغتة لمصدر الصوت المندهش الصادر من حلق زاهر، وحدَّقت بعيونه البنية اللامعة لوقتٍ ليس بطويل، حيث أن كلاهما أخفض بصره بعدها، وكلاهما انتابه الحرج من تلاقي نظراتهما، وكلاهما يحاول تجاهل شك سهام كيوبيد بقلبه. وتقدم زاهر خطوات صوبها وكل حواسه مرتبطة بتلك الحمرة الندية المشبعة بوجهها، لم يستطع خفض البصر أكثر من هذا، لم يعد متجاهلًا وجودها ببيتهم، وخاصة بعد أن أصبحت بغرفته، ولكنه بتلك اللحظة يتجاهل إبليس الذي يخافه أكثر من خوف زاهر من نفسه.

كان يقف مرتديًا تي شيرت أبيض وسروال بيجامة لم يكمل ارتداءها بعد واضعًا منشفة على كتفيه، والماء الغزير يتساقط من شعره ووجهه وشفاهه، مُردفًا:

ـ زينب، لمَ أنتِ بغرفتي؟

انزلق الكتاب من أصابعها بسرعة، وقالت وهي تعض شفاهها مستعدة للذهاب من الغرفة لشعورها بالذنب لاختراقها كتبه وغرفته من دون إذنه:

ـ آسفة لن أكررها، لقد ناديتك أكثر من مرة، لم يكن لي الحق بدخول غرفتك بلا استئذان، ولكن السيدة وجيدة تحب أن تعرف هل ستمكث للغداء؟ فعندما تنتهي من تغيير ملابسك ستجدها بالمطبخ.

لا يعرف متى خانته يده وقلبه ولا يعرف كيف سمح لنفسه بأن يلمس ذراعها، لا يعرف متى أصبحت زينب بتفكيره، لقد كان يتجنبها، ولكن عندما أضحت بجانبه لم يعد يريدها أن تبتعد عنه بالرغم من أنه حاول الابتعاد:

ـ زينب، انتظري.

توردت وجنتيها بالحمرة الندية وارتعشت أصابعها تحت وطأة ضغط يده القوية على ذراعيها، أحست بأن قلبها بات يرفرف في السماء وأنها ستسقط مغشيًا عليها إن أخبرها بأنه يحبها، بينما زاهر أبعد يده على الفور وعقله لا يُريد إخراج زينب ومشكلاتها منه، وخاصة أن أبيه أبدى انزعاجه من وجودها معهم، ولكن زاهر أخبره بأنها ستبقى حتى يجد لها مكانًا وعملًا مناسبًا.

ووقتها انزوت شفاه عليّ بعدم تصديق قائلًا:

- وإن لم نجد لها سكن أو عمل، ماذا سنفعل؟! كيف نبرر للناس وجود شابة في بيتنا؟ أنتَ أيضًا شاب ووجود الفتاة سيثير الفتن.

حينها لم يبد زاهر ميلًا للتفكير عندما تحدث:

- سأتزوجها لدرء الشبهات، وسأتقي الله فيها إن لم نجد لها مكانًا يؤويها، وسأحميها أنا وأكون لها بر الأمان.

زعق عليّ بصوت مرتفع:

- هل تتزوج من فتاة التقيتها بالشارع؟! هل جننت؟!

حادثه بصوت خفيض خيفة من سماعها لهم:

- صه، أبي ربما تسمعك، أنا عرفتها وأحببتها وسأتزوجها.

- لتحمِ الفتاة تريد توريط نفسك بزيجة؟!

ابتسمَ زاهر وقتها وهو يجادل أبيه في أنه حقه الطبيعي كأي شاب بمقتبل العمر، ولن يجد أفضل من زينب كزوجة، سيحميها ويحمي نفسه من الفتن والظلم، وعلى مضض استجاب عليّ لطلبه الزواج منها.

زفر زاهر بعمق مُتابعًا ملامحها الضعيفة الشاحبة والخصلة السوداء التي أدخلتها بسرعة بأصابعها الطويلة داخل حجابها مُردفًا:

- زينب، أريد...

تلعثم بكلماته، وبدأت حدقتا عينيه تتسع باحثة عن شيء ينقذ من هذا العرض، فهو لا يريد أن يعرفها بموضوع الزواج حرصًا منه على عدم أذية مشاعرها، خاصة أنها ببيتهم، بالتالي ستظن بأنه يتفضل عليها بالسترة، ستظن أنه يكرم عليها بالزواج لأنه يشفق عليها. لا بد من وجود حلٍ يزيل مشكلة الحساسية المرافقة لطلبه منها.

توجه ببصره لكتبه فابتسم مُكملًا:

ـ أريد أن أهديكِ شيئًا، بداية ثقة وتعارف بيننا، ولن أجد أفضل من هذا الكتاب الذي كنتِ تقرئين به.

توجه ناحية مكتبه وعاد لها بسرعة البرق بالكتاب الذي كانت تشاهده غير مدركة لما يكونه، وفور أن استقر بين أصابعها حتى دمدمت زينب بخجل كبير من ما قاله، فهو لا يعرف بأنها كانت تحدق بالغاز غير مفهومة بالنسبة لها:

ـ أنا لا أعرف أن أقرأ.

انطلقت منه الكلمات بدون وعي، ربما للخبر الذي أصاب حواسه بالشلل، ولكنه استدرك ذلته قبل أن يكمل باقي جملته:

ـ ماذا تقولين؟! هل يوجد حتى الآن شخص جاه...

تغضن وجهها البريء ذو الجمال الرباني والوجنتين النديتين بمرارة كبيرة، وتأرجحت دمعة خافتة بين أهدابها السوداء وهي تتابع بصوت أكثر خفوتًا من ذي سبق وكأنها تشعر بالعار بكل كلمة تقولها:

- إن أبي رفض إكمالي التعليم.

قاوم زاهر رغبته في أن يضمها لصدره ويربت على كتفيها بحنان ويتأسف ويطلب منها الغفران لمن أساءوا إليها، ولكنه توقف بقوة وظل يقاوم ولمع بعقله فكرة أكثر اختصارًا وأكثر قربًا وحبًا؛ عليه أن يقترب منها لا يبعدها عنه، عليه أن يحصل على قلبها ليتسنى وقتها طلب يدها وبكل ثقة وبدون شعور بالشفقة.

- زينب، خذي الكتاب، واستعدي، سأجعلكِ تقرئينه وتكتبين أيضًا، سأكون معلمكِ في اللغة.

ابتسمت زينب وقتها من دون أن ترفع نظرها له:

- شكرًا لذوقك وكرم أخلاقك معي ولكن ماذا سيكون المقابل؟ أنا لا أملك أي شيء لأعطيك إياه.

تحدث زاهر مازحًا:

- بل يوجد، ستحضرين لي المهلبية مساء كل يوم، أنتِ تعدينها بشكل رائع.

ضحكت زينب مُجيبة بعفوية:

- وأستطيع عمل «**أم علي**» أيضًا.

- إذًا لقد اتفقنا، سأخصص لكِ وقتًا من دروسي وأبدأ معكِ من الصفر.

صمت لبرهة عندما أومأت زينب برأسها وشكرته قبل أن ترحل مسرعة، تاركه قلب الأستاذ معلقًا لا يجد أرضًا ثابتة لينبت بها.

أغلق باب غرفته بعد أن خرجت وهمس لنفسه فرحًا:

- ربما السبب الذي كان يدفعني بالتفكير في حل مشكلتكِ هو ذاته السبب الذي دفعني للابتعاد عنكِ كل هذا الوقت، وهو ذاته الذي يتتوق لأخذكِ لتكوني جزءًا من جسدي؛ لذا هو بالتأكيد يا صغيرتي وتلميذتي أقرب ما يكون للحب.

صمت لبرهة وهو ينظر لمكان كتابه الفارغ والذي أخذته زينب للتو، فتابع بهمسة أستاذٍ يريد تعليمها أولى فصول العشق والإنسانية:

- ستعطيني قلبكِ بالمقابل، كما استطعتُ يا صغيرتي أن أعطيكِ قلبي.



لم تبرح ريتشيل مكانها منذ أمس، ولم تستطيع مقابلة مريم كما وعدتها، بل ظلت حاضنة هاتفها على وسادتها مُفكرة بيوسف منذ أن مر على لقاءهما يومان، لقد ظلت تعظه وتعظ نفسها وأخذهما الوقت حتى جاءا لهنا، وعرفت بالصدفة البحتة أنه يسكن بالقرب من أمير. نظرت للهاتف الميت من قلة الرنين بضيق، لقد وعدها أن يتصل بها ليطمئنها على حالته وليطمئنها أنه أفاق من الخمر وصلى للعذراء وللرب، ولكنه لم يتصل ليتركها ببوابة الاحتمالات، أين ذهب وهل سيتصل وهل سيكون مثلها؟!

نهضت من مكانها لتطمئن على أبيها، صحيح بأنه توقف عن مضايقتها كما كان يفعل، ولكن ما سر اختفاؤه؟! إنه بالغرفة المقابلة ومستيقظ؛ لذا ستلحقه قبل أن يهرول خارجًا من المنزل.

ـ أبي، هل أنت بالداخل؟

ـ أجل، ادخلي.

ابتسمت وصفرت بإعجاب عندما شاهدته يرتدي بذلة واسعة فضفاضه تلم جسده المترهل بأناقة، كان يعدل من رابطة عنقه الحمراء، فاقتربت ريتشيل بمرح قائلة:

ـ تبدو أنيقًا يا مايكل باشا، على الفتيات أن تحترس من جمالك الأخاذ.

ضحك مايكل بعد أن انتهي من ترتيب ملابسه مُجيبًا بمزحة:

ـ تقصدين على الفتيات الاحتراس من كومة اللحم مايكل!

ـ لا تقل هذا يا أبا ريتشيل، لا تراوغ بالحديث وقل لي، كنت مُختفي طوال تلك المدة، فما السبب وإلى أين أنت ذاهب؟

مسح مايكل جبهته حياءً، فهو لا يريدها أن تعرف الآن، فقال وهو يقبل رأسها في اختصار للحديث:

ـ عندما يأتي الوقت المناسب سأحكي لكِ بالتفاصيل، ولكن ليس اليوم، لقد تأخرت وعليّ الذهاب.

ـ سأعرف بنهاية المطاف.

قهقه مايكل وودعها قبل أن يرحل، وكل ما جال بخاطره أنه كان غريقًا وطوال تلك الأيام الماضية، بحاجة لإنقاذ حتى رآها ونسي كل من حوله، نسي مشاكل ريتشيل ومحمود؛ فهي من كانت ينتظرها طوال سنين عمره.



أشعل عود ثقابه للمرة الثانية لإشعال لفافته المحشوة بالفودو، والذي استطاع يوسف تأمينها له، في الغالب بدأ يعشق يوسف الجالس أمام النيران المضرمة بالحطب بعد أن أنشأ الشباب الخيام بالصحراء تمهيدًا لاستقبال سيناوي للضيوف القادمين، والذين لا يعلم عنهم أحد سوى يوسف، صحيح بأنه يضايقه ولكن بشكل ما يسعده أيضًا.

دقائق وبدأ الحفل، وكانت هناك سيارات جيب محملة بفتيات ورجال من بينهم رجل أشقر الملامح على مشارف الخمسين أو الستين، جلس بجانب يوسف وتبادلا حديثًا لم يفهمه، أو تعمد أن يسقطه من جهازه السمعي بالتركيز على جسد الشقراوات أمامه.

أخذ نفسًا تلو الآخر من لفافته، وبدأ المخدر بالعمل، فتجلت أمام ناظريه تلك الحورية التي رآها من قبل بشرفه عمر، رآها كغانية تتلوى يمينًا ويسارًا بالرقص، ثم تتحول لحية تتراقص على مزمار صاحبها، لقد تسلم الفودو الدفة وسيطر على عقله بالكامل، حيث

بدأ المكان يضيق ويتسع والفتيات يتحولن لحيوانات والرجال أيضًا، حيوانات منمقة مرتبة تنظر له وتضحك؛ ذلك الحمار يقسم بأنه يغمز له، فضحك كثيرًا عندما رآه يتحدث بصوت معوج غير مفهوم، كان حمارًا بعيون زرقاء وشعر أصفر، كان يقترب منه ويمنيه بنظرات غريبة، وخيل إليه أنه يلقبه بالشيخ الماجن.

تردد صوتٌ بأذنيه من تأثير المخدر:

ـ الشيخ السعيد، صاحب الحق الضائع والآمال المُتكسرة، شهاب، شهوبة، الشيخ المسطول.

كان يضحك بشدة وهو ينظر لفافته المُشتعلة قائلًا لنفسه:

ـ هذه المادة أحلى وأجمل منكر.



كان يوسف ينظر لمائير وهو يتفرس بشهاب الواقع على الأرض من شدة الضحك، وشكر يوسف لفافة الفودو بسِرّه لأنها أشغلته عنه ولم يعد يسأله عن وجود مائير، تابع حديثه بالعربية بعد أن توقف الآخر عن طرح الأسئلة بعصبية عن إيفت:

ـ خالي، دعك من موضوع إيفت.

تغضنت ملامح مائير لغضب مُجيبًا:

ـ إنها ابنتي ولقد تركتها معكم لأنك أقسمت لي بأنك ستحافظ عليها وتجلبها لي وقت أن أحتاجها، وها أنا أطلب منك أن تجرها من شعرها إليّ، أفهمت؟

هز يوسف رأسه نافيًا:

ـ لا يمكنني فعل هذا، انتظر حتى...

تحدث مقاطعًا إياه بغل:

ـ أنتظر! إنني لا أعرف في قاموسي كلمة انتظار، أنا آمرك وعليك التنفيذ، اجلب إيفت إليّ، اجلبها قبل أن تزف إلى عريسها العربي هذا.

تحدث يوسف بحرج كبير، بالرغم من مرور السنين لا يزال يخاف غضبه ويخافه أكثر من نفسه، ولا يزال يحاول التشبه به قدر استطاعته:

ـ لا يمكن يا خالي، أنا أطلب منك أن تنتظر بضعة أشهر ووقتها سأجلب إليك إيفت وستأتي بمحض إرادتها أيضًا، وستقبل يدك وتقول رحماك أبتِ.

دمدم مائير بضجر فور سماعه لوعود يوسف التي لم ينفذ منها شيئًا:

ـ لدي شرط، وهو لا بد من وجود مقابل وقتي يشغلني أثناء وجودي هنا حتى أترك موضوعها.

ضاقت عينا يوسف باستفهام:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد سهرة خاصة.

أجاب يوسف بسلاسة وهو يشير بيده إلى مجموعة الفتيات اللاتي حرص على وجودهن لأجله، لأنه يعرف بطلبه قبل مجيئه:

ـ أمامك فتيات، اختر واحدة.

أجابه مائير بصورة حازمة:

ـ لا أريد فتيات، أريد فتيان.

ـ ماذا؟!

تجاهل مائير نظرة يوسف المستفسرة، فتمتم مُشيرًا نحو شهاب ببرود:

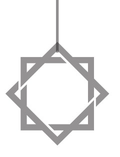
ـ أريد ذلك المخمور الضاحك الذي يدخن هناك.

تحدث يوسف وعيونه تخرج من مكانها دهشة من بين الشباب اختاره:

ـ أتقصد شهاب؟!

بنظرة قاتمة بملكوت عينيه الزرقاوين رمق شهاب الواقع على الأرض من الضحك، وأومأ برأسه وبرعب وصمت الموتى المرافق له أينما ذهب تحدث:

ـ أجل.



# الفصل السابع عشر

خيط رفيع من الدماء ينسل من جسد شاحب مُغطيًا أصابع قد هرب منها، جعلت التفكير ينحصر في كيفية وجود اللون الأحمر عليهما، وبالنهاية جعلت الإدراك يصب بسؤالين:

أهذه دماء؟!

أهذه دمائي أنا!

نظرات خوف بمُقلتي شخص لاذ بالفرار من المشهد بعد أن منى بلكمة جعلته يثور جزعًا ملمًا أشياءه برعب، ونظر الآخر للجسد وهو يتكوم مرة واحدة بالأرض كبكرة تنسل منها الخيوط، ثم نظر لمسدس تبقى معه كشاهد على جريمته ليسقطه بالأرض.

كيف وأين انطلقت الرصاصة لتصيبها؟!

هل ضغط ضياء على زر الأمان؟

وهل ضغط أمير على زر إطلاق النار؟!

وكيف قامت بغتة من سريرها؟!

ربما كانت تستعد للهرب وأثناء عراكهما انطلقت رصاصة طائشة لتصيبها!

من منهما المجرم؟!

أمير مجرم بقدره، عندما لاحظ زرقة شفاهها وانتفاضها بقوة والشراشف تحاول بها ستر نفسها عن ضياء، وصراخها ومقاومتها الشرسة له بالبداية، أحس بفداحة ما فعله، ولأجل هذا أفاق ضميره ليطفئ جهاز التسجيل عند هذا الحد ويهب لإنقاذها منه.

ربما ما تبقى من أمير بكل شجاعته وقوته لا يزال حاضرًا تحت خسته ونذالته وسفالته، ربما لا يزال أميرًا للأخلاق.

توجه ناحيتها وهو ينزع قميصه الأزرق ليدثرها به قبل أن يحملها إلى المشفى، ورأته بنظر شحيح وبركة الدم تحتها تتسع وكل طاقتها دُمرت تمامًا، كانت عاجزة ومع هذا أحست منه بالخطر وأنها تموت، أما لها من حق بالموت بطريقة نظيفة أم عليهم أن يأخذوا حقها مرارًا وتكرارًا حتى وهي تلفظ أنفاسها؟!

تلك المقاومة التي فيها لن تندثر، ذلك الحق الذى حاولت بكل ما فيها حمايته لن يضيع تلك المرة، حركت ذراعها تزحف بعيدًا عنه فهو يريد بها السوء، يريد تمتع نفسه بها؛ لقد كان هذا المشهد أمام عينها كثيرًا حتى أصابها بفقدان التبرير الصحيح، ويصبح سوء الفهم من مميزاتها الجديدة، عندما حركت جسدها أحست بالرصاص وهي تنهش فيها فشهقت مجددًا بألم قائلة بأنفاس ترتعد:

- ابتعد عني.

لم يبالِ أمير من نبرة صوتها الضعيفة، وانحنى ناحيتها، فأحس بيدها الضعيفتان تحاولان دفعه بعيدًا عنها، تحاول الهرب منه، فحاول طمأنتها قائلًا بعد أن وضع قميصه عليها:

- لن يؤذيكِ أحد بعد اليوم، ولا حتى أنا.

كانت مُختنقة بدوامة عدم الإحساس، ولم تشعر سوى برائحته الرجولية على قميصه الذي دثرها به، تمتمت بخفوت منتظرة أن تقفز ببحر اللا وعي:

- لقد كسبت يا أمير، دعني، اتركني.

- إنكِ تنزفين، دعيني أساعدكِ.

- أنا بخير، لا تقترب مني، لقد كسبت، سأنفذ كل ما ترغب به، لا تدعني معه مجددًا، لا تؤذني بهذا الشكل.

اقترب من وجهها ليطبع قبلة على جبينها متمتًا بأكثر الكلمات إهانة لغروره:

- أنا آسف.

وتمتمت بهذيان وباستسلام رهيب لقشعريرة باردة تُصيبها:

- إنه مؤلم جدًا، لقد كان يعذبني وأنا طفلة، يحرقني بالسجائر، يستخدمني مرمدة، ومع هذا لقد أحببتكما، أحببتك أمير، ولم تحافظ عليّ.

غمغم أمير وألم الضمير يرافقه.. قبل أن يرفعها من على الأرض بكل قوته:

ـ آسف للغاية لم...

ولم يكمل جملته حينما انغلقت عيونها الزرقاوان فجأة، وكفيها متيبسة على وجهه الأسمر قبل أن تزفر الهواء العالق بها بصمت قطعه أمير بركضه بها بالشقة حتى وصل خارجها:

ـ النجدة!



تسلل القلق لنفس جاؤون وهو يزرع غرفته ذهابًا وإيابًا، يوسف لم يتصل به منذ أكثر من يومين!

جلس على كرسيه والدموع تغالبه وتحدث بصوت مختنق:

ـ آآآآه يا يوسف، إلى متى ستبعدني عنك يا ولدى؟

الجميع ينبذه، عليّ، يوسف، محمود، وهو لا يحاول الانقلاب عليهم ولا الرد، ترى لماذا؟! لأنه لا يملك تبريرًا لنفسه أو إقصاء نفسه من وصمته ومجازر بني قومه بحق العرب.

كانت النار بداخله تؤذيه فلم يجد سوى شيئًا واحدًا ليطفئها، قرار الاعتكاف بمسجد الحسين، فالتواشيح الدينية والقرآن يسعده، سيحاول إيجاد الراحة بعيدًا عن يوسف وإيفت والجميع.

لقد أتى هنا وسيموت هنا، هذه حقائق لا يمكن تجاهلها، وعليه أن يسعى لتحقيقها ثم يجعل يوسف يعيشها؛ فأي قرار

بالنسبة ليوسف يتسبب بينهما بشرخ غير ذلك الشرخ بعلاقتهما المُتصدعة، عليه أن يدعه يعيش حريته لا يضغط عليه، وأن يدعه يقترب، لا يسعى هو إليه.

جاؤون مطمئن إلى أن يوسف بخير وهو بمكان ما بمصر يستجم. أخذ مفاتيح البيت، وعقد العزم على الذهاب، وما إن فتح ليهرب من جحيم هذا المنزل حتى استقبلته ذكرى جعلته يبتسم بخفوت وهو يستذكر كيف قضى حياته مع «**عليّ**» بجامع الحسين.



بعد مرور أسبوع، في غرفة بأحد المستشفيات، راقدة بفراشها في سكون تام، وسيلٌ عارمٌ من الأنابيب يخترق طبقات جلدها الشفاف، وأمير جالس ينظر في صنيعه، رصاصة طائشة تصيب الطحال وجانبها الأيسر، وضياء مُختفي، ولكن الرسالة وصلت بسلام لمدير العلاقات العامة.

لقد نجح في انتقامه من ضياء، وهل سينفذ ما يريده منها؟

أثقل الضمير كاهله منذ أن جاء بها لهنا، لهذا كان يحضر بانتظام كل يوم لرؤيتها والاطمئنان عليها. رآها تفتح عينيها بضعفٍ، ثم أخذت تصرخ بقوة عندما فتحت عينها على وسعهما فزعًا لمَرْآه:

ـ ابتعد عني.

حاولت تحريك يدها فلم تستطع، فنظرت إليهما فوجدتهما مُكلبتان بالفراش، لتصرخ بهستيريا، فتقدم منها مُحاولًا امتصاص فورة أعصابها المُنهارة مُتحدثًا:

ـ اهدأي، أنا آسف، أنا لا أريد بكِ سوءًا، أريد فقط الاطمئنان عليكِ.

همهمت بصوتٍ عالٍ غير مدركة لأي شيء بتلك اللحظة:

ـ أنا بخير.

ثم بدأت تنتفض بقوة محاولة الفكاك من قبضة فراشها، وخاصة أن أمير أصبح واقفًا بجانبها، مما زاد توترها لتبكي وهي تقل:

ـ أحلفك بما تعبد، اتركني، فك قيدي.

وظلت تنتفض بقوتها حتى أحس بالدماء تفترش ملابسها الخاصة بالمشفى، عندئذ صرخ وهو يقول:

ـ النجدة! ليساعدنا أحد.

وبثوانِ تجمع العشرات ليبعدوه مخبرين إياه بالابتعاد عن إيف طالما جاءتها النوبة، وكانت الكثير من الممرضات يحاولن تثبيتها بفراشها وهي لا تزال تصرخ:

ـ اضربوني، اقتلوني، انزعوا قلبي مرة تلو الأخرى، سأظل ثابتة واقفة أجد جذوري ثابتة بالأرض، صامدة...

وبعد لحظة خمدت ثوراتها تاركة إياه يُفكر، لقد وصل لأقصي درجات الانحطاط، جلسته بالخان جعلته سافلًا، باردًا،

فالتذلل للناس كان يؤلمه بالبداية، ثم أصابه بالبرود وبعد ذلك أصبح عاديًا كغيره من أبناء الخان.

لم يكن بطلًا كأسلافه، كما لم يكن مهندسًا كما تمنى، فقط ذلك البائع الجديد الحامل لقب مُتجوّل ومجهول بالخان، يصنع النحاس والأدوات كسائر الناس. ذلك البرود هو ما جعله بهذا الشكل وأيضًا عمر السبب، وبلاده؛ تلك الأرض الطيبة التي أصبحت مُحترقة، لقد استسلم عنها مثلما استسلمت لجحافل الظلم والفاسدين ولم تنطق بشيء تاركة إياهم يحرقونها، ولم تثُر أبدًا، ولكنها ثارت وانتفضت لتذيب الظلم يا أمير، ويا ضياء.

تبادر بالتوقيت نفسه ذلك الاحتمال بعقل ضياء حيث كان في شقة والديه القديمة بعد أن انهار كل شيء وطردته زوجته لعلمها بخبر الشريط، جالسًا بثياب الشرطي البيضاء التي استحل بها السواد والأتربة، ناظرًا لصورة والديه – رحمهم الله – مُستذكرًا كيف وصلت حياته لهذا النحو؟ لقد كان في وقتٍ ما ضابطًا شريفًا كما أرادوا له، وكان دياب من أقرب أصدقائه ومُشترك معه بمبادئه النظيفة. فما الذي حدث؟!

رد عليه عقله وقلبه بإجابة السؤال الذي لاح بعقله دائمًا، وهو:

«الحب الذي فقده وأَفقده وافتقده!»

كان يحب جارة له اسمها نائلة، وذهب لخطبتها ببذلته البيضاء، كان يعلم بأن أهلها لن يرفضوا بريقها الجذاب، ابتسم قائلًا الجملة الشهيرة:

- أنا أطلب يد ابنتك.

نظر إليه الرجل نظرة تقييمية، وقال جملة لم يكن يتوقعها إطلاقًا:

- بني، إن ابنتي ستتزوج من عريس ثريّ، رجل أعمال كبير.

أخذ ضياء الصدمة ورحل في هدوء، لم تبهره البذلة البيضاء كما كان يأمل؛ لذا وقتها لم تعد تهمه بشيء، سنوات مضت ونسيها غير أنه لم يتحرك من مكانه، فتبادر لذهنه الكثير من الأسئلة، فماذا فعلت له بلاده؟!

لقد كان يخدمها ويخلص لها فما النتيجة؟!

لم يترقَ، لم يحصل على حبيبة قلبه.

وهذا هو السؤال الأهم، كيف تحول من ضابط شريف لفاسد؟!

نلخصها بالآتي ونرسمها بجدول لمعادلة:

الحد الأول: يتكون من كنهته السابقة الشريفة، ونقول الآن السبب؛ أحلام الوالدين والحب الذي فقده وقضت عليه أموال الغنى وتحكمات أسرة خائفة على مستقبل ابنتها.

الحد الثاني: الخاصة بكنهته الحالية كفاسد، ونقول السبب؛ أحلام شخص يطمع في الوصول لترقيه لم يحصل عليها، والسبب

ضابط حصل عليها بسبب لواء آخر، آمن أن الحب لا يضيف رصيدًا بالبنك، ولا يحقق متطلباته الشخصية، ولكن يحقق متطلباته القلبية وفقده، وهو الآن يفتقده.

لماذا يتحول الشرفاء لفاسدين؟

الإجابة: أمسك ورقة وقلم حقيقي، دون؛ ذلك التراب لتلك البلد يكن رخيصًا جدًا بأعينهم، والأموال والسلطة تصبح أهم منه.

وضف نقطة بآخر السطر الذي لم يكن سوى سطرًا بالفعل!

بكي كثيرًا بعد أن مرت حياته أمام عينيه، وهمس بسؤاله الأكبر: كيف لنا القدرة على حماية وطن لا يحمينا، لا يخدمنا، لا يقدرنا، يلصق بنا مبدأ الشيطنة كلما جاهرنا بعشقه.

ـ وطننا سيحمينا إن لم نتخلِ عنه ولم نفقد الأمل به.

كانت تلك الإجابة الحاسمة لشخصٍ لم ينساق لإغراء المال أو النفوذ، يؤمن بأن سلطتنا نستخدمها لإزاله تلك العلقة التي تمص دماء بلادنا، ومُؤمن بأن الخير لا بد أن ينتصر حتى وهو مُسجون – ظلمًا – بالسجن، ذلك الشخص هو دياب، ناظرًا للقرص الذهبي ناشدًا الرب في الخلاص من المحنة وأن يؤازره حتى النهاية.

ابتسم بشرود مُتذكرًا زوجته التي تزوره كل فترة وتقدم له الطعام من صنع يديها، وتمتم وكأنه يناشد ضياء بتلك اللحظة:

ـ وطننا سيزهر بزهور الحب والعدل إن أحببناه وأظهرنا للعالم أجمع محبتنا له.

ـ الأمل فينا نحن، أحبتي، الأمل بتطبيق الشريعة الإسلامية.

كانت تلك إجابة حمزة وهو بحلقة الدين التي ينصبها وينصب بها على عقول الشباب من حوله، يجيب على أسئلتهم ويهدم كل فكر بناء فيهم مُردفًا:

ـ ثورة ٢٥ يناير يا أحبتي كانت الفرج لنا، سيطرتنا على الدولة سيخرجها من هذه الورطة، وصحيح بأن سدة الحكم اكتملت بدخول من على شاكلتنا بالبرلمان، ولكنها لن تكتمل حتى نصبح بالرئاسة، سنجبرهم على أن يتبعوا ملتنا ولو بالقوة، فالمساخر والمفاسد والرقص والانحطاط الأخلاقي هم ما أوصلنا لتلك الدرجة. ادعوا معي أن ينصرنا وينصر من هم على شاكلتنا على الفاسقين الليبراليين والعلمانيين، فكل هؤلاء هم الكفرة، وإنا نحن لمن المؤمنين.

وقاطع حديثه أحد أتباعه يقترب منهم لاهثًا:

ـ شيخنا الجليل، لقد جاء عمر ابن السيد عوض للخان، لقد رأيناه فيه منذ قليل.

وأوغر صدر مولانا بالغل لمجرد السماع وتحدث صارخًا:

ـ ألم يرحل لبلاد الفرنجة الإيطاليين الكفرة مثله!

ـ والله، وأقسم لك بأنني رأيته بالخان.

الحيوية المفقودة والكرامة التي أهدرها عمر به انتفضت كلها وهو يصرخ به يأمرهم قائلًا:

ـ هلموا بنا يا شباب، سننتقم من ذلك الفاسق الغاني والزاني، فلعل الحظ لا يطرق على بابنا مرتين، الويل له!



ركضت بالطرقات تسأل عن اسم ابنها حتى وجدته جالسًا منكبًا واضعًا يده على رأسه، فتهللت أساريرها بالفرحة لرؤيته سليمًا:

ـ أمير، بني، حبيبي.

رفع رأسه ليراها فتلاطمت ضربات قلبه بعنف ونشف ريقه مُتحدثًا باندهاش:

ـ أمي!

تفحصت جسده بدقة مُردفة:

ـ أأنت بخير يا ولدي؟ لقد تلقيت للتو مكالمة غريبة أفزعتني، قالوا لي بأنك هنا بالمشفى، وازداد هلعي عندما اتصلت لأتأكد منك بنفسي ولم ترد، لماذا أنت هنا؟

محدقًا بها بغباء أزلي مُحاولًا استيعاب ما قالته، من اتصل وجعلها تأتي إلى هنا؟ لولا أنه يعلم بأن تلك الفتاة مُقيدة منذ أسبوع لأجزم بأنها هي الفاعلة، غير أن هذا ليس مُهمًا، ففي الوقت الراهن عليه إبعاد أنعام من هُنا.

قبل أن يفتح فمه للحديث تحدثت ممرضة قادمة من الاستقبال:

ـ سيد أمير، لقد أفاقت خطيبتك من مفعول المهدئ وأصبحت حالتها النفسية مُستقرة، ولهذا أنا أتيت، فهي تود رؤيتك.

«يا حبيبي».

جملة طرقت بعقله متبوعة بنظرة بلهاء كتلك التي ينظرها الشخصية الكرتونية «**كونان**»، لقد وُضع بموقف سخيف ومُحرج وجاء بوقت غير مناسب.

ـ خطيبته! ماذا تقول هذه الممرضة يا ابني.

نظرت أنعام له ثم للممرضة التي كانت تتحقق بأوراقها:

ـ لقد جاء إلينا مع خطيبته حورية عبد القدوس بسبب...

قاطعها أمير بالحديث مُفكرًا بأن التشويش مناسب للتخلص من الورطة كما استطاع منع تطور الأمر للشرطة وكل هذا بمجرد رشوة بسيطة لإحدى الممرضات اللواتي أخرجن الرصاصة وقيدوها على أنها أصيبت بجرح نافذ نتيجة أداه حادة.

ـ أمي، أذهبي الآن وأنا سأخبرك، أنا بخير ولم يحدث شيء.

كفكفت دموعها وتحدثت باقتضاب آمره إياه:

ـ لا تقل ولا كلمة. ابنتي، هلا أرشدتني إلى غرفة خطيبة ابني!

وتحركت صامة أذنيها عن توسلاته ومحاولاته الشتى لإقناعها بالذهاب، وفور أن دخلت لغرف إيفت حتى أصيبت بالذهول، فالفتاة مُقيدة وبشرتها ذابلة، غير أن نظرة عيونها مُخيفة وجامعة صنوفًا من المشاعر الغريبة والمرعبة، لتدب بأوصالها قشعريرة باردة.

انزوت شفاه إيفت قائلة ببرود عكس كل محاولات هذيانها السابقة:

ـ أوووه أمير، أطلبك أنت فتأتي مع أمك! أهلًا بأم العريس، لولا أنني مُقيدة لقمت باحتضانكِ.

ـ هيا يا أمي، لنذهب، دعيها ترتاح، لقد جئت بها إلى هنا لإصابتها بانهيار عصبي.

رمقت إيفت عينا أمير بتحدٍ، لقد رآها ضعيفة ولقمة مُستساغة لهذا دبر لها مكيدة، نسيت كل ما كان يحول بينها وبين انهيارٍ عصيبيٍّ بالفعل ألا وهو رد المكيدة والدفاع عن النفس، فتفوهت بأول شيء خطر ببالها لينقبض قلب أم بين ضلوعها:

ـ أنعام، أقصد أمي، لقد أتى أمير إلى هنا لأنني حامل.



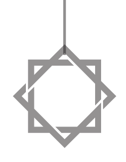
بالرغم من نظرة الذهول التي أعتلت وجهي أمير وأنعام إلا أن يوسف بنفس الوقت كان حاضرًا بطيفه معهما عن طريق جواسيسه الذين وضعهم لمراقبة إيفت وأمير، وعندما نُقل له هذا الادعاء الخطير انفجر وقتها ضاحكًا:

ـ آآآآه يا إيفت تسهلين الأمور كثيرًا، أنا أحضرها لكِ وأنتِ تضربين الكرة الصحيحة، ابقِ عيونك عليهما ولا تحيد بناظريك عنهما.

هدأت عنفوان ضحكاته وأغلق الهاتف في وجه جاسوسه، ثم جلس صامتًا لثواني مُستمتعًا بجلسة التدليك التي تؤمنها له فتاة بغرفته. كان يفكر بمعضلته مع مائير وشهاب بعد أن تركه بخيمة الصحراء ليأتِ مع مائير لفندق بشرم الشيخ، دفع الفتاة بعيدًا ليعتدل بجلسته وزفر الهواء بضيق بعد أن نهرها لتكف عن تدليكه فهو لا يحب اللعب وقت الجد. وضع يده على رأسه ليُفكر بالحل، وبعد دقائق ابتسم مُفكرًا، سيمتثل لأمر مائير ويضحي بشهاب وسيجد شخصًا آخر بدلًا عنه. زفر الهواء عندما ضغط على زر هاتفه النقال طالبًا رقمًا لصاحبته صوت أنثوي، وقال بعد فترة:

- هل وقع بالفخ؟ جيد اعزليه قدر استطاعتكِ عن من حوله، وما يهمك بماذا أريد من وراء هذا؟ لا تنسي مكانتكِ وأنتِ تحدثينني، أنتِ لستِ سوى بائعة هوى، اشغلي مايكل وضعي عينيكِ عليه جيدًا، أفهمتِ؟

وأغلق الهاتف بوجهها ليغمض عينيه بهدوء ويستوي على الفراش حاضنًا المرأة بذراعيه ولثمها بقبلة قبل أن يفكر فيما جعله لثوانِ عاجز عن اللعب وعاجز عن التخطيط.



# الفصل الثامن عشر

لقد جاء يوم النكبة، يوم زواج ابنه من اليهودية.

الحزن يعشعش بالقلب ولا يفارقه، كشعوره يوم النكبة، يوم مقتل والده، لن يبالغ لو قال بأن مصر كلها بكت معه، وكل تلك الأسابيع الفائتة التي حاول فيها تأجيل الفرح بحجة الشقة التي لا بد من توضيبها وغيرها من الأسباب الواهية لم تؤتِ بثمارها، فمنذ يومين عادت أنعام من الخارج وهي تغلظ القسم على أن يتم الفرح الليلة، واتفقت مع عبد القدوس على ذلك، وكعادته حاول الاعتراض على أنها لم تخبره وغيره من الكلام الذي لا يفيد بشيء، فما كان منها إلا أنها أزفت إليه الصاعقة ليفقد بعدها النطق؛ فالفتاة حامل.

كل ما شغل باله هو ماذا سينادي حفيده؟ هل سيقول له شالوم أم مرحبًا؟

هل سيعلمه اليهودية أم الإسلام؟ فاستسلم بالنهاية للأمر، وظل كحالته قعيدًا.

كان الوافدون يرتدون الأسود وهم لا يفهمون ماذا يحدث، فالقرآن يقرأ بالأسفل بسرداق كبير منصوب بالحارة، ولا يعلمون أهم جاؤوا لفرح أم ماذا؟!

وهذا ترتيب محمود الذى أصر على تحضير عزاء وليس فرح، فوليده مات منذ أن اعترف بحبه لتلك الملعونة، ولهذا فلن يطلب من النادل أن يوزع شربات بل قهوة سادة، ولن يُضرب مزمار واحد ببيته، ولن يدعو أصدقائه المقربين لحضور العرس؛ وهذا لأنه عارٌ التصق به.

توجه بكرسيه للمذياع القديم، ووضع به شريطًا موجعًا بالنسبة له، ولولا كبرياءه لبكى أمام الناس، ولكنه حياهم بابتسامة حزينة ودخل لغرفته وهطلت دموعه بعينيه وهو يستمع لكلمات الأغنية تنساب بين طيات بابه لعبد الحليم يتغنى بأوجاع شعب مصر بوقت النكسة:

«عدّى النهار
والمغربية جايّة
تتخفّى ورا ظهر الشجر
وعشان نتوه في السكة
شالِت من ليالينا القمر»

تسللت أنامل لتحيط كتفه، فرفع رأسه وهو يمسح آثار جريمته على وجهه، وكانت أنعام، عيونها مُحمرة من فرط البكاء، ظن بأنها تشاطره الحزن مثله، ولكنه لا يعلم بأن حزنها مُختلف. جلست على ركبتيها لتصبح بمستواه وواجهته:

ـ أتبكي يا محمود بفرح ابننا؟!

لم يجب، فتحدثت بأكثر سؤالًا عذبهما سويًا قبل أن تخذلها رغبات قلبها وتطبع قبلتها الرقيقة على وجنتيه الباكيتين:

ـ أتذكر حفل زفافنا يا محمود؟!

كأنها قامت بنزع ضمادة عن جرح جديد، ودون أن يستسلم للعصبية والحدة بالكلام استسلم لرحابة صدرها ليدفن وجهه فيها، عله يختفي عن الجميع بها:

ـ لا زلت أحبك، وعلى وعدي لك، ربما ما حدث لابننا بسبب بعدنا، نجحنا في التظاهر بأننا عائلة سعيدة، وأغلقنا الأبواب حول مشاكلنا بقلوبنا دون حديث، ولكن لم يشفع بتربية أمير، نحن أخطأنا لم نتواجه، أو تعمدنا ألا نتواجه.

تباعدت عنه ناظره بوجهه مُردفة:

ـ أقسم بالله العظيم أنني لم أتزوجك إشفاقًا بل حبًا، ماذا تريد حتى أثبت لك بعد كل تلك السنين ذلك؟ ما الذي عليّ فعله لتقتنع بأنك الرجل الوحيد بحياتي وبقلبي؟!

كان يريد أن يظل بحالة الاستسلام، ولكن غرور وكبرياء بطل من أسلاف الأبطال لا يزال به ليردف بهدوء وباقتضاب:

ـ بعد عودة أمير من الشهر العقاري سأنفذ الخطوة التي أجلتها، سأزيل الألم ونهائيًا، سأطلقكِ، لا فائدة من الارتباط بك بعد كل هذا الوقت وخاصة أنكِ هددتني به، لو كنتِ تحبينني ما نطقتها، ولهذا فسأريحكِ وأريح نفسي من سنوات الخداع التي عشناها سويًا.

تهاوى جسد أنعام على الأرض من هول الصدمة، بينما محمود حرك كرسيه بعيدًا مُتابعًا حديثه:

ـ لأنني لم أواكب مراحل نمو ابني كما يجب، لأنني فشلت في إبعاده عن ساحة الخطر ولأنني لم أستطع تقديم كل طلباتكِ، لأنني لم أستطع فهم إصرارك على إنجاح علاقتنا، أنا عاجز، أنها حقيقة عجزتِ عن فهمها، عاااجز.

والصرخة الأخيرة أشبه بحجر يقذف للأعماق فيحرك المشاعر الراكدة به. نظر لأنعام التي لم تنبس بشفة كلمة ومُلقاة بالأرض، تبدو مثله كإنسان فقد نصفه السفلي بدون إرادة منه، وشخص فقد للتو نصفه القلبي. تابع ودموعه تسابقه:

ـ أنا عاجز حتى بحُبكِ، أهواكِ بكل كياني ولكن كياني هذا ناقص!

تحدثت أنعام مغمضة عينها عن حديثه :

ـ هذا ليس بسبب، كفاك غرورًا، كفاك صممًا...

نهضت من مكانها وتوجهت ناحيته وأمسكت يده مُردفة:

ـ انزل من على كرسيك لتختبر حبك!

مسح دموعه بظهر يده الحرة، وكاد أن يتحدث لولا أنها ارتشف شفاهه بقبلة نسي مذاقها منذ ٢٠ سنة أو أكثر، لا يعلم، فكل السنين مثل بعضها، ولكنها جميلة تروي شيئًا به، تهب بنسماتٍ باردة على نارٍ متأججة به.

وحينها همست أنعام بقين وبصوت هادئ:

ـ لا زلت تحبني، ولن أسمح لك أن تسلبني هذا، فقلبك حقي.



كانت عينا يوسف تطالع باهتمام كبير مُضيفته ومُحدثته وربما تكون معشوقته، لقد جاء لمنزلها بعد أن ترك شهاب مع مائير بسيناء، وبعدما أزعج طيفها خياله، كانت خجلة من ملابسها، خاصة أنها ارتدت بيجامة زهرية اللون، وضعت الشاي الأحمر أمامه:

ـ تفضل الشاي ريثما أعود.

حياها بابتسامة هادئة قبل أن تولج للداخل مسرعة، واصطفت الشياطين جميعًا بعينيه عندما أخذ كوب الشاي ونظر فيه بتهكم، أهي الآن من تقدم المشروبات التي تصحصح بدلًا من المشروبات التي تُغيب! هل بسهولة انتهي عذابها مع أمير بتلك الجماعة المتدينة؟!

ارتشف يوسف كوبه ببطء، عليه أن يدخل لريتشيل من الزاوية المطلوبة، لا شك ستلقي عليه وعظًا، هو بغنى عنه، ولكن سيتحمل هرائها حتى يحكم سيطرته عليها.

ـ هل أعجبك الشاي؟

قالتها ريتشيل بعد أن بدلت ملابسها – كما توقع – بملابس للخروج، مجرد تنورة كبيرة وقميص بأكمام لونه زهري أيضًا، هل تفضل اللون الزهري أم ماذا؟!

ـ أجل لقد أعجبني وأنتِ...

اقتطم جملته مفكرًا، ليس الآن يا يوسف، صحح خطأك بسرعة:

ـ سلمت يداكِ، أنا أعتذر للمجيء بهذا الوقت.

لعله التعليق الأخير أو شيء ما قاله تسبب بتذكيرها بشيء، حيث أنها حدقت به صامتة تمامًا، وأحس وكأنها تحاول البكاء فتدارك على الفور بما يحزنها، فابتسم بتهكم بنفسه وتحدث بغباء ظاهري – قاصد داخلي –:

ـ صحيح وأنا كنت أمر على بيتكِ صدفت سرادقًا كبيرًا وعلمت أن هذا لزواج أمير.

وصمت مُتابعًا تأثير الكلمات، أحس بها تتنفس بصعوبة وعيونها بدأت تستعد لسيل عارم من الماء المالح، وضعت يدها على فمها ربما تحاول كتم صيحة، دقائق سريعة مرت وهي تقريبًا تحاول أخذ أنفاسها وأشارت بيدها الأخرى إليه باقتضاب:

ـ لحظة واحدة يا يوسف، سأعود حالًا.

وركضت مسرعة إلى الحمام وأغلقت عليها الباب لتبكي بكل قواها، إن أمير يتزوج من غيرها، هذا علمته من أحاديث أهل الخان عنه والمصيبة أنه تعمد ألا يخبرها؛ هكذا فجأة تسمع خبر زواجه أثناء نصب السرادق وأبيها شبه مُتغيب، ويتركها كثيرًا بمفردها بالمنزل لتواجه أحزانها بقراءة الإنجيل والصلاة، غير أن هذا لم يشغلها عن مصيبتها الكبرى بالشكل المطلوب.

كيف نداوي الجروح؟

كيف نداوي قلبًا مشقوقًا نصفين؟!

نظرت للمرآه لترى الفتاة الصبية التي شغفها أمير عشقًا وهيامًا، ثم البائسة التي ركضت وراء سامي بعدما هو مل من ركضه وراءها، ثم المتدينة بعد أن سئمت من الركض وراء الشباب. لم يتحمل قلبها المجروح سماعها أو رؤيتها لأمير، وظنت بمرور الدقائق والساعات في حضرة العذراء والرب أنها هدأت، ولكن ها هو يوسف يأتي ليثير عواصف وزوبعات الحب الميت فيها، وكل هذا بكلمة واحدة فقط!

ـ يا لتلك الكلمات! غريبة الأثر والمعنى، فهنالك كلمات تجعلك بأقصى السماء، وأخرى تجعلك بسابع أرض، والغريب بالأمر أنها مجرد كلمة لا فعل، ولكنها تعبر عن فعل ما ماض، حاضر، مستقبل، لا يهم، المهم في أن الكلمة تكون خبرًا لقرارٍ قام به شخص آذاها ببرود وتجبر.

ـ هل أنتِ بخير؟!

ـ لحظة واحدة يا يوسف.

ـ صوتكِ غريب ويقلقني، افتحي الباب.

ظلت ريتشيل لحظات بالحمام تمسح آثار البكاء، استنشقت بعمق متمالكة أعصابها، ومشطت شعرها بأطراف أناملها محدثة نفسها:

ـ كوني قوية بحق المسيح، ريتشيل، لقد انتهى أمير، لم يكن من الأساس بينكما حب، هو مسلم وأنتِ مسيحية.

وظلت صامتة لبرهة تحدق بالمرآة، إلا أن الصمت لم يعد طويلًا، حيث ما أن رأت هيئتها الواهية بالقوة وأنفها الأحمر مثل وجنتيها حتى استطردت بالبكاء سريعًا:

ـ كيف أبقى قوية؟

ـ أتحادثين نفسكِ؟ افتحي الباب ريتشيل.

ـ قادمة يا يوسف، انتظرني بالخارج، لدي مشاكل صحية أواجهها الآن، دقائق فقط.

ـ لن أرحل حتى تفتحي الباب.

مسحت ريتشيل وجهها وحاولت الهدوء وفتحت الباب للواقف الذي يحدق بها بقلق وخوف، عيونه الزرقاء هادئة لا تحتاج لمزيد من العواصف المشاعرية لتصف حالته وهو يتحدث مُستخدمًا كلمات الوجع ليدق بقوة على الحديد وهو ساخن:

ـ لماذا تبكين؟ ماذا بكِ؟

الكلمات الملعونة، إنها ليست فعلًا، ولكن يمكنها أن تذكرك بالسبب، حروفًا تترجمها - تلقائيًا - بعقلك ومع هذا تؤلمك.

رباطة الجأش التي حاولت ضمها تتفتت أمامها لتنهار باكية بأحضان يوسف على الفور مُتحدثة بين نشيجها المتواصل:

ـ أمير سيتزوج، وأنا كنت أحبه.

ربت يوسف على كتفها مُدعيًا الحزن بابتسامته الشيطانية مُجيبًا:

ـ عزيزتي ريتشيل، لم أكن أعرف ذلك! أنا السبب، ما كان عليّ أن أذكر مسألة سرادق الزواج هذا، لا تبكي عزيزتي، أنا هنا وأعدك بأنني لن أسمح لكِ بالتفكير حتى لا تتذكري.

الكلمة الأخيرة يقصدها بكل حروفها ومعانيها، سيؤذيها دائمًا حتى يدفعها لعدم التفكير. كيف؟! الخطة محسومة ومرتبة منذ أن سافر لسيناء، الألم مرارًا وتكرارًا حتى تنكسر وتضعف كل مرة، وبالنهاية تستسلم وتصبح فاقدة العقل والتفكير غارقة بظلامها، ليأتي ويشكلها، وأثناء ذلك نسي ذلك القلب المتدثر وسط صحراءه ليبدأ معه وقت الأسئلة.

س١: ما سر تلك الكهرباء الخفية به عندما باتت بأحضانه؟

ج: لا شيء مجرد خواء.

س٢: تكذب، هل تحرك بك شيء؟

ج: ربما، ولكن قلبي مُتصحر به شقوق وفراغات كبيرة، به طبقات هشة إن ضغطت عليها فستقع وأقع معها،

س٣: في الحب هل تظن أن لديك فرصة؟
ج: لا شيء لأي شيء.

◇

واقفًا منتظرها بشقتهم مرتديًا بذلة سوداء مزينة الياقة بحرير أسود تحته قميص أبيض، تعمد أن لا يربطه برابطة عنق حتى لا يستخدمها في خنقها به، أصبح عريسًا ومجرمًا محترمًا وذليلًا غير محترم.

فبعد تصريحها الغريب ابتسمت بخبث مُكملة حديثها ببرود:

ـ أنعام عزيزتي، لقد سبق واستغلني ثانية، وكانت النتيجة هذا هو الطفل، أتعلمين بأنه بأسبوعه الثانِ، لم أكن أعلم بهذا إلا من أسبوع تقريبًا، أو لنقول الصدق كنت أشك بهذا وقتما كنتِ ببيتي، أتذكرين ما قلته؟ لقد كان لدي موعد مهم بالاتفاق معه، وذهبنا سويًا للطبيب، ووقتها تأكدت من حملي، وطالبني بالبقاء بالمشفى لأجل إنزاله لأنه لا يريد طفلًا يتحمل عبئه، ولم يكن يريدكِ أن تعرفي أبدًا، إذا كنتِ تشككين بكلماتي دعيني أجعلكِ تتصلين بأبي لتعلمي أن الزائر ليلتها كان أمير.

صمتت لبرهة وأكملت مؤكدة له بأنها ستفضحه بطريقة أخرى إن تجرأ ونفى:

ـ حتى أنه عرضني على شرطي، أقصد طبيب وممرضة اسمها عواطف.

وصف الانذهال بعد الجدال النفسي: إحساس غريب جدًا، غالبًا يتبعك عندما تكون خططت وبشدة لاقتحام الأحمر من الأفعال، يتميز بأوله بأنك تجادل نفسك بنفسك، أي أنك تتخذ صفة المُجيب والسائل، وقتها تنذهل من كمية الردود السخيفة والمريبة التي تقولها لنفسك، أو ربما الأفعال التي تشعر بأنك على وشك فعلها مثل أن تخبط رأسك بأقرب حائط، وما يلبث أن يتحول الانذهال من نفسك ليطال الجميع.

وقتها كان أمير بتلك الحالة يفكر بالرد وهو مفقود اللسان مُغيب الإرادة والعقل؛ فماذا إن علمت بحقيقة وجودها هنا؟ ماذا إن دققت النظر بالكدمات الزرقاء الخفيفة حول عنقها؟

أجبر على الصمت على هذا الادعاء، فهذا أهوّن من معرفتها بأن ابنها تركها لتغتصب!.

سمعها تسترسل لآخر كلمة:

ـ وإن لم تصدقي هذا أو ذاك فهو عندك ليخبركِ بنفسه بأنني أصبت بانهيار عصبي، واضطروا لتقييدي لأجل رفضي مسألة إجهاض الولد.

نظر أمير بوجه أمه التي لم تتحمل أكثر من هذا، فخرجت مهرولة للخارج باكية:

ـ الزواج لا بد أن يتم وفي غضون أسبوع بدون تأخير.

وقتها لم يبدِ أمير سوى حق الاعتراض، وبقدر حاجته للركض وراء أمه وتقبيل رأسها وقدميها إلا أنه نسي كل ما يحثه عقله على فعله وتوجه ناحية إيفت وقبض على فكها بقوة قائلًا:

ـ لولا أنكِ مريضة لقتلتكِ الليلة، سأصمت على ادعائكِ ولأجل هذا فتوقعي مني عذابًا كبيرًا.

تمتمت إيفت بنفس قوته، فهي لا تبالِ بشيء غير شفتيه القريبة منها:

ـ لولا أنني مريضة لرأيت مني ما لا طاقة لك به، وبما أنني صمت عن حقيقة ما حدث أمام أمك فلأجل هذا توقع مني عذابًا أكثر وأمرّ من عذابك الكبير.

نظر إليها طويلًا وتحدث وهو يطبق على فكها أكثر مُتمنع بعدم التفكير بشفاهها الوردية الشهية:

ـ اللعنة عليكِ أيتها الحرباء!

كانت الكلمة مُنحشرة بفمها ولم تستطع أن تتحدث، بينما أمير كان يجاهد بالابتعاد عنها وبداخله مئات المشاعر المتناقضة، ولا يدرِ السبب، هل السبب هو ما علمه عنها؟ أم شفقة على حالها المريض؟! وهل ما فعلته يمت للمرضى؟!

بريق الزبرجد بمحاجرها أفقده التفكير وتراخت قبضته على فكيها ليمسكها من كتفيها مقتربًا منها..

ـ ولك مثل اللعنة أيها السيد للألعاب.

لا تسكين ولا تلين، وهو كذلك!

تركها على الفور ولحق وراء أمه والتي كانت تترنح بمشيتها من فرط الصدمة والبكاء، ودعته أن يتركها بحالها، فهو ليس ابنها الذي ولدته أبدًا، وبقي طوال يومين كاملين شبه مشرد من المنزل، لا يكلمونه ولا يتصلون به، ولا هو يستطيع أن يتحدث معهما كما السابق. أصبح مُشردًا بنظر نفسه، وغريب بنظر أبويه، وهي السبب.

تمتم جاؤون بصوت خفيض:

ـ دقائق وستكون إيف جاهزة.

بتأفف وضجر رد عليه:

ـ هلا يمكنك أن تستعجلها قليلًا لنخلص!

أومأ برأسه. رحل من أمامه ولم ترحل شياطينه معه، كان يقسم ويتوعدها بأن الضربة التي سددتها لن تمر بسلام، وسيعرف كيف يضرب أشد وأقوى منها.

«**انتظري حتى نتزوج وحينها ستبكين بدلًا من الدموع دمًا**».

عاد جاؤون ومن خلفه إيفت بنظرتها الماكرة وبجمالها المبهر وبفستان زفاف قصير بحمالات رفيعة للغاية ويصل إلى ما قبل الركبة بقليل، تقدمت من أمير وتبطأت ذراعه وهمست في أذنه مُستغله مروره بشلل عضوي وقتي وشلل دماغي دائمي:

ـ لم أجد أقل من هذا لأرتديه، ما رأيك؟

نفض ذراعها بقوة وصك على أسنانه قائلًا:

ـ ادخلي غيري ثوبكِ وارتدى ملابس، هل تقول كلمة يا سيد عبد القدوس هل ينفع أن تنزل معنا بهذا الشكل؟!

هز جاؤون كتفه قائلًا ببرود:

ـ هناك أشياءٌ لا تخصني، ومن ضمنها خيارات حورية.

ـ حسنًا، لا تغضب، ليس هذا بجيد على صحتك، سأغير ملابسي لولا أنك تبدو جميل جدًا وأنت عصبي!

لمست وجنتاه بشيءٍ من التحقير قبل أن ترحل من أمامه، فجاهد نفسه كي يحافظ على أعصابه.

عليه أن يتعود على أسلوبها الاستفزازي، فإن استمر على هذا المنوال شيئان سيحدثان أو ثلاثة: سيصاب بالضغط أو يموت أو يقتلها ويرتاح.

ـ هاه، ما رأيك؟

نظر أمير صوبها ليجدها ارتدت عباءة سوداء، ومن ناحية الصدر توجد رسمة مطرزة باللون الذهبي المعادل للون شعرها المعقود بشال أسود كبير.

ـ ما الذي ترتدينه؟

تحدثت مُقتربة بنغمة مدللة:

ـ ملابس.

رفع أحد حاجبيه مكررًا حديثها:

ـ ملابس!

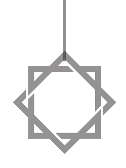
دفعها للخارج بعصبية حتى لا يلف أصابعه حول عنقها ليقتلها مُتجاهلًا حديثها، ووجه حديثه لجاؤون:

ـ لنرحل.

ورحلوا بهدوءٍ صاخب، وتجاهل أمير أيضًا النظر لبيتهم مُفكرًا في صنوف الانتقام التي سيتفنن بها لأجلها.

ووسط هذا الهدوء والصخب باغتته همسة باردة كنصل سكين ثالم يقطع الوريد من شيطانة لسيدها إبليس جعلته يفكر بتوقع الأسوأ:

ـ حبيبي، بعد أن نعود من الشهر العقاري، سأحضر لك مفاجأة.



# الفصل التاسع عشر

- مبارك لك يا عريس.

صوتها ساخر لاذع يتناسب طرديًا مع عيونها التي تفيض خبثًا بعد أن وقعت على وثيقة الزواج، بينما أمير لن تجدي اللغة العربية في وصف حالته الحالية.

وأردفت بنبرة هادئة قاصدة إثارة حنقه:

- سأظل كل خمس دقائق أذكرك حتى أراك محمر الوجه.

التفتتْ صوب جاؤون مُتابعة:

- أبتِ، هل ستأتي معنا أم أسبقك أنا وزوجي أمير؟

كان جاؤون يحدق وقتها بالجالس الذي انتهى للتو من تسجيل وكتابة الأوراق، عندما رآه لثاني مرة أحسَّ بالفرح، كاد أن يأخذه في أحضانه ولكن كانت نظرته المتبادلة معه مشوبة بالحذر، ولون غريب من المشاعر، استحثته إيفت على الرد فأجاب باقتضاب:

ـ لديّ مهمة سأقضيها ثم أعود للبيت، إذا كنتما على عجلة من أمركما فاذهبا.

وأمير لا ينطق، وإيفت تتفهم وترمقه بنظرات متشفية لتتمتم بهدوء:

ـ هيا بنا نحن، فالعرس ينتظرنا يا زوجي.

ورحلا وتنفس جاؤون الصعداء قائلًا:

ـ شاكر لك يا عليّ لأنك لم تقل شيئًا عني أمام الأولاد، كيف حالك؟

ـ إنك بارد ووقح لجلوسك واسترسالك بالحديث معي وكأن شيئًا لم يكن.

قالها عليّ وهو يجمع أوراقه ويرتبها بهدوء تام مخرجًا كل ما شعر به فور أن وجد رفيق الدرب أمامه يطلب منه استخراج عقد زواج لذلك الشاب وتلك الفتاة. صمت وتعامل مع الأمر بحرفية عالية، وبرغم من استنكاره للعبة القدر التي وضعته بطريق جاؤون مجددًا، وداخله يتمزق بسبب التقاء الماضي بالحاضر جابرًا عقله على طرح سؤال واحد لقلبه:

ـ هل يحتكم للكراهية أم للعشرة؟

وسرح بخياله لفترة افتراقهما، كانوا شبابًا يافعين، كلٌ منهم متشبث برأيه، علاقتهما لم تكن بعادية، لا تنفك الأحداث السياسية من الدخول بظلالها عليهما لتعكيرها، وخاصة بعد النكسة.

تحدث عليّ وقتها:

ـ دِيننا الحنيف يأمرنا بأن نتواصل ونتراحم فيما بيننا، ولكنني بشر لا يمكنني الوصول للاكتمال الذي يفرضه عليّ ديني، فالبشر خطَّاء وناقص بالصفات، وكل ما أراه أمامي ليس سوى صهيوني، ولن أتجاوز تلك الحقيقة.

ـ تعلم أنني لم أنسَ تراب مصر وأنا بإسرائيل، ولم أنسَ أنني مسلم، لقد صليت معك في الحسين أتذكر؟

قالها جاؤون بابتسامة سيثابر بتلك اللحظة الثمينة في محاولة لإعادة أواصر الصداقة بينه وبين عليّ، والذي التفت من شروده متأملًا إياه واعتبرها فرصة للاسترسال بالحديث، ربما يحن لتلك الأيام مثلما قتله الاشتياق لجو سمراء النيل الدافئ بالمحبة.



بيده ورقة بها أربعة أحرف، يريد بشدة أن يقرأها ليطفئ من حدة أشواقه، كلما تطلع بوله وهيام غير قادر أبدًا على تجاهل النظر، وزينب جالسة جواره ممكسة ورقة من المصحف لسورة اقرأ لتقرأها أمامه، فلقد تجاوزت مرحلة عجزها عن القراءة بوقتٍ قياسيّ أعجب زاهر للغاية حد أنه أخبرها أن عقلها ذكيّ ولامع وكان بحاجة لشحذ الهمم فقط.

ـ أتعلمين يا زينب، إن أول سور القرآن سورة اقرأ تلك التي قرأتِها منذ قليل، القراءة شيء جميل، ففيها تتسع مدارك وآفاق عقلكِ لاستيعاب كل العلوم والأدب والفنون، ومن

يقول أن مثل هذه الأنواع من المعرفة حرام فهو جاهل، ذلك لأن الإسلام دين عقلي ببدايته قلبي بجوهره، يجعلكِ تفكرين بالكون والدليل أن الله عز وجل يذكر – بآياته – الإنسان بنعمة العقل وذلك لفهم أن تلك المخلوقات التي تسير بالكون من صنع خالق واحد فقط وليس مجموعة، وذلك لتنبيه المشركين بالابتعاد عن طريق الضلال الذي صنعوه لأنفسهم.

تحدثت زينب بحياء لأنها قاطعته:

ـ هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟

ـ اسألي يا زينب.

ـ هل قرأت كل هذه الكتب التي رأيتها بغرفتك؟ إنها كثيرة جدًا.

قهقه زاهر ضاحكًا:

ـ كثيرة! إنكِ لم تري مكتبة الأزهر بعد، كل ما رأيته مجرد نقطة ببحور العلم والمعرفة الدينية. أتعلمين بأوقات فراغي وعندما أريد أن أفصل التيار الكهربي عن عقلي وأجعله يسترخي قليلًا أستمع للموسيقي.

تحدثت بكلمات مرتعشة من الصدمة لتردف مُعقبة:

ـ حقا! ولكن أليست حرامًا؟! أخي كان يقول ذلك، وأسمعني كلام وأحاديث كثيرة عن ذلك.

التلقائية في السؤال والرد تغيرت عندما انقبضت ملامح زاهر عن غضب كبير لم ينجح في إخفائه عن مرأى زينب، حتى أنها شعرت بالذنب لقولها هذا.

ـ ليس كل ما يقوله شخص قرأ كتابًا أو اثنين يصبح عالمًا دينيًّا. وحتى إن أتى لكِ بأحاديث عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهناك بعض منها إسناده ضعيف. مشكلتنا الأساسية بالآونة الأخيرة أننا – وأقصدها حرفيًا – دعاة، نفسر ما نريد أن نفسره فقط، ونختار من القرآن والأحاديث ما نريد به شيئًا معينا، بل وأحيانًا نستخدمها لأجل إحلال الحرام، وهذا بحد ذاته تأصيل للرذيلة.

عقدت زينب حاجبيها بعدم فهم، فتابع زاهر حديثه مبسطًا شرحه بطريقة أخرى:

ـ إن الموسيقى الراقية يا زينب ليست حرامًا، فعندك مثلًا أم كلثوم ببدايتها كانت تنشد التواشيح الدينية ثم تحولت للغناء، هل هنا كفرت؟! ومن أعطاني الحق بأن أكفر شخصًا يقول ربي الله؟ كانت هناك حادثة عن رجلٍ قاتل كافر وقبل أن يقتله نطق بالشهادة وقتها ثار الرسول وقال بعتاب (**أشققت عن صدره لتعلم هل هو مؤمن أم كافر؟**) إن الحلال والحرام حدده الله والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في القرآن والسنة، وأي محاولة بخلاف هذا يعد اجتهادًا شخصيًا تتبعه أهواءٌ تفسده ولا أصل فقهي

له، صحيح الموسيقى الحديثة بها فواحش وبذاءات، وهنا أقول بأنها تدعو للرذيلة، ولكن ليس كلها، فهناك موسيقى تتحدث عن الوطنية وحب الأم والحبيبة، هل هذا حرام أن عبرت عن حبي لبلادي أو أخبرت شخصية بحياتي بأنني أحبها؟!

تحدث زاهر بالجملة الأخيرة وأحس وقتها بأن كيانه كله يصرخ تأهبًا لتلك اللحظة، بينما زينب تعثرت بجملتها ململمة كتبها قائلة بخجل أكثر:

ـ لقد تعبت، لا بد أن أرتاح قليلًا وغدًا نُكمل.

ـ أحس زاهر بخيبة أمل وهو يومئ برأسه صامتًا، واختلس ببصره لتلك الورقة قبل أن يدسها بجيبه، وتهجها ببطء بعد أن ابتعدت زينب عنه لغرفتها:

ـ أ.. ح.. ب.. كِ.



أقتربا من مكان سرادق زفافهما الذي ينعيه فيه الشيخ عبد الباسط، فابتسم بتهكم وسخرية مريرة؛ فأباه يتفاءل بموته، وزوجته – صدقًا – قضيت عليه، ولكن ليست بالضربة القاضية، فأسرارها معه وهو يعلم كل شيء عنها من الصغير للكبير.

همست بأذنه بصوت أشبه بفحيح الثعابين:

ـ لا زلتُ أحضر لك مفاجأة سنجدها بانتظارنا عندما نصل لأهل الخان.

ابتسم بتهكم وأبعد نفسه عنها باشمئزاز:

ـ أتحضرين لي مصيبة جديدة؟!

ضحكت بصوت عالٍ ولمست وجهه بأناملها ومطت شفاها بشقاوة:

ـ أميري الحبيب، أنا لستُ سيئة مثلك حبيبي، أنا بحد ذاتي مصيبة، سترى بنفسك ما أحضره لك.

شقت ثغره ابتسامة واسعة:

ـ رحم الله امرأً علم قدر نفسه.

أعطته قبلة بالهواء لتسابقه وهو يتابعها بعينه مُتعجبًا، لا يعلم كيف استطاعت التحول هكذا لتصبح لبؤه شرسة. عاد بالذاكرة ولمشاعره المضطربة عندما كانت تموت بين ذراعيه، القلق، إحساسه بوهنها وضعفها وقلة حيلتها، ربما تأنيب الضمير جعلها مضاعفة غير أنها أرقته بمنامه. تذكر بعد أن أسعفوها وظلت نائمة تحت تأثير البنج كيف كان يمسك بيدها ويبكي متأسفًا خوفًا عليها، أو خوفًا على نفسه.

وجدوا أمام السرادق فرقة فلكور شعبي يحملون الطبل والزمر لاستقبالهما، وقتها استدارت إيف قائلة باستفزاز:

ـ كان يجب عليّ أن أرد واجبك العميق؛ لذا وبما أنه زفافي أحضرت لك فرقة لتحيي حفل زفافنا، هل سترقص أم

أرقص وحدي؟ وبالمناسبة لا يوجد لديّ مانع في نزع عباءتي والرقص.

تقدم أمير نحوه بثوان وتناسى تمامًا مواقفه المضطربة في المشفى، وقال:

ـ أيتها ال...

قاطعته أيف بمرح:

ـ دعني أستمع للمزيد من قصائدك الغزلية بحبي، أرجوك لا تخفي بنفسك شيئًا. يقولون كتمان المشاعر يقصف العمر، هل تود أن يُقصف عمرك حبيبي؟

وأشارت على قدميها لتهمس بأذنه:

ـ ليس قبل أن أرى أسعد لحظات عُمرنا الليلة.

تحدث أمير من بين أسنانه المطبقة:

ـ الشيء الوحيد الذين سترينه هو أسنانكِ إن لم تلتزمي حدودكِ معي.

ـ يا حبيبي، أنا خلقت لا حدود لي.

وذهبت للفرقة لتأخذ العصا من أحد الرجال هاتفة بصوت عالٍ:

ـ أريد أن أرقص، أسمعوني ما لديكم.

وفور أن بدأت الفرقة بالغناء والطبل والزمر حتى تراقصت وتمايلت بليونة ودلال كأمهر راقصة بالشرق الأوسط، وأمير عاجز عن الرد أو الفعل، معها لا يستطيع وصف حالة قلبه أو جسده أو

نفسه، يشعر بأنه فاقد الإحساس، والقلب منزوع المنطق وتحكمه رغباته، ضئيل الحجم ولا مجال للمنافسة بينهما.

كان بحاجة لاستعادة موقع القوة مجددًا، فلقد حفر لها الفخ ولكنه وقع به، أخذ العصا الأخرى ودار حولها لينبهها بضرورة وقف هذه المهزلة إلا أنها لم تأبه له واستمرت بالرقص، مما جعله يتخيل نفسه يهشم رأسها ولا يتركها إلا عندما تفارق الروح.

تقدمت إيفت نحوه وألقت بالعصا جانبًا، وحركت عصاه نحوها لتحصر نفسها بين ذراعيه هامسة بخفوت:

ـ بعد كل ما حدث بيننا عليك ألا تستهين بي أبدًا، ومع هذا لا تعلم كيف يكون تأثيرك عليّ، مدمر لمشاعري أمير.

ـ وأنتِ ابتلاء.

وصرخ بالجميع مطالبًا إياهم بالرحيل، وبدقائق اختفى كل من كان يوجد بالسرادق ولم يعد سواهما بقارعة الطريق وبعض الفضوليون الذين يتلكؤون بشرفات منازلهم متلهفين لرؤية مشاحنة بعد العزاء الزفافي.

حادثها بعد أن أمسكها بعنف:

ـ انتهى العرس، لنذهب من هنا.

تحدثت حورية بغباء قاصدة:

ـ هل تريد أن ترانا أمك ذاهبين من دون تحيتها؟

وقبلته إيفت بهمجية فأفقدته الزمان والمكان، وأحس بنفسه خارج إطار الحياة مُفكرًا في أنه لعبة طيعة بين يدها، وخلايا إيفت بحالة استنفار – كما تعودت دائمًا – لتصبح غير قادرة على ضبط اتجاهاتها، فالحيل والألاعيب لا تجدي نفعًا الآن مع أمير، حتى فكرة الانتقام من فعلته الأخيرة تبخرت أمام الفكرة الكبرى في أنها بحاجة لأمير وتريد امتلاكه مهما كان الثمن.

ابتعدت عنه بعد أن رمقت تلك الأم الداخلة ببكاءٍ لشقتها لتردف باقتضاب:

ـ الآن فقط نذهب.



أثقل ربما بشرب سجائره المحشوة بمخدراته، بسببها يشعر بصداع عنيف فور استيقاظه بخيمته، عليه أن يحاول التوقف عن تعاطيها مهما كان الثمن فلا شك بأنه في مرة وهو يشرب المخدرات ستقضي عليه. كل هذا بسبب يوسف، فلقد أسرف بإعطائه إياها بسخاء كبير، الخيمة أضحت فارغة لقد تركه يوسف وأصدقاؤه غارقًا في مخدراته كالعادة، نهض من مكانه أثر سماعه صوت سيارة تدق بوقها بالخارج، وفور أن خرج وجد أمامه ذلك الشخص المريب صاحب الشعر الأصفر المخلوط بالرمادي والعيون الزرقاء واقفًا يستطلع المكان بعيونه الغريبة ويبتسم ابتسامة صفراء مُتحدثًا:

ـ مرحبًا شهاب، أتمنى أن تكون نمت نومًا هادئًا حتى نستطيع أن نسهر سويًا.

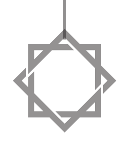
وأردف مُقتربًا منه بصوت رخيم وعيونه تتفحصه:

ـ لقد سنحت لي الفرصة أن نكون بمفردنا بعد رحيل يوسف، لقد أصبحت الآن ملكي.

ابتعد شهاب تلقائيًا للوراء بعد أن لمس شيئًا غريبًا من هذا الرجل، وإحساسه باحتقان حلقه يمنعه من الحديث بطبيعية، واكتفى بمراقبة الرجل يستطرد حديثه ببرودة أعصاب متناهية:

ـ ألم يخبرك يوسف بأنه تركك ليّ؟ أنت الآن رهن رغبتي بك.

ورغم الآلام التي يشعر بها إلا أنه صرخ صراخًا كبيرًا مُستعدًا للقتل وللقتال بالحال، فالنفس هي ملجأه الأخير، ولن يسمح لأحد بكسرها كما كسروا آماله بالوطن.



# الفصل العشرون

أصبحت الحياة مليئة بالأبيض والأسود، فلم يكن بحياتهما وهم صغار أنصاف الألوان، الحل الوسط ليس حلًا بديهيًا لمشكلات تحتاج منا حلًا حاسمًا، فالحل الوسط واللون الرمادي بشكل خاص خطوة متراقصة ليست ثابتة، وهذا كان المبدأ بقرنهم الماضي، ذلك الزمن السحيق المليء بالألم والشجن والضحكات المتناثرة على شاطئ النيل وصخب الليل الحزين. كانوا شبابًا يافعين تملأهم الحياة والود والمحبة، لم يكن جاؤون وهو صغير جاؤون، لم يرضَ باللون الرمادي بخصوص ديانته وأخلاقه، ولا بمعاملة الجميع بالمثل، ربما السبب لتربيه أب «**علي**» له الدينية. كان بجذوره وبأخلاقه وبفرحه عبد القدوس الأبيض المسلم.

أفرغ كافة أحاديثه عن نفسه، واستنشق بعدها الهواء بهدوء وسرور وراحة تامة، لقد أزاح عبئًا وألم وتعب السنين وشاطرها

مع من يعد أخاه، هدأت ملامحه وباتت السعادة بعينيه، تراخت هواجسه بعدما لمح الثبات على هيئة عليّ فتحدث مجددًا:

ـ تعبت يا عليّ من كثرة النفور من الجميع، أريد أن أرتاح، سنين وأنا أسعى وأشقى وأُهان، أرجوك يا عليّ يكفينا كل هذا العند، ألم تشتاق لجلوسنا سويًا بالحسين؟ هل يوجد كلمة عشرة وأهل بقاموسك يا عليّ؟

صمت عبد القدوس مبتسمًا باهتزاز وراقب رد فعله، ولكنه يحدق به فقط وأحس بإحباط، لا فائدة، لا يمكن أن يتغير به شيء، لن يتراجع عليّ عن تلك الرسمة السوداء التي وضعها له ليغرقه بإطار جاؤون باخوم الصهيوني.

تمتم بصوت خفيض وهو ينهض من مكانه:

ـ لن أضغط عليك أكثر من هذا، يبدو بأن الفراق مكتوب على من أحبهم.

استوقفه عليّ بكلمات حذرة:

ـ انتظر يا عبده.

تهللت أساريره فرحًا، فها هو يقل له اسمه المسلم المُحبب لنفسه، ليتوقف ويجلس بهدوء مراقبًا علي يتابع حديثه:

ـ أترحل من دون أن أخبرك عن حياتي؟ لقد أصبتني بالصداع يا رجل؛ لذا عليَّ أن أصيبك بالجلطة بهرائي.

قهقه عليّ بهدوء وقرر أن يتراجع عن موقفه المتشدد، وصافحه فاتحًا صفحة أخرى عن حياتهما لآخر عمرهما.

توقفا أمام باب الزوجية، ووقتها أحس أمير بالتردد والخطر، فلقد حانت اللحظة الحاسمة التي لا يعرف كيف ستنتهي.

تحدثت إيفت واضعة يدها على عنقه:

ـ احملني وأنت تفتح باب شقتنا كأي زوجين عاشقين.

تستفزه بتصرفها كما لو أنهما حبيبان وأن زواجهما تم برضاه.

حاول السيطرة على غضبه بأن ابتسم باستفزاز حاملًا إياها كالريشة:

ـ أمرك حبيبتي.

وفتح نصف الباب وبتعمد خبط رأسها بقوة به، فتأوهت إيف بصوت عالٍ لينزلها أمير مُردفًا بنفس أسلوبها البارد:

ـ أووه، هل أصبتِ بسوء؟

تخلت إيفت عن غضبها الوقتي لعلمها بأنه لن يكون سهلًا وتبدلت نظرتها النارية لصقيع، لتجيب بهدوء قاتل:

ـ كلا، إن جلدي متين لا يتأثر بالضربات أبدًا.

وأردفت وهى تداعب بأناملها قميصه:

ـ دعك من كل هذا الهراء، لنكمل المُقدر سويًا يا أميري الغاضب.

دفعها عنه مُبتعدًا بتحفظ:

- لقد وقعت المصيبة وتزوجنا ونحن أعداء منذ اليوم الأسود الذي تقابلنا فيه؛ لذا لا يغركِ تفكيركِ المريض بشيء ما.

شهقت إيفت ساخرة:

- يغرني بشيء ما! حبيبي، إن ما أفكر به سيحدث.

قهقه أمير باستخفافٍ قائلًا:

- تحلمين، أنتِ لستِ بعذراء، ومن ستكون زوجتي لا بد أن أكون أول رجل بحياتها.

أهانها، وهل كان برضاها أن تحتفظ بشرفها أو تفرط فيه؟! هل كان لها حق الاختيار من الأساس؟!

أحستها ضربة كلامية مؤلمة فتغضن وجهها بأمارات الحزن العتيق الذي رافقها بكل مكان حطت رحالها إليه، وبكل مرة حاولت أن تُبقي لديها حرية الاختيار؛ ولكن بتلك القصة فلها التتمة وستجعله يركع وستنتقم منه.

- يمكن توصيف علاقتنا المستمرة إلى أن يشاء الله وتموتين بلا سلم ولا حرب.

قالها وركض مسرعًا للداخل يحاول الاحتماء من زخم مشاعر تراقصت بوجدانه، توجه للغرفة وجلس على فراشه ودفن رأسه بين راحة يده وتنفس بعمق مُفكرًا، سيجبرها بطريقة أخرى على فرض قوانين أخرى للعب، فهو يعلم نقطة ضعفها الجلية بأوراقها؛ سيغرقها من فيض الرغبة ولن تنال رشفة، سيعلمها

القواعد الأولى للحب والطاعة والانتقام، عليه فقط أن يبقي بينه وبينها مسافة آمنة تقيه خطر الاحتراق حد العشق؛ ذلك لأن العشق بذاته نار لا تنطفئ.

بينما إيفت كانت تسب وتلعن وتثور من الحنق وقررت ألا تتركه بحاله حتى ينفذ ما تريده ولو بالغصب، سيكون أميرها ذليلها وبكل الطرق المُختلة والمُتاحة.

لحقته قائلة بنبرة مغوية وهي تنزع عباءتها جانبًا:

ـ أميري الحبيب، اترك نفسك لي ودعك من الغضب، فلديك ما يكفى المشكلات التي تزيدك تعقيدًا وتشنجًا، كُن لي وأنا سآخذك بعيدًا.

لم يزغ بعينه عن متابعة عودها اللولبي وبداخله عواصف، برق، رعد، تلاطم، شوق، رغبة، غضب، وفي الشعور الأخير كان بحاجه لتقليله، فهو وسيلة غير مضمونة قد تدفع به للقدوم على فعل يخطئ بحسابه، ولكنها أدارت رأسه لثوانِ فهي قطعة من حلوى لا بد أن تُؤكل، بل قطعة من وسادة حريرية تستقر بهناء على فخذه أو عسجد يرتمي بخفة على صدره، وجنتها البيضاء الناعمة الملمس كحالها كلها، شعرها الأصفر يفوح بعبيره المُسكر كعادته، همساتها الأفعوانية تزيده احتقانًا:

ـ كُن لي أمير.

واستسلمت حصون عقله لبرهة، وهتف الشيطان مُجيبًا لتلك الأعاصير الحادة ليتجاوب معها، ولتبتسم إيفت بفخر ساخرة من إذعانه واستسلامه وأسلوبها البغيض في الانتقام منه، ورغبت بكل كيانها أن تصرخ وترد إهانته، فهو حيوان مجرد ما أن عرضت نفسها عليه لم يتردد وهي كذلك، فهو هاجسها الأوحد.

ـ هكذا أصبحت مُطيعًا للعروس غير العذراء، هكذا أصبحت ألعوبتي وخادمي!

همسة حارقة صدرت منها انتقامًا لنفسها، شعور الظفر كان أكبر من روح الانحطاط التي تلبستها، تصلب وتوقف مُسترجعًا عقله، فالاحتراق الذي شعرت به منذ قليل كان لا يمكن أن يغلق بسهولة، يُخادع نفسه بأن ظن أن بإمكانه تعليمها قواعد الحب والطاعة وهو عبدٌ لها. حاول دفعها عبثًا فقرر أن يهجم عليها بالضرب يستعيد قطع قوته الجسدية بتحطيمها، فصفعها صفعة قوية جعلتها تلمس وجنتيها الحارة من شدتها وتحدق به بغيظ ليهتف بصوت عالٍ:

ـ أقسم بأن أرتكب بكِ جريمة إن حاولتِ...

حدقت به غير قادرة على التفسير وخاصة بعد تلك الضربة، وكل ما فكرت به أن هذا يكفي سيمتثل لأوامرها شاء أم أبى.

ـ إن حاولت ماذا؟! أنت تريدني، أنا لا أحاول فرض عليك شيئًا، أنا أحاول جعلك تُدرك هذا، ولا تنسى بأنك مدين

لي، يكفي بأنني أنقذتك من مصيبة تفسير وجودي الحقيقي بالمشفى أمام أمك!

هتف أمير ساخرًا ناسيًا بالفعل بأنها الحقيقة:

ـ وجودكِ الحقيقي! ومصيبة! زواجي بكِ أكبر المصائب، إن كنتِ لا تحني للرجوع إلى المشفى فأنصحكِ أن تبتعدي عني.

نهض من مكانه مع آخر كلمة، وقبل أن يتحرك خطوة واحدة للخارج إذ بإيفت تقف أمامه صارخه بغضب:

ـ لا تظن بأنني نسيت ما فعلته بي وتعويضي لكل ما مررت به هو إتمام زواجي بك، هذا عادل وكافي بالنسبة لي.

وشعر بوخز كبير بذراعه فانتفض ليراها ممسكة بإبرة دوائية مُردفة بصوت عالٍ:

ـ والآن تعادلنا، لا تظن بأنك وحدك من تفهم بفن الخديعة يا أمير.

كان يتابع بغباء فكري ما حدث، ولم يجد سوى مبرر واحد:

ـ هل تحاولين قتلي بالسم؟!

ضحكت إيفت بأعلى صوت لها:

ـ كنت أظنك أذكى من هذا، عموما دقائق وتشعر بها.

ـ أشعر بماذا؟!

قالت بتهكم ملقية إياها بالأرض:

ـ منشطات تجبرك على تنفيذ رغباتي.

وبتلك اللحظة لم يفكر واندفع الأدرينالين في عقله وانهال عليها ضربًا وصفعًا وهي كانت تضحك بكل مرة يصفعها بها، وأخذ أمير نفسًا عميقًا بعد أن توقف عن ضربها وهرول لداخل الحمام وفتح الصنبور لآخره حتى امتلئ بما فيه ثم أغرق رأسه به مُحاولًا إطفاء جمرة مشتعلة فيه وتسري بسائر جسده.

ـ لن تهرب من المُقدر، حتى لو أغرقت نفسك في مياه النيل.

قالتها وهي مُستندة بكتفها على باب الحمام، تمسح دماءها المُنبثقة من شفاهها، وقتها أخذ أمير نفسًا عميقًا ومسح جبهته الغارقة بالماء، وما إن رآها حتى أمسكها من شعرها قائلًا بصوت رعد:

ـ انتظري حتى أفيق من تلك المهزلة وسأدفعكِ الثمن غاليًا.

لم تبالي إيفت به ورسمت ابتسامة ساخرة بالرغم من ألمها:

ـ بعد دقائق ستنهار دفاعاتك.

كلماتها الباردة وروحها الساخرة والتحجر الفكري فيه دفعه لأن يلقيها بالماء ويغرقها، وكانت تنتفض بيده محاولة إيجاد مخرج هواء وهو يضحك بهذيان:

ـ سأقتلك وأرتاح.

عندما بدأ يحس بأن مقاومتها بدأت تندثر حتى تخلى عنها، فأخذت نفسًا عميقًا وسقطت بالأرض تسعل وتبصق المياه ليجلس جوارها مُحاولًا التزام الهدوء فلقد كاد يقتلها.

زحفت على الأرض مُقتربة منه قائلة بنبرة خالية من الخوف:

ـ هل انتهيت؟ لا أزال أنتظر أن تنتهي!

كل شياطين الأرض تتقافز بعقله جراء صوتها البارد، يشعر بأنه منتشٍ وأن عليه الهرب، نظر إليها مجددًا قبل أن يفكر في الخروجٍ وبثوانِ جرها الأرض:

ـ كلا لم أنته.

بينما إيفت كانت تصرخ بصوت عالٍ، إنه يهينها بأقصى ما لديه، يعاملها على أنها كلب بطوق يجره منه، جذب شعرها لأعلى يجبرها على الوقوف وتابع حديثه وهو ينفث الهواء من فتحتي أنفه بضيق كما الثور الأحمق:

ـ بل بدأت.

وبالرغم من صريخ إيفت وكل إشارات التعقل التي تحثه على الهرب بادر بالهجوم ليعاملها بعنف لم تشهد بشاعته سوى مرة مريرة وهي طفلة.



ركض عبر الصحراء، يلتفت أمامه ويمينه ويساره، وقف لبرهة ودموع الحسرة تغالبه، كيف وصل به الأمر لهنا؟، كيف أصبح بهذا الشكل؟، كيف وصل لهنا؟ وأين هو؟

كان جسده النازف يرتعد من الخوف، لقد هرب من معركة ولا يعلم كيف فلت بأعجوبة من ذلك الرجل الخسيس المختل، كل ما فعله للرد هو أنه انهال عليه ضربًا وبادله هو الآخر الضرب بطعنة نافذة بجانبه، وما بين الشد والجذب بينهما هرب بسرعة البرق سامعًا إياه يخبره بأنه إذا لم يحصل عليه حي فسيحصل عليه ميت. تعثر بركضه وسقط ولهث بصعوبة ومسح عرقه الملوث بدمائه وزغ بصره للمكان الذي فيه، لم يجد إنسي يذكر، مجرد صحراء تلونت بالسواد وجبل يطل أمامه.

كثرة فقدان الدم أصابته باختلال بالرؤية، فأغمض عيونه واستسلم للموت، موقن بأن لا أحد سيراه أو ينجده بتلك المنطقة الصحراوية، ولم يلاحظ تلك الصبية الراكضة بجملها عبر الصحراء تتجه صوبه لتنقذه.



أحاسيس تتضاعف فيه أكثر، اضرب شعورًا على مرتين فستجد نفسك غير قادر على التحمل، غابة، بل مُستنقع سقط فيه بالإرادة الغاصبة وتعامل فيه بمنطق الوحشية ليصبح ثورًا، تبدو الكلمة أقل وطأة من حيوان، ولكنها لا تنفي صفة أن الثور هو حيوان.

حل الصباح وزقزقات العصافير والضوضاء بالخارج مغيبة تمامًا، وقت أن استيقظ تذكر بمرارة أحداث الأمس، ونظر لوجهها المضرج بالدماء وتغصن بالضيق وكاد يمسح آثار جريمته إلا أنه تراجع عندما رأى عينها مُنفتحتان تنتظره.

استوى على الفراش يزفر بعمق مُفكرًا في كيفية تحول الأحداث لهذا المنحى الدرامي، ومع هذا ورغم عنفه وبشاعته وإحساسه العالي والحالي بالذنب، إلا أنه لن ينسى إحساسه السادي الذي رافقه، ورغم كل ما حدث فإيفت تعاملت بهدوء مُخيف.

ـ كل ما جرى بسببكِ، كنتِ تظنينها تعويضًا فكانت غرامة.

صمت لبرهة وتابع بصوت غلب عليه لمحة الانكسار:

ـ لمَ أجبرتِني؟ أنا لست دمية بيدك أنا إنسان، لا تظني أنكِ كسرتِني، كل صفاتك القذرة وصفحاتك الأقذر مدونة معي، لهذا...

وسحبها بغتة من الفراش مُردفًا بصوت غاضب:

ـ سأضعكِ في المكان الملائم لكِ بالضبط، خزانة الملابس، ولكن اطمئني لن أقيدكِ بالسلاسل الحديدية.

ألقاها بخزانة الملابس وأغلق عليها الباب ثم جلس يستمع وبهدوء لصرخاتها المدوية وخبطها الهستيري وتمتمتها بفزع لحالة من الهذيان.

ـ اصرخي كثيرًا فلن يسمعكِ أحد.

وابتسم بتشفي، يبدو أنها تتألم فعلًا ولكنه لن يأبه، فلتحترق بالجحيم حتى يأخذ حقه للنهاية، ولكي يؤلمها أكثر سيتلو أجزاءً من مذكراتها التي يحفظها ووجدها بحقيبتها إبان ما كانت لدى عواطف.

**ـ (تخيفني خزانة الملابس لأنني قضيت بها أسوأ فترات حياتي، حبسني أبي فيها وأنا بسن التاسعة مراتٍ عدة لرفضي طلباته بحجة إشرافي مع جدي على زراعة الأرض، إن جدي أقل قسوة من أبي، وكان الملتزم بتربيتي، ولا يسمح لأحد بالاقتراب مني بعد تلك المربية، إن خزانة الملابس مخيفة بها ظلام كبير).**

وإيفت تصرخ وتبكي وترجوه بأن يفتح الباب ليردف وكأنه لا يستمع لأحد:

ـ ربما مقطع آخر يجعلكِ تكفين عن الصراخ: (**أحيانًا كثيرة ومن ضمن مخاوفي أن أخاف من نفسي، فأنا أنجذب بسهولة كبيرة للرجال، ولا أعلم لماذا أنا أفعل هذا ولماذا لا أكف عنه؟ ولكن الأهم بأنني أحتفظ بصورة نظيفة عن فارس أحلامي، ذلك الذي أنتظره لينظفني من قذارتي والذي لن أسمح لقلمي بأن يضع اسمه وسط تلك الاعترافات.**)

دقات الباب كانت عالية وهزيلة ولكنه لم يكف، كان يعلم عقابها الحالي مجرد نقطة ببحر طويل، تفوه بآخر جملة قرأها مراتٍ ومرات:

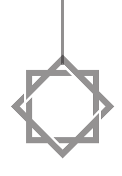
ـ (**وأمير، ليس فارس أحلامي، ولكني أحب مشاكسته كثيرًا، وحتى لو أهانني أهوى رؤيته، يشكل بالنسبة لي منطقة خطرة وجميلة ومثيرة، أنا لا أراه عدوًا، وحتى إن خططت بمصيبة فهو السبب، فأنا أدافع عن نفسي، لم أختَره عدوًا، بل هو وكل من علم بأصلي واختارني، ربما لو كنا بظروف وحياة أخرى لمَا حدث ما حدث وكنا من مجرد أنداد لأصدقاء.**)

زفر الهواء بعمق وتملكه وجع غريب، لربما شعور الذنب لأنه اكتشفها وعذبها بكل خسة ونذالة، توقفت صراخاتها ودقاتها المرتعشة المجنونة، فتملكه القلق فأدبر ناحية الباب قائلًا باسم لم ينطقه كثيرًا:

- حورية.

نادى مُجددًا فلم ترد، ففتح الباب على عجالة ليجدها فاقدة الوعي فحملها بين ذراعيه سريعًا، وصفعها برقة على وجنيتها دون أدنى استجابة.

قبض قلبه بعنف وخوف ووضعها على الفراش مراقبًا ومحاولًا إفاقتها وهو شبه متأكد بأنها بالنسبة له حالة خاصة لا يمكن إنكارها، حالة لا منها حرب ولا منها سلام، بل هي تلك المنطقة الرمادية، والحالة الوسطى التي يجب أن تكون بها علاقتهما حتى يستطيعا عبور شوكات العرق والفكر والعداء التاريخي بينهما للخلاص من الأزمة بحل قاطع وحاسم.



# الفصل الحادي والعشرون

هل سألت نفسك ما الذي يجعلنا إنسان؟

لا تعرف الإجابة أم تعرفها؟

لحظة قبل أن تفكر وتجيب أو تطقطق أصابعك غير قادر على الإجابة سوف أجيبك؛ في الواقع كل ما نعرفه عن الإنسانية مرهون بالكون المحيط بنا أو في تلك الحالة الوطن المنوط بنا، نحن لا ملائكة ولا شياطين ولا حتى بتعريف الكون إنسانية، عندما نتخلى عن أخلاقنا نتيجة للقسوة وسوء التعامل معنا ولأجل مصالحنا فنحن لا نكون أُناسًا بل وحوش، عندما تمر بقلوبنا لحظة تدمع بها أعيننا لأجل ثقل تحملناه فنحن لا نكون أُناسًا بل يرقات.

ما الذي يجعلنا أناسًا؟ حقيقة، غير تلك الدقة الثابتة كل دقيقة بقلوبنا، وغير ذلك الشكل الآدمي المُتغير وذلك الدم الأحمر المُنصب بالعروق؟

الإجابة: لا يمكنك وصف نفسك بإنسان، ذلك لأن تلك الصفة تحمل من القيم النبيلة الكثير والطاغية بشكل لا يتحمله بشر، أنت لا إنسان ولا حيوان أصلًا، ما بين البشرية والإنسانية يتحرك الكائن بمشهد عبثي، تراه يصول بإنسانيته بمكان ما ويبزر بشريته بوحشية بآخر؛ لم يكن متوحشًا بالفطرة ولم يكن ملاكًا طوال عمره، هذه هي حقيقة البشر الملتحقون بالإنسانية، وفوق كل هذا وذاك أنهم انغرسوا بهيئتهم الممسوخة بأرضهم.

يراقب وجهها النائم الهادئ البسيط، أدمنه بسكونه هذا طيلة أكثر من أسبوع بالمشفى، ولا يعرف سر وجود كافة مشاعره بحالة سعادة كلما رآها نائمة.

أمسك بكمادات مياه باردة ومسح وجهها لعلها تفيق ولكنها لم تستجب، ظلت قابعة بسكونها اللذيذ بالنسبة له، ضمها لصدره بعد عناء التفكير، واستوى جوارها يتمعن بالنظر إليها قائلًا قصيدة لنزار سيده الأوحد بتعريف العشق:

«**لم يحدث أبدًا أن أوصلني حب امرأة حتى الشنق**»



نحن جميعًا بحاجة للإنقاذ، هنالك جذورٌ تنبت بداخلنا لا نعرف فحواها، هنالك آمالٌ لا نعرف متى نحققها، وأسئلة دائمًا تحيرنا:

هل هنالك نقطة للرجوع؟

هل أصبحنا فاسدين لدرجة لم نعد غير قابلين للإصلاح؟
هل هنالك شيءٌ يُدعى حب بوجودنا على سطح تلك الأرض؟
هل يمكن أن نعيد بناء حياتنا وعلاقاتنا معنا؟
هل هنالك فرصة له ولها ولهما معًا؟

كانت هذه أفكاره مراقبًا إياها بعد أن راجع ما سبق وقراه عنها بوريقاتها المُتشبعة بسنين من العذاب غير المنتهي؛ إنسانة معقدة جدًا، صدقت بمقولة أنه يعيش بالجنة، على الأقل لم ينتهك أحدٌ براءته، ولم يعِش تلك التجربة القاسية المريرة مثلها.

لمس بظهر يده وجهها الناعم الحالم هامسًا بصوت منخفض:

ـ ربما هزمتِني يا حورية.

وتلجم بحديثه عندما لمحها تفتح عيونها الماسية مائلة للزرقة ذات الحدقات السوداء الكئيبة مُشكلة لوحة غنائية من الألم والجمال، أنشودة من أناشيد الغزل لا تكفي لوصفها فهي حورية من الجحيم، خرجت غصبًا من أرض الجنة وهي طفلة بريئة لتبقِ بجحيم أرض الأبالسة وهي بشرية ممسوخة الإنسانية.

صمت رهيب تبعه بالنهاية صوت بارد خالٍ من أي تعابير:

ـ هل انتهيت من انتقامك؟

تصلب كفه وتيبست عضلاته دون مجيب، لتردف محدقة بالسقف بمرارة شديدة:

ـ قرأت مذكراتي، لذا بت تعلمني، ولكن هل تعلم ماهية الإحساس الذي سيطرعليّ طيلة عمري؟!

أخذت هواءً كبيرًا ثم أردفت وهي تزفره ببطء شديد:

ـ كأن الهواء ينسحب من جسدي وأنا أحدق لنفسي من خارجها، أتأمله وهو يعتدي عليّ وأصرخ بلا فائدة، وجدت نفسي خارج نفسي، شعوري هو بلا شعور، وهذا هي المعضلة، يطاردني طوال حياتي شعور لا أشعر به.

هزت كتفها بإماءة بسيطة مُتابعة بضيق:

ـ الأمر الوحيد الذي يمكن أن يساعدني لوصفه هو أنني كنت بريئة، طاهرة، عفيفة.

نظرت إليه وابتسمت نصف ابتسامة وأكملت بتهكم مختنق:

ـ عذراء، كما كنت تتمنى بعروسك؛ ولكن انتزعوها مني، ولم يكن بيدي حيلة. كل هذا بدأ منذ أن عدت من رحلة للبيت متأخرة، ظل والدي يزمجر من الغضب لتأخري عن قضاء مستلزمات سهراته من الخمور ونتيجة العصيان الحرمان من العفة.

بدأت تشهق بين نشيجها المتواصل:

ـ عشت بأورشيلم ١٢ سنة، وبأول تسع سنوات من عمري عشت مع جدي، وعملت بزراعة الأرض، وأحيانًا عندما كنت أهمل الاعتناء بالمزرعة يلحقني بالمعسكرات التدريبة والتأديبية، حتى وصلت العاشرة وأصبحت تحت حكم والدي اللعين.

زفرت الهواء بقوة كبيرة وهي تسمح دمعاتها بأطراف أصابيعها مكملة حديثها غير المفهوم:

ـ وبكل الأحوال وبناءً على طلبه يتم تعذيبي، وعندما يغفو والدي من أثر المخدرات كانوا يتسللون لغرفتي.. و...

شهقت بخفوت وأكملت بسرعة هستيرية وهي تحدق بأمير وكأنه تطلب منه أن يصدقها:

ـ ولكنني كنت أدافع عن نفسي بكل مرة، السكين كنت أحمله أسفل وسادتي وكنت أنجح بكل مرة، ولكنهم كانوا أكثر عددًا وإفاقة عن ذي قبل، حاولت أن أمنعهم عن اغتصابي، أقسم بكل ما أملك حاولت!

انتابتها ارتجافة قوية ودلكت كتفيها بقوة وأحس أمير بأنها بدأت تفقد صوابها مجددًا، تحدثت بهستيريا عن ما فعلوه وصراخها، فتمتم بصوت منخفض:

ـ كفى.

هدأت بارتجافها بثانية وحدجته بابتسامة مهزوزة، فما كان منه إلا أن مسح وجنتيها الباكيتين مردفًا بصوت أقوى:

ـ كفى حديثًا عن الماضي، إن قررنا الاستمرار معًا بالحاضر.

اقتضبت البسمة الجافة والمغمورة بالألم على ثغرها وتبدلت نظراتها الحائرة لغيظ مبعدة يده عن وجهها:

ـ لا أريد شفقة، لا أحتاجها، إذا أردت تطليقي فافعل.

زمجر أمير غاضبًا وأجبرها على النظر إليه :

ـ يا غبية، منذ أول يوم وأنا لا أستطيع إخراجكِ من رأسي، متى ستفهمين أنني أحبكِ.

رفعت إحدى حاجبيها استغرابًا وغليانًا مجيبة عليه:

ـ أتهينني يا أقذر من عرفت؟!

شهق أمير ساخرًا:

ـ أنتِ لا تُصدَّقين، لقد أخبرتك للتو بأنني أحبكِ وأنتِ تتمسكين بالإهانة! أنتِ بالضبط التعريف الأشمل لكلمة متعصبة، لا أعلم ما بعقلكِ هذا، ولا أعلم ما الذي يدفعني لأكون بجانبكِ، وأكبر دليل لتأكيد شعوري هو...

ألصقها بصدره معانقًا شفاهها، وبتلك اللحظة وهو بكامل وعيه وصفاء ذهنه تضائل ذلك شعور النفور بجانب شعورٍ آخر، وهو أن تلك الفتاة مكانها الصحيح – ربما – بقلبه.



انتزاع الروح هين جدًا؛ مجرد أن تشعر بخنجر الخيانة الوهمي يسلخ جلدك ويفتت عظامك ثم ينفذ بقسوة لقلبك وهو ينبض، تتفجر حجراته وغرفه وتخضب بالدماء ثم يبدأ يخفق بجنون لأنه يحاول قدر المستطاع لفظ الخنجر خارجه، وفي النهاية يهدأ تدريجيًا بعد أن ينزع السكين، ونحاول بعدها أن نلملم ليترات دماءنا الواهية بصندوق الحياة والدين.

كان هذا شعورها وهي تتلوا آيات الإنجيل على يوسف الملاصق لها منذ أن اعترفت بحبها لأمير، أصبح بحياتها الضمادة الملائمة لحالة القلب. الحاجة لإنقاذ شخص كانت سببًا بلملمة ليترات دماءها الواهية بحب أمير بصندوقه، وكان نِعم الصندوق، لم يمل من الاحتفاظ بكل أسرارها عن حب السنين أبدًا، بينما لم تعلم سرًا واحدًا عنه وعن حبيبته؛ ستسأله مباشرة بعد انتهائها من تلاوة الإنجيل، وفقرة الوعظ الديني الثابتة له.

صبره نفذ فعلًا ودون مغالاة، فخططه لعزلها فعالة، ولكن ليست ناجحة جدًا، هي لا تكتفي عن ذكر حياتها بعهد أمير وتوبتها والمواعظ الدينية التي لا تفيد أحيانًا، بل يود الآن صفعها صعفة تلصقها بالحائط حتى تصمت عن ذكرها الديني وهراءها.

متى ستعلم بأنه كافر؟ هل سيكون هناك خطرٌ إن اعترف وقال:

«**مرحبًا أنا يوشف إسرائيلي، أقرب للكفر منه للإلحاد، ما رأيك بي؟**»

هز يوسف رأسه، عليه أن يظل مستمعًا بهدوء حتى لا يرتكب شيئًا أحمق يضيع كل خططه بالهواء، وأن يشتت انتباهه عن تلك الحالة التي تحاول وضعه بها.

أنهت ريتشيل تلاوتها مُتحدثة:

ـ هل تود أن تقرأ يا يوسف فيه؟

صرخ بصوت شبه مرتفع نافرًا :

ـ كلا!

ثم تنحنح عندما شعر باستغرابها من لهجته العصبية وقال ملطفًا:

ـ صوتي بالترنيم خشن وسيئ، ولهذا لا أحبذ القراءة.

ـ هل تود الحديث عن بعض مشكلاتنا الدينية؟

كان يرغب في التقيؤ منها ومن نفسه ومن كل شيء، فلقد ملَّ حديثها وتعب، لهذا سيحاول جذبها لمنطقة أخرى:

ـ هل حاولتِ إيجاد الحب مرة أخرى؟ فأمير ليس نهاية المطاف!

أحس بأعصابها نافرة وتجمد ملامحها، فكاد أن يخر بالأرض ضاحكًا حد البكاء، الألم شيء أدمن رؤيته بالآخرين وهذا حقه، فعلى كل من يتواجد بقربه أن ينال قسطًا من الألم، فالكل بنظره واحد حتى هي، وإن كانت مختلفة بالنسبة له لا تبتعد عن كونها وسيلة لتحقيق أهدافه.

تحدث بصوت هادئ خافيًا ضحكه:

ـ أنا آسف لذكري موضوع أمير، ولكن من حقكِ إيجاد السعادة، أنا أنصحكِ كم... كصديق.

وأحس بلسانه ينزلق مجددًا فصحح خطأه؛ فهو لا يحبها بل يهواها وهناك فرق، اختلاسه لنظرات محرمة على جسدها شيء وأن يجعلها تحتل أرض جيليللا شيء آخر. قست ملامحه وبدت

أكثر شراسة عندما هاجت أفكاره بجيليللا، يريد تقطيعها وإلقاءها للأسود، سيدفعون جميعًا الثمن، تلك التي تدعى ريتشيل تظن بأن أمير عذبها فلم تدرك العذاب بعد.

ـ لم أفكر بهذه المسألة، لقد أخلصت قلبي للرب والمسيح.

كلماتها زادت من غضبه وقساوته، فزفر الهواء بعنف شديد وظل يحملق بها صامتًا ثم بعد فترة من الصمت نهض من مكانه وتوجه ناحيتها على الأريكة المقابلة لوجهته، أزاح الكتاب المقدس من يدها باشمئزاز وألقاه على المنضدة بإهمال ليُجيب بقبلة على شفاهها ويتخطى كل حد وضعه بالخطة.



لحظات يصعب وصفها تلك المرة، مشاعر ومسافات تتغير وتتكسر، إحساس بفقدان التوازن يسيطر عليه، أو بالأحرى هو معها يمر بحالة من عدم الاتزان العاطفي، مرر أنامله على ذراعها التي تحوط خصره قائلًا:

ـ أنتِ تحتاجين للمساعدة وهناك خطوات لعلاجكِ.

حركت رأسها المستندة على صدره لتنظر له نظرة أحس بالعجز لفهمها فهي بريئة وهادئة جدًا:

ـ هل أنا مريضة؟

ـ لقد كنت أقرأ عن حالات من تعرضوا للانتهاك الجسدي بمرحلة الطفولة. حورية، أنا منذ أن رأيتكِ ولم أكف عن التفكير بكِ، صحيح كنت نذلًا ببعض...

زمت شفاها استياءً، فتدارك أمير كلمته :

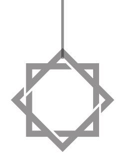
ـ بكل الحالات بسبب غضبي منكِ وافتراءكِ عليّ، ولكن كل هذا أصبح من الماضِ، ونحن علقنا بمفردنا وبإرادتنا سويًا بهذا الزواج؛ لهذا سأنقذكِ بشرط التوقف عن إسداء الضربات لبعضنا البعض.

سالت دمعة بجانب وجنتيها وهي تومئ برأسها، فاقترب منها أمير ليمسحها بهدوء متمتمًا:

ـ آسف لسوء ظني ومعاملتي لكِ.

أجابته وهي تشعر بالأمان لأول مرة بحياتها وبإنسانيتها الضائعة في مكان ما:

ـ ليس مهمًا من يتأسف للآخر، المهم هو إحياء ما مات بداخلنا سويًا.



# الفصل الثاني والعشرون

جَلدة وراء أخرى تمزق جِلده، والغريب أنه عندما نكتبها لا تختلف في الحروف، بل في المعنى، فالأولى عذاب والثاني المعذَّب، تمامًا كالفعل والمفعول، الأولى ترج الثانية بقوة يصاحبها ضحكات لأناس خلت من قلوبهم الرحمة، يظنون أنهم على صواب، وأنهم يرتفعون عند الله سبحانه وتعالى بالمنزلة كلما شقوا جلده بسياطهم المغمورة بالزيت، وهو أسد يقف صلدًا متحملًا لا يحبذ التفوه بأنين عذابه حتى لا يظنون بأنه ليس رجلًا أو يستهزؤون به.

رفع حمزة يده عاليًا يأمرهم بالتوقف ثم سار صوبه :

ـ كل جلدة بحق ابنتي التي غررت بها.

تحدث عمر بإرهاق وهو يرفع عينيه لرؤيته:

ـ لقد تزوجتها.

صفعه مولانا الشيخ حمزة الصديق صفعة قوية أتعبته:

- بل زنيت، لم يكن بينكما زواج، سأقتلك بيدي كل يوم، لقد غررت بابنتي ودفعتني لأقتلها رجمًا بالحجارة!

ابتسم عمر ابتسامة شاحبة رغم غرق وجهه الأسمر بالدماء، لقد كانت روفيدة ابنه مولانا الشيخ حمزة ملكة جمال رباني أخفته بنقاب فضح عينيها الجريئتين، أحبته بينما هو ظنها وسيلة للحصول على الانتقام من هذا الرجل أكثر منها زوجة وحبيبة، فلن ينسى تلك اللحظة الذهبية التي أخذ بثأره منه عندما استفرد به وانهال عليه ضربًا قائلًا بأنه تزوج ابنته منذ أكثر من ثلاثة شهور. أباه (**عوض**) قُتل بسبب فتواه وضلاله، منذ أن وطأ مولانا الشيخ حمزة أرض الخان وهو يُكفر كل من يعمل به، وسعى طوال فترة وجوده على إثبات خلفيته الدينية بأذهان الشباب حتى يستطيع التلاعب بهم، وقد كان شخصًا سمع كلامه المتطرف وسعى لحرق الخان بكل من فيه مستعينًا ببلطجية ومتطرفين مثله.

قتلوا عوض عندما حاول التصدي لهم، أمطروه بوابل من الخناجر والطلقات النارية على جسده، ووقتها عمر كان صبيًا أُيقظ من غفوته على أصوات الصراخ، ركض ليرِ المتطرفين حول أبيه يكادوا أن ينحروا عنقه ويفصلون جسده عن عقله مُرددين (**الله أكبر**) قبل أن يطردهم مع الناس من الخان شر طرده.

تساءل الجميع فور رؤيتهم لهذا المشهد المهيب ما الذي يكبرون عليه عندما يقتلون نفسًا – أيًا كانت ديانتها، مسلم، مسيحي، أو حتى بوذي –؟

كيف يمكن الجمع بين إعلاء كلمة الله والقتل؟

ألم يقل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل نفس**»؟

تحدث حمزة بصوت عالٍ:

ـ يا شباب، أتذكرون بعد أن منَّ الله علينا بالنصر على ابنتي وقتلناها وغسلنا عارنا بأيدينا ماذا فعل هذا الملعون بنا؟ لقد تهجم عليّ مرتين، تهجم على شيخكم مرتين.

بصق عمر الدماء وتحدث بكبر ودون خوف:

ـ كانت المرة الأولى لأنك كنت بحاجة لفهم أنني تزوجت ابنتك على سنة الله ورسوله، والثانية ظفرًا لحق موتها وموت أبي، أليس من سخرية القدر أن أحصل على العدالة على يديك؟ العين بالعين والحر بالحر والكافر بالمؤمن، أليست هذه فتواك يا مولانا؟

تنفست أوداج الكهل الغضب ورفع سبابته بوجهه متوعدًا بغضب أحمق ينفثه إبليس بداخله:

ـ أقسم بأنني سأجعلك تصرخ متمنيًا الموت، سأقيم عليك حد الحرابة، أقسم بأنني سأقطع يدك ورجليك من خلاف وأصلبك لتكون عبرة لمن يعتبر.

حرك عمر رأسه متابعًا بنفس النبرة الساخرة:

ـ أخشي أنني لن أبقى طيلة اليوم أترككم تحتفلون برجوعي بهذا الشكل، أعلم أنني حبيبكم جدًا، ولكن هذا الاستقبال كثير عليّ، ولقد حان وقت ذهابي. وحمزة، صحيح أنك استطعت القبض عليّ بعدما أشعت خبر زواج أمير بأطراف الخان، أعترف لقد تطور معدل ذكائك لدرجة كبيرة، ولكن لا تزال كما أنت غبيًا وجاهلًا وحقيرًا.

أشار حمزة لأحد غلمانه بأن يكمل ضربه مُجيبًا:

ـ أخشى أنك ستشرفنا لمدة أطول من هذا.

واستمر الجلد والضحكات وكل شخص بالغرفة مؤمن بأنه يؤدي لتطبيق الإسلام والشريعة مُتجاهلين حقيقة أن عمر تزوج روفيدة عبر مأذون شرعي، ولكن حمزة لا يعترف بديانة أي شخص غير ديانته وكأنه هو الوحيد الذي يختص بالإسلام!

ما السبب؟

هل سألت نفسك ماذا يحدث حولنا؟

هل بني إسلامنا على العدوان على الغير بحق الشريعة؟

أين قيم التسامح؟

ما هذا الكلام العجيب الذي نراه بشاشاتنا؟

ما هذه الأفعال؟

هل اندثر الإسلام السمح وسط التطرف والغضب؟!

وما هذه المقارنة بين الإسلام وبعضه؟!

من الذي أوجدها ومن السبب بانتشارها؟

أمسك ورقة وقلم، دوّن: إن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، وبعهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لم يجبر أحدًا على اتباع ملتنا أو أحكامنا، بل أن الله سبحانه وتعالى قالها صريحة بكتابه الكريم: «**من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**».

إذًا، إنه يعطي العبد الحرية في الاختيار بين الكفر وبين الإيمان، فلا يمكن لأحد مهما كان علوّه ومكانته الدينية أن يسحب هذا الحق، وبهذا نعود للنقطة الأساسية؛ كيف انتشر التطرف؟ كيف انتشر التكفير بمجتمعاتنا العربية؟

إن نظرت على الخريطة الآن ستجد بأن من يظنون بأنهم يحملون لواء الإسلام فينا ويكفرون غيرهم هم أقدر الأفراد على نشر الخراب، فماذا تبقى من الشعوب؟

إن عرفت الإجابة ولو باطنيًا بنفسك فلا تجبها، أما الإجابة على سؤال التطرف فعليك سؤاله وسيجيبك ببساطة وببشاشة وهو ناظرٌ لتلميذته:

- انتشر التطرف والفتاوى الغريبة بمجتمعنا نظرًا لتراجع دور الأئمة الوسطية أمام نفوذ الأئمة التكفيرية المنتشرين بالتلفزيون، بل إن بعضهم يحاول إثبات نفسه بأنه منتسب للأزهر، وبالتالي فهو فقيه بأصول الإسلام والقواعد الفقهية، وبالتالي فإن كل ما يقوله نابع من أنه رجلٌ موثوق به، أي

أن المؤسسات الوسطية تخاذلت عن بناء وتوعية المجتمع الناشئ بصحيح الدين.

صمت لبرهة يستعيد الهواء ثم تابع بمنطق وبهدوء ورزانة شيخ صغير:

- في الواقع إن لسطوة الأئمة التكفيريين على الشباب والعقول الصغيرة تم بناؤه على الكذب والخداع وذيوع التفسير الخاطئ لآيات القرآن، فنجد من هم يتمسكون بتفسيرٍ معينٍ للقرآن دون فهم وإعمال العقل الذي وضعه الله سبحانه وتعالي فينا، فلو تمسكنا بتفسيرٍ جامدٍ للقرآن لوجدنا فيه آياتٍ متناقضة، فالله يدعو لقتال المشركين بجهة ثم يقول وإن جنحوا للسلم فاجنح لها، إن لكل آية سبب وحادثة، ولا يجب تعميمها على الوضع الحالي، ودائمًا يختتم المفسرون والفقهاء الأجلاء بكلمة والله أعلم)، أي أن الله أعلم بما يريد إيصاله للبشر، لا نحن ولا أي شخص آخر، فإن تمسكنا بتفسيرٍ معينٍ للقرآن كيف يمكن لنا التأكد من صحته؟ فنحن لا ندخل في علمه عز وجل.

أخذ زاهر نفسًا عميقًا بعد أن أنهى حديثه لزينب، يعلم بأن الحديث بالأمور الدينية يساعدها بالأمور التعليمية، فالجهل عدو الإنسان سواء بالمجال الأدبي أو الديني، لذلك يحرص كل مرة تحضر فيها تلميذته لتلقي العلم على شرح تفاسير العلماء والفقهاء الدينيين.

وبكل يوم يمر على زينب يزداد إعجابها بتلك الموسوعة العلمية الناطقة المتمثلة بزاهر، كيف يكون هذا الشخص الصغير بالسن يحمل كل هذا العلم؟ إن جلستها معه تعيد لها الشعور بالحياة، تكاد تقسم بأنه خلقت وعاشت ميتة في بيتها، أصبحت الآن مطلعة كل أمور الحياة وبسرعة، كيف يُولد البشر وكيف نعيش نحن وما هو الجهاز الهضمي للإنسان؟!

من هذا الرجل؟! تساءلت أثناء ما كانت تحدق به، تحيط به هالة كبيرة وطاقة أكبر من النور، هل لأنه يمثل لها الإنقاذ الذي لم تحصل عليه؟

الغريب بالأمر أن الشعور بالحفرة العميقة التي غرسها فيها الكل يتضاءل معه، وبجانب كل هذه الأسئلة هناك سؤالٌ أساسيّ يؤرقها:

لماذا يا زاهر تصر على بناء شخصية ماتت علنًا؟!

استرسل في الحديث ناظرًا لكل ما تمثله المرأة بعيون ذكور المجتمع:

- وليس شيوع وانتشار التطرف من ساد بالمجتمع، بل تلك النظرة الدونية للمرأة، استمعتُ بإحدى المرات لشيخ يقر بأن المرأة خلقت لأربعة أشياء ولا تحيد عنها أبدًا، أولًا: للحمل والإنجاب، ثانيًا: التربية، وثالثًا: تلبية رغبات الرجل، ورابعًا: تنظيف البيت، والأدهى من كل هذا يا زينب أنه استدل على مقولته تلك بالقرآن الكريم وبالأحاديث

الشريفة، صدقًا عندما سمعت تصفيق الحاضرين له بكيت ومن كل قلبي، وودت أن أصرخ بماذا تكبرون له أو تصرخون إعجابًا، كيف يقول هذا الرجل مثل هذا الكلام؟ أن يهين المرأة التي كرمها الله بكتابه وخص بها سورة شريفة تدعى سورة النساء، وسورة مريم وكيف، اصطفاها الله عز وجل دون سائر النساء، أيّ تكريم أعلى من ذلك! ولكن الشيوخ الجاهلين مثله يساويها بمكانتها أثناء الجاهلية، إذ لم تكن المرأة – حرة أم عبدة – خلقت إلا لتلك المهام وكأن الإسلام لم يفعل لها شيئًا. زينب، الله لا يفرق بين رجلٍ وامرأة في الثواب والعقاب، لذلك لا تظني نفسكِ أقل شأنًا من الرجل.

لا يعلم لماذا نطقها فلم تكن زينب محور حديثهم، ربما يريد أن يستحثها ويجعلها تؤمن بأنها إنسانة كاملة الأوصاف ولا شخص ولا حتى هو عليه الحكم أو فرض رغبته عليها لمجرد أنها امرأة.

تعثرت زينب بكلماتها وهي تخفض بصرها للأرض خجلًا:

ـ أظن بأنني تعبت، نكتفي بهذا القدر.

زفر زاهر الهواء بضيق، المرة التي لا تعد ولا تحصى تهرب زينب من المواجهة الحتمية، أشار إليها بدون كلام تاركًا قلبه معلقًا بين يديها وهي تلملم أوراقها راحلة بعيدًا عنه.

بعد أن أغلقت الباب استبد به الشوق والحب لأن يهمس لنفسه مجددًا:

- صدقي أو لم تصدقي، لم يخلقكِ الله امرأة لتكوني بلا فائدة وعليكِ أن تفهمي ذلك يا تلميذتي، وإن سنحت ليّ الظروف وأصبحتِ زوجتي، وعد مني أنني سأكون حاميًا لا حاكمًا، وربما أنا بنظركِ مرشدكِ وأنتِ بالنسبة لي تاج على رأسي وقلبي، ولهذا فلن أجهر بحبكِ حتى تأمني لذاتكِ أولًا وتثقي بنفسكِ وبجدوى وجودكِ بالحياة يا حبيبتي ومليكتي.



يشعر بالغضب ممتد له حتى النخاع، كل شيء حدث بحياتها بسببه، كيف حملها على الهرب؟ بل لقد شجعها وأبعدها عنه حتى تبقى بأمان ولكن هل كان الابتعاد هو الحل؟ هل بكتمان مشاعرنا وبقاءنا بمكاننا لا نتحرك تجاه الحبيب هو الحل؟ وهل كان سيأتي جنيًا أو حلًا سحريًا ليجمعهما مرة أخرى؟ على ماذا راهن بالضبط؟

على أن تبحث عنه بنهاية المشهد أو يموت الشرير بالحكاية حتى يرسل لها خطابًا لعنوانٍ مجهولٍ يخبرها بأن تأتي من المكان الذي لا يعلمه؟!

أوهم نفسه طيلة عمره بهذه الاحتمالات ونسي أهم عبرة بالحكاية: أن الحياة لا بد أن تستمر، لا بد أن تجد البطلة البطل

الحامي الذي لن يخذلها أبدًا؛ ولكنه كان بطلًا مثاليًا غير أنه لم يكن مثاليًا لها.

عندما أتى لمصرايم مع جدها جزء صغير منه تمنى أن تكون خدعة ولم تنوِ إيف الزواج، لا يمكن أن تخونه مع آخر أو تتزوج منه وهو حب عمرها وعمره، وجزء آخر منه كبير جدًا، أكبر من مجرد الخيانة يريد تصديق كاهانا ليراها.

أراد أن يثق به ليراها، وحدث بعد مشاورة مع النفس طيلة أسبوع وتذكرة سفر غامضة أخذت أسبوعًا آخر على متن طائرة بمقعد كبار العملاء، وأخيرًا الوصول للقاهرة بوقت علم فيه أنها ستزف لعربي بالفعل.

رآها من بعيد وقد كانت فتية، صاخبة مليئة بالحياة، تختلف عن تلك الصورة التي قدمها له كاهانا ليعرفها، لأول مرة يراها تبتسم وترقص يمينًا ويسارًا، تحتضن شخصًا ما غيره واختتمتها بخنق روحه وجعلته يموت إكلنيكيًا عندما قبلته بتملك.

جل ما يؤلمه أكثر أنه لم يفعل شيئًا، إلحاحه على ضرورة الوصول لإيف وتحذيرها قبل أن يصل إليها مائير تبخر بمجرد رؤيتها في حمى بطلٍ مثالي، تقهقر أمامه وتراجع للوراء مُستسلمًا، فما الذي يمكن أنّ يقدمه لها؟ هل سيأخذها لأورشليم حيث المكان الذي يمكن أن يصطادها فيه مائير؟ إن ذلك العربي هو الخيار الآمن لها.

سرح ببصره عندما كانا يعيشان بالقدس وقت غروب الشمس جالسين على سهل عكا حيث يجتمعان دائمًا فيه، نظر للعيون الدافئة كحال روحه التي اشتاقت لرؤيه توأمها، ولامس وجنتيها البيضاء ذات العروق النافرة بيد واليد الأخرى وضعها على قلبه ثم حدث نفسه بقصيدة لويليام شكسبير، فلقد كان وما زال مولعًا بمدحها بقصائده:

ـ من ذا يقارن حسنكِ المُغري بصيف قد تجلى

ـ وفنون سحركِ قد بدت في ناظري أسمى وأغلى

تحدث كاهانا ليصرف نظره عن تلك اللحظة الصامتة بينه وبينها، وذلك الوقت الذي كان فيه الحب شيئًا جميلًا في مكان يعج بالحروب والصراعات:

ـ آسف لأننا تأخرنا بالوصول لإيفت، ولكن الأمر الحسن بأن مائير لم يتصل بها حتى الآن.

نظر إيزرا للجالس بكرسيه المتحرك والمتصل به بعض عقاقيره الدوائية التي تساعده على الصمود للوقت الراهن وود أن يقتله، فهو السبب بضياع إيف منه على مراحل متعددة.

ـ وبماذا يغنيني الأسف؟ لقد.. لا يهم، إن إيف بأمان ولا حاجة لوجودي، سيحميها زوجها أفضل مني.

ـ لا أظن بأن ذلك العربي سيستطيع حمايتها أو حماية نفسه من غضب ابني.

- اسمع يا كاهانا، لقد انتهى دوري الذي لم ألعبه، ولم نجد مائير أو أي شيء؛ لذا سأعود من حيث أتيت.
- وتترك إيف التي تحبها لآخر!

تلك المحادثة الصغيرة كانت لتتحول لعنيفة خاصة أن إيزرا كان على وشك ضرب العجوز وشقه لنصفين، ولكن ذلك التعبير الجديد الذي نطقه غريب، فهو بشكل أو بآخر يحتاجه ولكن لا يفهم بالضبط كيف أو في ماذا يريده؟ هل يتحالف معه لأجل أن تعود إيف له؟

- كلانا نعلم بأن مائير لن يتوانى لحظة عن اختطاف إيف، وحتى ذلك العربي لن يكون عثرة بطريقه.

شهق كاهانا بسخرية وعزة مُردفًا:

- لم يخلق أحد من رجال كاهانا لا يحقق ما يسعى إليه إن أحس بخطر سنزيحه وبسرعة وبضوضاء صاخبة، مائير من الممكن أن يقتله في سبيل إيف.
- أنت تكذب كاهانا، مائير لن يأتي.
- هذا لأنني اتفقت مع يوسف على ضرورة جعله منشغلًا بشرم الشيخ، تأكد من أنني لم ولن آتي إلى هنا من دون ما أحققه؛ لذا اسمعني جيدًا، لقد سمحت لك بأن ترى إيف وتحاول منعها من الزواج ولكنك فشلت بهذا، وبما أنني غير قادر على الحركة ولا حتى التأثير على إيفت فعليك أن تستمع

لي وتنفذ تعليماتي بالحرف الواحد حتى تعود لك وتأخذها وتسافرا خارج الشرق الأوسط.

صمت كاهانا وبدأ يسعل بقوة من تأثير تلك المحادثة الطويلة عليه؛ فهو لا يزال يتلقى علاجه الخاص بسرطان العظم والذي يجعله كتله من الهلام وتكهنات الأطباء حوله لا تفيد ولا تبشر بخير نتيجة لسنه الكبير، ولكنه لا يزال كاهانا بكل قوته وسيظل حتى النهاية، عليه أن يحجم إيزرا عن السفر بأي شكل.

محادثته لتهدئة مائير بدت تلقي قبولًا لديه، ولكن ليس بوقت طويل ففي النهاية لا بد أن تعود الحفيدة لأرضها ولهما. بعد أن هدأ من السعال الشديد بلع ريقه بصعوبة وتابع حديثه:

ـ أعيد ما سبق وقلت لا اعتماد عليك في تخليص إيف، انس عقلك ونفذ تعليماتي بالحرف، سأعطل مائير عن طريقكما وأوفر لكما وسيلة هرب لخارج البلاد، إن الحظ لا يطرق بابك مرتين يا إيزرا، فكر بنفسك تلك المرة، فماذا جنيت من تفكيرك بالآخرين؟ هل وجدت السعادة؟ هل بقيت مع حبيبة قلبك؟ تخذلك عن نجدتها من أوصلنا لهذا الطريق، إن تصرفت بأنانية تلك المرة ستعوض سنين الحرمان، ما رأيك؟

تمتم إيزرا بقلة حلية وشعر بضرورة تسليم عقله ونفسه لهذا الشيطان ولو مؤقتًا، فلا فائدة من التصرف بلطافة وشهامة فارس نبيل لم يحظَ بفرصته وابتسم لتذكره جملتها الشهيرة «**الرجال الطيبون على هذا الأرض يقضون نحبهم بسرعة**»

ـ موافق.



يجد نفسه بمكان قاحل لا يعلم من أين أتى ولا لمن ولا أي شيء، مجرد صريخ وغضب بحاجه لإخراجه منه، سمع من بعيد جدًا صوت فتاة أثارت غرائزه فور حديثها إذ لم يكن مثلها برخامة الصوت ونعومته بآن واحد:

ـ إنه لن ينجو، جدي أفعل له أي شيء.

ـ أعدي النار واتِّ بخنجري، سنكوي جرحه.

ـ سيمت، علينا أن نصل به لأقرب مشفى، ما كان عليّ أن أحضره للجبل... ما..

ـ رحيل، قلت لكِ أعدي النار واتِّ بخنجري، فإن تأخرتِ فسيمُت بالفعل، إما أن تبقى وتنتحبي عليه أو تنهضي من مكانكِ هذا وتساعديني.

وحل الصمت وقتها، كان يحاول فهم طبيعة ما يجري، إنه ضائع ويحارب وحوشًا عيونها تطق شرارًا أحمر وسط البرية، لعله

يهذي، يثور، يهمهم، لعل هذه حالته، يحارب أشياءً لا وجود لها. هل هو بالنار أم الجنة؟

فتح عينه ببطء فالتقطت عيناه صبية حلوة الملامح سرعان ما أخفتها بحجاب أسود اللون، ثم بدأت عيناه تختفي وسط ضباب الفكر وسمع صوتًا:

ـ عمي إنه يفيق، إنه ينظر إليّ.

ـ كلا إنه ما زال في الحمى وسيغفو، هل أحضرتِ الخنجر؟

ـ تفضل يا عمي ولكن بلطف أرجوك.

ـ لا يوجد في العلاج شيء لطيف، إن كنتِ تخافين ارحلي من هنا.

ـ سأبقى معه حتى يفيق.

ـ حسنًا، ساعديني لأضع العصا بفمه.

تحسست أنامل وجهه وشفاهه، أمكنه أن يشعر بنعومتها وبرودتها كذلك، لم يجد مقاومة تذكر عندما فتحت فكه وأقحمت به قطعة مُرة جدًا، ولم يكن به القدرة على لفظها، فكل قواه استنزفت.

ـ وضعتها، ماذا عليّ أن أفعل بعد ذلك؟

ـ من المرجح أنه سينتفض فعليكِ أن تثبتيه جيدًا، بكل قوتكِ اضغطي على صدره.

ودقائق وعادت تلك الأنامل الباردة اللذيذة على صدره، تغرس بداخل تجويفه، ثم لم تعد تلك الأنامل ببرودتها قادرة على منافسة ذلك الشيء السائل الذي يذيب عظمه حالًا.

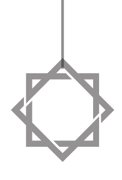
ـ آآآه.

القطعة المريرة بجوفه كادت أن تكسر أسنانه، إنه بالتأكيد في النار يتعذب وذلك السائل الحارق على جسده وسيلة من وسائل التعذيب.

هل هو ميت أم حي؟

وأي علاج هذا؟

عاود صريخه بصوت أقوى بكثير عن تلك المرات المعدودة التي نطق بها بصريخٍ من الأعماق.



# الفصل الثالث والعشرون

بدل ملابسه سريعًا وغسل وجهه وأسنانه، دقائق وارتكزت عيناه على تلك المرأة بانعكاسها الممل بهيئته، ثقته المعهودة والملوحة بعيونه البنية الكاسرة لم تعد. كيف نسي كل شيء؟

هل بسهولة سيأمن لها أو يتخطى فكرة أصلها وما تكون عليه طويلًا؟

هل بسهولة ينسى المرارة التي أحسها وقت أن تخلى عن حلمه بسببها؟

ندم، غضب، حب؟!

هل يمكنه تصنيف تلك المشاعر وتحديدها؟

هل يحبها أم مجرد شفقة ممزوجة برغبة ريثما تنته ستدير لها ظهرك وتتخلى عن مسؤوليتك تجاهها؟

زفر الهواء بعنف واتجه لصالة الشقة التي استطاعت أنعام تجهيزها بشهر بلا كلل؛ ففي النهاية كانت مرتبة له كالعش الذي تحلم به لزيجة ابنها غير أن الزوجة لم تكن كما تحلم.

ـ أمير.

تصلبت عضلاته وتيبس جسده، لماذا يتصرف بتشنج وغباء كلما سمع اسمه ينطق بهذا الكم من الدلال والميوعة مما يمكنه من غواية نفسه؟!

نظر ليجدها واقفة بقميصه الأزرق الفضفاض على جسدها الضئيل تُردف مُقتربة منه:

ـ هل لديك فكرة عن ما سنفعله؟

ورشقت بأحضانه ناظرة إليه بوداعة القطط، إنها مخلوقة عجيبة التركيب، نمر أم حية أم حورية أم قطة أليفة؟ أم أنها تتحول وفق الظروف وحيثما يتطلب منها كالإنسان الآلي!

عقدت ذراعيها خلف عنقه وقالت بغنج:

ـ لماذا لا ترد؟! عن نفسي أنا أتضور جوعًا.

كالثمل من سحرها شعر بالدنيا تدور به مُجيبًا:

ـ لا تلعبي بيّ بتلك الطريقة.

ـ طريقة ماذا؟

أحس بأن هناك زرًا للتعقل انطفأ وهو يستغرق بدراسة تفاصيلها، خصلات شعرها الذهبي القريب من وجنتيها، وعيونها

الهادئة، أو بشرتها وعنقها المتدفق منها عروقًا زرقاء نافرة، زفر الهواء بصعوبة مُبتعدًا:

ـ بدلي ملابسكِ، سنتناول الفطور بالخارج.

ـ سأنفذ كل ما تريده بشرط أن تنفذ ما أُريد!

عليه أن يتجاهل النظر إليها وهي بتلك الحالة التي يرثى لها من تجاهلها لألمها وكدماتها ويساعدها، فكل من تعرضوا للتعذيب الجسدي والاغتصاب بالصغر يخلقوا معتلين الفكر كما قرأ وعلم حالتها.

ـ أمير، تعال إليّ.

بلع ريقه بصعوبة، كيف يتصرف بتلك الأمور التي تستدعي رجلًا مهنيًا وذو خبرة، الانجراف وراء ما تريده إيفت سيسوقها للتهلكة قبله، وخاصة أنها أكدت بمذكراتها أنها منذ أن رأته وهي تتصرف بغرابة وتكاد تقرب للجنون.

ـ ألم نتفق على أن يتم علاجكِ باتباعك لكلامي.

ـ لا حيلة لي أمامك.

ـ أعلم بأنه ليس بيدكِ، ولكن عليكِ أن تجدى الطريقة المُثلى للشفاء. أنا في موقف لا أُحسد عليه، فإطلاق عنان مشاعري معكِ سهل، ولكن معالجتكِ والتحكم بها هو الصعب.

صمت لبرهة مُفكرًا في وجوب وضع النقاط فوق الأحرف وإن تطلب الأمر ضربها، من الأفضل الأذية بالصفع عن الأذية بالروح.

ـ أنتِ لستِ مطالبة بالترفيه عن أي شخص، لم تعودي ذلك القرد المسلسل بغرفة الخزانة، استجمعي قواكِ وواجهي مشاكلكِ، لا تهربي من سيئ لأسوأ.

وجرها صوب الخزانة لينتابها صريخ وبكاء هستيري لتحول المشهد بعينها للماضِ، هي بظلام الخزانة وأشباحها، فتح بابها فارتعدت فرائصها للخلف وظلت تتأسف للواقف، ولم يرد بل انحنى ليحل قيدها فشكرته وظنت أنه سيخرجها من هنا للأبد، ظنت لمرة واحدة أن هنالك شخص بقلبه الرحمة بتلك المزرعة الملعونة، ولكنها رأت معه يهودا بأسنانه السوداء الكريهة من آثار السجائر يقف ويحيها بنظرات مقرفة، حاولت أن تجد مكانًا للهرب ففضلت البقاء بمكانها سامعة إياهم يخبروها بإعفاء أبيها لها.

صرخ أمير بعنف مرة أخرى ظنًا بأن الخوف أكثر علاج شافي لها:

ـ سأتركهم يأكلوكِ مجددًا إن لم تسمعي كلامي وتواجهيهم!

بينما إيفت لم تبدِ فعلًا سوى التذكر والصراخ بألا يأخذوها كما فعلت وهي صغيرة حيث بدأ أصحاب أبيها من التململ من موقفها المتعند فأجبروها على الخروج من مخبأها بالقوة، وبثوان قليلة ألقوها على الفراش وقاموا بربطها وظلوا يتمتمون أمامها بأنها السبب فيما سيحدث لها لأنها لا تسمع الكلام، وقتها صرخت بهستيريا لأبيها الذي لم يفعل شيئًا سوى أنه رمقها بنظرة باردة وقد

قال لزميله بأنه سيكون التالي. لثلاثة أيام متواصلة ضربت، أهينت واغتصبت وهي عاجزة عن الرد.

أمير يذكرها بما لم تنسَه من الأساس، لا تريد المواجهة لأن أي مواجهة تعني السير بدرب ألم لا ينتهي ولا يُنسى.

ـ اهدأي فلن أتركك، أريدكِ مطيعة فقط.

ظلت تصرخ عندما تذكرت تلك الكلمات ليحاول أمير تهدئتها بعد أن شعر بأنه تمادى في وضعها بمواجهة لم يحل أوانها بعد، دفعها على صدره محاولًا التحكم بحركتها السريعة والخائفة، وملس على شعرها وتحدث مجددًا يحاول تطمينها:

ـ أرجوكِ اهدأي، أنا معكِ بهذا حتى النهاية، فاهدأي.

كان يشعر بها تبعد وجهها عن رؤية الخزانة وتخدشه بمحاولة للدفاع عن النفس، فما زاده إلا احتضانًا لها وهمسة كل فنية وأخرى بالهدوء وانتهاء الأمر، وبعد دقائق من احتوائه لحركتها المندفعة، وسيل بكاؤها القوي، هدأت وتراخت مقاومتها حتى شعر بأنها أصبحت بيده قطعة من هلام.



يعلم نفسه بنفسه جيدًا، لا يحتاج لأي شيء من أي شخص، ولكن تفاعله والهجوم البشع لحالة الانشطار مع ريتشيل كانت شيء لا يعلمه، دفع بكل خططه بتجنيدها واستغلالها في الهواء.

تمتم بصوت منخفض وهو ينظر لوجهها المتشكك الحائر الفاقد لسيطرة التفكير ربما:

ـ أمير لم يحبكِ مثلي، اتركيه واتركِ نفسكِ لي.

حالة من التعصب، ربما الكره، ربما التمني لأجل أن يعود الزمن ويتوقف عند تلك اللحظة اللعينة التي وسمت قلبها بحب لا طائل منه، هكذا كانت تفكر وهي بأحضان يوسف، هل تستسلم لأجل أن تشعر بنظرة لم ترَها بعيون أمير؟ إن فعلت فلن يكون هناك مكان للرجوع، على الأقل تمتلك الآن جهاز تحكم بالزمان.

دفعته برفق:

ـ يوسف، من فضلك، اتركني.

تحدث يوسف بصوت مخيف وباقتضاب:

ـ أبدًا.

ـ كفى.

قالتها مرة واحدة وبقوة كبيرة، فانسحب يوسف على الفور، ظل يتنحنح ويعدل من هندامه، لا شك بأنه أصبح مختلًا عقليًا بنظرها وإعصار فاقد للقدرة على تحديد هدفه داخل نفسه.

تحدث بحرج مصطنع:

ـ من الصعب الوقوف كالصنم أمامكِ، اغفري لي تصرفي الفائت، فمشاعري كانت أقوى مني.

نظر لكتابها المقدس بازدراء وأكمل:

ـ عليكِ بشكره، لأن الشيطان القابع بداخلي أسوأ مما تتخيلين، وكان يريد أذيتكِ بشدة لأنكِ تتحرشين به.

أجبرته نفسه على التظاهر بأنه لا يعرف كيف ينظر لوجهها لشعوره بالخزي، وبغمرة هدوءه الوقتي تذكر للتو بما تفوه به، لقد طلب منها الغفران!

تحرك بسرعة إلى الخارج دون كلمة، وريتشيل مدهوشة. رن صمت طويل تبعه تصفيق الباب بقوة مما أثار استغرابها حول يوسف، كيف تكون لديه تلك القدرة على احتواء أفكارها المضطربة بثانية واحدة، وبالتالية يخرج مسرعًا من حياتها وكأنه يتعمد تعذيبها بطريقته الغامضة!

نظر يوسف بركاب الأناس المتحركين، الكل يمر بطريقة بطيئة جدًا بعينه، والكل أسود اللون في نظره، من يمسك المسبحة ويتمتم بصوت خفيض، أو ذلك الرجل أمام قهوته الذي يرش الماء بقارعة الطريق.

وصل لمكان خالٍ من الناس بعد أن ابتعد بسرعة البرق عن ريتشيل وكل منطقة أهل الخان، يفكر، ما هذه التصرفات المرتبكة والغريبة عليه؟ كيف يطلب الغفران وهي التي من المفترض ووفقًا لحساباته ستطلب منه الغفران قبل أن يقتلها؟! كيف استطاع أن يثور مشاعريًا بركانيًا عاطفيًا بلحظة ضعف معبأة بالغضب؟!

كيف استطاع أن يخن ذكرى جيليلا الجرداء بنبتة ضئيلة الحجم تدعى ريتشيل؟

أغمض عينيه عله يمنع موجات الأنين من التصاعد داخله وقتله بسيل مائي، استنشق الهواء وتمتم برفق قصيدة سمع أجزاء منها لتصبح منهجه بالحياة، لعله يستطيع انتشال نفسه من تلك المشاعر العبثية الإنسانية:

«**سيأتي اليوم وتغرس حد سكينك بعنق أخيك ابن أمك، كأنك تذبح خنزيرك المفضل بعيد القيامة، وسيكون رنين أنَّات موته مثل الموسيقى أو المهرجان في أذنيك المتلهفتين.. يا يوم الثأر.**»

فتح عينيه المغرقتين بدموع الأسى على حال الذات المنكسرة وليدة سنين من نار جيليللا لم يستطيع أحد اطفاؤها، ولم يجد ما يشبع ثأره فعليًا منها، غير أن النبتة وأريجها الشجي تفوح بعبيرها من آن لأخر لتذكره:

(**على يد أجدادها تأججت النار وعلى يدها ربما تنخمد**)

نظر للسماء بتحدٍ وكرر السؤال بمنتهى الوقاحة المستفزة:

ـ لماذا أخذتها وآلمتني بهذا الشكل؟! لمَ حولتني لشيء يصعب اجتثاثه؟!

تابع حديثه باشمئزاز:

ـ كلانا يعلم بما يجول بنفس الآخر، أليست هذه عقيدة المسلمين؟ إنك تعلم ما في القلوب، إذًا تعلم ما أود قوله لك، تريد تعويضي بها، تريد تكبيل شيطاني بملاكها! اعلم أنني لست بحاجة لهباتك، وسآخذ حياتها وحياة كل من

يعترض طريقي، ولن يمنعني أي شيء على سطح الكرة الأرضية.

وضع يديه بجيبه ونظر بطريقه، سيمضي ليفرض عليهم جميعًا طريق الألم كما فُرض عليه بلعبه القدر، غير أنه نسي – في ظل وحشيته المتنامية – شيئًا:

لا شخص ولا عقل – مهما كان ذكيًا – يقدر أن يتحدى القدر، كما لا يقدر أحد أن يتحدى نبتة الحب بشوكة الكُره والحقد؛ فكفتهما لا تستويان.



وقفت تحت صنبور المياه وظلت تهذي وهي بحضنه تبكي، لم يستطع أمير أن يفعل لها شيئًا سوى التنفيذ والذنب يأكله ويأكل جهازه العصبي بسرعة الضوء، والغريب بحالتها المتغيرة أنها لا تبعد عنه، قرر أن يتركها تأخذ حمامها بمفردها، فتحرك صوب الباب فاستوقفته بعيون غائرة هاربة حزينة:

ـ لا تتركني، لقد أقسمت لي بأنك لن تتركني.

ظلت تكرر الحديث مرات ومرات وبنبرة تصاعدية وكانت على وشك الصراخ مجددًا،، فهرول مسرعًا ناحتيها واحتضنها كي لا تصرخ مجددًا، تمسكت به بقوة ودفنت رأسها بصدره ليتحدث أمير ناظرًا إلى السقف :

- أشعر بكِ، أشعر بأنكِ تحاولين إطفاء ما حدث وتلغينه من ذاكرتكِ، ولكن ما حدث حدث، وعليكِ أن تركزي طاقتكِ في الخروج منه، سأحميكِ من الآن فصاعدًا، وعليكِ تعلم أولى دروس الحياة الصحيحة.

تنتفض وتهذي بصوت مسموع:

- لقد انتظرتك، لا تعلم كم انتظرتك!

حدق بوجهها الباكي والمغرق بالمياه، شاعرًا بحزنها وآلامها، لقد سلبوها الحق بأن تكون إنسانة، وها هو يسلبها الحق في أن تكون حيوانة؛ فماذا ستكون؟

عندما تشذب طرف لأجل الطرف الآخر ينمو بعيدًا عن تأثيره الضار، ترى هل سيعيش؟

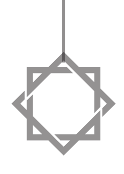
- ستعودين إنسانة وستتعافين وتصبحين لي.

دمدمت وهي تبكي مجددًا:

- أريد أن أموت، لا أريد أن أعود، إن عُدت سيعود هو، وإن عاد فسأطلب منك أن تقتلني لأنني أجبن من ملاقاة الماضي وملاقاته، وأجبن من اتخاذ قرار ملاقاة الموت بنفسي.

قبلها على رأسها وأحكم قبضته الحانية عليها ليجيب بصدق نابعٍ من قلب يتمزق لأجلها:

- حاولي مهما حدث لكِ ومهما وددتِ أن تكونيه، كوني الحياة.



# الفصل الرابع والعشرون

أنت لا تعلم كيف أو متى تحب أو تكره؛ ولكن تتلاحم مشكلاتك ومشاعرك معًا، تجد نفسك تحب وتلعن حبك وتحمل القيم المتناقضة. تجد! بل لا تجد، أنت تدور بمحنى عابث به مئات الأسئلة عن الحياة والكون ونحن دون أن تصدها بإجابة واحدة.

هل الكون كبير أم أنت فقط الصغير؟

انسى هذا السؤال.

هل الحب كبير أم أنت فقط الضئيل؟

انسى هذا السؤال أيضًا.

هل المشاعر تحيي الإنسان أم أنت فقط الذي تعيش؟

لا تنسى هذا السؤال.

كانت أكثر من طيعة، امرأة مدمرة، هكذا يمكن وصفها بدقة، مطعونة الشرف، مسلوبة الطفولة، تتصرف بعدوانية لأنها

بنظر البشر مجرد امرأة فراش، تغلف نفسها بقناع الدفاع لأنه أفضل من الهجوم.

جففها بالمنشفة وهي تقف ببلاهة وببلادة مطلقة مُحدقة بالجدار وكأنها تكتشف وجوده لأول مرة، تسمح له بإلباسها روب الحمام ودون رده فعل تذكر. وأمير ينظر لحالها مُفكرًا، هل يُحقق كُتيب الأمنيات؟ أم يدعها ترتاح فقط لهذا اليوم؟!

همهمت بصوت خاوٍ:

ـ أنا متعبة، أريد أن أنام.

ـ ستنامين، ولكن قبلها سأحضر لكِ كوبًا من الحليب الساخن ليساعدكِ على النوم.

أجابها وهو ينظر لملامحها الشاردة والغائبة بمكان ما، لمَ الآن تظل بتلك الحالة الميؤوس منها؟ هل عليه أن يضربها لكس تعود صاحبة الروح الانتقامية؟

خط مستقيم لا ينثي، لا يتحرك، حتى ممثلًا بشفاهها الباردة وعيون غائرة ليست بها أي صفة من الحياة، بل تحتها بدأ يظهر خطوط الإرهاق المثيرة ليستعرض بقوته على تدميرها، بل يستعرض هيمنة أشباحهها عليها، وبلحظة واحدة من سكونها، وريثما أنهى أمير حديثه رفعت حاجبًا واحد وأثت ميسمها بنصف ابتسامة، بينما عيونها برقت بسيل خفي من الدموع:

ـ ولوح من الشيكولا كما كان يجلبها إليّ، كانت أفضل لحظات حياتي.

وأغمضت عينيها وحركت رأسها يمنة ويسرة مدندنة بلحن مكسور وغير واضح كأنها ذهبت بروحها لمكان بعيد، ولم يبق سوى جسدها بتلك الغرفة.

لم يفهم منها شيء، من تقصد بالضبط؟ ولماذا تتصرف هكذا؟ لقد توقفت قدراته على تفسير المواقف من بعد ما حدث أمس والصباح الباكر، ولكنه أجاب وهو يمسك بكفها بين راحة يده، يستحضرها لأن تكون معه:

ـ سأحضر لكِ ما تحبين شرط أن تدعيني أغير ملابسي المبتلة وآتي بجواركِ.

بنفس خارت قواه توقفت عن الدندنة، وفتحت عينها ودقائق وبحركة هادئة ثبتت فجأة عليه، مما أفزعه قليلًا، فعلى ما يبدو انتهت من التحديق بالحائط فور أن شعرت به يبتعد:

ـ لا تتركني.

وبدا له بأنها ستصعد من نبرتها ليواجه نفس المشكلة من جديد، فأسكنها بحضن دافئ مهدئًا من روعها.

ـ لن أتركك أبدًا.

تمتمت بصوت متحشرج متشبثة به:

ـ إنه ينتظرني، يريدني، لا تتركني بمفردي معه.

وأمسكت بتلابيب قميصه المبتل، ولم تفعل شيئًا سوى أن تظل شاخصة ببصرها بعيدًا، حيث ذلك القرين الخفي يتلبسها.



أعطاها كوب الحليب فتجرعته مرة واحدة، وكأنها بحاجة لمهدئ طبيعي وضعته على الكومود وأجابته بابتسامة لم تخصه بها:

ـ شكرًا لك.

لاحظ شاربًا أبيض اللون من الحليب أعلى شفاهها فمد يده بتردد:

ـ هنالك شيئًا أعلى فمكِ.

لمس بشرتها الناعمة مجددًا لتعود إليه النار وتمسه بسائر جسده، لماذا لا يصنعون زرًا للرغبة بالعقل، يجعله منطفئ ليساعده على التصرف بآليه نافرًا منها.

من قال على الرجال أنهم جبابره يكذب حتمًا، فالرجال ليسوا «**الرجل الخارق**» لديه القناع الحامي له من أي مكروه يصيبه نفسيًا أو جسديًا، بل إنهم مثله الآن يحاربون جيوشًا من المشاعر وكلها تصب بأرضٍ واحدة ولغرضٍ واحد؛ إنها عطشى تحتاج لتروي النفس بكماليات الحب الحسي. اقترب منها ببطء كالمغناطيس الذي ينجذب بسهولة لقطبه الآخر، جذب انتباهها فورًا عندما تواجها بدون كلام، لأن لا شيء قد يقال بلحظة ضعف

أو رغبة، فالكلام يجعل العقل يفكر بترجمة ما يعتمل بداخل الإنسان ولا شيء يعتمل بداخل أمير سوى نار لا تنطفئ أبدًا.

كيف يمكن أن يتحول المرء من ليلة وضحاها؟

هل التغيير موجود فينا ولكن يحتاج لحافز قوي؟!

الخوف أكبر حافز للبشر!

الخوف على الأحبة هو من غيره!

لكم كان تافهًا وسطحيًا لا يرى سوى أبعد من أنفه، لا يرى سوى مغامرة كمثل رأفت الهجان.

بينما إيفت قبلته على حين غرة مُتمتمة بهدوء:

ـ أحتاجك، أريدك، أنت من تسعدني بحق.

الآلالم تتملكها وهي تود الهرب منها لقبضة العشق!

كل محطات حياتها عبارة عن ألم يتغير بتغير الأشخاص، ولكنه لا يزال ألم، وهي لم تفعل شيئًا، حتى دفاعها ضعيف، تريد فقط أن تتكيف مع الآلام بالسعادة واللذة. والحقيقة الكبرى التي أخفتها ببراعة أنها طفلة ضعيفة صغيرة منتهكة بأقصى وأبشع وسيلة، خائفة من الوحش الذي يتربع بالخزانة، يتربع بالأصفاد الحديدية، يتربع بين أحضانهم جميعًا.

ـ لا تحاول إنعاشي إنني محترقة، ميتة، ارضِ رغبتي، ارضِ جسدي.

ـ حورية، أرجوكِ.

ـ أنا خائفة من الحياة.

نهض أمير من مكانه محاولًا الابتعاد، فتحركت صوبه مرددة نفس كلماتها وكأنها أصبحت مسجل به شريط مملًا لا يتغير.

ـ لا تتركني، أنا خائفة.

وشعرت بالدوار الشديد فجأة فألقت النظر لكوبها وكان بقاعه قرص لم يذب بالشكل الكافي.

ـ آسف، ولكنه لمصلحتك.

حركت يدها أمامها تستنجده ألا يتركها حيث أن خوفها زاد وهي لا تملك القدرة على الركض، بل كانت أشبه كالسمكة، رخوة للغاية وتسبح ببحر ضحل، استسلمت لأن تسقط بفراشها شاخصة ببصر شحيح نحو أمير الذي كان يقترب منها ليحتضنها مُجيبًا بعمق:

ـ تعلمي، عندما تشعرين بالخوف، بالرهبة من الوحدة والوحش، أن تتنفسي جيدًا وأغلقي عيناكِ، خذي أنفاسًا عميقة وزفيرًا أعمق، ضعي يدكِ على صدرك هكذا، تحسسي مكان قلبكِ لتسمعيه ينبض، وقتها ستعلمين بأنه يدق ليخبركِ بأنكِ لست وحدكِ وأنا هنا أعيش لأجلكِ.

أومأت برأسها وتنفست بثبات عندما أحست بدقات قلبها تفتعل الضوضاء لإبقائها تحت سيطرة الطمأنينة، ثم غابت بهذا الشعور إلى اللا نهاية.

قبلها أمير على مفترق رأسها وتنفس عميقًا عبر أريجها مُتمتمًا بهدوء:

ـ أتمنى أن تحبيني وفقًا للعشق نفسه دون أن يكن ما يشعركِ تجاهي رغبة مريضة، وحتى ذلك الحين؛ سأنتزع ذلك الطيف الضار المستوطن بكِ.



لا ينفك طنين الهاتف عن إزعاجه، يعلم بأن ترتيب خطته الإرهابية على وشك الحدوث، صحيح بأن خطته تأخرت وأنه فقد ذراعه الأيمن شهاب ولكن التأخير مفيد، يجعله يراجع الحسابات لديه بكل دقه حتى لا يخطئ.

أما شهاب ففي كل الأحوال كان لا يمكن ضمان بقاؤه تحت سيطرته، من الجيد أنه تخلص منه وأن لديه بدلًا من شهاب ألف شهاب، وكله بفضل عقله الألمعي.

«**الرابح بعقله وحده رابح للنهاية**».

شعاره المثالي لحياته كلها.

أشعل لفافة من السجائر، كان بحاجة لها، فهو لم يدخن منذ فترة كبيرة، منذ أن بدأ علاقته الضئيلة بريتشل وهو يحافظ على رائحة فمه من آثار السجائر، ذلك لأن تلك اللعينة العربية تقلق بشأن صحته وتؤنبه عندما يدخن، وكأن التدخين مرض، وكأن الابتعاد عن حرق صدره سيشفيه!

ألا تعلم بأنه يحرقه راضيًا؟! يريد السرعة في إنهاء وظيفة الرئة، أن يغيثها بالسموم حتى يموت كل عضو بجسده طالما لا

فائدة من وجودهم وقلبه مات منذ زمن. هل تعلم بأنه عندما ينتهي من دور عميل الموساد سينهى حياته وبإرادته؟! طالما لم يحرق نفسه بالشكل الذي يمكنه من أخذ تذكرة الموت وبسرعة.

فتح الهاتف بضيق دون أن يرى المتصل، لعله أحد جواسيسه يخبره عن آخر تطورات مائير المحبوس بشرم الشيخ بسجن من الجواري والمخدرات لعله يحل عن رأسه.

ـ نعم، ماذا تريد أيها المزعج؟ الأفضل أن يكون خبرًا ذا قيمة وإلا فلن ترى مني قرشًا واحدًا.

ـ يوسف، أنا ريتشيل.

صمت قاتم بل مظلم، أحس بقفصه الصدري يضيق عليه، ربما السبب في استمرار وجود اللفافة بين شفتيه، أمن الممكن أن يهدأ ويظل ساكنًا أم يغلق بوجهها الخط ويقفله للأبد؟!

المقت؛ ذلك الشعور الأقوى من الكراهية، يصبغ بألوانه السوداء على نفسك وللأبد، عليك فقط بالتعايش معه، أن تقتله إن أحببت، إن تصهره فيكن وجهًا لك، يكن أنت.

هل يمكن للشيطان أن يحب؟

هل يمكن للحب أن يجعله يتوب؟

والأهم، هل للشيطان قلب؟

ـ يوسف، هل تسمعني؟

ـ أسمعكِ، ماذا تريدين؟

العملية هي الأسلوب الأمثل دائمًا، الاختصار لغلق تلك الأحاسيس البشعة المتصارعة خلف قناعه الهادئ، لتبقى بعيدًا عنه فيكفيه ما فيه من مآسي ولا يجب إضافة جثث لمشاعر تتحارب معًا.

جاء صوتها مرتبكًا، ألم يقل أنها الأسلوب الأمثل:

ـ أنا أتصل لأجل أن أراك.

سحق بل صعق.

اقتحم شعورٌ ساحته الفياضة بصحراء القلب فأربكه، لأول مرة يرتبك بل يقلق، أهذا هو الشعور الذي سحق كل جثث مشاعره الأخرى؟! القلق مما تريده فيه، القلق من استجابته لدعوة صريحة منها بالاقتراب أكثر.

من الأفضل أن تهرب لو كان بها عقلًا واحدًا، ولكن على ما يبدو كل ما في عقلها مجموعة من المهلبية، غبية حمقاء عربية جذابة.

ـ لمَ؟ أنا لستُ بالخان، لقد أغلقته.

ـ أعرف أنك خارجه، أنا أراك أمامي الآن.

انقبض قلبه بعنف فور تلك الجملة، وبحث بنظره عن من حوله فوجدها تقف بهاتفها على أذنها مقتربة منه ومُحدقة به.

ـ كيف أتيتِ لهنا؟

قالها وانزلقت اللفافة عن شفاهه من فرط الصدمة والضيق والتصميم، دونًا عن كل العالم يجد نفسه أقل البشر وأكثرهم غباءً من الحيوان بتلك اللحظة.

ـ لقد كنت أراقبك بالخان، وعندما أنهيت العمل تبعتك وأنت لم تشعر بي.

حديثها التلقائي أطلق فيه سيلًا من التهكم والضحكات المريرة، فهل انقلبت الأدوار، أصبحت من تتبعه ودون أن يدري؟! لعل استغراقه بطرد أحاسيسه هي السبب لوصولها إليه بتلك السرعة والسلاسة.

وضع الهاتف بجيبه وأشعل لفافة أخرى غير مهتم بتعليقها واستنكارها الواضح، فأسكتها بجملة خرجت من فمه بطريقة غامضة وباردة:

ـ سوء فعلتِ، من الأفضل ألا تسعي ورائي أبدًا؛ فأنا شيطان من يسعَ ورائي أجره لجهنم.

السوداوية والحقد والغل المسيطر على ملامحه وهو ينطق بتلك الكلمات أصابها بالفزع، شعرت باضطراب معدتها فور أن مزقتها بنظرته الحادة قبل أن يغلق نصالها بجفونه وهو يشيح بوجهها بعيدًا عنها زافرًا الهواء السام من خياشيم أنفه، لماذا ركضت خلفه إذًا طالما شعرت بالقلق منه؟ لماذا هي هنا؟

الانجذاب وراء هذا القناع أمامها السبب، ذلك القناع المكون من الذكاء الحاد والقسوة المبطنة والتي تبدو ظاهرة جلية بحالاته العصبية، هما عنوانه دائمًا والجاذبان دومًا.

يتلاعب بها بالكلمات تارة، بالأفعال تارة، بالحقيقة الملونة تارة أخرى، دائمًا يصف نفسه بأنه شيطان ولا تبالي فكيف يمكن لشيطان أن ينمو ليصبح شابًا بعمر الزهور، فالشياطين لا تكبر بل لا تتطور، وإلا ما كانت لتسمى شياطين؛ كالنبتة الشيطانية أنت لا تعرف من أين أتت ولا كيف أصبحت هكذا. ألم تكن كذلك يومًا ما غير أنها اتعظت وروت نفسها بالإيمان لتصبح شجرة مليئة بالحب!

سألته متشككة؛ فهي تحاول استكشافه كما استكشفها، خطوة قد تدخلها غياهب غابة لا تخرج منها بشيء سوى صدى فارغ لذكريات مظلمة:

- يوسف، ألم تتب بعد؟ ألم تتعظ؟!

لاحت نصف ابتسامة تزين شفاهه وأعطاها نظرة مريبة قبل أن يخفض ببصره للأرض:

- يوسف لا يتفضل بالتوبة، يوسف يتلذذ بالخطايا السبع، لقد فعلتها كلها ولم أجد أروع من هذا الشعور، التحدي، فليحدث ما يحدث، أنا حي وسأخطئ مجددًا، ولا أفضل من تعدد الخطايا وسماعها مرة تلو الأخرى.

صمت لبرهة ثم أكمل وهو ينفث سجائره بعيدًا عنها بصوت يتلبسه كلما شعر بنفسه على شفا الهذيان:

- يوسف قلبه غاضب، يوسف قتل، يوسف حسود، يوسف كذب، يوسف جشع ورغب، يوسف يئس.

حدجها بنظرة أحستها ريتشيل استعطاف أكثر منها تهديد:

- يوسف فعل كل هذا، أهربي منه إذا كنتِ تخافين على حياتكِ.

ثم صمت.. صمتًا طويلًا داخل نفسه أيضًا لالتقاط الأنفاس ولإلقاء الأفكار، فكل وقفات الصمت بحياته لم تكن سوى وسيلة للتفكير، للتمثيل ربما، سرح لأول مرة ذهب فيها للجزء المظلم من المزرعة، ذلك الجزء الخاص بجده فقط، أطلقوا عليه هذا الاسم نسبة لعدم وجود أعمده إنارة فيه، فهو عبارة عن مستودع للقمح متطرف عن بقية الأراضي، ذهب وجده إليه، كان به زنزانة كبيرة فيها سجين ما عربي ومكتب صغير موضوع عليه خريطة للشرق الأوسط، بجانب شخص لا يتذكر هيئته ولكن يتذكر قرفه واشئمزازه من وجوده بينهم، فكيف سمح لكاهانا أن يلوث الكوخ الخاص بالتخطيط لعملياتهم به وكاد أن يطرده خارجًا فور دخوله، ولكن كاهانا أشار له بأنه سيكون عميلًا جديدًا للموساد، وقتها تفحص فيه قليلًا ونظر له بابتسامة غرور، ثم مل من رؤيته وبدأ يتحدث مع جده عن خطة ما يجب أن يضعوها.

كان ذلك هو اليوم الذي تحول فيه يوسف من كائن رخو مكلوم لصلد مقهور، أول يوم يعرف فيه الخطيئة الكبرى، خطيئة القتل.

ـ التوبة مفتوحة لأحباب الرب دائمًا.

تعليقها زاد غضبه ونفوره المتلاطم، فنزع اللفافة وألقاها بعصبية بعيدًا، إنها فعلًا تفكر بالمهلبية وليس العقل، أمسكها بين ذراعيه وزجرها بقوة:

ـ ألا تفهمين، ألا تعقلين يومًا، إن ظللتِ تنادين بهراءٍ كهذا، سأريكِ البؤس بحق!

ـ داخلك حيّ، بداخلك طفل يشتاق للتوبة، وإلا لِمَ تحتمل هرائي هذا كما تقول؟

قالتها بشجاعة تحسب لها، غير مهتمة من عنفه الذي تختبره لأول مرة والذي كان جليلًا عندما هزها بعنف متشدقًا بكلماته المسمومة:

ـ كنتِ وسيلة لتحقيق غاية ولن أتمادى أو أسمح لكِ بالتمادي أكثر، تبكين حبيبكِ القذر العربي أمير، لو تعلمين ماذا فعل حتى الآن لبصقتِ بوجهه ولكنتِ انتزعتِ قلبه وتناولتيه بسعادة، لكنتِ انتقمتِ، ولكنكِ بدلًا من هذا انتحبتِ وبكيتيه بدير الراهبة مع أصدقائك السخيفين مثلكِ!

صمت لبرهة ولاحظ تقوس حاجبيها ولمحه الألم تطوف بجبهتها فتذكر للتو بأنه يضغط عليها بقسوة، فتابع وهو يدفعها عنه بقوة مشمئزًا:

ـ أكرهكِ لنفسي.

حدقت به وكل أسئلة الكون لا توازِ ذلك السؤال الأكبر بيوسف، لمَ يبدو الآن أكثر جاذبية عن السابق وكأنه أصبح بحد ذات كوكبًا يجذبها لتستقر بجانبه، أربأ بها الهرب فعلًا، ولكن ما العمل وكل مفاصلها مرتهنه بأمر لذلك اليوسف بأن يفكها بالبوح أكثر بمكنوناته، بل بمكنوناتها.

ـ أنا لا أفهم.

قالتها بتجلجل سرعان ما توقف عندما تحدث يوسف بشراسة تعادل شراسة نظراته لها بتلك اللحظة:

ـ لأنكِ لا تفكرين أصلًا، أنتِ نكبة والأمر المقيت أنني من جلبتها لنفسي، أنا لستُ مسيحيًا ولا أؤمن بأي شيء، أنا كافرٌ وسعيد بكفري.

ـ ماذا.. تقول؟!

ـ توقفي عن السرد المتقطع كالببغاء المعتوه، سأشرحها لكِ بطريقة أبسط بكثير، من تعبدين أنا أرفضه، وأكره بحياتي شيئين، واعظة دينية بائسة مثلكِ والعرب، أكرهكم جميعًا.

أشار لها بيديه وأكمل:

ـ من تناشدين خذلني، من تبغين رضاءه أخذ مني حبيبتي وأضاع رضائي، أخذها مني، أخذتِها مني.

صمت لوقت أحسه طويلٍ ووقتها راجع فيها أفكاره والتي لفظها خارجه، لقد جن كاملًا، كيف استطاع الثوران بتلك اللحظة، أهي وليدة ضغط استنفذ قدرته فانفجر أم لم يستطع احتواء إعصاره فأطاح بها بلحظة؟!

اختلس نظرة لأثر الكلمات اللاذعة على سيماها فبدت مصدومة، مشدوهة، لاحت عيونها الجاذبة أوسع وتفتحت حدقتيهما السوداء لاستقبال الخيانة، ثم لاحظ شفاهها وقد تبادر بذهنه ذلك الوضع الذي أقدم عليه منذ أيام بطيئة كالسلحفاة بمرورها. إنه يتصرف كما لو كان لأول مرة يجند ويخطئ بحياته العاصية بالفعل، الشراهة تملكته على الفور وهو يتحرك ناحيتها بشكل أفزعها ليحاصرها بين ذراعيه وتمتم مستنكرًا لنفسه فرط مشاعره الهوجاء:

ـ أتحبين الشيطان لهذا تبعتِه أم تريدين إلهاء نفسكِ بإنجاده؟!

رفرفت أهدابها بحركة سريعة عندما لاحت ابتسامة شريرة على ثغره وهو يتحدث.

«**الهرب، البقاء**»

كلمتان ترددت بذهنها مصيبة إياها بضمور عقلي وانفتاح قلبي لأن تختار وفقهما.

ـ الشيطان بجذوره ملاك، أنا أحب الملاك فيه لهذا تبعته، أريده أن يعود للنور ويهرب من النار!

ابتعد عنها من فوره وضحك ضحكًا شديدًا ومريبًا، حدقت به ولم يصبح عقلها وحده غير قادر على الفهم بل كيانها كله.

تنفس تنفسًا عميقًا وهدء بعد ضحكه، ثم نظر لها وكأنه يتحول فلقد غدت سيماه قاسية ثانية، وقال بعمق وبصوتٍ راعدٍ أثير:

ـ من يتبع الشيطان ظنًا، بأنه ملاك فقد وهم وفُتن، لأن الشيطان هو من صوّر له كذلك ليوقعه بفخه ثم يتخلى عنه.

انحنى ناحيتها لامسًا شفاهها وتحدث مخرجًا زفيرها فيهما:

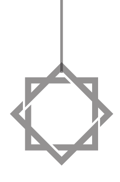
ـ كل ما يجذبكِ فيّ، أضعه لشروطي وأحكامي أنا.

تنقل ببنيتها بنظره بطريقة فجه:

ـ وكل ما يجذبني بكِ لن أسمح بوضعه عليّ، وإن حدث فتوقعي بأنني سأصيغه لشروطي وأحكامي أنا.

صمت لبرهة ثم أكمل واستحضر روح الكره فيه:

ـ إذا أردتِ أن تتبعي الشيطان فليكن، كوني برحابه، رافقيه وفيكِ أن تهربي في الوقت الذي تظنينه مناسبًا، من أول طريق نار يعش به، ولكن إن قررتِ البقاء فتأكدي من أنكِ ستعيشين معه أبد الدهر ليدمر ملاككِ وليبقِ دائمًا طيفًا لشرٍ يستوطنكِ.



# الفصل الخامس والعشرون

«**أكرهكِ لنفسي**»

جملة لخص فيها مشاعره بالضبط، لخصها بعناية وبتلقائية؛ فهو لا يطيق وجودها عقلًا غير أن جسده يستحل وجودها والشعور بدفء جسدها الضئيل ونورها الساطع، لا يعرف ما الذي يحل به، مشاعره تغدو حميمة للغاية كلما اقترب منها وأكثر وحشية كلما حس بها.

«**شفاهها ترتعش من الخوف، جيد ربما تهرب الآن.**»

هكذا فكر عندما رآها تبتلع ريقها بصعوبة، لا بد من صراحته وقساوته معها نتيجة، ولكن لمَ الإصرار على إفزاعها؟

من يشعر بالخوف بحق؟ هي أم هو؟

لقد ولى زمن شعور الخوف عندما أصبحت جيليللا أشلاءً، نظر بشراسة لريتشيل وهي تمتم بخفوت:

ـ موافقة، سأكون معك كما تريد.

بحق كل الأديان، ما الذي وضع بعقلها هذا؟! إنها ليست آمنة تمامًا معه وهي تعلم، ولكنها مصممة على البقاء، سيقتلها إن ظلت معه، سيلقيها كما تمنى للأسود أو يتناولها كوجبة خفيفة للغداء الأكبر.

ـ ستدفعين عمركِ كله لقاء تلك الموافقة!

قالها بغلٍ لم يستطع السيطرة عليه، بل لم يستطع التمثيل أكثر من هذا، ليحدث ما سيحدث هي مصره على خوض حياته لهذا سترى وجهه الآخر، ذلك الوجه المحتفظ به لنفسه وأعدائه، استطرد وهو يحاصرها بين ذراعيه ليرى لمحة الخوف فيهما أكثر:

ـ ستبقين معي تحت جناحي، ستعيشين معي وستنسين أبيكِ، هذه هي شروطي.

ـ ماذا.. تقصد؟!

قهقه بقلب موتور، ملئه العذاب حتى أصبح ميتًا، يلفظ روحه الأخيرة بغياهبه المشؤومة:

ـ ألم أقل لكِ كفاكِ ترديدًا كالببغاء!

صمت لبرهة وتشدق بهدوء:

ـ سترافقين حياتي وتطلعين على ما أفعله، وبعدها لكِ حرية القرار بين البقاء أو الفرار.



ـ هيا تذوق هذا لكي تطب يا بني.

قالها رجلٌ بالستين وربما أكثر، يرتدي عقالًا أسود وجلبابًا أبيض عليه معطف بني به الكثير من الجيوب، بشرته قمحية مليئة بالكثير من التعرجات التي تكشف وبوضوحه سنه الكبير، كان ينحني على شهاب ويحاول جعله يستند عليه لينهض من مكانه، مستطردًا حديثه:

ـ حفيدتي صنعته لك من أعشابنا الصحراوية، سيجعلك أفضل إن شاء الله.

بمشقة بالغة استطاع النهوض وتذوق الحساء المر كثيرًا، وظل يسعل بقوة وهو يقل:

ـ أين أنا؟!

ـ إنك بالجبل بمنطقتنا يا غلام.

قالها الرجل المسن وهو يضع يده على جبهة شهاب وأردف:

ـ الحمد لله أن حرارتك انخفضت، عليك أن تشكر من ظل بجوارك ليل نهار حتى أوصلك لتلك الحالة، لقد جلبتك إلينا على شفا الموت وسبحان الله نجوت بأعجوبة.

ـ جدي هل أدخل؟!

ـ تفضلي بنيتي.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنه نفس الصوت الناعم الرخيم الهامس له وقت هذيانه والذي بسببه لم يستطع التوقف ولو للحظة عن تخيل شكل الجسم الذي يحتويه، ذلك الجسد الذى تخيله ما هو إلا عباءة سوداء فضفاضه عليها برقع مطرز بالخرز، لا يكاد يتبين شيء منها سوى عيونها وفقط، خضراء أو ربما بلون العسل، انحنت نصف انحناءة وقالت سريعًا:

ـ حمدًا لله على سلامتك، لقد جئت لكما بالثريد واللحم، أظن أنه بحاجة للغداء أكثر من السوائل.

ـ ضعيه عندكِ وارحلي.

وما إن رحلت حتى أردف الرجل المسن حديثه:

ـ حفيدتي رحيل، ابنة ابني الفقيد غرالي ديجانة، ما اسمك بني حتى نستطيع أن نصل لعائلتك ونخبرهم عنك.

لم يفهم ما الذي يحدث حوله، ولم ينتابه الفزع لشعوره بالضياع، فهو غارق به منذ أن وُلد. كل ما جال بعقله بتلك اللحظة هو المخادع يوسف.



ـ إلى أين تأخذني؟

كلمتها تلك لم توقف سيره إطلاقًا، كل احتجاجها لا شيء، كلها فراغ أو سحابة سوداء تحط برحالها عليه أو بيضاء، اللون غير مهم إطلاقًا ولكن المهم هو الأثر، إنه لا يعرف التفكير ولا

التخطيط ببساطة وسلاسة، شُل، أصبح مشلولًا ومعاق ذهنيًا، يطردها، يُخيفها، يأكلها! لا يعلم بماذا يتصرف بتلك النكبة؟!

ـ بما أنك قبلتِ وجودكِ بحياتي فاصمتِ، أكرهكِ لنفسي!

تلك الكلمة التي يرددها، وكما ظن تلخص كل مشاعره، يكره نوعها ليجبر نفسه على كرهها وعدم التفكير إلا فيها كعدو.

ـ اتركني.

وجاءتها قوة لتنفضه عنها، نظر إليها وكل أشباحه تتفاقز، أشباح الماضي الملطخ بالدماء، أشباح جيليللا، أشباح أوقاته الضئيلة مع تلك الملعونة الجذابة.

أردفت ممسكة برسغها:

ـ إنك تؤلمني.

ـ أؤلمكِ! هل هذا كل ما جال بخاطركِ؟!

صمت لبرهة ثم أكمل وهو ينحني بسخرية:

ـ حسنًا سيدتي، تفضلي أمامي يا سمو الأميرة لفندق زيزينيا.

ثم اعتدل بلحظة ورمقها بنظرة عدوانية ليركض مسرعًا دون كلمة أخرى.

كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يتحول؟! يكن ساخرًا، ساحرًا، ساخطًا وجميع المعاني التي يمكن أن تصف تناقضه.

ـ يوسف، انتظرني.

قالتها برجاء وقلبها يدق بسرعة كبيرة من الخوف والإثارة، تصرفها هذا لا يمكن تفسيره، أتريد حقًا استكشافه أم إنقاذه؟!

الدخول لعالمه قد ينتهي بكارثة تُنهي عالمها. هذا هو الهاجس الوحيد الذي يتربع بعقلها غير أن جسدها تحلل من قيده ليركض وراء الشيطان بتلهف قوي.



القرآن لغة الروح، تشفيها تمامًا، عندما تقرأه تظن بأنك بمكان آخر بل حياة أخرى، تتعظ، تفكر، تعيش، تتنفس الكلمات، يجعلها تتذكر تلك الفتاة الصغيرة والتي بغبائها وضعفها أمام سطوة عائلتها قتلتها، استغلتها كما استغلوها لتأتي لمائير، فدخلت البيت بقدميها وخرجت محمولة على محفة بأيدي تتدلى لتلامس الأرض ببرودة الموتى.

كان وقتها عليها الاختيار بين الصمود والإقبال على الموت، أو البقاء على قيد الحياة. أيهما أغلى حقًا؟ الموت بكرامة أم العيش بجبن وخسه ونذالة؟

كلمات يبدو فيها الاختيار ببساطة ووضوح للمعانِ النبيلة يا عزيزي، ولكن وقت الاختبار تبدو تلك الخيارات النبيلة ليست بسيطة وسهلة بسهولة كتابتها أو وجودها بعقلك. عندما يوضع على رأسك مسدسًا يهددك بنسفها وإن حاولت الهرب سيقتلونك شر

قتله وسيمثلون بجثتك، فعزيزي لتذهب المعانِ النبيلة والأخلاق للجحيم، فلا شيء قيم أمام حياتك.

وهذا ما حدث لها، خُيرت بين الحفاظ على مبادئ وحب غرسة إيزرا بها والحفاظ على حياتها، خُيرت بين حياة الطفلة العربية التي جعلتها تستمع باهتمام للقرآن وبينها، والأهم خُيرت بين اللوذ بأحضان الموت أو إيزرا.

القرآن لا يزال يرتل، تسمعه من بعيد، الغريب إنها لا تستطيع الحراك، تعلم فقط المكان، سهل عكا حيث ينتظرها دائمًا إيزرا فركضت لتراه، استغربت بالبداية للقوة التي دبت بحيوية ونشاط بسائر جسدها، ولكنها استنتجت السبب، شجاعة وحلاوة الحب طغت على الجبن والمرار التي عاشت به.

ركضت لتخبره بأنهم قتلوها وهي معهم مشتركة بالإثم وأن تقل له:

«**لم تحمني مبادئك منهم قط، كنت نبيلًا بزمن النبيل فيه هو الشخص الميت، كيف يمكن أن تحارب جيوش الفساد وأنت بدرع المبادئ المكسور؟ كيف يمكن أن تظل نقي بزمن كثر فيه الأوغاد؟! انظر لنفسك جيدًا ستجد بأنك لا تختلف عنهم، اضطررت أن تتخلى عن خطوطك، دينك، وطنك، لأجل أن تعيش. أنت لا تملك أن تثور بمجتمع إسرائيل وهو ينضح بالدماء، مجتمع ولد برحم الحرب والسلام يقتله، مجتمع يقتلع جذور الرحمة بداخلك والحجة دائمًا هي «الحياة»** فإن كنت

رحيمًا أو تمتلك قلبًا ستموت، ستُلقى للأسود في المزرعة. لمَ تصر على اتخاذ شعار اللطف في الوقت الذي يتربص لك بخنجر يستقر بين تجاويف صدرك»

بلغته وبكل ثقة أنها خذلته وخذلت تعاليمه بأول اختبار وشاركت بجريمة قتل واغتصاب، لقد كان مُشرع المادة أشد من مدرسها، وكان دارسها لم يتحمل وطأة صعوبتها.

أمطرها بنظرة لوم، لم يتوقع بأنها ستفشل، وقتها ذهب دون كلمة، فهل سيعاتب على مصيبة؟

لمحته يهرب منها بركاب الصحراء، فتمتمت القصيدة التي تحفظها من أبيات الأدب التي يحملها معه أينما يريد:

ـ «**لكل هؤلاء الذين نحب كلما نطلبه لو يتحقق (يكون).**»

صرخت بقوتها ودماء الشفافة تتدفق كنهر يغلي بمقلتيها، ووقتها تمنت لو لم تكن الحياة بتلك السفالة والحقارة لعيشها، لو لم يكن الاختيار بتلك القسوة.

ـ إيزرا لا تذهب، أتوسل إليك سامحني.

ركضت وراءه دون فائدة، فلقد ذهب بسهولة. ارتج جسدها من الخوف، كيف يمكن أن تواجه غضب أبيها بمفردها بعدما تخلى عنها؟!

التقطت أنفاسًا سريعة منادية عليه بفزع وخيفة دون مجيب، فكادت أن تنهار بالأرض لولا أنها شعرت بأمير يمسكها من خصرها ويحملها لتقلي بثقلها عليه. تلاشت رغبات اللحاق

بالحبيب أمامه والوجل والرهبة من مائير عندما تطلعت ببصرها لمن يسمح لها بالولوج والتغلغل داخل طياته.

- ابقى معي.

ثبتت عينها المثقلة بالدموع على ذلك الرجل ثم أغلقت عيونها مستسلمة لأن يدنسها كما يحلو له حتى تنشغل عن كل الأفكار المؤلمة بعقلها متمتمة بأنينها المُوجع بأنها بالنسبة لإيزرا فُسدت.

هناك شيءٌ ناعم مرافق لصوت أمير يداعب وجنتيها وهو يتحدث:

- هيا استيقظي كفاكِ نومًا لهذا الحد.

وبدت وقتها همسته الأخيرة دافئة جدًا وهو يقترب منها ويقبلها عند مفترق رأسها ويزفر بوجهها قائلًا:

- حوريتي.

فتحت عينها لتجده يحمل بيده وردة بيضاء وقد أزاح الأغطية من عليها مُردفًا بمرح:

- إذا لم تستيقظي وتغسلي وجهكِ سآكل الفطور كله. هيا، كفاكِ كسلًا، لقد أحضرت لكِ بيضًا مقلي وفول بالزيت الحار سيعجبكِ.

وكأنها فقدت الإحساس باللسان أو طريقة عمل الأحبال الصوتية داخل الفم، أجابته بنفس النظرة التائهة وهي تنهض ببطء بسبب الدوار الذي يصيبها، فأمسكها أمير من خصرها يجذب

جسدها إليه، ولكم شعر بالتمزق بتلك اللحظة. يشعر بأنه مطحون بل مفتت، فكلما لمسها سيطرت عليه رغبة الاقتراب والتحقق منها أكثر كما غرر به شيطانه ليستغل وجودها نائمة ويأخذ حقه الشرعي فيها، تبًا له من رجل، ضعيف أمامها.

كانت تحدق بالأرض غير عابئة به، تتأكد من أن بها أعصاب تستطيع تحريكها، لتدخل قدميها بذلك الصندل اللعين، سمعته يقول بنفس النبرة المرحة:

ـ برافو، أنتِ ماهرة، استطعتِ الوقوف على قدميكِ.

رفعت رأسها سريعًا لتحدق به، ابتسامة عطف تزين ثغره، هدوء رهيب، إما أنه يفكر بخطة أو تاب فعلًا.

مبارك لكِ حورية روضتِ أميركِ جيدًا وأصبح بالفعل خاتمًا بيدكِ.

أدخلها الحمام مرددًا باقتضاب بأنه سينتظرها، ووقتها سمع صوت جرس الباب وحس براحة لعلمه بمن الطارق بتلك الساعة.



أخذت أنفاسًا عدة لتهدئ تدفق الأدرينالين بعروقها، ركضت مسرعة وراءه حتى لحقته للفندق، كان عصبيًا يتعامل مع الخادم بنزق وكبرياء ولم يرمقها ولو بنظرة واحدة كأنه نسي وجودها وحديثه معها، وكأنه نسي أن الملاك يسعى لجر الشيطان لدائرة النور.

تحرك يوسف لغرفته ثم توقف عند بابها وقال لريتشيل دون أن يستدر:

ـ إن دخلتِ لهذه الغرفة فاعلمي أن حياتكِ ستتغير، وستجدين بداخلها ما لا يروقكِ.

ـ أنا مستعدة لأدخل للنار حتى أصلحك وأهديك لباب التوبة.

لم تشعر بكتلة الخوف بل بكمية هائلة من الأدرينالين تُضخ لعقلها وشرايينها وهي تحدق بكتف يوسف الذي لم يتغير عن وضعيته وأحسته هادئًا باردًا، مُجيبًا:

ـ أنتِ بالفعل تدخلين للنار!

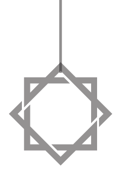
ثم فتح الغرفة ودخل وقتها شهقت ريتشيل مما رأته فلم تتوقع تلك المفاجأة قط، لم تتخيل بأنه يتحدث بحق وأنها دخلت لحفرة من حفر النار، نظرت ليوسف المزهو بنفسه أمام نظرة الامتعاض والصدمة التي اعتلت بوجهها قائلًا بتروٍ:

ـ مرحبًا بكِ بالنار، كل أحباب جهنم مجتمعون لدي.

أكمل بنزق:

ـ ليس بوسعكِ سيدتي أن تصلحيني.

ولأجل تلك الكلمات انتفض يوسف باشمئزاز من زلة لسانه ثم تحرك مسرعًا يجذبها ناحيته بقوة غضبه الحبيب.



# الفصل السادس والعشرون

بصوتٍ قادم من الأعماق مخيف به لمحة توسل لم ترقِ له:

ـ ماذا تفعلين لي؟! أنا أعتذر وأقل سيدتي، أسحرتِ لي بسحرٍ أسود كا الذي يبرِع به الجهلاء مثلكِ؟! تحدثي وإلا...

قبل أن تجب أو تفعل شيئًا للاختفاء من أمامه تركها بعد أن أقفل الباب عليهما بلحظة اندهاشها من هجومه المباغت السريع، إنه مثل الثعبان يقوم بحركة مفاجِئة ويدس بها السم ليجعلها مشلولة مؤقتًا، لتبدأ التحليل بالمكان وبسرعة، هي بمكان به حقائب متشابهة، وأحدها مفتوحة وبها أسلحة وصور لجثث تم التمثيل بها بأبشع الوسائل مع يوسف. أتلك الابتسامة الصفراء التي يحدق بها يوسف لكاميرته هي نفسها ابتسامته المؤدبة المعتذرة؟!

رأت يوسف وأشهر مسدسه نحوها:

ـ تكلمي بسرعة!

قالت بثبات دون أن تفكر ولو لثانية واحدة في الركض خارجًا من حياته:

ـ ما هذا المكان؟! وما هذا الذي بيدك؟!

رأت المسدس بيده يهتز، كيف يمكن قتل تلك البراءة المشعة بملامحها الرقيقة وذلك الخوف النابض بعروق جبهتها النافرة، بحق الجحيم ماذا فعلت له العربية ليتردد بقتلها؟ فالمسدس محشو بالطلقات وبكاتم الصوت فعلام التأخير؟!

«**اقتلها يوسف.. اقتلها**»

صرخات لإنسان فظ صاحب وجه لو رأيته من الممكن أن يقف قلبك من الرعب لشدة فظاعته، لإنسان أجبره كاهانا يومًا ما على القتل، يحمل بشرايينه دماء كاهانا التي لا يجب أن تحمل سوى الكره لبني جنسهم وليس الحب.

«**احتضنها يا يوسف.. احتضنها**»

صرخات، عفوًا بل همسات لا تعادل صراخات كاهانا بداخله في الشدة، صوت أبيه الهادئ والمفكر دومًا، تلك الدماء العربية الشرقية تبدو كجينة وراثية لم تفلح دماء كاهانا بقهرها أو كخلية سرطانية كامنة وجدت الحافز لتنتشر بسائر جسده بالكامل.

ـ تحدثي!

قالها بإنهاك بعد أن غزا الصداع عقله من كثره الصراخ والهمسات، يبدو إنسانًا ضائعًا تلك المرة.

ـ بحق العذراء لم أفعل شيئًا.

ـ اخشيني، بحق ما تعبدين لماذا لا تخشيني؟!

قالها وهو يحارب نفسه كي يضغط على الزناد، كل الأصوات تدافعت بسرعة رهيبة بعقله، صراخ مائير بجانب همس جاؤون وهو حائر بالوسط أيهما يتبع؟!

ظل اهتزاز المسدس قويًا، وأحس بشيءٍ يبلل وجهه، هل هو يبكي أمام أحد بعد هذا العمر؟!

ابتسمت ريتشيل بثبات وتقدمت نحوه حتى جعلت مسدسه على صدرها:

ـ ولو قتلتني لن أخافك أبدًا.

قال بعصبية وهو يحاول تجميع شتات نفسه، ومسح دموعه التي انزلقت خسة منه، ورفع زر الأمان:

ـ تريدين الموت؟ سأمنحكِ إياه.

ـ لن تفعلها أبدًا.

تحدق به فحسب، لا تتحدث بكلمة مضيفة لكلامها السابق، مراقبة إياه وقد جزَّ على أسنانه من وطأه الصراخ في عقله وقرر تحريك أنامله للضغط على هذا الزناد اللعين، ما لأصابعه تبدو ككتلة ثلجية الآن؟!

تحدث الإنسان الضائع بين مائير وجاؤون بنفسه:

ـ «رأسي يدور.

ـ لأنك تحبها.

ـ لا أريد الاستماع لصوتك.

ـ ستظل تسمعني، غصبًا عنك.
ـ أنا لا أستطيع التحمل أكثر.
ـ لأنك تريد الاستسلام.
ـ أنا خطر.
ـ مخطئ.
ـ أنتِ حياتي جيليللا.
ـ جيليللا ماتت بقلبك منذ زمن، ولا ترضى لك بهذا المصير.
ـ تضحك عليّ؟
ـ افتح قلبك للحب ولها، أنت تحبها يا يوسف، استسلم لحبها.»

لمست ريتشيل وجهه بابتسامة وديعة تهدأ من تلك المشاحنات التي تظهر بسيماء وجهه، فهو كمن يحارب وحوشًا خيالية بملامحه المتغيرة والتي تبعها هسيسًا ضعيفًا لشيء ما يقوله لا تفهمه، يبدو شخصًا ملبوسًا بجنيّ يحاول الخروج منه بلا جدوى، عيونه الزرقاء لا تحدق بها قط، لم يكن بؤبؤ العين محوره ريتشيل.

ـ اترك المسدس وكفر عن ذنوبك، لتهدأ اقرأ معي الإنجيل واطلب مغفرة ربك عن ما اقترفته.

تلك الكلمة أثارت نفسه فضربها بكل قوته بالمسدس على رأسها، فوقعت على الأرض. وقتها تحدث يوسف من دون أن يراها على الأساس وكأنه لم يفعل شيئًا:

ـ لا تذكريه لي، أنا كافر.

صمت لبرهة وأخذ يتنفس الهواء بعد أن صرخ بآخر جملته ثم أردف بهدوء:

ـ هيا انهضي أو أخبريني مجددًا بالوعظ الديني بوجهي حتى أسخر منكِ.

لم تجبه. فبدأ يستدير برعب سيطر عليه، هل من الممكن أن يكون أذاها؟

رآها لا تتحرك، فدنى منها ليراها فقدت الوعي وشعرها بدأ يتلون بالأحمر، إنها تنزف!

ما أراحه – بشكل ضايقه – أنها لا تزال تتنفس، فبدأت أفكاره تنقسم مجددًا فشخص يهنئه لفعلته وآخر يعنفه بقسوة، لم يعد يعرف ما العمل، إنها تموت وهو لا يعرف الخطوة القادمة.

لقد صمت كاهانا به مُبتسمًا لرؤية الدماء تغرق أصابعه، بينما جاؤون بكى بصمتٍ لمَا قاسته تلك الفتاة البريئة، عليه أن يركض لطلب النجدة، ولكنه إن فعل هذا سيدخل الشرطة المصرية لعقر بيته. أحياته أهم أم هي؟

لا حياته ولا حياتها هامة بالنسبة له.

حملها بين ذراعيه وأفسح لها مكانًا صغيرًا على فراشه، وجلس وعلى وجهه ابتسامة مريضة مختلفة عن التفتت الذي يتحول فيه ناظرًا لجسدها الممدد، واضعًا مسدسه أمامه.

استحضر ذلك الشريط الأسود المغبر من الذاكرة عن تلك اللحظة التي غيرت منحنى حياته كلها، أمسك بمسدسه وصوب ناحيتها حاول الضغط مرارًا على الزناد لكنه توقف، ما الذى تملكه تلك حتى تسيطر على أعصاب وخلايا جسده وأنامله!

صرخ باحتجاج لنفسه موبخًا:

ـ ماذا بك يوسف إن لم تقتلها فاقتل نفسك لخيبتك تلك.

وضع المسدس على رأسه، وأغمض عينه وتنفس مفكرًا طلقة واحدة يمكنها أن تنهي كل شيء، أن تريحه من الشوكات التي تقلب بها في حياته.

«**اضغط الزناد يا يوسف**»

تبادر لذهنه قصيدة يستخدمها كاهانا ليحببه بالحياة والانتقام:

(أنا عنصري سلمي
الزرق العيون يقتلون،
السود العيون يفتكون،
المجعَّدو الشعر يهدمون،
الملس الشعر يفجّرون،
السمر الجلد يمزّقون آرابي،
الورديو الجلد يسفكون دمي.)



أتى الغيث للأرض البور والأمل للحياة، أتت نفحات الإيمان بمجيئها. أخيرًا لبت أنعام زوجة محمود العصامي نداء ابنها بعد أن جاء أمس لبيتهم وجلس تحت ركبتيها يطلب منها الغفران والمشورة، محاولًا إمساك يدها بلا جدوى:

ـ أمي، بالله عليكِ استمعي لي، أنا واقع بمشكلة وأريد مساعدتكِ.

ـ أغررت بامرأة أخرى وجاءتك تطالبك الاعتراف بابنها؟! أخبرني يا أمير، يا خلفتي الصالحة.

قالتها بسخرية وأزاحت يده في اشمئزاز منه، فابتلع كلامها الحاد القاسي وترحيبها الأجوف معه ليُردف:

ـ لا أعرف سوى امرأة واحدة، وهي زوجتي حورية.

ـ الآن تقولها بصراحة؟!

ـ أمي، زوجتي مريضة وتحتاج لمساعدتكِ.

حاول تقبيل يدها وهو يردف:

ـ اذهبي ببركتكِ لها.

لم ترد عليه وتحاشت النظر إليه فتحدث بعذاب:

ـ أمي، أنا بشر خطاء ولست شيخًا أزهريًا، لقد أخطأت أعترف، وخطأي أكبر من محاولة محوه، ولكنني أستحق قبل أي شيء التوبة والعفو، فالله يغفر الذنوب لماذا لا يغفرها البشر؟!

تحدثت بآليه:

ـ الموضوع ليس بيدي بل بيد والدك، فلا يمكنني مباركة الزواج والمجيء إليكما من دون رضاه عليّ.

ـ هذا ليس عدلًا، تعلمين أنه سيرفض.

ـ هذه مشكلتك وليست مشكلتي، اقنعه بجدوى قضيتك.

وتبخر الماضي بالحاضر عندما همست السيدة أنعام لابنها مُتطلعة لرؤية عروسه:

ـ يبدو أنك نجحت بإقناع والدك، هذا الطعام لكما، وسامحني لأني تركتكما دونه فالأمر كان سريعًا.



لقد سئم أو تعب ومل، كيف يكون الإنسان بكل هذه الطاقة السوداء؟! لماذا يصبح قلبه ينضح بالقطران الأسود ولا تستطيع الأيام مهما بلغت عددها أن تمحيه؟! أصبح العلقم المُر سائد بكل شيء يتذوقه، منذ الحادثة وفقد قدرته على الاستماع أو الشعور، فضل البقاء بالعتمة والبكاء كالسيدات الثكلى على حلاوة العيش في الماضي.

أما له أن يفيق وينسَ كما هب فيه أمير صارخًا وقت أن ولج لغرفته؟ هل كلمات أمير عن حياته البائسة التي عاش مرارتها أفاقته؟!

ـ أبي، أريد منك مباركة الزواج.

وقتها اشتعلت الدماء برأسه وقال وهو يدب بقبضته على كرسيه الحديدي:

ـ هل جننت؟! أتريد مني مباركة زواجك من يهودية، أنسيت ما فعلوه بنا؟ أنسيت...

قاطعه باحتجاج:

ـ وهل نسيت أنت؟! كلا والله لم تنسَ، بل جعلت حياتنا جميعًا جحيم، تعاملت معنا وكأننا السبب بجعلك قعيد، تظاهرنا جميعًا بمثالية الحياة، ابتسمنا وضحكنا وظننا الألم انتهى أو غير موجود، ولكنه لم يرحل يومًا.

صمت لبرهة ثم تابع زافرًا الهواء بثقل:

ـ ألم تتعب من حمل كل هذا الغل بقلبك؟! ألم تفتح قلبك للإيمان والتقوى مثل أمي؟! لمَ تبدو سعيدة بكل شيء تفعله لها؟! لأنها راضية بقضاء الله فيك.

ـ أمير، لا تتعدى حدودك معي.

ـ لا أقصد الإهانة ولكنك بحاجة لأن تفيق، كرهك الأسود انتقل إليّ وسممني، أصبحت لا أرى من أجرحهم بطريقي لأنني كحالتك قعيد بل أعمى، أنت لكي ترتاح من نفسيتك السيئة جعلتنا كلنا مصابون بعاهتك، تلقي أحيانا بشوكات الصلف بحلوقنا و...

استبد الحنق بنفس محمود، لا يحب أن يذكره بعاهته، لا يحب أن يكون أحد آخر كاشفًا له:

ـ أنت تربية فاشلة، وأنا لم أنجب ولد أبدًا، وإن كان ثمن وضع رأسي على المقصلة لأقبل بتلك الزيجة فأدفعه بنفس راضية، والآن اذهب من أمامي يا زوج الصهيونية الحقيرة.

دخلت أنعام مهرولة من الخارج صوبه:

ـ ماذا يحدث؟! محمود هدئ من روعك.

دفع كرسيه بعيدًا وقال بنفس الصوت المرتفع:

ـ لن أهدأ إلا إذا خرج زوج الصهيونية هذا من بيتي وحالًا.

قالت أنعام برجاء لابنها:

ـ أمير، من فضلك افعل كما أمرك والدك.

وكأنه مسه جنيٌّ أو أصبح شيطانًا؛ ظل يتقافز في كرسيه وهو يدق بقبضته على يده الحديدية من جديد:

ـ هذا ليس ابني والله، لقد مات ولدي.

حاولت أنعام أن تحتوي ثورته على ابنه بأن تحاول احتضانه وتقرأ له القرآن، فظل يهذي ويصرخ على أن ابنه قد مات، حينها نظرت أنعام لأمير الذي بدا عليه الصدمة حينما قالت:

ـ أمير، ارحل من أمامنا.

بدأت النفس اللائمة تتحرك فيه بأول إشارة له بالعودة بعدما تبخر كابوس الصباح بقرار أنعام بالذهاب لأمير لأجل أن تطيب خاطره الذي كسره وكسرته معه، ولم يملك سوى الموافقة الضمنية بصمته وبقاءه بغرفته مُتحدثًا مع نفسه:

ـ ما الذي فعلته يا محمود، إلى متى ستظل تكره الكل حتى نفسك؟! إلى متى ستوهم أنعام بتقبل الحقيقة؟!

ـ غصبٍ عني يا ربي.

ـ ليس سببًا يا مذنب، إن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

حرك كرسيه ناحية الحمام مُستغفرًا ربه بطريقه كما أشارت عليه أنعام قبل أن تذهب، وهذا لأن كما قالت «**بذكر الله تطمئن القلوب وتغسل الذنوب**»، بعد أن توضأ أخذ الصلاة ووقف أمام ربه يتلو كلمات القرآن.

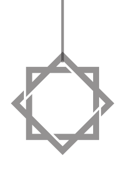


لقد مرت الأيام بسرعة رهيبة ولايزال القلب متوترًا وحائرًا، بل يكاد يموت من الرعب. من الممكن أن يعرفونها هنا وتقتل، كيف تضمن أن زيارتها لأهل للخان ستنتهي بسلام دون أن يجدها شهاب؟

هل النقاب وحده يحمِ عن عيونها الوجلة؟!

ودون المزيد من التساَؤلات التي تجعلها تخاف من مجرد المحاولة، استجمعت شجاعتها لتذهب نحو بيتها القديم، دقت الباب بتردد وتنفست بعمق وخوف وهي تتمتم بخفوت بعد أن أجابها من فيه:

ـ إنها أنا يا أمي، زينب.



# الفصل السابع والعشرون

زاهر آتٍ للتو من جامعة الأزهر، غسل وجهه وبدل ثيابه ونفض عنه تعب اليوم بأن جلس بجوار أمه الشاردة ليقل بمرح:

ـ أمي الغالية بماذا تفكرين؟

أجابته بنظرة خاوية ودون اهتمام:

ـ أفكر بوالدك، فأنا لم أعد أعرف ما يدور ببيتي بشكل صحيح، فهو يختفي ويظهر فجأة، وعندما أتحدث معه يقول عمل.

مازحها زاهر وهو يكزها برفق بكتفها:

ـ أتخافين يا أم زاهر أن يكون تزوج عليكِ؟!

نظرت له وقالت باحتجاج:

ـ ولد، احترم نفسك!

تابع بخبث وهو يغمز بعينيه:

ـ لمَ؟ أليس هذا حقه؟!

أثنت شفاهها بابتسامة باردة:

ـ مزاحك سخيف. كل ما في الأمر أن والدك بالفترة الأخيرة أصبح مُريبًا.

ـ حسنًا، ألا يستطيع المرء أن يضحك معكِ قليلًا يا أم زاهر؟ بالمناسبة أين زينب؟ لقد بحثت عنها ولم أجدها.

ـ إنها بالخارج، تشتري لنا ما سنأكله على الغداء.

تيبست مفاصله لذكر هذا الأمر فرمقها بعتاب:

ـ وهل هذا يصح يا أمي؟

ـ أعلم أنها ضيفة، ولقد أوضحت لها هذا، ولكنها أصرت على الذهاب بحجه أنها صاحبة السن الصغير ويجب عليها المساعدة.

ـ أمي وهل نحن نعامل الناس كخدم بمقابل وجودهم ببيتنا؟

ـ هل هذا كل ما ضايقك؟ ألم تفكر بأنني حقًا كبرت ولم يعد بي طاقة على التجوال في الأسواق كما السابق وأحتاج لابنة تساعدني بذلك؟

زفر زاهر الهواء بضيق، فمحادثته مع أمه ليست كما يريد، فعليها أن لا تفكر بنفسها أو بسنها، فلا يصح إجبار زينب على دفع ثمن وجودها كضيفة. ألا يكفيها أنها تساعد قليلًا في ترتيب البيت أو إعداد الطعام الذي بدأ يعشقه كثيرًا، أو بالأحرى يعشقها هي.

ـ وجود زينب ببيتنا أمر ذو طبيعة حساسة جدًا.

تحدثت أمه بلؤم:

ـ ببيتنا فقط؟

أثار دهشته لذلك السؤال المرتبك والملتوي:

ـ ماذا تقصدين؟

نهضت من مكانها وهي تزفر الهواء بارتياح وحضرت سجادة الصلاة أمامها:

ـ لا عليك، فلم أعد أفهمك أنت الآخر، لقد حانت صلاة العصر.

ثم صمتت لبرهة وأكملت بخبثٍ عندما بدأت بالوقوف والاستعداد للصلاة:

ـ داري أشواقك يا شيخ لأنها تفضحك.

أحس وقتها وكأنه وضع على قابس كهرباء يُرسل لجسده بضع فولتات لتجعله متشنجًا، فقفز من مكانه مُتحدثًا:

ـ ماذا تقصدين؟!

وقبل أن تجيبه أمه بدأت في تلاوة القرآن لتصلي؛ فأردف بجملة اعتراضية تصف مدى غباءه واندهاشه مما أبدته أمه فيه:

ـ تصلين لكي تهربي! سأنتظركِ وأنتظرها.



ـ مايكل، هل ستقبل ابنتك فكرة زواجنا؟

ـ لا أعلم بارا، ولهذا عليّ مصارحتها، لقد تركتها فترة طويلة ولم أعد أعلم عنها شيئًا، حتى أمير حلقة الوصل بيني وبينها لم أصل إليه.

بارا هي المرأة التي دخلت حياة مايكل العقيمة بغتة، تعرف عليها بالكنيسة ومنذ ذلك الحين واختطفت قلبه واختطفته شخصيًا، يدمن لقياها، بل يدمنها، صحيح بأنها أنحف منه وزنًا وأصغر منه سنًا، إلا أنها سيدة رائعة، حكت له ظروفها مع زوجها الذي توفي من تأثير الهيروين وأنها بالكاد تتكفل بحياتها. ربما شعور العطف والحنية والرقة يغمره بحضورها، لهذا تزوجها لأجل أن يعيش، فلقد مات بموت زوجته، وحين رأى بارا أعطته قبلة الحياة لتجعله يتنفس الحب.

ـ عندما تود مصارحتها بحبنا فيجب أن أكون حاضرة الموقف، ولهذا سآتي معك للبيت.

ـ أجل، هذا ما علينا فعله.

نظرت له بارا وهي تمسك بأصابعه متوجهين لخارج الفندق الذي أصرت وفقًا للترتيب مع يوسف أن تجعله يبيت فيه، ولكن لم تتفق على أن تحبه، فبارا مجرد بائعة هوى وحتى اسمها ليس حقيقيًّا، لا تعرف من أين أتى ذلك الكائن المخيف ليأمرها بدخول حياة ذلك الطيب واستعمال ـ وكما قال ـ مهارتها النسائية لإبعاده عن حياته قدر استطاعتها، وبالفعل حدث.

الرجال يصبحون كالأطفال كلما بكت المرأة أو أغدقت عليهم بحبها وبدلالها.

«**إنه لرجل طيب**»

حدثت نفسها مقنعة ذاتها الشيطانية بأنه يمثل الخلاص والحل لكل مشكلاتها، ولا دخل هنا للمنفعة وتحوير تعليمات الرجل لأجل أن يتزوجها، بل إنها أحست بالاطمئنان معه، فلم تكن تشعر بهذا القدر من الآدمية إلا في وجوده. وكما مُتعارف عليه بالحكايات؛ على الوحش أن يعود جميلًا والسر يكمن بقبلة الحب الحقيقي.



استقبلتها بالفرح وبالقبلات وبالبكاء، أغرقتها بالحنان الضائع، لقد انشغل قلبها عليها لمدة أسابيع ظلت فيهم تبكي وتصلى لتطلب من الله أن يعطيها القدرة على مواصلة كل يوم من دون خوف عليها. بكل مرة تأكل، تشرب، تغسل وجهها، تفكر بها وعن حالها، تفكر دائمًا في الأسوأ بما أنها ليست معها، ولكن الأسوأ حقًا هو أن تظل معها.

حمدًا لله أن شهاب ليس هنا ولم يأت كذلك منذ أيام، ترى هل يبحث عنها؟

ملست على رأسها التي كانت مستندة على صدرها وقالت بصوت ضعيف:

ـ قرة عيني، حمدًا لله على سلامتكِ، وأنك بخير، وحمدًا لله على هروبكِ، فلقد كان درءًا لأهوال لا يعلمها إلا خالقكِ، قولي لي عزيزتي أين أنتِ الآن؟

نهضت زينب من مكانها ومسحت دمعاتها مُجيبة:

ـ أنا بخير، أعيش لدى أناس طيبين جدًا.

صمتت لبرهة ثم أكملت بابتسامة شقت ثغرها حينما تذكرت زاهر:

ـ لقد أصبحت أقرأ، علموني القراءة والكتابة أمي.

بعدها لم تجد ما تقوله، استطاع زاهر إعطائها دفعة قوية من الشجاعة، أن يكسر الخوف المتربع فيها، أن يجعلها لا تهاب أحدًا، لن تخاف شهاب حتى إن أتى، ستقف أمامه وتنفجر وستطلق ساقيها للحرية التي أَلِفَت مذاق حلاوتها حد صعوبة التخلي عنها، حتى وإن كان الثمن روحها، ليجعلها تموت فالموت ليس راحة ولا خلاص كما ظنت بل هو دليل على جبنه وخسته وضعفه أمامها، ستموت شهيدة وصاحبة مكانة لدى الله، بينما هو سيتعفن بالنار وبئس المصير.

ابتسمت بقوة وهي تشد على يدها، متذكره دروس أستاذها الحبيب:

ـ لم تعد زينب نفسها يا أمي، إنها الآن ترى أن الله لم يخلقها بلا فائدة.

ظل يوسف يحدق بجسدها الساكن وقد تشرب شرشف فراشه بالدماء المنبثقة عن رأسها دون أن يسعفها، ولم يقدر أيضًا على أخذ حياته بمشهد درامي صلف.

أتحببه في التمسك بالحياة؟

أتحببه في إيجاد الوطن؟

من هي بالضبط؟!

كيف يكون باردًا وهو يعلم بأنها لو استمرت بالنزيف ستمت؟!

وكيف لا يستطيع قتلها ولا قتل نفسه أيضًا؟!

ماذا يفعل؟ أيساعدها؟ أيحتضنها؟ أيقربها له؟ أيعتدى عليها؟!

لماذا يقف حجرًا بمكانه؟!

لماذا هو عاجز عن التخطيط أو الفعل بسببها؟

أشعل لفافة تبغ أخرى وتنفس دخانه بتروٍ، سمع همهمة وأنينًا خافتًا، فألقى لفافته بسرعة حتى لا تنبه له، يا للا إرادية أفعاله؟! ما هذه اللهفة والوجل عندما رأى جسدها يتحرك قليلًا!

- هل أنتِ بخير؟

عليه جميع اللعنات، ليسحق بأسفل السافلين، أيتمنى لها الخير؟!

- ريتشيل، أجيبيني؟

تأوهت ريتشيل بصوتٍ خفيف:

ـ ماذا حدث؟ آآآه، رأسي يؤلمني.

ـ أنا آسف حبيبتي، لقد أخبرتك وحذرتك من مغبة معرفة الشيطان!

عينها الجاذبة التقطت وجهه الخائف ورئتيها ضاقت بأنفاسه المعطرة بعبق الدخان الأزرق، وتذكرت للتو وحشيته بضربها، فأحست بالخطر المحدق وهو يطوقها بذراعيه الضخمتين، وأحست بوضعيتها التي لا تختلف عن السابق، وشعورها الجميل عندما لمس شفاهها بقبلة محمومة أحرقتها كلها، فلم تكن سوى رقيقة عميقة تتغلغل فيها، قلبها بدأ يضطرب عندما تحدثت:

ـ اتركني، دعني أرحل.

يا لسخرية الموقف، الآن تريد الرحيل وهو يريدها أن تبقى حتى تصفى آخر قطرة بدمائها، الآن تريد منه أن يتركها وهي تسيطر عليه كجهاز التحكم بالتلفاز! تأمره فينفذ، تبتعد فيخرف!

إنه لم يصبح المُحرِّك، بل الدمية بين أصابعها، والغريب أنه بدأ رويدًا رويدًا في الامتثال لأوامرها.

انزوت شفاهه بابتسامة وأعطاها ظهره مُتحدثًا بهدوء يجاهد في جعله مقنعًا، فكل خلاياه تصرخ فيه مؤنبة لعدم استكماله فعلته التي كان ينوي عليها:

ـ لكِ حرية القرار، وأنتِ الآن بالتأكيد علمتِ ما فيّ، أنا قاتل مجرم، ولكن أيًا كان ما كان بمخيلتك أُوضحته لكِ غير

أنني لم أذكر الحقيقة الكاملة، أنا قاتل مجرم وإسرائيلي يا ريتشيل، اسمي الكودي يوشف كاهانا، والحقيقي يوسف جاؤون باخوم.

صمت لبرهة ثم أكمل بوجع الاعتراف:

ـ وللأسف وبكل أسف رغم كرهي لأمثالكم العرب، فأنا أحبكِ.

استدار وحدق بها فجأة وعلى وجهه ابتسامة مريضة، وتقدم ناحيتها حتى حاصرها فلم يعد هناك مفرٌ لها، كان فقط يحدق ولم يقل نصف كلمة أخرى مستمتعًا بنظرة الدهشة والحيرة التي تعتلي عينيها الجميلتين، لقد أصابها مجددًا بشلل نصفي، قميصها الزهري هذا لن يكون ذا معضلة كبيرة أمامه.

ـ يوسف، على ماذا تنوي؟ لا تنظر إليّ بتلك النظرة!

أحب لحظات حياته عندما تكون مستسلمة بين ذراعيه وهي فاقدة لسانها. قال بمرح مُقتربًا من وجهها ناظرًا لها من أعلى لأسفل:

ـ ماذا؟ هل تخافين الآن؟

بلعت ريقها بصعوبة ثم قالت جملة منقطعة بسبب التصاق شفاه يوسف بها:

ـ أنت لن تؤذيني... ل...

كل أصوات الاحتجاج والصراخ داخل عقله اختفت، الإعصار قابله سكون، سكون غارق لأخمص قدميه بمتاهة حب يحوطه ويلات.



أقفلت أنعام الباب وقالت بصوت منخفض مانعة أمير من الاقتراب لغرفته:

ـ لقد نامت بني، دعها ترتاح.

ـ حسنًا، سأفعل، أمي على ماذا تحدثتما؟

ـ طلبت مني قراءة القرآن وأن أعطيها نسخة منه.

ضربة قاسمة! لم يكن يدرِ بخلده بأن الأمر يمكن أن يكون دينيًا قط، لم يكن يعرف بأنها...:

ـ القرآن! هل تقرأه؟!

أجابته ببرود معطيه إياه كارتًا صغير:

ـ أجل، وخذ هذا، رقم طبيب نفسي تعرفت عليه وأنا قادمة لك، لعله يعينك على مساعدتها، إنها فتاة طيبة، حافظ عليها بني.

وأردفت بنبرة لا زالت باردة بعض الشيء:

ـ كل عام وأنت طيب، لقد اقترب رمضان.

أمسك أمير بيد أمه واستشعر التغيير واللين فيها حيث أنها لم تسحبها منه بضيق، فقبلها قائلًا:

ـ وأنتِ طيبة يا أمي، هل لا زلتِ تكرهينني؟

دمعت عينها فمسحتها سريعًا قائلة وهي تحدق ببنيته وكأنه عاد للتو صغيرًا فيهما:

ـ لا يمكن لأم أن تكره ابنها، أنت نوري وخلفتي التي خرجت بها من هذه الدنيا.

قبل رأسها مُجيبًا بعمق:

ـ سامحيني أمي.

ربتت على كتفه وتمتمت بألم:

ـ يعلم ربي بأنني سامحتك منذ زمن طويل، ولكني مصدومة بك يا بني.

أخذها بين أحضانه ليهدأ، لقد لانت أمه وكان بحاجة لحضنها والربتة على كتفه ومسح أحزانه؛ فهو الآن تغير تدريجيًا، ربما حورية السبب، ربما هو السبب، المهم أن أمه عادت له وهو أصبح ابنها مجددًا:

ـ آسف، لم أقصد أبدًا.

ـ ليحميك ربي من كل سوء يا بني.

ـ وأبي، هل تقبل الحقيقة؟

كان سؤاله عفويًا وسريعًا مما جعل أنعام تدرك بأنهم عادا في علاقتهما كما السابق، فابتعدت عنه ململمة أشياءها للهرب من جو العاطفة الأمومية المشحونة:

ـ انتظره، تعلم بأنه لن يغير موقفه بسهولة، ربما يغيره عندما يأتي الولد.

ود أن يقول لها «**أنها ليست حاملًا**» ولكنه تابع حديثه بجمله أخرى:

ـ ربما. ألن تبقي قليلًا؟

ابتسمت بحنو وهي تفتح الباب لتخرج:

ـ لا يا بني، يقولون بالأمثال الشعبية (**يا بخت من زار وخفف**).

صمتت هنية ثم تابعت وهي تنزل على الدرج:

ـ مع السلامة بني، ومبارك لك زواجك، عسى أن تكون زيجة صالحة لك.

ـ مع السلامة.

وأغلق الباب خلفها لينظر بالكارت وأخذ هاتفه النقال وفتحه وقرر الاتصال بالطبيب (**سامي وجيد**) المتخصص في الأمراض النفسية.



حملت أنعام رحيق تلك اللحظة الصافية بينها وبين حورية وهي في شقتها، رأت محمود لأول مرة في حياته يصلى ويفتح القرآن، منذ أن تزوجا وفضل أن يعيش بدائرة مفرغة من إلقاء اللوم على الجميع، حتى محاولاتها الأخيرة للقاء تنتهي دائما بهجر

طفيف، كلما اقتربت منه أشواطًا تراه يبتعد عنها أشواطًا أكثر؛ فبعدما ظنت أنه بدأ يلين ويقترب تلقائيًا لفظها بأدب، مجرد ابتسامة طفيفة وكلام هادئ ليريحها ويريح نفسه غير أنها باتت تعلم أن محمود من كثرة ظنونه بانكساره أصبح موقنًا أنه غير قابل للإصلاح. ليس معنى أنه قعيد أن يستسلم للكرب والسواد، ولكن بدأ يستمع لها ويصلي، ربما تعد الصلاة أول خطوة بالطرقات المتعددة لإصلاحهما.

ابتسمت بلطف بعدما دخلت غرفتها مُتذكرة لهفة حورية الخافتة وابتسامتها العطوفة ونظرتها الضائعة وهيئتها المزرية، كانت كالقشة ضعيفة للغاية، إن نفخت بالهواء فيها تطير، وفهمت بنظرة الأم الثاقبة أنها بحاجة للحديث المغلق من أم لابنة، وبعد أن نظفت نفسها حتى بدأوا الحديث.

- ماذا بكِ عزيزتي؟ لماذا تبدين هكذا؟

لم تجبها بل ارتمت في حضنها وهي تهذي ببضع كلمات قليلة:

- أرجوكِ أمي، اقرأي عليّ كلمات القرآن، فهي تريحني، إنكِ تشبهينها، تشعين نورًا مثلها، إنكِ هي!

أومأت برأسها وأجلستها على الفراش ثم بدأت تقرأ بضع آيات من القرآن ناظرة لإيفت المحدقة بالحائط وتتحدث بكلماتٍ مكسورة ولم تفهمها قط بسبب بكاؤها الحاد:

ـ اعتدوا عليّ، أنا تعبت، أريد الحرية من كل هذا، أظن نفسي قوية، ولكن عند وجود أبى أشعر وكأنني أقل شأنًا من الحشرة.

رتبت على كتفها، فطلبت منها وأن تسامحها على كل ما فعلته، ونفذت أنعام الطلب بلا تأخير وقررت حينها مسامحة الجميع لا إيف فقط.

ـ أنعام، كيف حال ابني؟

صوته العميق الهادئ اعتادته قليلًا، غير أن به لمحة خضوع أخرجها من كل شيء. حدقت به وهو يتقدم بثبات بكرسيه نحوها:

ـ بخير، ولكنه مشتاق لك، حاول أن تغفر له، الفتاة طيبة وتحتاج حقًا للمساعدة، أرجوك تقبل الواقع.

عقد محمود ذراعيه ولم يقل بكلمة. صحيح أن القرآن هدَّأ من ناره بشكل لم يسبق لها أن هدأت من قبل، ولكن لا يزال عنيدًا صابرًا متمنيًا أن يكون كل شيء محض كابوس ريثما ينته سيفيق منه.

ـ لا أقدر أنعام، ليس الآن، حتى بعدما جلست أناجي ربي لا يزال بداخلي جمر تحت الرماد.

أمسكت يده وابتسمت بعطف وقبلتها قائلة:

ـ خذ كل وقتك، ولكن لا تتأخر كثيرًا، فابنك يتحطم!

شد محمود على يديها مما جعلها ترتبك عندما انحنى هو الآخر ليقبلها، بدأ بتولي زمام المبادرة والإفراط في المشاعر، ويحل قيده ليتنفس الحرية من سجن القهر والغضب:

ـ آسف، يا خلي القلب ورفيقة العمر.



بعد مضي أكثر من أسبوع، كانا يسيران بأحد شوارع وسط البلد كنوع من التغيير بسِمَة حياتهما، فبعد أن اتصل أمير بالطبيب وحدد معه موعدًا وحياتهما أصبحت مقتصرة على الذهاب والعودة منه، ولهذا قرر أن يأخذها ويريها جميع الأماكن بمصر كما سبق وحدث من زمن قريب بعيد. كان عليه أن يضع خطة مناسبة وملائمة لعلاجها، أن يشغلها قدر الإمكان صباحًا، وحتى في المساء حتى تستطيع الشفاء مما هي فيه.

أمسك يدها بحنو:

ـ هل تشعرين بأنكِ أفضل حالًا مع هذا الطبيب؟

أجابته بابتسامة أحبها، فتلك الحورية أصبحت أجمل عندما بدأت في تشذيب نفسها من بقايا الماضي البشع:

ـ أجل، عبئي بدأ يقل قليلًا رغم أنني أشعر أحيانًا بمدى سفالتي واشمئزازي من نفسي.

احتضنها فورًا لتأنيبها وليحميها من أذى لسانها على نفسها.

لقد علمت حورية الأمير كيف يكون متواضعًا ويمنح الحب للناس بدلًا من جرحهم، غرستْ فيه كيفية التعبير عن المشاعر بأكثر الطرق رقة وهدوءًا دون أن يتسبب في نسف الآخر شعوريًّا.

ـ لا تقولي هذا، إنه ليس خطأكِ، بل غصبًا عنكِ.

تلمست كتفه مستمتعة ولم تنتابها أي أفكار أو تخيلات، لأول مرة في حياتها تبدو هادئة الأفكار تبدو محبة، كل هذا بفضل الطبيب النفسي الذي يساعدها في التغلب على مشاكلها وعقدها كلما ذهبت بانتظام إليه، بالإضافة لأمه أنعام والتي تحرص على الاتصال بها كل يوم لمتابعة أخبارها وتلقينها بعض الدروس الدينية التي تجعلها تفكر في الخطوة التي تريد بشدة أن تنفذها، والتي اقتربت بدخول شهر رمضان عليهم.

صحيح الأمر صعب، ولكن من ذا الذي يشعر بالصعوبة وكل ليل بجانبه وردة بيضاء وكلمة عطوفة هادئة وعشاء يُعد منزليًا، ومع هذا لا يزالا يتعاملان بحذر أو إيف ما زلت تتعامل معه هكذا، فهي تخاف من كل حركة مفاجئة وأن تكون بحلم وتجد نفسها بلا شيء، فليس من السهولة الدخول لمعتركها النفسي ويكون بها قوة أو خزينة طلقات لذكريات سعيدة تقتل بها عدو الماضي والحاضر، بل ليس من السهولة تحديد ما الذي ينمو بداخلها نحوه فهي لا تعرف، أيعادل حب إيزرا أم مختلف؟!

لا تعرف، أيهما من بحق يستحق شرف القبلة الأولى التي طالما حلمت بأن تعطيها لمن أحبت؟

لا تعرف، أهو يسعى لكسب حبها أم شيءٍ آخر؟!

والأهم، لا تعرف سر الوردة البيضاء التي يجلبها معه دومًا.

تحدثت بكل ما جال بخاطرها:

ـ أعلم أنك وضعت ظلمًا بقوقعة زواجك بي، ولكنني أعدك بأن أحررك منها وأخبر أمك وكل...

قبلها على رأسها قائلًا:

ـ لقد أخبرتك بأنني تركت كل ما يخص الماضي وراء ظهري.

أجابته بامتنان وشعرت بانفصالها عن العالم كلما أخذها بأحضانه بتلك الرقة الخالصة من أي شهوة مريضة:

ـ سأظل طوال العمر أحمل لك هذا الجميل.

ـ مجددًا!

قهقهت بمرح.؛ فلقد لمست في صوته الانزعاج الذي تستمع بإثارته ولو لدقائق:

ـ حسنًا، آسفة، لا تبتئس.

بسمة حالمة زينت ثغره وهو يجيبها:

ـ الشيء الوحيد الذي يجعلني فعلًا سعيد هو أن تقوليها.

علمت إلى ماذا يسعى، إنه دائمًا يريد دفعها بتلك الزاوية، يريد أن يعرف هل قلبها حر أم مشغول به؟! الغريب أنه لا يعلم بأن قلبها – بحالته الجديدة – أصبح واحة تستقطب المزيد من الأحبة وليس واحدًا، فأولهما أنعام بكل حنانها ورقة قلبها.

ـ الطبيب قال لي أن أركز فيما يساعدني على إخراج عقلي من أي مؤثرات أو مواقف عاطفية.

شدها من يدها مُجيبًا:

ـ حسنًا، سأنفذ أوامره وأوامرك، هيا بنا.

تفاجأت من سرعته وعزمه الذي هبَّ فيه فجأة، فقالت من ذهولها:

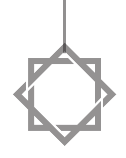
ـ إلى أين؟

نظر إليها وقال شيئًا لطالما وضعته بعدة حروف وكأنه جنيًا يعلم ما تريد:

ـ إلى واحة الأمنيات، حبيبتي.

وضع يدها على رقبته وسحبها لتكن على ظهره متحركًا بها غير عابئ بسخرية الناس من حوله، فجل اهتمامه هي تلك الضحكات الصافية التي صدرت من حوريته وهي تهمس في أذنه:

ـ عليك أن تكف جنونك وتعطيني ورقاتي!



# الفصل الثامن والعشرون

ضحكتها وابتسامتها لا تتوقف، لا تصدق بأن هناك مكان شبيه بجنتها التي أُخرجت منها، لا تصدق ما يحاول أمير إبداءه لها، لقد تحول بسرعة قياسية لإنسان لطيف، متفهم، لا يجرحها قط، ولا تصدق بأنها تضحك معه وتقبل مزاحه اللطيف وأحضانه. لعلها بدأت تتقرب منه بشكل آخر، لعلها بدأت تعرف طريقًا للتشككات.

الحياة تعاقد مدى العمر، تقبل بشروطها لأن بها شيء يستحق أن تعيش لأجله. الحياة قاسية، أحيانًا بل كثيرًا، ولكن ليس بك القدرة على تركها، فبرغم كل شيء ينالك من حق وجودك عليها تحبها ولا تريد الفكاك منها.

كانت واقفة أمام إحدى مدن الألعاب متمسكة بيد أمير والذي كانت تحتضنها بقوة هامسًا بدفء بجانب أذنها:

ـ الأمنية الأولى؛ أن أدخل مدينة الألعاب، تحققت.

اغرورقت نفسها بدموع الفرحة وعدم التصديق، إنها بالمكان الذي رسمته يومًا، كانت مجرد رسمة من رسومات طفلة محرومة من العيش، جل ما أرادته أن تستمتع بنهكة طفولتها البريئة وأن تتمرد على الفلاحة بالمزرعة والتدريب في المعسكرات، أن تختزن ذكرى جميلة لساعة من الطفولة المُحرمة، أن ترقص، تفرح، تضحك؛ ولكن هنالك شيء ناقص بتلك الصورة؛ لم يكن هذا الشخص المبتسم الحالم هو الصحيح!

ـ سأحقق لكِ أمنيتن وبعدها سأعطيكِ دفتركِ لتحرقيه.

فور أن ابتعد عنها رآها تبكِ فأردف بقلق:

ـ لمَ البكاء؟ لم أقصد أن أضايقكِ بالذكرى، ولكن أريد أن أفرحكِ فمن حقك العيش بإنسانية وأن تعيشي بواقعي أنا.

من الصعب أن تعيش بزي إنسان حُرم من آدميته لفترة طويلة، تطمح في العودة للإنسانية على ظهر أرجوحة، الأمر أكبر من هذا، الأمر مسألة طبيعة أو أرض كانت يجب أن تنبت فيها فأصبحت نبتة ممسوخة القوام. ليس بسهولة أن يعيدها صالحة بتحقيق الأمنيات.

اشتدت قبضه يدها على خصره:

ـ الأمر يشتد صعوبة يا أمير، لا أستطيع القيام بهذا، لنعد للمنزل.

- حاولي، أريدكِ أن تحاولي وتستمعتي بالحياة أكثر، إن لم تحاولي لنِ تعرفي طريقًا للشفاء، حققي كل أمنياتكِ لتكوني أفضل حالًا مستقبلًا.

سرحت ببصرها عندما تحدثت للطبيب النفسي لأول مرة، كانت متحفظة حيال الإدلاء باسمها أمامه، ولكنه سرعان ما أجابت بعد محاولات عدة لتطمينها:

- اسمى إيف، وإيفت عندما تقتضي الظروف.

وقتها سألها بهدوء وهو يدخن سجائره:

- وماذا عن حورية؟

- إنسانة بعيدة المنال عني، إنها تبتعد وتقترب وقتما تشاء.

- لماذا لا تحاولين أنتِ الاقتراب منها؟

- إيف تمنعني، وفاؤها يمنعني، ووفاؤها له خيانة لحورية.

- لا يمكن الاستمرار بالحفاظ على كلتاهما معًا، في النهاية يجب عليك التخلي عن أحدهما والتشبث بما يمثل لكِ الأمان.

- ضريبة الحياة الحلوة التي تمثلها حورية أجمل بكثير، ولكنها ليست بجمال حياة إيف.

- ولكن أحدهما خيال والآخر واقع!

حدقت به بصمت تام، رافقه شبح ابتسامة باهتة، مُتذكرة وقتما هربت من أبيها نهارًا يوم شتاء قارص هطلت فيه الأمطار على القدس بكثافة، كانوا في بئر سبع يسيران متشابكان الأيدي

وبحذر، حيث أن الشوارع غير الممهدة التي مشوا فيها كانت مليئة بوحل كثيف لزج يشبه دائمًا أهل المنطقة الشرقية بالبرغل «**الحنطة المجروشة**»، وقتها أخذت إيف القليل من الوحل وألقته على إيزرا بضحك حتى غضب وقرر معاقبتها بالمثل.

ذكرياتها الضاحكة انقطعت بصوت الطبيب:

ـ حدثيني عن عائلتكِ.

وقتها اشتعل الزبرجد بمقلتيها لنار والرغبة بالانتقام بلغ ذروتها بالسريان في أوعيتها الدموية لتحرقها بذكرى عطنة تود أن تنتزع رائحتها منها كلما ودت العيش بالماضي.

ـ ليس لديّ عائلة.

قبلة رقيقة على وجنتيها تبعها صوت أمير المحموم وهو يستنشق رائحة شعرها بجنون:

ـ أحبكِ جدًا وجدًا وجدًا.

سمحت له بأن يدس أصابعه ويشبكها بيدها، عيناه ولهانه هادئة رافقتها بسمة راضية لتسمح بالتساؤلات بغزو عقلها.

إلى متى الوفاء؟

إلى متى تمني شخصًا لم يعد موجودًا؟!

إلى متى التشبث ببطلٍ من ورق؟!

أجل إن إيزرا لم يكُن سوى بطل من ورق، غرس وتعب ولكن عندما هطل طوفان الغضب عليها تركها تموت، سنتين من العمر بل أقل منهما كانت ثمن خصامه وابتعاده عنها، سنتين

ضاعتا برحال عائلتها الحقيرة تُهان وتدرب، وعندما تبحث عنه ليعينها على الوقوف أمامهم بشجاعة لا تجده، والحجة أنه مستاء مما فعلته بدلًا من أن يتفهم وضعها بموقف لا تُحسد عليه. بحثت عنه بكل مكان بورشة الحدادة، بسهل عكا ولكنه اختفى، طار في الهواء وتبخر، تطلب منه النجدة فلا تجد من يغيث، تطلب منه الحب فتجده وبوفرة.

لنعد مقارنة وفيهما نخلص من حل المشكلة والمعضلة بينهما لتخرج منها باختيارٍ واحد فقط:

من منهما ينتصر بالمعركة مع الوحش؟

من منهما بحق يُغيث؟

من منهما يحب بلا سبب؟!

من منهما بطلٌ من ورق؟!

سألت نفسها وهي تسمعه يتغنى بكلماتٍ جميلة بأذنها، يسحبها من يدها متجهًا ناحية أرجوحة كبيرة مستطردًا حديثه:

ـ لنحقق حلمكِ الأول.

هل عليها أن تأمن له؟ أن تستسلم لتيار الغربة بوجوده؟! إن انسلخت من البيئة التي عاشت بها في الماضي لن تعود لإيزرا مهما كلف الأمر. أهي توهم نفسها؟

أي إيزرا وأي حب تحمله بطياتها؟!

لو مرت أمامه فلن يعرفها، فكيف يمكن أن تتأكد من أنه لم يحب، لم يتزوج؟

هل تظن بأن لها بيئة وأرض ثابتة لتعيش عليها بقية عمرها؟ كل ما تحسه وتشعره محض خيالات، افتراءات لا أساس لها، مجرد تركيب من الماضي لا تفتقر حتى لإمكانية الحلم والمعيشة للحياة، أنها بغربة سواء كانت بمفردها ووفاؤها لإيزرا أو بوجودها بعيدًا عنه بأرضٍ أخرى.

لماذا يعدُّ أمير شيئًا خاصًا؟

لماذا تحب وجوده واستفزازه أحيانًا؟

لماذا لا تكلف نفسها بالبحث عن حقيقة ما دفعها لأن تتمسك به أكثر؟!

لماذا لا تجد سببًا مقنعًا بدلًا من العيش بمسألة الضحية وأنها تريد الانتقام؟

لماذا هذا الشعور الحارق فيها كلما أصبحت بجواره؟!

لماذا تلك الأيام التي عاشتها مع أمير بدون أن يمسها بسوء أو بحب كانت أجمل لحظات حياتها أو ربما أجمل من لحظاتها مع إيزرا نفسه!

لماذا تحس بأنها تجلس على قمة العالم في تلك اللحظة؟

لماذا أصلًا تضع كل هذه الأسئلة؟!

أليس الأمر واضحًا ومفهومًا؟

أليس الأمر يتعدى وجود إيزرا بقلبها أم لا؟!

في استغراقها لتساؤلاتها كانا قد جلسا بأحد الألعاب واترفعا سويًا في الهواء وأمكنها أن ترى كل مصرايم من مكانها وأن تشعر

بشفاه أمير تقبل يدها بحنو وهمسة دافئة بأذنها لعلها بقادرة على إتاحة السبيل، لأن تبدو أخيرًا بوطنها معه بعد سنوات عجاف من الغربة القلبية.



رجلٌ دائخٌ بشرنقة الماضي، لا منه يريد الخلاص ولا التحرر، أصبح كالدمية التي أتلفت خيوطها فأصبحت غير نافعة لمحرك الدمى.

ريتشيل تلك اللعينة العربية من أين أتت؟ وكيف ولجت لداخل عقله؟

يا للعنات الشيطان إنها محفورة بفصوص مخه تتنقل من خلية لأخرى لتحتلها، لم يصبح هناك شيء في الذاكرة سوى ريتشيل تبكي أو تضحك، وجيليللا انتهت لم تعد بتفكيره، فقط حاجة ملحة للانتقام فحسب.

ـ هو يحاول إخراجها من عقله بلا جدوى فهي عنيدة للغاية.

هنالك شيء ينبض بين تجاويف صدره الخاوي!

عذاب أم حب؟!

لا يعلم، ولكنه أكثر مرارةً من العذاب وأكثر حلاوة من الحب نفسه!

أين هو وماذا حدث في تلك الليلة اللعينة؟

كل ما تذكره بأن كل شخصياته هبت فيه لحظة أن أطبق بشفاهه على ريتشيل وأن كل أحاسيسه البشعة والناعمة هاجت وماجت كالبحر بداخله. لم يستمع لأي شيء ولا حتى من موعظتها الدينية بخطأ ما ينوي عليه، بل صرخ فيها وهو يحاول بشدة إجبار يده على تمزيق ملابسها:

- ادعيه أن ينقذكِ مني ولن تجديه، ادعيه أن يعيدها إليّ ولن تجديه.

كانت ترتجف بقوة بين ذراعيه فأراد أن يزلزلها أكثر فأمسك كتفيها وأخذ يزجرها بعنف:

- كيف يمكنكِ أن تثقي به؟ بل كيف يمكنكِ أن تثقي بي أنا؟ لقد حفرتِ قبركِ بيدك، استسلمي لي واخشيني.

دفعته عنها وسقطت في الأرض صارخة:

- لن أخشاك أبدًا، لن أستسلم لك ولمحاولاتك لإهانتي، إذا كنت لا تريد التوبة فلتذهب للجحيم، ولكن إياك وأن تجرني معك لها، الرب نوري ومحبة، وإنه قوي وقادر على حمايتي منك.

وقتها نظر ليديه وقال باستخفاف وأحس بدموعه تبلل وجهه:

- أترين يدي هاتين؟ لا شيء يمنعهما عن أذيتكِ، لا شيء يمنعني عنكِ، لا شيء حمى جيليلا.

أشار بيده نحوها وأردف ماسحًا دموعه الخفية:

ـ كنتِ على مسافة إنش دقيق جدًا وأفجر رأسكِ، كنتِ على مسافة صغيرة من أن أعتدى عليكِ.

صمت لبرهة ثم بدأ بإمساك رأسه بقوة وقد بدا وجهه يميل للون الأحمر:

ـ قولي لي ما الذي يمنعني إذًا؟ قولي لي شيئًا أستطيع أن أسكت تلك الأصوات الحمقاء برأسي.

ـ الرب يحميني، الرب محبة وتسامح، الذي يمنعك هو المحبة.

ـ عندما أتخيل طعنك بالسكين باللحظة التي تكون خاصة جدًا بيننا فهذا كفيلٌ أن يجعلني عدوًا لا حبيبًا.

صمت لبرهة ثم أكمل وهو يمرر بنظره الملتهب على قدها الساقط على الأرض بإغواد مقصود:

ـ أنتِ لا تحبيني قط، أنتِ فقط ترينني تعويضًا، لعبة تريدين تصليحها.

ـ وأنت كذلك، لا تحبني كما تدعي، أنت فقط تراني تعويضًا، لعبة تريد استخدامها.

انزوت شفاهه بنصف ابتسامة وصمت لدقائق حسبتها ريتشيل ساعات تحدق فيها بهيئته المبعثرة، أو نظراته الجامدة التي هدأت وتيرتها بكلماتها.

الغريب أن ببراءتها وبشجاعتها كشفت له أنه مرئي، غير غامض ومهما تعددت أفعاله يصبح دائمًا بلا وجه أمامها، وكذلك هي، ولكنهم يعلمون النقاط التي تدفعهم للانجذاب.

تمتم وهو يلتقط علبه سجائره من جيبه وينفثها بالهواء:

ـ أجمل شيء هو أننا نتفق على أن نكون بمنظور واحد تمامًا كما أسعى.

ـ نحن لسنا واحدًا، أنت لم يتبق فيك شيء لتحبني، بينما أنا أحاول الحفاظ على ما تبقى مني.

قالتها وهي تنهض من مكانها غير مكترثة بما قالته أو تشعر به، إنها مثل الفراشات التي تنجذب للنار لتحترق وعليها الركض بعيدًا؛ فالأمر مستحيل، مستحيل أن تصلح شخصية تفتت لقطع صغيرة جدًا.

ـ يوسف، لقد قررت الرحيل.

وكأن قرارها لم يعد مسموحًا به، وكأنه أصبح طائشًا هائجًا، وقتما رمشت فقط بأهدابها بعد جملتها حتى رأته أمامها وبين ذراعيه وقد أصبح قاسيًا بطريقة إمساكه لها:

ـ ليس القرار لكِ، ليس وقبل أن تجيبيني عن الأسئلة بطريقة علمية.

بلعت ريقها بصعوبة وتنفست بقلق ليردف مطيحًا بكل أفكاره الإلحادية جانبًا:

ـ لماذا اختارها؟ لماذا مهما فعلت لا أشعر بالراحة؟! لماذا لا يشفى غليلي قط؟

حاولت ريتشيل أن تكون صلبة وأن لا تهتز وتخاف، لا يمكنها أن تظن بأن يوسف بقادر على إيذائها.

ـ إنه القدر، لا تملك حق الاعتراض عليه، لأن لكل شيء مؤلم نمر به يوجد شيء جميل يعطينا إياه، إن الرب يختبر إخلاصنا والحب بداخلنا للجميع، إنه لا يفعل شيئًا يضرك، حبي لأمير كان لعنة أعترف، بكيته أعترف؛ ولكن كيف لي أن أضمن إذا كان أمير هو قدري أو سيكون رؤوفًا بي ويحبني بالقدر الذي أحبه؟ حتى وجودي مع مريم وفكرة الرهبنة تلاشت من عقلي فور رؤيتك، أصبحت متأكدة من أن وجودي بالحياة لمساعدة الآخرين وهذا أجمل وأحب عند الرب.

صمتت لبرهة ثم أكملت وهي تزيح يد يوسف بالقوة بعد أن استشعرت تهاوي قوته عليها رويدًا رويدًا:

ـ إن غليلك لا يشفى إلا بالحب والتسامح، التسامح هو الصفة الوحيدة التي تشعرك بالوطن لأنه هو الراحة والسكينة والهدوء.

وضعت يدها على وجنتيه محاولة امتصاص كل السواد المستشري تحت جلده الشفاف الأبيض لعلها بلمستها أن تخرج الجني من داخله لآخر مرة، لاحظت أن عينيه تسيل بمائها وأنه

شعر بضعفه فأغمض عينيه حتى لا تقرأها، تقرأ مأساتها في حزنه الدائم.

- رتل معي بعض آيات الإنجيل، إن قرأتها بكل خلية في جسدك ستجد فيها ما يُريحك.

هز رأسه وخبط بكلتا يديه على الباب قبل أن يمسكها من ذراعها ويلقيها في الخارج:

- اذهبي بعيدًا عني، لا تعودي لطرق بابي، إن فعلتِ فأقسم بأنني لن أترك يدكِ لتدقي بها.

وبعد أن أغلق الباب أخذ أنفاسًا قوية وهو يخبط بكلتا يديه على كل شيء يطاله في الغرفة، لعله يهدأ من ثوران انتابه فجأة. كعادته دومًا يغلق على مشاعره ويضيق عليها ومن أقل شيء كشكة إبرة ينتفخ ويفرغ كل ما فيه كالإعصار.

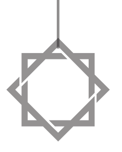
عاد لواقعه بفندقه المزري، نائم على سريره بعد أن ظل يعيش كطيف إنسان ينبت بداخله، كلما أغلقه عينه رآها، كلما سمع شيئًا يسمع ترنيمها، ضحكها، ملامحها، أنفاسها، كل شيء بعقله يقول ريتشيل، وكل شيء خططه محوره ريتشيل، وجيليللا كالهواء ضرورية للمعيشة. ريتشيل تدفعه لقبول الأمر الواقع والتوبة وهذا عذاب أكبر من عذاب الانتقام والثأر الذي لا يشفيه. تدفعه لأن يختار مجددًا أو يعيد اختيار إجابة سؤال حياته:

«**ماذا يفعل؟!**»

لقد اختبر الإجابة الأولى ولم تكن صحيحة أو شافية وربما الثانية تُفيد!

أخذ نفسًا عميقًا تلاه تنهدًا قويًا ثم فتح هاتفه النقال ليرى صور ريتشيل وهمس بصوت خفيض وهو يلمس شاشته وكأنه يلمسها:

ـ عليكِ أن تفسحي لي الوقت وتختفي من عقلي لأستطيع التعامل مع هذا بنفسي!



# الفصل التاسع والعشرون

الحياة؛ تلك الكلمة التي لا تعرف سرها، تغوص فيها بكل قوتك ولكنك سرعان ما تجد نفسك خارجًا من بحورها دون أن تعلم فحواها. الحياة أصعب مما تظنها، تظن بأنها سهلة المنال والمعشر، ولكن هيهات الأمر أصعب من هذا بكثير، لقد تفهمها أمير جيدًا واستوعبها، بينما إيزرا لم يفهم، تعامل بإنسانية معها، بينما أمير تعامل ببشرية محضة.

«**الطيبون يقضون نحبهم بسرعة**»

لا يمكن وصف نفسك بإنسان طيب جدًا فهذا يعد خللا بك، أنت أضعف من أن تواجه وتصد، أن تضع الخطط للهجوم بحالات الخطر؛ باختصار الطيبون يفتقرون لمبدأ دارون الشهير (**البقاء للأقوى والأقذر وأكثرهم قدرة على التصدي لوحوش الطبيعة البشرية دون أن يتحول أو يكن خنوعًا لهم تمامًا**).

أمير أهانها، عاملها بقسوة، ذلها، ولكنه مع هذا يقبل يدها ويحنو عليها مؤخرًا، يسمح لها بأن تعبث بأناملها في شعره البني ويستند برأسه على صدرها يتمتم أحيانًا كالأطفال بأشياءٍ أكبر عليها أن تفهمها، يغازلها مغازلة بريئة بقدر ما تسمح لنفسها ويسمح لها تعليمات الطبيب.

كانا يدوران بالهواء وهما محتضنان بعضهما بقوة وكأنهما تؤامان ملتصقان، هل هما وجهان حقًا؟ ربما ما يجمع بينهما هو البيئة أو الحياة القاسية!

تمتمت زافرة الهواء بارتياح كبير ومستنشقة رائحته الرجولية:

ـ ليت هذا حدث من أول يوم تقابلنا فيه، ليتنا كنا بظروف وبلاد أخرى!

ـ عندما ظهرتِ لي وأتيتِ لعالمي قلبتيه رأسًا على عقب، أظهرتِ نصفي السيئ ونسيتِ حقًا من أنا.

إجابته أضحكتها طويلًا حتى أن جسدها بدأ يرتج تحت أنامله فابتعدت عنه قليلًا لتستكمل ضحكها مما أثار استغرابه:

ـ أقلت شيئًا مضحكًا؟!

استدركت تلك اللحظة المرتبكة في عينيه البنيتين المتعلقة بسؤاله المرتبك مثله وقالت بعد أن هدأت ضحكها:

ـ أنت لا تعلم هذا، ولكنني كنت بحاجة لشخص سيء.

زم أمير شفتيه استياءً وأمسك بيدها استعدادًا للنزول من الأرجوحة التي توقفت للتو:

ـ سأتغاضى عن مقولتكِ تلك، هيا لنجرب لعبة أخرى.

ابتسمت وهي تسير معه بتلقائية وسلاسة، وجوده حارق ومريح، معه أعادات اكتشاف الحياة والمشكلات التي تمنعها عن العيش؛ فالفترة التي عاشتها خارج بلدها الأم وخارج قلب إيزرا عاشت بها ببؤس.

أغمضت عينها تستمع لضحكات الناس من حولها وتشم رحيق السعادة بكل ضمه ولمسة يد، تستسلم ببطء لأن يسحبها حيثما تريد وتفقد إرادتها الحرة لتحتفظ بساعات الطفولة؛ يا لروعة هذا الشعور، القدرة على أن تكون بريئًا لا تعلم أي شيء عن الدنيا سوى قطعة حلوى وأرجوحة!

ـ تبدين جميلة بكل حالاتك!

فتحت عينها لتجده محدقًا بها بنصف ابتسامة ثم أردف وهو يشير بأصبعه:

ـ أتريدين ركوب القطار أم العربات؟ لا يزال اليوم في بدايته.

أثارت انتباهها رائحة غريبة قبل أن تجيب، فبحثت عن سر الرائحة حتى وجدت شخصًا يقف أمام عربة يعطي الأطفال شيئًا زهريًا.

ـ هل تودين تناول غزل البنات؟

استدارت لتحدق به مستفهمة، فأردف بابتسامة وهو يشير ناحية الرجل:

ـ إنه غزل البنات، عبارة عن سكر ومغزول، انتظري لحظة.

هلع ناحية الرجل بعد أن أكمل جملته ورأته يطلب شيئًا منه، ولاحظت استغرابه عندما تمتم له شيئًا وبعدها ضحك أمير عاليًا ثم عاد إليها بعد أن أخذ نصيبه من غزل البنات قائلًا:

ـ إن الرجل لم يصدق نفسه عندما بلغته بأنني أريده لنفسي ولزوجتي، قال بأن غزل البنات للأطفال ولكنه لا يعلم بأنني لدي طفلة. تفضلي يا طفلتي.

أخذت هذا الشيء مبهورة بألوانه الزاهية غير مهتمة من أمير إطلاقًا المحدق بها بوله وتيه مستمعًا بنظرة الفرح والمفاجأة الطفولية التي تعتلي وجهها وهي تقربه من أنفها لتشمه، وضع يده على يدها وقال وهو يفتح فمه مشجعًا إياها لتفعل مثله:

ـ إنه يؤكل لا يشم!

تمتمت إيفت بصوتٍ على بعد أن تذوقته:

ـ طعمه جميل جدًا.

لم يفعل أمير شيء سوى مراقبتها وهي تنهال على غزل البنات آكلًا بنهم وكأنها أول مرة تراه وتتذوقه، رق قلبه لحالتها فهي لا تعرف شيئًا عن العيش واللعب مثله، سعادتها الآن غايته وسيحققها حتى يتم عمله على أكمل وجه ثم يطلق سراحها الحقيقي.



**«لقد أصبحت غبيًا يا شيخ!، لم تستطع حفظ مشاعرك أمام ناظري والدتك ولا يمكنك البوح بها أمامها، عُقد لسانك كالأبكم واستقبلتها منذ أن عادت بابتسامة ودودة وشكيمة تثبت كل مدى أن بك عاهة، وحتى قوتك وشجاعتك وحزمك لأمرك بإطلاعها اختفى فور أن رأيتها أمامك، وفور أن رأيت السخرية الظاهرة بعيني أمك على لجلجتك وتحدثك المعتاد بأنك فقط تسأل عن صحتها وأحوالها»**

كانت هذه أفكار زاهر، وهو مُستغرقٌ برؤيتها تستعد للرحيل ولا زال يُفكر؛ لماذا تصعب الكلمات أمامها؟ لماذا يظل صامتًا؟ فلقد فاتت ثلاثة شهور ونصف منذ أن – ما يعتبره – تخرج زينب؟!

لقد أصبحت بمثابة شابة متعلمة وتطمح خوض التعليم في الثانوية العامة والكلية. عندما نرى من نحب نؤثر الصمت دائمًا.

هل لأنه يملك نقاط الضعف أم لأنه – بالنسبة لنا – يمتلك نقاط القوة فينا؟

ثلاثة شهور ونصف يتلظى فيهما بجسده ومشاعره على نار الحب الوهاجة، ينسحب الأكسجين من جسده كلما جاء ولم يجدها ثم يعود محملًا بعبقها الشجي عندما تعود ليجد بقلبه الحياة والتنفس.

كلما ذهبت ينتابه جنون بأنها سترحل وللأبد لأمها من دون البوح بمشاعره، والأدب واللطف والخوف من جرح مشاعرها يعدوان السبب بلجم لسانه.

ـ كن وقحًا بأدب يا زاهر!

قالها زاهر لنفسه بعد أن هيّأ نفسه لمحادثتها وألا يجبن أبدًا.

ـ أنا سأذهب لأطمئن على أمي.

قالتها ببسمة وهي تخفض ببصرها للأرض وتضع على وجهها النقاب مستطردة حديثها:

ـ هل تريدون مني شيئًا؟

كانت أمه تعقد ذراعيها وتحدق بزاهر بغيظ؛ فالفتاة جميلة جدًا ولكنه غبي لا يتحرك، أطرقت برأسها وهي تبتسم بينما كل أفكارها تصرخ:

«**يا أبله، إذا كنت تخجل منها هكذا فكيف ستتزوجها! تمرد يا ابني!**»

ـ كلا يا عزيزتي، أبلغي أمكِ سلامي وبأنكِ بعيني مصانة وأنني أود زيارتها عما قريب لأتعرف عليها أكثر.

ـ هي دائمًا تسألني عنكِ وترد لكِ السلام، أستاذ زاهر هل تريد مني شيئًا؟

تحاشى زاهر النظر لعينها حتى لا يضعف أو يتلجلج مجددًا وأخذ نفسًا سريعًا وجز على أسنانه قائلًا بصوت خفيض:

ـ هل يمكنني أن آتي معكِ؟ أنا أقلق عليكِ كثيرًا منذ أن علمت بذهابك لأمك، أخاف من أخيك.

ـ أجل، يا زينب وافقي.

قالتها أمه بصوت عالٍ لعله يحتاج لمساعدة منها، بينما زينب حكت يدها بمنديلها مُجيبة بارتباك:

ـ ولكن لا تخافوا إنه لن يؤذيني، لم يعد بعد للمنزل.

ـ ولكنى أحبكِ، أقصد أخاف عليكِ، لا بد أنه يبحث عنكِ، لا يمكن أن أتركك تلك المرة من دون إخبارك، أقصد حراستكِ.

تابع زاهر كلماته غير المفهومة والتي تحمل الكثير من التعثر في إخراج مشاعره دفعة واحدة، يكون شجاعًا أمام أمة المسلمين وجبانًا كالقطط أمام فتاة واحدة.

هزت زينب كتفيها ثم قالت بخضوع:

ـ حسنًا، لنذهب.

سارا الاثنان حتى خرجا بصحبة أم زاهر والتي كانت تهمس في أذنه لتساعده قليلًا:

ـ انتهز الفرصة وفاتحها يا غبي!

ـ شكرًا، ووداعًا أمي!

استقبل إهانة أمه – وإن لم تكن كذلك – بابتسامة، فهي إقرار لواقعه الجديد، إنه غبي بمسألة الحب والعشق العذري، لم يختبر قط مهارات الرجل ذو الخبرة بإشعال وجنة الفتيات خجلًا بقصائد وأشعار وكلمات الحب، إنه يشعر به، ولكن لا يمكن أن يفسره أو حتى البوح به، فكل حياته عبارة عن الكتب والدين. الشيء الوحيد الذي يستطيع فيه التعبير عن

حبه وشكره هو الصلاة لخالقه، ولم يظن بأن هنالك بشر يستحقون أن يتشاطروا الحب بقلبه.

وصلا للخان وكانا صامتين طوال الطريق، فللأسف يبدو أنه سيظل يحب زينب بصمت، هل عليه أن يظل تحت البيت أم يصعد معها؟ الحل الأخير للخلاص من تلك المعضلة أن يقابل والدتها.

ـ زينب، هل يمكنني المجيء لبيتكم؟

توردت وجنتا زينب وقالت ببراءة:

ـ لماذا؟ أقصد بالطبع يمكنك.

ابتسم زاهر وتحدث سهوًا:

ـ أريد إطلاعها بشأنكِ.

ارتبكت زينب وابتلعت ريقها بسرعة وهي تتحرك للداخل حتى لا تتصرف برعونة أو غباء أو محاولة الاستفسار عنه، فتابعها زاهر هائمًا في أثرها، يفقد الشيخ الأزهري صوابه ويغدو صبيًا يلهث وراء ابنة الجيران، بخجلها الدائم وابتساماتها الحالمة، يتأملها وهي تدخل لأمها التي استقبلتها بالأحضان ولم تنتبه لوجوده إلا عندما تحدثت بصوت خجول:

ـ أعرفكِ على زاهر، لقد أخبرتكِ عنه كثيرًا وسأقول نفس الكلمات، هو من أنقذني وعلمني وأنا مدينة له بحياتي.

ـ شكرًا لك يا بني. لم تتوقف زينب عن ذكرك كلما تحدثنا، تفضل بني لا تقف هكذا.

تحدث زاهر بعد أن ملأ رئتيه بزفير ورائحة زينب المسيطرة على منزلها، إنه متيم وواقع في حبها حد الثمالة، دعا ربه كثيرًا أن يمتلك الشجاعة ويفاتحها:

- لا شكر على واجب أمي، هل تسمحين لي؟

ابتسمت أمال وهي تراه يأخذ يدها ويقبلها، انتابها الإحساس بالأمان والحسرة، أمان على أن هذا الشاب الأزهري حافظ على ابنتها من مغبة مجهول لا يعلم سواه إلا الله، وحسرة على حال ابنها الذي لا تعلم عنه شيئًا. تمنت لو كان هذا الجميل ابنها أو يشبهه بعقله ورزانته التي لمستها من حديث زينب الكثير عنه.

- من يساعد ويقف بجانب ابنتي هو ابني.

جلس زاهر بجانب زينب بعد أن حيا أمها بالكثير من المدح، سألته إن كان يريد شيئًا فأجابها بقهوة، فقامت زينب بإعدادها نظرًا لأنها الأفضل في إعداد القهوة. بعد فترة من الصمت والتسبيح والدعاء بداخل نفسه للرب بأن يعطيه الشجاعة، وبعد أن خرجت من تعد مشوشًا لعقل وقلب ومشاعر الأزهري حتى أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- لقد أتيت لهنا لأطلب يد ابنتكِ رسميًا إليّ.

سمعا وقتها صينية تقع بالأرض، فالتفت الاثنان ناحية زينب، والتي سمعت حديثه الصغير وتلجلجت مما جعلها تسقط القهوة بالأرض، تمتمت باعتذار وقد تصاعد الدم لوجنتيها البريئتين ليجعلها مؤججة بنيران الخجل:

ـ آسفة.. أنا...

ثم ركضت للداخل بارتباك دون أن تُكمل، فتابع زاهر حديثه وكأن شيئًا لم يكن وكأن امرأة حياته لم تسمعه:

ـ أرجوكِ أمي وافقي، فأنا أحبها.

قبل أن تفتح آمال فمها للحديث أو تتابع تقييم من يتقدم بخطبة ابنتها منها حتى سمعت صوت الباب وهو يدق، تلاه صوتٌ أذاب عظامها بجسدها لتصبح قطعة من هلام، وأصبح يجترع الخوف من الطارق صاحب العقل الملتوي:

ـ أمي، افتحي الباب، أنا شهاب.



كان يسير بخطى ثقيلة حتى وصل لمقهى الفيشاوي وجلس فيه منتظرًا، لقد أدرك في النهاية ما المواجهة التي يجب عليه فعلها لكي يحدد ويعيد اختيار قرارته؛ علاقته بأبيه والشرخ الذي ينخر كل مدى بعلاقتهما المتصدعة بالفعل. ابتسامة بلهاء، حديث أجوف، كلمات لا تشفي ناره، ربتة على الكتف إن بلغ الأمر مداه من المشاعر هو كل ما يربطه ظاهريًا بهذا الشيء المدعو أبيه، السبب الوحيد الذي دفعه للقبول بالسكن والمعيشة مع جاؤون هو نفسه الذي يدفعه للعيش في دائرة الانتقام جيليلا وأبيه الشرقي الجوبييم. كاهانا، كان هو السبب وراء رحيله.

**«البقاء في إسرائيل لا يفيد يوشف أما خارجها فأهم بكثير، مهماتك تبدأ منه فالداخل نحن كفيلون به، ونحتاج لعين على إيفت أيضًا، فالحفيدة يجب أن تعود لنا بنهاية المطاف، عُد إليه وتظاهر بانصياعك لأوامره، وإن سألك أين كنت فأخبره بأنك كنت تفكر بعرضه الثمين».**

كلمات جده تحفر به وتشكله كما يريد، تتركه يختار بدلًا منه طالما لا يوجد أب يرشده. أحيانا يظن بأن أبيه لا يكره أمه فحسب بل يكره وجوده ويلعن كل ما يخصه، دائمًا أبيه يعيش وحيدًا منعزلًا عنه أيام ما كانا عائلة حقيقية وكأن كل وظيفته في الحياة هي خلقه عن طريقة علاقة شرعية بأمه ولا شيء آخر. إن واجهه بكل الغل الذي يعتمل بداخله، بكل الشك والضيق ربما يرتاح جزئيًا، ولكنه لن يتوقف فهو كالعجلة تدور في الفراغ وإن حاولت إيقافها تدهسك تحت إطارها.

لمحه من بعيد آتٍ ومعه شخص آخر، وعندما دقق النظر وجد أنه الذي قام بطردهم من منزله، كانا يضحكان، هل تصالحا؟!، إنه لا يهتم بابنه كل ما يهتم به هو الركض خلف العرب مثله. إنه يكره وجود تلك الدماء الاشكنازية فيه بالتأكيد، استبد به الغضب وحاول أن يصرف عقله عن ضربهما سويًا حد الموت لأنه لم يأتِ للعنف بل أتى للحل.

- لقد وصلتني رسالتك على هاتفي، أخيرًا قررت الاتصال بيّ، كيف حالك بنى وأين كنت طوال تلك الفترة؟!

أخذ يوسف إحدى سجائره حتى يستعيض بها عن فكرة العنف الدائرة بعقله:

ـ وكأنك حقًا تريد معرفة أموري! عمومًا يا جاؤون لقد كنت أريد مقابلتك على انفراد.

تحدث عليٌّ بتحرج وهو يبتعد عنهما:

ـ سأنتظرك عند الحسين، لا داعي لوجودي بحديث أبويّ.

ـ يفضل ذلك، فلا أحب المتطفلين!

قالها ببرود وهو يكتم سخريته بنطقها غير مهتم من نظرة التأنيب التي شابت وجه أبيه الممتقع لقد أحس بأن يوسف على غير عادته الهادئة والغامضة وعندما أومأ جاؤون برأسه تابع يوسف حديثه:

ـ لقد طلبت منك موافاتي هنا لسبب واحد، أنا سأرحل لإسرائيل وأود مواجهتك بكل شيء.

كاد جاؤون أن يثور، أن يتحدث باحتجاج صدمة من حديثه ولكن يوسف رفع سبابته محاولًا قطعه، وأثناه عن الحديث، فلا شيء يمكن أن يقال له على الأقل:

ـ في الواقع مجيئي معك أو هروبي من إسرائيل أكبر غلطة وكذبة اضطررت لخوضها معك، أنا – ولا أقولها بدافع خمر شربته – أكرهك كما تكرهني بالضبط، كل شيء صورته لك كان تمثيلًا، لم أهرب معك بموافقتي، لم أقف سلبيًا أمام موت جيليلا، والأمر الأكيد أنني...

صمت لبرهة وأكمل بصوت خافت جدًا ولكن جاؤون سمعه بوضوح:

ـ جاسوس عليك، أعمل لخدمة جدي كاهانا.

تناول لفافته بهناء وهو ينظر لأبيه المصدوم، لقد أشعره هذا بالراحة الجزئية فتابع مستغلًا لحظة الشلل التي أصابت أبيه:

ـ كنت أنتظر اليوم الذي سأصارحك فيه بكل شيء حتى نرتاح جميعًا من المأساة، في اليوم الذي قررت فيه الهرب من إسرائيل صدمني قرارك هذا، ويومها هربت وكنت وقتها أستغل انشغالك عني وأتدرب على يد كاهانا جدي، ذهبت له أطلب منه النصيحة مثلما اعتدت كلما واجهتني مشكلة بعد موت جيليلا، طلب مني أن أرحل سريعًا معك كجزء من تدريبي الخارجي. باختصار لحظة خروجك من إسرائيل مع إيفت كان مدبر لها، لو أراد جدي أن يقتلك ويأخذني للعمل معه لفعلها وكنت لن أمنعه.

صمت لبرهة وهو يكمل بيأس:

ـ الحب الذي ظننت بأنني أحمله للجميع ليس موجودًا بل كل حبي كان لها وسأعيش ما تبقى من عمري بقبرها.

كان جاؤون ينظر إلى ابنه وكأنه يراه لأول مرة، لم يكن هذا يوسف، ذلك الطفل الذي حمله بين ذراعيه بفرح تبدل انتشلوه من بين أحضانه وأجبروه على الابتعاد عنه حتى لا يموت فكان الأمر أسوأ؛ لقد استطاع كاهانا بكل الأحوال أن يقتل ابنه ما لم يكن

بدنيًا فلقد قتلوه معنويًا، تنفس الهواء بثقل ومع آهات وتنهدات طويلة، لقد كسب كاهانا واستطاع أن يوغر صدر ابنه ضده.

مسح نظارته المغبرة من تأثير تجمع السحب الممطرة بين عيونه، وتحدث وهو ينظر لها دون سواها وكأنه يحدثها:

ـ كنت أعلم بأنك تخفي شيئًا ولكن لم أكن أعلم ما هو، تمردك عليّ إبان موت جيليللا كنت أفهمه، ولكن عندما أتيت متحولًا بدرجة ١٨٠ ومطيعًا شككت فيك ولكن نهرت نفسي، من ذا الذي يظن بابنه السوء؟ لا بد أنه علم بأن لا أهل له سواي، الحقيقة خادعة كما قال جدك ذات مرة لي، لا شيء بهذا العالم حقيقة، أنت تبحث عنها دائمًا وتظن بأنك تعلمها غير أنها سراب، كذبة. يوسف، أتظن بأنني أكرهك؟

دق يوسف بصمود على الطاولة:

ـ أظن! بل أنا متأكد، وضعت بيني وبينك جدارًا عازلًا، كلما اعتصر قلبي بالألم أجدك تبتسم وترحل لعملك وكأنني...

ـ وهل تظن بأنه كان هينًا أن أبعدك عني؟ لقد هددني جدك إن اقتربت منك سيقتلك، حياتي أنا لا تهمني فحياتك أهم لدي، أعرف بأنه لن يتورع ولو لثانية عن قتلك أمام عيني.

ـ كذب، جدى يحبني، هو من ساعدني على تخطي عتبة موت جيليللا.

ابتسم جاؤون بمرارة ناظرًا لابنه الذي قد نهض من مكانه محتجًا:

ـ أحقًا ساعدك؟ أنظر لنفسك الآن وما أصبحت، في النهاية موت جيليلا كان بمصلحة العائلة، اكتسبوا رجلًا جديدًا وبهذا لن يفنى عرق كاهانا أبدًا كما كان يظن جدك وعمك.

تلألأت عيني جاؤون بالدموع مُتابعًا:

ـ كنت أحاول أن أغرقك بحبي الأبوي من دون أن أتدخل بحياتك، كنت أرى أنك أحق بتقرير مصيرك من دون مساعدة أحد، كنت أريد أن أغرس بك الحب ولو بكلماتٍ قليلة وبإشارات أكبر، ولكن على ما يبدو خدعني كاهانا مرتين.

تنفس جاؤون بعمق قائمًا من مكانه محاولًا الاقتراب من ابنه الذي كان يرمقه بعداوة كبيرة:

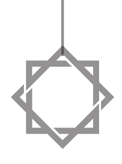
ـ منذ أن ولدت سعيت أن آخذك بحضني، أن أعلمك ما لا يستطيع أهل أمك أن يعلموه لك، أن تحب وأن تسامح الكل بصمت، جدك السبب، آآآه يا ولدي، أريد أن أدفع عمري كله لأجل أن أعود بالزمن عند تلك اللحظة التي وُلدت فيها بين ذراعي، كان الأجدر بيّ وقتها أن أحميك منهم وأخرجك من شر إسرائيل ولكنهم كانوا وما زالوا أقوى مني، كسروني بقلة الرزق والحال وبشغل المزرعة يا ولدي، كسروني لأنني عربي، كم أود الآن أن أحضنك، تعال بصدري يا ولدي!

ابتعد يوسف عن ملامسة أبيه، فالمواجهة كانت ولا تزال ليست أعمق مما يبدو، لعل وجودهما في الخارج هو السبب، إن أبيه يكرهه لنوعه وعليه ألا يحيد بفكره عن هذا وإن كاهانا يحبه ويعزه ويرى فيه الامتداد للعائلة. أيخدع نفسه أم أن الدماء التي تغزو قلبه تعميه؟!

ألا يرى حجم فداحه وبشاعة عائلته فيه شخصيًا، ألا يرى حجمه بعيونهم؟! إنه أقل من حمل لقب كاهانا، فإيفت المفضلة دومًا لدى جده لأنها أشكنازية أبًا عن جد، كانت تحظى بالاهتمام وتعيش بقصر المزرعة، بينما هم يعملون وينامون بكوخٍ فقيرٍ تنسل منه قطرات المطر كلما اشتدت العاصفة. إنه مهمًا فعل مجرد حشرة إن أرادوا سيدهسونها بالأقدام، لقد استطاع إجابة السؤال الأول؛ أبيه فُرض عليه أن يجافيه وإن كان قد حاول بالفعل الاقتراب، وبقي سؤالٌ أخير سيعلم إجابته من جده.

تمتم يوسف وهو يتحرك مبتعدًا عنه:

ـ لقد تأخرت كثيرًا يا أبتِ.



# الفصل الثلاثون

قلبها ينبض بجنون أكثر من جنون دقات شهاب على الباب، تحدثت ممسكة زاهر وزينب بقوة باحثة عن طريق للإنقاذ:

ـ اختبئ أنت وابنتي، إن وجدها سيقتلها.

بينما زاهر لم يبالِ بما تقوله، بل كان ينظر بقلق لزينب التي من الواضح للعيان ارتجافها، وودَّ وقتها أن يمسك يدها يهدئ من روعها ويعطيها مزيدًا من القوة.

ـ أمي، افتحي الباب.

تنفست آمال بتوتر وجاب نظرها أطراف المكان بحيرة:

ـ ما العمل؟! يا رب مرر تلك الليلة على خير، هيا اختبئوا.

كانت آمال تدفع زينب بقوة، ولكنها الصدمة والخوف شلتها، نظرت لزاهر بأن يتصرف ويمسكها ويجبرها على التحرك معه للغرفة الأخرى، ولكنه كان ينتظر رد فعل زينب والتي تحدثت بصعوبة بعد أن وجدت صوتها المختنق بمكان ما:

ـ افتحي له يا أمي، لا بد أن أواجهه.

جحظت عينا آمال برعب أكبر:

ـ هل جننتِ؟ هل...

حدقت بها بنظرة مشتعلة تصميمًا وقالت بهدوء وتروٍ:

ـ بل تعقلت، يجب أن أواجهه بنفسي، لن يؤذيني بعد اليوم اطمئني.

التفتت آمال لزاهر المبتسم بتيه على شجاعتها:

ـ تحدث يا زاهر يا بني، اجعلها تتعقل.

انفرجت شفتا زاهر عن ابتسامة أكبر مُتحدثًا ومفكرًا بأن عزيزته وتلميذته تتمرد:

ـ الأمر ليس بيدي يا أمي.

ضغطت آمال على يد زينب قائلة برجاء:

ـ بحق الله سيقتلكِ.

ـ بل سأحيا!

تنفست زينب الهواء بعمق، وحثت نفسها ألا تخاف، فهي الآن تغيرت وهو السبب، إنه ضمنيًا ببسمته تلك يشجعها بالإضافة إلى تصريحه بحبها جعلتها تحسم قرارها؛ ففارسها أتى أو جلبه القدر لها من دون أن تخطط أو تظن أو أن تتمسح بحب أو تطلب الحماية من أحد، رأته يقف بثبات وابتسامة ودودة تزين ثغره، باتت الآن تعلمه أكثر من نفسه، إنه ليس خائفًا سوى عليها،

ستثبت له ولنفسها أنها الأجدر بتولي زمام حياتها دون خوف، لن يُفرض عليها شيئًا سوى رأيها.

تحركت بآليه ناحية الباب العاصف لتفتح لزمهرير شهاب، وبدا عليه تغيرًا كبيرًا أشبه ببدو سيناء، فلقد أطال لحيته ووضع على رأسه شالًا وارتدى جلبابًا فضفاضًا عليه معطف كثيف. أول ما تلاقت نظراتهما حتى قالت زينب بهدوء وهي تبتعد للخلف مفسحة له الطريق:

ـ مرحبًا شهاب.

أول شيٍء تبادر لذهن شهاب المصدوم ضربها، ولكنه تحدث بغلّ ممسكًا بها بقوة غير مبالِ بما حوله:

ـ أتقولين لي مرحبًا أيتها الفاسقة اللعينة!

ـ الفاسقة اللعينة هي التي كنت سأصبح عليها إن وافقت على الزواج دون رضاي.

دهشه ردها وجرأتها وهي تدفعه عنها بقوة، الغضب أعماه فورًا إلا أنه حاول صرف نظره عنها ليرى نفس الشخص المأذون الذي تلكأ بعقد قرانها؛ هل هربت معه؟ أكان كل شيء لعبة؟

ـ من أعطاك الحق بدخول بيتنا وأنا غير موجود، ما هذا الهراء الذي يحدث يا أمي؟ وكيف جعلتِ تلك الفاسقة تعيش؟ لقد انعدم الحياء والنخوة بعد رحيلي عن المنزل، ولكن لا بأس، سأقتص لشرفنا الذي جعلته أضحوكة تلوكها الألسن.

وقتها تحدث زاهر مانعًا شهاب في أن ينقض عليها:

- توقف عندك.

رفع شهاب أحد حاجبيه باستغراب ونظر ليده التي تدفعه عن زينب:

- أتوقف عندي؟! أنا أخوها والأحق بتربيتها، بل وقتلها، فما شأنك أنت؟

- إذا كنت أنت أخوها فأنا خطيبها وسأكون زوجها.

تلك الجملة فجرت بداخل شهاب ضحكًا عاليًا، وعندما هدأ قال:

- زوجها! جيدة تلك المزحة. وأنتِ يا أمي جاريتهما، وعندما أسألكِ عنها تقولين لا تعرفين! ابتعد من أمامي أيها الشخص وارحل بقدميك النتنة عن بيتي، لا زواج لزينب طالما أنا من يعيلها ويقيم عليها.

أخذت زينب نفسًا عميقًا وأزاحت زاهر عن نظرها قائلة بصراخ يخرج من حنجرتها لأول مرة:

- أنا إنسانة لديّ حقوق وواجبات، خلقني الله بلسان وبعقل مثلك تمامًا وعند الثواب والعقاب تستوي الأنفس عند خالقنا، إنّ أكرمنا عند الله أتقانا يا شيخ، لن تفرض عليّ زيجة لا أقبلها فالزواج مودة ورحمة لا غصب وقوة؛ لذا لا تحوّر آيات القرآن ومنهج الإسلام لمجرد أن تثبت بأنك

أقيم عليّ، فالقوامة هي أن تكون رؤوفًا رحيمًا بيّ لا تنزع عني آدميتي وتُدنيني لمنزلة الحيوانات.

وكرد فعل له دون إجابة حقيقية تشفي صدره رفع يده ليُعيد تقييمها ويعيدها لسيرتها الأولى، غير أن زينب تقدمت نحوه مستعدة لتلقي الضربة وبعيونها اشتعال وتمرد لم يعهده مُردفة:

ـ أضرب مرة واثنان وثلاثة، فالضرب يثبت بأن عقلك مات ولا توجد لديك أخلاق أو مروءة لتقهر امرأة بقوتك!

وزاهر تدخل بينهما مُتوعدًا:

ـ ابتعد عنها وإلا...

حدجه شهاب بنظرة حاقدة ثم نظر لزينب مُجيبًا:

ـ قلت لك لا تتدخل! لأجل هذا ترفعين صوتك عليّ؟ تستنجدين بهم يا زينب!

ـ بل أستنجد بالله، فلا أحد يقيم عليّ ويقوم سلوكي إلا إياه.

صمتت لبرهة وأردفت بتحدٍ ناظرة لزاهر بأمل:

ـ أعرفك بزينب الجديدة التي لا تخاف سوى خالقها، أنا ليس وجودي عورة بل وجودي بأذهانكم أنتم عورة، أنا صوت الثورة؛ ثورة على الأنفس والظلم والحق المعوج، ثورة على المعاني الخاطئة بعقولكم، أنا إنسانة بوطني، مميزة لدى ربي بالعمل الصالح والتقوى.

نظر شهاب نظرة ضائعة، لأول مرة يبدو عاجزًا أمام زينب وأحس بنفسه ذليلًا مدحورًا، لقد استطاعت إخضاعه بكلماتها النارية وشخصيتها الجديدة المتمردة، رمقها بعجز قبل أن يرحل حاملًا خيبته معه.

همس زاهر بأذنها بلطف:

ـ وجودكِ ليس عورة بل ثورة، عودة حميدة يا زينب وأخيرًا تعلمتِ الدرس.

رافقتها ابتسامة خجولة وقبل أن ترد أردف بهدوء:

ـ علينا أن نحدد ميعاد الزفاف يا أمي.

كانت آمال تحاول استيعاب ما حدث للتو، ثورة متأخرة ولكنها متوقعة، لم تظن أن زينب تمتلك هذا القدر من الفصاحة واللسان اللاذع ولم تكن تلك ابنتها الخائفة المتذللة والأهم قادرة على رد الإهانة، لن تركض وراء شهاب فلقد تركت أمره لله يصلحه إن أراد وربما يعوضها بابنٍ وزوجٍ لابنتها.

ـ الأمر بيد زينب.

التفت أعين الجميع بها ليعتريها الخجل لأخمص قدميها مُجيبة بصوت خافت جدًا:

ـ مثلما تشاؤون.



إنها في حلم، بل حقيقة، الجو يتسم بالبرودة ولكنها تشعر بطاقة كبيرة وحارة تخرج منها، تريد أن تعد لأمير شيئًا مميزًا كتلك الليلة المميزة، ففيها ستخبره وسيتفاجأ بأنه ليس من يستطيع فعل العجائب وحده. كانت تقف في المطبخ منتهزة فرصة عودة أمير لعمله، فهو لا يظهر إلا بميعاد ذهابها للطبيب ونومها وأدويتها.

هل عليها أن تذهب للخان وتفاجئه بتلك الهدية؟

كلا الموضوع يتطلب مكانًا أكثر خصوصية، ربما تفعلها بوقت لاحق ولكن الآن ستتأنق وتحضر له عشاءً لذيذًا.

لمست بأناملها الوردة البيضاء القابعة بكوب ماء صغير وابتسمت بخفوت وتوردت وجنتيها لتذكرها أنها الوردة التي تراودها بالحلم؛ لقد تغير حلمها فليس به دماء أو رجاء أو كاهانا بل وردة بيضاء تنبت من العدم، تحتويها بجذورها بين راحة يدها ويد أمير تحتويهما الاثنين وهو يهمس بنبرة دافئة:

ـ لقد وجدتِ وطنك بيّ حورية.

ـ والآن اكتمل كل شيء، يبقى عليّ الانتظار.

قالتها حورية بفرح بعد أن أنهت إعداد المائدة، نظرت بالمرآة لنفسها، ارتدت فستانًا أبيض طويل وبدون أكمام مطرز بخيوطٍ من الذهب عند خصرها وبسيط جدًا بتفصيله، وضعت يدها على بطنها مُفكرة أن الآن يوجد كائن ينبض بها، لقد شعرت بتوعك انتابها منذ فترة بخاصة عندما تأخرت عادتها الشهرية فذهبت للصيدلية لتطلب اختبار حمل منزلي وكان إيجابيًا. شكت

للحظة في إمكانية حدوث هذا ورجحت السبب لهلاوسها الأخيرة بشأن أمير، ولكنه لا يمكن أن يستغلها خاصة بعد نفيه للأمر وابتعاده عنها بأمر الطبيب بالإضافة إلى أن اختبار الحمل المنزلي قد يحمل الخطأ.

عادت أناملها لتتحسس بطنها إن كان أمير تقرب لها وهي نائمة وكان بالفعل هنالك جنين يتحرك بأحشائها فستسامحه لأنه سيكون المطلب والتمني، ولكن الطبيب أوضح لها بأن علاجها سيكون خطر على الجنين وبتلك الحالة فستتخلى عنه فداء قطعة منها. تنقلت بأناملها على بطنها مُتخيلة فهنا قدميه الرقيقتين وقلبه الصغير ينبض بالحب ويقول (**ماما**)، كم تود أن يكن وجودها كأم وزوج يحبها وتحبه حقيقة.

زفرت الهواء بضيق ربما يكون كل شيء محض حلم أو أمنية لم تتحقق بعد في الأمنيات غير المكتوبة، أما عن المكتوبة فلقد حققتها بفضله، كانت أولهما مدينة الألعاب والثانية رقصة تحت المطر مع من تحب.

كانا يسيران ليلًا بإحدى الحدائق ناظرين للسماء المزينة بعروشها البيضاء سامعين الأشجار ترقص بحفيفها المبهج بستار اللحظة الثمينة، وقتها أمسك أمير بخصرها هامسًا:

ـ الأمنية الثانية، الرقصة، تحققت.

أمسك بيدها واليد الأخرى وضعها على كتفه مُردفًا ومستمتعًا بالنظرة الرقيقة بملكوت عيونها الزبرجدية المدهشة:

ـ ربما لم يساعدني الجو في تحقيق الأمنية بأن تسقط السماء مطرًا ولكن مياه الصنابير تؤدِ الغرض، لنعد واحد.. اثنان.. ثلاثة.

وما هي إلا دقائق حتى وفاض المكان بالمياه القادمة من الرشاشات الأرضية التي تغطي الحديقة بأكملها، وقتها ظلت تصرخ راكضة بعيدًا عن المطر واضعة وشاحها فوق رأسها بطفولية ليُردف بعمق:

ـ إلى أين تذهبين؟ ألن ترقصين مع من تحبين؟ معي أنا؟

استدارت ناحيته لتجده وافقًا مبتلًا في المطر يدعو يدها للانصهار معه وأن يكونا روحًا واحدة يقسمونها بجسدين. كل شيء يفعله لأجلها فلمَ إذًا لا تفعل شيئًا لأجله؟

لقد خلصت منذ زمن بأن حبها لإيزرا مجرد إعجاب مراهقة، شخصًا وجدت فيه العطف اللازم والمفقود مِن مَن حولها، بينما أمير فهو حب امرأة فتية تريد أن ترقص مع حبيبها في المطر.

احتضنته بقوة بأضلعها وبقلبها وبكل شيء بها وحاولت ألا تبكِ حتى لا يتكدر المشهد هامسة بصوت منخفض:

ـ لا أريد الابتعاد عنك قط.

أحست بيده القويتين تلمس على رأسها وشعرها الأشقر وهو يهمس بأذنها:

ـ لا أحد سيمنعنا عن بعضنا البعض حوريتي.

ـ لهذا أثق بك.

ابتعدت عنه بمرح وهي ترفع شالها لترقص، تفتح فمها لتتذوق المطر – وإن كان صناعيًا – لمست بأناملها قطرات المياه وهي تضحك ناظرة لأمير المستمع بضحكاتها ورقصها البريء؛ تدور حول نفسها بفرح موقنة أنها تعيش أحد أهم أحلامها، ففي المطر تذوب ثياب إيف وإيفت ولا يبقى سوى حورية، تلك الفتاة الزوجة المحبة التي لا يعرف الحزن لها سبيلًا ولا تدمن رغبة للتخلص من الألم.

ـ لماذا تقف؟ هيا ارقص معي.

وظلا يتحركان كالمجانين تحت المطر حتى هدأت الرشاشات وهدأت حورية.

خرجت حورية من تلك الذكرى على صوت الساعة، ابتسمت وهي تحضر حالها للقاء زوجها، ستخبره بكل صراحة أنها تنتظر ولدًا وستجازف في حمله ولا يهم أي شيء.

فور أن فتح الباب حتى ركضت سريعًا للالتقاء بحضنه هامسة:

ـ اشتقت إليك.

أبعدها أمير عنه بعصبية ووضع معطفه دون أن يجب أو ينظر إليها.

ـ ماذا بك؟

جلس على الصالون دون أن يهتم بتلك المائدة الرومانسية المعدة لهما وقال بصوت هادئ:

ـ مشكلات في العمل.

تحركت حورية لتكون تحت قدميه كما عاهدت نفسها إذا تمم وصح ذلك الحمل وثبت لها الاستقرار كزوجة وأم، ولن تسمح لأي شك مهما كان صغيرًا أن يحول بينهما:

ـ دعك من العمل، تعال نتناول طعام العشاء وفيه سأخبرك بشيءٍ هام، لا بد أنك جائع.

ـ لا أشعر بالجوع، ما هو الأمر الهام؟

استنشقت حورية الهواء وقالت بفرحة لم تستطع إخفاءها:

ـ أنا يحتمل أن أكون حاملًا، لم أصدق هذا فأنا لا أعلم كيف حدث ولكنني أجريت اختبارًا للحمل وكان إيجابيًا.

كانت تضع يدها على ركبتيه وهي تردف كلماتها بكل فرح، ولكن أمير نهض مسرعًا باعدًا نفسه عنها قائلًا بغضب لم يستطع ابتلاعه فتدلى من شدقيه المندفع بكلماته:

ـ أنتِ حامل؟ اليهودية الخائنة صاحبة الهوس بالرجال!

حدقت به بغرابه مُسترسلًا بكلماته وهو يصرخ بها ويهينها، لم يكن بها القدرة على الرد بل الصدمة جعلتها مستمتعة بحديثه لأنها اكتشفت ما ساورها وطردته من نفسها وهو الشك فيه وانتظار الخدعة، ففي النهاية على سيد الألعاب أن يظهر لعبته الأخيرة وكانت هي تلك اللعبة.

ـ كنت أريد علاجكِ ولكن لا فائدة منكِ، تخونيني يا حورية، في طباعكم الغدر، ولكن كل شيء مثلما بدأ بسرعة سينتهي بسرعة.

شهقت وقتها إيفت بقوة بعد أن نهضت من مكانها مُفكرة عن أي خيانة يتحدث؟ إنها لا تعرف الخيانة ولا حتى لإيزرا، وكل الرجال الذين صادفتهم كانوا شاشات فقط، فهي تخاف منهم بالقدر الذي ترغب بهم، كل من تقدم بسهولة دمرته حتى لا يدمرها ولا يدنسها. المهووسة بالرجال من ورق عشقت أبطالًا يبدو أنهم من ورق كذلك.

إنه ليس المشهد الذي ظنته يومًا وإن اختلفت التفاصيل؛ فعيونها لم تكن تكتسي بالحزن، بل عيونها تبحث بسعادة في الوجوه وهي تتحرك بذلك الشارع العتيق، بيديها علب بلاستيكية بها طعام مطبوخ لأجله، أرادت أن تطعمه من يدها وبيدها، ربما وحده يعلم بأنها اشتاقت له رغم أنه لم يغب عنها سوى تسع ساعات فقط. وجوده بحياتها أنساها مرارة فراق عاشته وأضحت لديه التلميذة النجيبة التي لا تعرف سوى بضعة حروف بالعربية؛ ألف باء تاء سين ميم ألف تاء مربوطة «**ابتسامة**» والتي فقدتها مع مرور الزمن وتغير الظروف، أنهى بداخلها حالة انقسام القلب بين الوفاء والحب.

بوجوده فقط أُعادت اكتشاف نفسها رغم صعوبة إيجادها. بسمة واسعة نالت من ثغرها عندما لمحته واقفًا مع صديقه وحثت

الخطى نحوه لتسمع اسمها يُنطق بشفاهه، ولكن خذلتها ساقيها عندما حملت نسمات الهواء آخر كلمة منه عنها لتسقط كما سقط قلبها بين ضلوعها ميتًا لم يجد أرض الحياة وكل ما جال بخاطرها في تلك اللحظة:

«**عجبًا، ألا يستطيع الغريب أن يجد أرض الوطن؟!**»

ولكنها لم تكن أبدًا في وطن.

تمزق قلبها وخيالها فور أن سقط أمير بمطرقة على قلبها قائلًا مقولته بصرامة ونفور:

ـ هذا الولد ليس ابني إيفت، وأنتِ طالق مني.

شهقت بصوت مرتفع وكأنها تلقت رصاصة بصدرها، وحاولت تمالك أعصابها واستقبال الأمر بهدوء، غير أن الألم بعقلها لا يُحتمل، ألم عاودها فورًا ولا تستطيع دفعة من الأدوية المهدئة أن تخرسه، ولا يسكنه إلا شيء واحد!

مدت يدها على سحاب فستانها ليسقط عنها وشعرت بروحها المضيئة تخبو، تقدمت من أمير بمشية غريبة كأن تلبسها شبح.

دمدم أمير باندهاش:

ـ ماذا تفعلين؟!

جذبت شعرها الأشقر بقوة مُجيبة:

ـ ألم عقلي لا أحتمله، أحتاجك.

ـ إنكِ تخالفين علاجكِ... يا...

تناولت إيفت شفاه أمير بنعومة وبرقة ريثما تحولت لوحشية عندما استشعرت منه استجابة دون أن تدعه يُكمل، لتذهب كل الأحلام أدراج الرياح، تفتت مثلما تفتت. إن كان استغلها قبلًا فعليها أن تُستغل الآن برضاها.

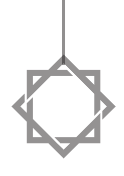
هدأت وتيرة الألم تدريجيًا كلما تذكرت أنها لم تقل حقيقة مشاعرها وإلا كان سيتباهى بسحقها وانتصاره بمعركة قلبها وعشقها؛ لذا عليها أن لا ترضي غروره وألا تبكي بل تُرضي إيفت التي تحركها وتدعها تعيث فسادًا وتهدم كل ما سعت بتحقيقه. همهمت بصوت خفيض:

ـ الألم بقلبي يمكنني احتماله، إنما ألم عقلي لا، دعنا نلخص مشاعرنا في غرفة، اعتبرها هدية الوداع بالنسبة لحورية وعلاجها.

لا يعرف متى انهارت عزيمته أمام كلماتها، ومتى انطفأت كل مشاعره ما عدا رغبته بها ليتحرك مثلما تُريد رغم أن هذا سيؤذيها.

بتلك الفكرة الأخيرة انتفض أمير من سحرها ودفعها بعيدًا عنه ليستعيد السيطرة على مشاعره مُفكرًا بإطفاء كل شيء ما عدا الغضب، ومُتذكرًا الخطة التي وضعها مع الذي يُدعى...

ـ خذي أشياءكِ وارحلي، جدكِ ينتظرك.



# الفصل الحادي والثلاثون

قلبها يدق بعنف، وشحب وجهها وامتقع وبلسان بطيء من الدهشة تحدثت:

ـ جدي!

وأمير يتحاش النظر لعلمه بأنه يحطمها كليًا، ولكنه ضروري فإيفت بالنهاية يهودية لعينة وخائنة.

كيف له أن ينسى حقيقة الدين والطباع والعرق؟!

كيف له أن ينس حقيقة أنه كان لعبة بيدها؟!

لذا بات عليه اللعب بها وهذه اللعبة بدأت باتصال غريب برقمه والاتفاق على مقابلته لأمر يخصها، وعندما رآه شيء ما لم يرقِ له وخصوصًا عندما صرح بأنه حبيبها، ووقتها كاد يثور ويقتله من ذلك الشعور المسمى (**غيرة**) عندما استرسل بسرد قصة حبهما الملحمية منذ أن كانا طفلين. صرخ معترضًا وأخبره بأنها باتت زوجته فلا يسعى لعودتها بحياته، فأقر بأنه لا يسعى لخيانته

ولا يسعى لأخذها منه، ولكن يسعى للقائها ووضع الاختيار بينهما لأنها لا تعرف بخبر عودته لها.

وبعد الكثير من المجادلات بينهما اتفقا بالنهاية على أن يقوما بعلاجها أولًا ثم الترتيب لفكرة نقلها خارج البلاد أو الاختيار بينهما، واتفقا على الطبيب أيضًا الذي اتصلا به ليوافق على علاجها.

كلٌ منهم كان يراهن على أنها ستختار ما كان أحدهما وبمحض إرادتها. وقتها أمير اقتنع تمامًا بأن هذا الرجل يكذب أو لا داعي لملء عقله بالتفاهات بخصوصه، فحورية تحبه وهذا واضح بلحظاتهما سويًا، غير أنه أحيانًا ينتابه شك وغضب مكبوت كلما ازداد دفعًا بها لخانة الاعتراف دون اعتراف، وكل هذا كان يتلاشى أو يتناساه عندما يحدق ببلادة منقطعة النظير بعيونها الزبرجدية وابتسامتها الخجولة التي تشي وتنطق حبًا لأجل واحد فقط، وليهدئ من نفسه وغروره أكثر ظن أنه هذا الواحد، فصمت مستمتعًا بشعور الحب اللذيذ بينهما مستمرًا في بذل كل النفيس والغالي لأجل إسعادها وإسعاد نفسه.

كان هذا رتم حياته لولا تغيره بفعل اتصالٍ من حبيبها الماضي ومقابلة له اليوم، وصرح فيها بأن فترة العلاج أخذت وقتًا طويلًا وعندما رفض مصارحتها أخبره أنها – من خلال جواسيسه عليها – تخرق علاجها، وأنها تلتقِ برجلٍ آخر، لم يصدقه بالبداية لولا أنه أراه صورة لها وهي بداخل إحدى الصيدليات تضحك مع

شخصٍ ما؛ ولكنه كان يثق بل يهيم بها عشقًا، بل... استغلها وقتما استبدّ به الغضب من كذبها، إن وصف الأمر فسيقول أنه اعتدى عليها وهي مخدرة ثلاث مرات طوال ثلاثة شهور، ولعل أولهما عندما عاد من مقابلة هذا ال «**حبيبها**».

كانت هادئة ورائعة كعادتها بشكل أغاظه، فكل هدوءها هذا خلفه بحر من الأسرار لا يعلمه بعد ولم تشِ به، بعد تأكده أنها أخذت أدويتها وغاصت في النوم دنى منها مراقبًا كل تفاصيلها مهمهمًا بأنه لا يعرف ما برأسها، لا يعرف إن كانت حقًا لم تحب أحدًا أم تخدعه، وخاصة أنها تتفادى تلك النقطة وكأن قلبها مشغولٌ بشخصٍ آخر وأن مذاكرتها كذب بيّن.

وجد نفسه يحتضنها ويستنشق عطرها ليقرر الانصياع لأوامر الشيطان واستغلالها كما ظن أنها تستغله، وكلما أحس بالخيانة من تمثيلها الفج وكذبها الواضح بشأن حبيبها الماضي كلما زاد شوقه للاعتداء عليها أكثر، وكلما أحست به كلما بدأ هو الآخر في التمثيل الفج بالنفي.

- جدى يا أمير!

لمح شحوب وجهها وعيونها الزبرجدية خالية من أي تعبير، كأنها تحولت لقطعة ثلجية لا تقدم بأي حركة، مُفكر أن يليقُ بها جائزة الأوسكار في الخداع والكذب. دمدم بجفاء:

- إنه في إحدى الشقق هنا بالقاهرة، مريض للغاية وعلى فراش الموت، يريد أن يراكِ، بالإضافة لحبيبك.

نطق تلك الجملة وكأن النار مست عروقه فحاصرها بقوته مردفًا حديثه:

ـ حبيبكِ الذي لطالما حلمتِ به ولم تقدر يدك على كتابة اسمه بمذكراتكِ، حبيبك الذي كلما سألتكِ عن اسمه تتهربين.

ـ أكان كل شيء وهم؟! أتلعب بيّ أنا! تظن بأنك قهرتني يا سيد الألعاب!

قالتها ببرود يعادل نفس بروده، لم يكن هدوءها الشديد شيئًا يتوقعه في الحسبان، انزوت شفاهها بنفس الابتسامة، ولمعت عيناها ببريق المكر وأحست بأن إيفت تأخذ الزمام وعليها الانتقام:

ـ إن أمر الولد كان محض تجربة، وكل شيء عشناه معًا كان كذبة، ولقد سئمت التمثيل، بالإضافة إلى أنك ك «**رجل**» لم تكن على مستوى الخدمة المطلوبة، ولكنني استطعت حقًا أن أروضك في النهاية.

وقتها لم يتردد أمير ثانية واحدة ليصفعها ليرتطم جسدها بالأرض بقوة هائلة، وفي ثوانٍ أحست بدماءٍ تنساب منها كالمياه بأحد الجداول، حدقت صوبه بفزع واضطربت ضربات قلبها تحت قفصها وتحدثت بأنفاسٍ هاربة منها ليحتل الخوف بحروفها قبل أن يجبرها اللا وعي على الامتثال لأمره:

ـ ولدي! ولدنا يا أمير!



ترجل من التاكسي وأعطى السائق الأموال بسخاء، لم يبالِ من سيل الدعوات التي انهالت عليه منه، بل رمقه بعدوانية قبل أن يدخل للبناية التي بها جده المريض للغاية بعد أن أخبره جواسيسه بهذا، لم يرض كاهانا الذهاب للمشفى وبقي بغرفته بالشقة، أو التي جهزها كأفضل مشفى على أحدث طراز.

أما عن مائير خاله فلقد وصل القاهرة منذ فترة، ولأجل هذا رتب يوسف له مكانًا مناسبًا مع بعض الفتيات ليشغلوه حتى يرتب لقاء جده بإيفت.

ولج لغرفته ولم يلمح أي استجابة أو ترحيب منه، جلس أمامه وعقد ذراعيه محاولًا ترتيب أفكاره، كان عليه أن يشفى من انهياره العصبي، والشفاء يتمثل في الهروب من هنا بأقصى سرعة ممكنة، فالخوف مما يعيش بتجويف صدره بلغ مداه. وكانت مواجهته الأخيرة مع جاؤون سببًا إضافيًا لتعزيز فكرة الهرب؛ فبداخله يعلم أن أبيه لم يكرهه، بل هو مشوشٌ مثله بالضبط، لا يعرف كيف يتعامل مع مراهق فقد للتو حبيبته وأم ابنه بنزوة عابرة مليئة بهرمونات الرجولة الوليدة فيه.

أخذ نفسًا عميقًا وهمس بضعف:

ـ جدي، لقد أتيت لأعرف الحقيقة، هل حقًا هددت أبي بقتلي؟

لاحت بين شفتيه ابتسامة ساخرة من نفسه، كيف يسأل وهو يعلم علم اليقين الإجابة؟! فأردف بنبرة تهكمية وهو يهز كتفيه:

- وكأنني لا أعرف، بالطبع أنا بالنسبة لكم لا شيء، مجرد طفيلي يسعى لنيل لقب كاهانا.

صمت لبرهة وهو ينظر لجده النائم و المتنفس عبر أنبوب اصطناعي، زادت ابتسامته الساخرة أكثر واستطرد:

- حتى أنك لا تراني شخصًا يستحق أن تتحدث وتفيق من سباتك لأجله.

هز رأسه بيأس وزفر الهواء بخيبة، كل شيء أصبح بلا قيمة، الانتقام لجيليلا بلا قيمة.

هل يمكنه تحديد ما الذي سعى له طوال حياته؟

إنه سعى لفراغ يتبعه مرارة تلتصق بجوفه ولا تريحه.

- نفضتُ يدي من كل ما يربطني بكم، وسأعيش ما تبقى من عمري بإسرائيل، فأنتم لا تعدونني بعائلتكم الكريمة، ولا أعد نفسي بجذور أو عائلة مع أبي؛ لهذا سأستسلم وسأرحل للعيش بقبر جيليلا.

نهض من مكانه مُلقيًا نظرة طويلة على جده الراقد والشاحب كالموتى، ينتظر الخلاص من الألم، ولكن لسببٍ ما لا يظل على قيد الحياة. لا يوجد شيء يربطه به مثلما ظن بأبيه أيضًا، كان لعبة بأصابعه، يحركها بالغل ويغذيها بالكراهية ولا يتركها ترتاح قط؛ ولكن حتى بقراره لترك كل شيء والاستسلام لم يجد أي تغيير في

مشاعره، لم يشعر بالراحة ولا حتى بفكرة الانتقام الدائرة بعقله، بل ذلك الفراغ مجددًا مع المرارة الأسوأ.

«**سواء بالانتقام أو الاستسلام لا شيء يُريح عن مرارة فقدانك يا جيليللا الغالية**».

تحدث لنفسه وهو يتحرك للرحيل متذكرًا للتو بأن عليه الوداع لمن لا يريد العيش لأجلها.

فاجأته ابتسامة صافية، وأحس بقلبه ينبض بطريقة غير طبيعية، فالملاك استطاع بالنهاية أن ينتشل الشيطان، ولكن ليس عن دائرة النار، بل عن طريق الضلال.



أفاقت من تأثير الغيبوبة لتجد نفسها غارقة في رائحة المحاليل الطبية والمطهرات، إنها بالمشفى حاليًا، أمير بجوارها وعيونه محمرة من فرط البكاء، استنتجت من منظره المكلوم ما الأمر، ولكنها قررت تكذيب الواقع، فتحدثت باكية:

ـ أمير ماذا حدث؟ هل الولد...

لم يجب بل استمر بالبكاء أكثر وأبعد وجهه محاولًا تمالك نفسه، فعاودت حديثها:

ـ أمير، أجبني، أين الولد؟ إنه بداخلي، صحيح؟ أخبرني.

أنهكتها تلك الصرخة وفقدت معها أنفاسها الضعيفة فمدت يدها ناحية بطنها المسطحة تحاول البحث عن قلبٍ صغير فلم

تشعر بشيء، لا الدفء ولا حتى الحلم بل كانت بطنها باردة ميتة خالية من الحياة.

ـ رحل! الولد رحل!

نهضت من مكانها بغتة ولم تبالِ بالدوار، بل كانت أكثر تصميمًا على البحث، نزعت كل المحاليل التي بيدها صارخة بصوت مرتفع:

ـ رحل مثلما رحلت أحلامي وروحي كلها وتبخرت!

لم تعد تتحمل شيئًا، أنفاسها تهرب منها وتشعر بالاختناق، لا ترى سوى البحث، تحركت بسرعة لتخرج من الغرفة ودفعت أمير عندما حاول إمساكها، كانت تركض بملابس المشفى، تنظر للجميع بتيه، كل من خبط فيها أو صادفها كانت تمسكه بقوة وتتحدث بهسيتريا:

ـ أتعرف أين ابني؟

كل من حولها يصرخون، يضحكون، يتهامسون، وكله يتحدث بعقلها للتو، وجوههم المضطربة، نظراتهم الحيوانية، كل تفصيله فيما تراه الآن تتدافع بعقلها مسببة لها صداعًا كثيفًا وغيمة سوداء على عيونها.

ظلت تركض لتهرب من تأثيره حتى وقفت أمام إحدى الحضانات، نظرت لكل هؤلاء الأطفال من خلال الزجاج، تدق بأناملها المضطربة تحصيهم وتحاول إيجاد ابنها فيهم.

لحقها أمير وتمتم بخفوت:

ـ حورية، عودي لغرفتكِ.

نظرت إليه بعيون تائهة وكأن عقلها ليس بها وتتصرف بآلية التعود الإنساني:

ـ لا بد أن أراه، إنه ابني.

أحس بها ترتجف لإحساسها بالبرد، كل كلماتها تتلخص في ابنها الذي قتله قبل أن يولد، قتله بشكه الذي حاول عابثًا عدم الاهتمام به وبغيرته العمياء بفعل ماضيها وعرقها الشريف وحبها الماضي العنيف.

بنفس الوقت ظهر إيزرا من العدم واعتصر قلبه حزنًا لحالها الهش والضعيف للغاية، التقت أعينهما أخيرًا، ولكن اللقاء ليس كما يبدو، فلقد أشاحت ببصرها بعيدًا عنه للحظات؛ إنها مغدورة ومقتولة فلا يتوقع منها أن تركض نحوه أو تعرفه.

ـ لقد رحل مثلما رحل!

كانت تقول كلماتها وهي تائهة، تحدق بالفراغ تارة وفي حضانات الأطفال تارة أخرى.

ـ ليس من حقي الوطن أو الأمان أبدًا.

تحدث أمير وهو يحتضنها مما مزق إيزرا للتو، تسمح له بالاقتراب بعدما فعله معها:

ـ آسف لم أكن أعلم ولم أقصدها، لستُ سيئًا لتلك الدرجة.

استفاقت إيفت فيها بعدما استكانت للحظات بحضن أمير وكأنها أدركت وجوده، فدفعته عنها مشيرة بسبابتها في وجهه باشئمزاز:

ـ إياك أن تلمسني، لا أطيقك، مجرد رؤيتك وأنفاسك كلك يشعرانني بالنفور، أنت السبب في إعطائي الأمل به في المقام الأول، وأنت سبب أخذه مني.

كان على إيزرا أن يستغل الفرصة ليفرح، فهي ستختاره ليبق بجانبها في محنتها إن عرفها على نفسه:

ـ إيف، هل تذكرينني؟

وكأن كلماته بدلتها، وكأنها أصبحت بزر تحكم يبدلها لإنسانه أخرى. حدقت بإيزرا بابتسامة واسعة وألقت نفسها بأحضانه بتعب:

ـ إيزرا، لقد عدت إليّ، لقد قتلوني، قتلوني إيزرا.

ربت على رأسها وهو يبتسم فرحًا، إنها لا زالت تحبه لهذا عرفته من أول وهلة، لا يزال رنين ونغمة صوته ترن بأذنها بعد مرور كل هذه السنين:

ـ أعلم كل شيء ولهذا أتيت، سنرحل أنا وأنتِ لأبعد مكان بالكرة الأرضية؛ لذا كفى بكاءً وحزنًا عزيزتي.

ـ أنا موافقة، خذني من هنا.

العشق نار لا يعلم مداها سوى العشاق. في الابتعاد تصبح أكثر اشتعالًا وبالقرب كذلك، غير أنها نار أقل وطأة. العشق غيرة

تأكلك ولا تبقي منك نبتة صغيرة، وفيه يبدو الكون أشد قسوة عندما تفارق وتجمع حبيبين بالتو واللحظة. العشق عذاب لذيذ، تتمسك به فقط لأنك تدمنه، تدمن الشعور الحلو الذي يبعثه فيك غير مدرك للواقع أو الحقيقة؛ وهو أنه يعميك عن كل شيء إلا الحبيب.

عندما رآهما أمير بتلك الوضعية الحميمية لم يتحمل المزيد من الاحتراق بنار الغيرة والشك، فتقهقر للوراء بصمت تاركًا الحبيبين يعوضان ما فاتهما من البعاد، واختلس نظرة أخيرة لإيف التي كانت تتمتم بحديثها بحضن إيزرا بابتسامة قبل أن يرحل وهو يكفكف دموع الندم على ما أضاعه بحياته.



بعد ثلاثة أسابيع...

انتابها القلق فجأة وأحست بالكثير من المشاعر المتضاربة، منذ أن أتت إيف لمنزلهما صباحًا، والبيت ـ بل محمود تحديدًا ـ انقلب كيانه، لم تتوقع هذا الهدوء المريب الرهيب بتصرفاته فور أن رآها وكأنه ينتظرها أن تأتي منذ زمن. الصمت والتحديق بالحائط هما عنوانه منذ أن رحلت كما عادت فقط في لحظة.

تحدثت وهي تأخذ بيد أنعام:

ـ أمي العزيزة، لقد أتيت لأودعكِ.

أجابتها أنعام باستفهام غير عابئة بمحمود الذي يراقب المشهد بينهما عن كثب:

ـ تودعينني؟!

ابتسمت إيف بلطف مقبلة يد أنعام بلهفة:

ـ أجل، أتيت لأودعكما، لقد طلقني أمير، ولا بد أن تعرفي أنني لم أكن حاملًا ببداية زواجنا، ولكنني كنت حاملًا منه منذ ثلاثة أسابيع ومات، لهذا لم يعد لي مكان بعائلتكم، ستذكرونني يومًا ما بأنني شيء عارض مر عليكم، بإمكانكما الآن أن تستأنفا حياتكما وكأنني لم أكن بها.

وقتها لم تبالِ أنعام بدفعة المعلومات الجديدة عن زيجة أمير وكل ما فكرت به هي آخر جملة، فتحدثت مخرجة كل أسئلتها:

ـ نستأنفها وطلاق! عن أي طلاق وأي حياة تتحدثين؟ لقد كشفت لنا عوارها، لقد كنا ميتين حرفيًا ومنذ دخولكِ علينا سلطتِ الضوء على مشاكلنا التي لا زلنا نعيد ترميمها.

أجابتها إيف بنفس الابتسامة وبذلك التعبير الغريب وكأنها تودعها عن الحياة، فلقد كان وجهها مسطحًا خاليًا من لمحة الحياة والمكر التي رافقتها يومًا ما:

ـ وأنتم كذلك.

وأشاحت ببصرها ناحية محمود الشاخص ببصره نحوهما ولم يهتز عندما رآها تقترب منه راكعة على ركبتيها لتنظر بعيونه،

ولتضع يدها على يده من دون أن يكون به القدرة على لفظها بقسوة رغم أن وجهه شابه امتعاضًا خفيفًا منها:

ـ لقد جئت لأودعك أيضًا محمود، أنا لم أجد من هو مثلك أبدًا، رغم أنك تشعر بأن حياتك تصدعت بسببي إلا أنك لم تكره ابنك، بإمكاني النظر بعيونك لمعرفة هذا، أب مثلك لا يمتلك سوى نظرة شوق كبير واحتضان قوي له، إنك تمتلك الحب، اسع فقط لإظهاره بقلبك.

تابعت حديثها رغم اشاحت محمود بوجهه وبيده بعيدًا عنها:

ـ أنظر للجانب المشرق، فستجد النعم التي تحوط بك ولا تراها، لديك ابن وزوجة يحبانك بحق، إنهما نعمة لا يتحسر عليها إلا المحرومين مثلي، كنت أفكر بتلك الزيارة الودية من قبل لأريك بأنني لم تكن لدي أدنى حيلة باختيار هويتي، كما لم تكن لدي حرية اختيار والدي، ومثلما تكرهني لنوعي أنا أكره أبي لنوعي، وهو كذلك يكرهني وودَّ كثيرًا موتي. محمود لقد جئت لأخبرك بأنني سأترك ابنك كما تريد، فقط أريد شيئًا بالمقابل.

ـ ما هو؟

ـ ابتسامة عطوفة كتلك التي كنت تمنحها لأمير، ابتسامة أب لابنته ولأجل وجودها على قيد الحياة، تلك الابتسامة التي لم أرها بحياتي قط.

كان محمود يحدق بها بعد تلك الجملة التي أحسها بكل حرف رجاءً صغيرًا له، ولأول مرة لا يراها يهودية، بل يرى إنسانة معذبة وابنة كل مآسيها في الحياة أنها لحيوان قذر.

أمكنه بتلك اللحظة أن يرى أمير بها بكل صخبه وجنونه ولسانه الطويل، يشتاق إليه جدًا، يتلصص أحيانًا على مكالمات أنعام ليعلم حياته بخفيه وهي الأخرى لم تتوانِ عن ذكر أمير بصوت عالٍ.

إنها محقة، إنه غاضب فقط، لا يستطيع مهما فعل أن يكرهه لأبعد من هذا أو يتمنى موته.

حاول إثناء شفتيه لإجبار عقله على الإتيان بابتسامة كما تتمنى، فوجدها تضحك بصوت عالٍ كئيب ليس به لمحة فرحة عندما رأت أسنانه البيضاء وهي تنهض مقبلة يداه بقوة:

ـ شكرًا لأنك أعطيتني أعظم شعور لم أجده، أحسد أمير على وجودكما بجواره، بالرغم من كل شيء مر بكما وتظنان أنه يفرقكما إلا أنه لا يزال مشترك بينكما، إنه الحب.

ـ إلى أين تذهبين؟!

جملة أنعام استوقفتها قبل أن تهرب من الباب بنفس السرعة التي دخلت بها، ظلت تحدق لبرهة بالفضاء ثم قالت بترو:

ـ أخبرتني بأحد محادثاتنا الهاتفية أن الله يحب التوابين، وأن التوبة والغفران لا يأتي من الأشخاص قدر ما يأتي من

نفسك أولًا، اغمر نفسك بالحب فهو الذي يحافظ على شخصيتك وإيمانك وإسلامك وكل شيء فيك.

ـ وما علاقة هذا بسؤالي؟

نظرت لها إيف وبابتسامة ذاهلة أجابتها بنفس تعبيراتها المسطحة الخالية من كل التعبيرات، ما عدا تعبير واحد، تعبير الموشك على الموت:

ـ أنا ذاهبة لأقترف آخر جريمة لي ثم أتب، ذاهبة لأتخلص من الكراهية وأحب.

ثم رمقتها بآخر تعبير مفزع تقلصت لأجله معدة أنعام قبل أن ترحل كما حلت بحياتهم بالهدوء العاصف، وكله جاء وذهب بلحظة.



لم يجد إيزرا حلًا سوى أن ينفذ طلب إيف بمقابلة جدها، ما ضايقه هو برودها معه، فقط ظلت تبكي بحضنه وتهتف باسم أمير وابنها وأنعام والجميع، ثلاثة أسابيع لم تذق فيها الطعام، ثلاثة أسابيع يسمع شكواها لأجل شخص ليس هو، ثلاثة أسابيع علم فيها أنه اخترع قصة وهمية اسمها الحب الملحمي؛ ذلك الحب الذي لا ينتهي ولا يموت بموت الأشخاص، بل يستمر في الحياة، ليس عن طريق الحبيبين بل المشاعر.

ما الذي تغير بإيف لتلك الدرجة؟ وما الذي تغير فيه؟!

إنه يُكوى محترقًا كلما جال بخياله اللحظات الحميمية التي تلفظها إيف بلا وعي عن حياتها مع أمير، إنه يُذبح بصمت كلما فكر بكيفية حصولها على الولد وضياعه منها وليس عليه الاعتراض أو الاحتجاج والصراخ وإخبارها بأنها خانته وخانت حبهما «**الملحمي**»، بل يستمر في التمثيل بالتفهم وتغيير الموضوع كلما أمكن ـ وبقدر ما تسمح له نفسه – عن جدها وكيفية وصوله لهنا.

أدخلها لغرفة جدها الراقد على فراشه وقد أصبح هيكلًا عظميًا، فقد المزيد من وزنه وأصبحت عيناه الزرقاء – رغم أنها مغلقة – جاحظة بشكل مخيف، وأنفاسه تتلاشى إلى العدم بسرعة الضوء.

لم يشعر كاهانا بوجود شخص آخر ويصحو من سباته إلا عندما تحدثت إيفت لإيزرا:

ـ اتركنا وحدنا من فضلك.

أومأ برأسه واستجاب لطلبها لتجلس أمامه بتعبير وجه خالٍ مثله من الحياة والشعور ومثل صوتها الذي خرج أجش ومرعب:

ـ هل تشعر بالألم يا جدي؟

تحدث كاهانا بصوت ضعيف جدًا من خلف جهازه التنفسي:

ـ إيفت! هل أتيتِ لي أخيرًا؟

ابتسمت إيف ابتسامة واسعة متلذذة بشعور الألم الطافح بجبهته العظمية وأنفاسه التي يستعيدها من خلال جهاز التنفس مُجيبة بنبرة باردة:

ـ كنت أتساءل دومًا متى ستأتي على أثري؟ أخبرني الصدق، هل اتفقت فعلًا مع إيزرا على الهرب أم أنها مجرد خدعة لأعود لأبي؟

ـ إنه.. إنه...

ـ وفِّر عليك أنفاسك وأخبرني فقط شيئين، أولًا اعتذر ليّ، وثانيًا أين أبي؟

صمتت لبرهة ثم تحدثت بهذيان مُرعب:

ـ اعتذر لي.. اعتذر لي.

أحس بكل كلمة ترددها إيف بهستيريا أنها ستنهض وتغمد خنجرها بقلبه فتملكه الخوف لحظة واحدة وقال بسرعة شديدة:

ـ حسنًا، حسنًا، أنا أعتذر، أعتذر.

عينان واسعتان مرعبتان بهدوئهما، خاليتان من التعبير، لا تعلم كنهتها أهي تحوي غضبًا أم كراهية أم مشاعر مختلفة؟ وابتسامة مزينة ثغرها الذي صمت فور تفوهه بالاعتذار:

ـ وأبي، أين هو؟!

ـ لماذا تريدين معرفة مكان ابني؟

كان يتوقع كاهانا الإجابة سريعًا، ولكنها رمقته بنظرة مظلمة ولأول وهلة يشعر بالخوف منها، فمظهرها يبدو كإنسانة ميتة، وكلاهما يعلم بأن إيزرا وسيلة وليس وجودها معه غايته؛ لذا لم يكن يريد الكذب، فتحدث باختصار ومعه سعال كثيف وهو يتنفس بصعوبة:

ـ مكانه مع يوسف، أنا لا أعلم شيئًا عنه.

نزعت نظرتها القاسية عنه مما أراحه جزئيًا، فلقد شعر وكأنها تتخيل بعقلها تمزيقه إربًا بأسنانها أو بيدها العارية، أثنت شفاهها بنصف ابتسامة:

ـ كان يجب أن أتوقع هذا، لا شيء يخبركما عن حياتي وبالتفاصيل سوى يوسف، الولد المطعون القلب الطيع كالصلصال بأيديكم.

صمتت لبرهة وأكملت وهي تسلط نظراتها الحادة على تقاسيمه مجددًا ووضعت يدها أمامها داعية بصوت حاد مُخيف:

ـ أتمنى من كل قلبي أن تتألم ألمًا يخلع قلبك ويسلخ جلدك ورئتيك بالسكاكين كلما أخذت هوائك.

وكادت أن تسيل دموعها لتهد قناع القسوة الذي بالغت بوضعه عليها منذ أن قررت مجابهة الماضي، غير أنه لا يتمثل به بل بالوحش الذي تسبب بتلك الندبة بصدرها.

ـ لن أبكي عليك أبدًا، أتمنى أن تحترق بالجحيم، وعندما تذهب إليه سأشاهدك مستمعة بأنفاسك وهي تذوى للأبد يا جدي.

نزعت من عليه جهاز التنفس وتركته يكافح لأجل الهواء، وغدت سيماهها أكثر غلظة وظلامًا مُردفة:

ـ أتمنى أن تتألم على كل لحظة حرمتني فيها من آدميتي وطفولتي، بحق كل ألم اُضطررت أن ألقاه، أتمنى أن تتألم.



استطاعت الهرب من إيزرا بعدما تركت جدها يموت، ترتب بعقلها المحتال الأوراق النهائية، عليها أن تضع حدًا للخوف من أبيها، اتصلت بيوسف وبعبارةٍ مقتضبة ومحددة علمت مكانه منه، وبسهولة فائقة فقد كان يردد سأمه من الجميع وهي أولهم، ولن يهتم بأحد ولن يعرف لماذا تريده، على ما يبدو يوسف قرر ما يجب عليه فعله منذ زمن.

وقفت أمام فندق قديم مزري، يبدو من هيئته أنه يستخدم في البغاء حيث أن كل من سألتهم عليه نظر إليها باحتقار، سألت الرجل عن مكان غرفة يوسف فذهب معها ليريها إياها.

شعرت بالدماء تغزوها كلما تقدمت خطوة ناحية الغرفة التي تفصلها عن مجابهة الماضي الذي تجسد أمامها بكل لحظاته القذرة، شعرت بالألم بعظامها ويدها من أثر التقييد وبعودتها طفلة

مغتصبة مراهقة لا تتجاوز الثالثة عشرة، استغلت فرصة وجودها خارج الفراش وترنحهم من الشراب وأخذت سلاحها من أسفل وسادتها لتدافع عن نفسها، شعرت بها تطعن قلب رجل لأول مرة بفرح لتلاشي عيونه عنها، شعرت بالقطيع من الذئاب الذي كان يحاوطها بعد ذلك، شعرت بصدرها العاري المليء بالدماء وهي تشهق بعنف مصدرة سكينها أمامهم بتحدٍ معوج وغير منصف، فهم مجموعة من الرجال المنتشين والمدمنين على الكحول والقمار مثلهم وهي طفلة لا تستطيع الوقوف حتى من كثرة الألم الذي يغمر سائر جسدها.

كانت تنظر بأعينهم وتحفظ وجوههم ونظراتهم التي تخفي رغبة واشتهاءً لا ينتهِ، تحفظ جيدًا إحساسها وهم يعذبونها جسديًا لمجرد المتعة، ارتكزت ببصرها ناحية أبيها الذي كان يهدئ الجميع ويتحدث محاولًا إقناعها بترك السكين. مجرد العند لأجل العند يكلف الكثير، يكلف ندبتين إحداها لها والأخرى له؛ ندبة طويلة شقت طريقها على وجهه من أعلى فروة رأسه حتى ذقنه سببها كراهية عميقة لأجل صاحبها الذي لم يتغير كثيرًا في طريقة ترحيبه بالبشر، كارثة غرفية بالداخل وروبًا غير محكم الإغلاق بجانب كأسًا من الخمر مع مجموعة من الأجساد العارية تجد طريقها بلفت نظر الطارق على الباب لمجرد وجودها فقط في مقدمة المنظر.

كان يتحدث برخامه صوت لم تتغير تونته بفعل السنوات للرجل الذي كان مع إيفت:

ـ نعم، ماذا تريد؟!

ـ لقد أتت تلك الفتاة لتسأل عنك.

ـ من أنتِ وماذا تريدين؟

كان عليها أن تحاول الصمود أمام الوحش، ولكن كل جزء بها أصابها بالخدر والوهن ليجعلها تخفض بصرها ومستوى صوتها للدرجة التي لا يوجد بها صوت بالحنجرة ولا عينان.

الخوف ممكن أن يجعلك كتلة حجرية ويمكنه قتلك وأنت حيّ تُرزق. ولكنه لم يعرفها بعد، ولهذا فهي ميزة قوية، ستنتقم لنفسها وستقتله تلك المرة ولن تتسبب له في ندبة فقط، جل ما تحتاجه موجود بعقلها بالإضافة إلى حقيبتها.

ناظرًا للشابة الواقفة قبالته مُتعمدًا التدقيق فيها بشكل حيواني، ترتدي معطفًا أبيض اللون قصير للغاية يظهر ساقيها الرشيقتين وشعرها أشقر كما الذهب أعطاها أفضلية، فكل النساء اللواتي أتين أمس لم يكن شقراوات، أما وجهها فلقد كان مطموس بكم هائل من مساحيق التجميل. مظهرها أشبه بالغانية، ولكن بها شيء غير صحيح فهي تتعمد النظر للأرض وكأنها أول مرة تذهب لبيت رجل غريب.

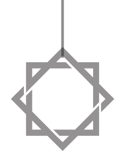
تحدث مائير بضيق:

ـ هل أتيتِ من طرف يوسف؟

أومأت برأسها (**نعم**)، فزفر مائير الهواء بنفاذ صبر ثم أخذها سريعًا للداخل قائلًا وهو يبث فحيحه السام بأذنيها:

ـ هيا يا حلوة إذًا، أريني ما لديكِ، لا داعي للوقوف طويلًا، إنها ليست الطريقة المناسبة لبدء الأعمال.

وانتابها ارتجافًا قويًا عندما أحست به يحاول تقبيلها، غير أنها تلك المرة ستستعد له ثم تتب التوبة التي سعت إليها ولم تُتح لها الفرصة.



# الفصل الثاني والثلاثون

لم يثق بخواطره العاصفة إلا عندما رأى وجهها المشع ضياءً وبهجة ولم يثق بقدرته الفجة وبقلبه اللعين إلا عندما خطى بقدميه عتبة هذا المكان بل لم يثق بها شخصيًا عندما أراد أن يقابلها.

«**أنا في الكنيسة إذا أحببت أن تراني**».

كانت تلك رسالتها المقتضبة عندما فكر وبدون إنذار أن يبعث لها بواحدة يسألها اللقاء، لقد صرح وأقسم لنفسه أن لا يحن ولكن على ما يبدو يريد لقياها لتوديعها، وعلى ما يبدو لا تزال – رغم تهديداته لها – تنتظره.

ليصرف نظره عن القسيس والأناس الذي يستمعون لترنيم الإنجيل وعن أنه يدخل بقدميه لبيته، إنه لم يأتِ للتوبة بل أتى لتلك الشابة الفتية التي تشدو بصوتٍ ملائكيّ.

ابتسم بصفاءٍ مثلها عندما استأذنت القسيس مُتجهة إليه دون خوف منه.

ـ مرحبًا يوسف، لقد أتيت.

نظر للجميع المحدق به بذهول ثم حدجها ببسمة قائلًا:

ـ مرحبًا، أنا هنا لأتأسف لكِ ولأودعكِ، سأرحل لبلادي ولن أستمر بالانتقام، فلقد تقبلت الواقع.

لاحظ أنها مرتبكة الأفكار، فأحس بأن عيونها تحكي ألف معنى بين الفرحة والحزن، أمسك بيدها وقال وهو يقبلهما بقبله آلمته للأعماق:

ـ شكرًا على كل شيء أيها الملاك، ولكن الشيطان لا يزال شيطانًا.

صمت لبرهة وأخذ نفسًا عميقًا ثم استطرد وهو يبعد بعيونه عنها باعدًا بنفس الوقت ألم انتابه:

ـ هناك سأجد ربما ما يسمى السلام.

ـ جئت تودعني ببيته، أما لك أن تُكمل للنهاية وتتحدث وتتواصل معه؟

لاحظت اختلاجات جسده السريعة وهم للحديث ولكنها أوقفته:

ـ لقد كلفت على نفسك عناء المجيء؛ لذا إن كنت تريد السلام حقًا، صلِّ له وتحدث إليه بكل ذنوبك، ستجده يغفر

لك ويعطيك ما كنت تبحث عنه منذ زمن، لا أرض ولا تصرف سيعطيك الراحة طالما أنت بعيدٌ عنه.

صمتت لبرهة وأخذت يده وحركته، فكان لعبة طيعة بيديها، لقد اشتاق لهذا الشعور المصاحب لريتشيل، مميزة، بريئة، غبية، ولكنها جذابة، إنه لا يؤذيها لأنها تذكره بشكل ما بجيليللا؛ معها تخفت كل النيران وتنير الأجواء بكآبة ما يُدعى العشق، معها يُدرك أنه بحاجة للتقويم والتقييم بحياته، معها نسي شيئًا كرَّس عمره لأجله وأحب الحياة بعد أن مل منها، معها أحسَّ أن بداخله نبتة تنبض بالحب، يشعر بوجودها بقلبه وروحه بشكلٍ يؤلمه وكأنه اقترف عارًا، ولكنه عارًا رائع.

ركعت على ركبتيها واضعة يدها أمامها ناظرة إليه مترجية:

ـ هيا يوسف، صلِّ لأجل السلام.

اختلس يوسف نظره لتمثال يسوع ولنظرات القسيس الفضولية ولنظرات الناس، وأحس بأنه ضعيف، وحيد وذليل وبأنه أخطأ كثيرًا، وجد نفسه لا شعوريًا يركع مثلها وكأن حجر آثامه الكبيرة ثقيل لدرجه أنه أخضعه. نظر لريتشيل وقال باستفهام سؤالًا ظل يطارده كشبح طوال سنين:

ـ كيف تجدين السعادة؟

ابتسمت بعطف:

ـ لأنني أؤمن به وبتعاليمه، أؤمن بأنه يعطينا أكثر مما نطلب، نحن فقط لا نرى، بتلك الحقيقة سعدتُ لأجل أبي الذي

شقى بعد موت أمي وأعطاه الرب من تسعد أيامه معي، وسأكرِّس وقتي بإعطاء الجميع من حب الرب وحبي.

ثم نظرت أمامها وبدأت بقراءة الإنجيل مجددًا، أحس حروفها تقفز سعادة وفرح، حدق أمامه لعلها ترى فرقة موسيقية أو ما شابه ولكنه لم يرَ سوى الفراغ، وسرعان ما أدرك سر فرحتها، إنها تناجي ربها!

لم يجد ما يقوله مثلها لأنه لم يحفظ من الكتب السماوية سوى جيليللا؛ فلقد كان يراها آلهته وسماءه ونوره، وعندما أخذت منه عاش بالظلام.

استنشق الهواء بعمق يبحث عن طريقة لإعادة التواصل، أو يبحث عن موضوع يتحدث فيه؛ وضع يده أمامه مثلها وبعد دقائق نفض رأسه ونهض قائلًا:

ـ لا يمكنني، سأذهب.

وقبل أن يرحل أمسكته ريتشيل من يده:

ـ حاول، لأجلي.

نظرة الاستعطاف بعيونها الساحرة قتلته بالصميم، جعلته على مضض يعود لوضعيته الأولى، الشخص الوحيد الذي يسمح بأن يتلاعب بقلبه وبكله، أخذ بضعة أنفاسٍ تهدئه، ثم حسم أمره بأن بدأ يتمتم بخفوت:

ـ لا يمكنني أن أصلي بمذاهب الإنجيل أو اليهودية أو الإسلامية، لأنني لا أعرفهم، فلم أكن منذ نعومة أظافري

متدينًا، ولكنني سأتحدث بكل ما يجيش بصدري، وأعلم أنك تسمعني.

دقائق وبدأ يوسف يشعر بالثقل يتزحزح من صدره، يتحدث مع خالقه بلا قواعد مسبقة أو طقوس معينة فقط إنسان يتحدث بصدق، إنسان قاسى المر فاستوحش، إنسان فقد أغلى ما لديه فيئس، إنسان فقد قلبه ولكن لا تزال به بذرة حب تَنبُت.

وبكل كلمة وفي كل نجوى، يعلم يقينًا أن تلك اللحظة لا تكفي. نهض من مكانه مسرعًا وخرج من الكنيسة ولحقته ريتشيل:

ـ يوسف، لا ترحل أرجوك، انتظرني.

كلماتها المترجية أمرت كيانه بأن يقف فاستدار حتى وجدها بجانبه تمامًا وأنفاسها الحارة تلفح وجهه لتذيب من برودة الجو وبرودة قلبه، لم يكن يريد الحديث لأكثر من هذا ولم يكن يريد البقاء ولكنه لا زال بيدها لعبة.

ما الذي يجذبها فيه؟ وما الذي يتمزق بقلبه لأجل فراقها ولأجل دموعها التي ملأت وجهها كله لتنيره بتلك العتمة القاسية:

ـ لا تذهب، أرجوك، هنالك أمل.

مد أصابعه الطويلة الشاحبة والباردة من أثر الجو ليمسح وجهها ويستمتع بجماله وبهائه حتى يحتفظ بذكرى لها من دون ما يكدر صفوها، صفو الملاك شخصيًا.

ـ لماذا تبكين عزيزتي؟! أنا لن أقتل نفسي بل سأعيش.

ـ بعيدًا عني؟ معها؟

ـ وهل هذا ما يضايقك؟ لقد أوضحنا جيدًا لبعضنا بأننا لا نتلاقى، أنتِ وأنا كالشمس والقمر، كالماء والنار، كالمد والجذر!

أمسكت بمعطفه وقالت برجاء وهي تكافح لإغلاق سيل دموعها عن وجنتيها:

ـ فكر يا يوسف، أنا أحبك.

انزوت شفتا يوسف بابتسامة وأحس بسعادة كئيبة عندما تفوهت ريتشيل سهوًا بحبه، فتحدث مثلها بنفس السهو:

ـ وأنا أيضًا، ولكنكِ تستحقين ملاكًا مثلكِ وليس شيطانًا.

رمت رأسها بصدره فكانت تلك إجابته لها، تمتمت بصوت مختنق من كثرة البكاء:

ـ أريدك أنت.

احتضنها بكلتا يديه وهمس وهو يقبل رأسها:

ـ لقد أطلقت العنان لحياتي الجديدة لهذا أشكركِ، ما لدينا وما يجمعنا سويًا مميز على الأقل بالنسبة لي؛ لذا لا تفسديه بي.

صمت لبرهة ونظر للسماء مغالبًا دموعه التي إن انزلقت فستكون كارثة، ليحافظ على ثباته الانفعالي على الأقل أمامها:

ـ أنا حيّ بفضلكِ.

تمتمت ريتشيل بنفس صوتها المختنق وقد بللت معطفه بالبكاء:

ـ أتمنى لو أنه يغير أي شيء بيننا.

استنشق يوسف شعرها النحاسي ليأخذ جرعة كاملة منه، لعله ينسى بعبقه لوعة الفراق ولكنه ضروري ومحتم، فحياته الجديدة تستلزم ألا يكون أي شخص من الماضي بها، فحياته الجديدة تستلزم ألا يكون في حياتها.

ـ وأنا كذلك.

ظل لبرهة يحتضن ريتشيل والتي كانت تكافح لأجل إلمام مشاعرها ونزعت نفسها بصعوبة عنه ومسحت وجنتيها بقوة قائلة وهي تنظر بعزم وقوة لعيونه:

ـ حسنًا، لن أبكي، هذا قرارك ولكن هل يمكنك أن تعدني بشيء؟

لم يرد فاستطردت ريتشيل بأمل ما زال يلوح في الأفق:

ـ أن تأتي إلى هنا بعد عام من الآن وتطلب يدي!

تفاجأ من الطلب وقبل أن يرد شبت ريتشيل على قدميها لتقبله بهدوء مثيرة كل الزوابع بداخل نفسه مجددًا غير أنها لم تكن زوابع أو عواصف شريرة قط بل سعادة رهيبة، سعادة لم يحسها حتى بانتقامه لجيليللا، سعادة انتهت فور أن ابتعدت ريتشيل عنه وهي تلمس صدره ناحية قلبه قائلة:

ـ لأن الحب يقدر على أن يجعلك أفضل، لأن الحب ليست حال ساكنة بل متحركة داخلك، ولأنك بقرارة نفسك تحبني فلن تقدر على الابتعاد عني طويلًا، ولأنني أحبك لن أسمح للماضي أن يحول بيننا، ولأنني أثق بك لهذا لا أخشاك ولا أخشى أن تعود لحياتك القديمة ولن أستسلم عنك.

صمتت لبرهة ثم تحركت خطوات بطيئة للوراء ناظرة ليوسف المندهش مستطردة حديثها بنفس بطء خطواتها:

ـ تعال إليّ بعد عام من الآن، بعد أن تتخلص وتتطهر من حبك القديم وحياتك القديمة، إن فعلت هذا وعدت سأتأكد من أنك لم تعد شيطانًا، بعد عام، لا تنسى.

لا يعلم كيف نطقها أو متى، ولكنه كان يبتسم بسعادة مطلقة من بسالتها واستبسالها لأجل إنجاح قصة محتومة بالفشل، مجيبًا عليها وهي تبتعد عنه بهدوء:

ـ أعدكِ ألا أنسى.



سيقابله أو سيبحث عنها معه بعد أن هربت منه، ظن بقدومه أنه سيصلح الوضع، إلا أنه جعله أسوأ.

أصعب شيء أنه اضطر للكذب لأجل أن تعود إيف إليه، أوغر صدر أمير تجاهها بالكذب ليُنهي ليالي الانتظار الطويلة، وخاصة بعد إلحاح كاهانا على الإسراع بمسألة إيف بعد أن ماطله

بما يكفي ليستطيع أن يعالج مرضها النفسي، بعد أن أخبره به قبل أن يجعلها ترحله معه، اشترط على جدها أن يعالجها أولًا ثم يخطط لرحيله معها، كان موقنًا بأنه يماطل دون سبب مقنع؛ ولكنه أدركه، فهو ليس له مكان بحياة إيف، لا أمس، لا الغد ولا اليوم، غير أن المطالبة ومحاربة سموم كاهانا بعقله خرت صريعة صورتها مع اختبار الحمل بالصيدلية؛ أوغر صدره هو الآخر تجاهها، أخبره بأنها تسعى لتكوين عائلة وحياة، وكله بسبب جبنه وتعمده الحفاظ على مشاعر إيف بدلًا من أن يأخذها بالقوة والحيلة.

عندما قابل زوجها لأول مرة رآه رجلًا فتيًا صاخبًا غليظًا مليئًا بالدماء الحارة ثائرًا عليه طوال الوقت، أما الآن وعندما أتى إليه أصبح مجرد هيكل رجل، مهملًا بنفسه، السهاد ينجلي بعينيه البنيتين، صوته هادئ، منكسر.

ـ ماذا تريد من لقائي؟

ظنه بالبداية أنه خصمه في حبها، ولكنه الآن أدرك في الأسابيع التي قضاها مع إيف أنه – بالنسبة له ولها – الحاضر، وكيف للماضِ إذًا أن يحارب الحاضر؟

كلاهما غير الآخر، وإن كانا يتفقان بآلية العمل؛ فالأول يمضي كالقطار على قضيب المستقبل ولا يتوقف، والثاني يدور على قضيب الذكريات بلا توقف كذلك، ونعود لنقطة البداية والنهاية معًا؛ كيف للماضِ أن ينافس الحاضر بكل عنفوان

لحظاته المتجددة، كيف للعشق أن يظل ساكنًا إن كان هو بحال متحركة؟!

تتوالى الثواني والدقات وترى نفسك بألف قلب، بألف حب، مدمرًا، تائهًا، ناسيًا، يتمتم بخفوت وكأنه يحدث نفسه أو يحدثها، تمامًا مثلها، تراه يقاس عذابًا أكثر من عذابها، أم هما الاثنان يتشاطران نفس العذاب؟!

ـ إيف لم تعد إيف، أنا أعرفها.

تحدث بصوت رخيم شاعرًا بالكلمات تجرح أخلاق البطل الورقي. توقف أمير عن التحرك والهمهمة الخافتة عندما أردف:

ـ ظننت وجودي كفيلًا بمحوك منها، ولكنى كنت مخطئًا، إنها لا تريد أن ترى ما يُدعى حُبنا ولم تعد تهتم به، إيف ظلت طاهرة يا أمير بحبها لك، لقد خُدعت وخدعتك بلحظة أنانية، لحظة كلفتني أكثر من سنوات التضحية التي دفعتها لأجلها، كلفتني إيف. الصور وكل ما قلته كان كذب، سميها لعبة.

وقتها لم يتحمل أمير المهزوم الكثير من الضربات، فانفجر في نوبة غضب صارخًا بوجهه وقابضًا على معطفه بكلتا يديه قائلًا:

ـ لعبة! لعبة! الكل يردد تلك الكلمة وكأنهم لا يعرفون أنني أتلاعب بالجميع، أنا سيد وأمير الألعاب ولم ولن أكون ذليلًا أو لعبة بيد أحد، ولن أكون مجبرًا على شيء، أنا حر

نفسي الآن، لأول مرة بحياتي التعيسة لا أحتاج أن أختار أو يُملي عليّ الاختيار. أتريد مني أن أذهب إليها؟ أن أكرر تجربة العيش معها بكل ما فيها من مشاكل؟ تظن الأمر لعبة إذًا ها؟ جرب أن تعيش كل لحظة من حياتك معها بالشك، أن تكون انهارت بين ذراعيّ أول رجل يقبلها.

- جرب أنت العيش كخيال ذكرى عشق ليوم واحد، جرب أن تعيش وتنتزع أعضاؤك وقلبك كلما هتفت باسم رجل آخر بلحظة غضب أو فرح، جرب أن تتنازل عن حبك لأجلها، جرب أن تكون بطلًا نبيلًا وتضحي بها!

وانفجر الشاب الطيب النبيل بوجه الثائر، تنفس كل أحزانه خارجه ليقهقر الآخر بقلة حيلة، وليتابع وهو يدس ورقة وظرفًا صغيرًا بيده:

- اذهب إليها وانقذها، إنها لم تخنك، بل حرصت على الحياة لأجلك، حرصت على الحب لأجلك، فأفعل لها المثل، طريق السعادة يبدأ دائمًا بخطوة تصميم وخطوة ألم فتحمل الألم.

زاغ ببصره بعيدًا ليمحي دمعة خفية طفقت بجبينه مردفًا:

- صحيح أنا حبها الأول، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الأخير. أنت الأخير يا أمير وهذا أبقى من وهم الأول. خذ هذا المظروف لها والعنوان، إيف تريد قتل والدها، فاذهب وانقذها قبل أن تقتل بداخلها آخر نبتة حب، اذهب.

ورحل من أمامه سريعًا دون كلمة أخرى، منذ الثانية التي وطأ بها أرض مصرايم رسم قصة حب أسطورية أفلاطونية للعيش ظنًا منه بأنها الحقيقة ولكنها خيال، رائحة ذكرى فواحة جميلة لأشخاص لم يعودوا موجودين، يعيشون فقط في الذكريات وماتوا على أرضٍ الواقع القلبي المرير.

أين ذهبت إيف؟

رحلت بحرية لأرض عشق جديد؛ لذا أين ذهب إيزرا؟

لا يزال محبوسًا لقيد ذكرى أماتتها السنوات.

ثلاثة عشر عامًا كفيلة بتغير الحجر، فما بالك بالبشر!

لا زال عالقًا بلحظة الفراق الأولى، حيث عاش منفصلًا عن العالم وعن شخصية إيف الحالية. لمَن ظن بأنه يعود والقلب رهن شخصٍ آخر؟!

كان الأجدر به أن يحارب وقتما كانت الساحة خالية للفارس المنتظر، وأن يتحرك ويهرب مُتخليًا عن كل شيء لأجلها.

ما الذي يهوى بحق بها؟

هل سأل نفسه هذا السؤال؟ وهل فات أوان طرحه؟!

ربما في النهاية ما يجمعه بها هو تعلق، تعلق بتلك الطفلة اليتيمة صاحبة الحزن الدائم بعينيها الزبرجدية والباسمة كلما هربت من منزلها ورأته، ربما ما بينهما حب أبوي صرف لهذا لم يستمر، لأن الأب لا يمكن أن يحل محل الحبيب.

**«ليس مهمًا ما أريده لنفسي، المهم ما تريده حورية، وطالما إيف لا تهتم بالماضِ فعليّ أن أحافظ على حاضرها مع الآخر، فيكفيني أنها تتشارك معي نفس الهواء والماء، يكفيني أنها تعيش بقلبها النابض وإن كان ليس لي، وهذه هي الحقيقة.»**

ألقى نظرة طويلة خلفه حيث أمير يهلع لإيفت وقرر الرحيل لعائلته وترك إيزرا الفتى مع الطفلة ليموتا بطي النسيان، فهذا هو الحل الذي يجب أن يحدث منذ لحظة الفراق الأولى للتوفير على النفس سنوات من الشقاء والألم.

لا داعِ لتوديعها؛ فالوداع الأول يكفي للأخير ويكفيه ما لخصه لها ِبمظروفه، استنشق الهواء متحملًا الألم الناتج عن النسيان وماسحًا دمعاته المتناثرة على وجنيته مُتمتمًا لنفسه:

ـ حبيبة قلبك ليس لها وجود.



انتابتها رغبة التقيؤ والبصق بوجهه عندما شرع بنزع ثيابها، لا يزال كائن خنزيري من الدرجة الأولى، ينساق وراء شهواته التي لا تتوقف أبدًا على نوع محدد، سواء كان رجلًا أم امرأه أم صبي أم طفلة، مما دمرها وحولها لكائنة خنزيرية مثله رغم محاولاتها العديدة للتغيير، ولكن المحاولة ليست بالضرورة أن تكون الخطوة الكافية للحياة، فهي لا تزال تحن وتعشق تلك

اللحظة في الماضي عندما اضطرت بنهاية التعذيب أن تستمتع وأن تتقبل أمر اغتصابها بمتعة.

هل يوجد وصف يفي تلك التركيبة الهلامية التي تحتويها إيف أم إيفت أم حورية ولو بكلمة؟!

«**تعودي أن تعيشي من خلال نفسك لا من خلال نفس الناس فيكِ**»

إيف أحبها إيزرا، إيفت أحبها القذرون، حورية أحبها الطيب والشرس والجميل أمير؛ كيف لها أن تعيش من خلال نفسها إذا كانت لا تعلم ماهية نفسها وإلى أي الأصناف تنتمي؟!

الكلام سهل ولكن الفعل صعب.

ابتعدت عنه مشيرة له بدقيقة للحمام، فأجابها بتأفف وأشعل سجائره مُنتظرًا إياها، وليصرف كذلك ضيوفه ويبقوا على انفراد.

القدرة على الوقوف أمام الوحش تتطلب جهدًا خارقًا وصمتًا مخيفًا كتلك التي تقف أمام المرآة، بدأت تشهق بعنف ودموعها تسيل على وجنتيها، ارتجافها القديم عاد ما إن أحست بوجودها بمفردها، ارتيابها القديم لا يزال بمهده وكأن السنين لم تمر قط، وكأنها لم تكبر قط.

«**تعلمي عندما تشعرين بالخوف، بالرهبة من الوحدة والوحش، أن تتنفسي جيدًا وأغلقي عينيكِ، خذي أنفاسًا عميقة وزفيرًا أعمق، ضعي يداكِ على صدرك هكذا، تحسسي مكان**

**قلبكِ لتسمعيه ينبض، وقتها ستعلمين بأنه يدق ليخبركِ بأنكِ لست وحدكِ وأنا هنا أعيش لأجلكِ.**»

هدأ القلب واستكان لمجرد استحضار كلمات الحبيب بالعقل، رغم كل الذي قاسته وخديعته الأخيرة إلا أن نفسها وهدوءها رهن أمير وقوتها من قوته، وحبها لأجله.

فتحت حقيبتها هامسة بصوت مخيف كفحيح الثعابين:

ـ سأعيش تلك اللحظة من خلال إيفت سليلة عائلة الدماء والذكاء (**كاهانا**)، وسأستخدم كل مهارتي لأفنيها.

سمعت صوت مائير من بعيد وهو يعيد إقفال الباب بالمفتاح:

ـ لا يوجد أحد سوانا الآن يا إيفت!

صعقتها تلك الكلمة التي تلفظ بها والدها وهو يرسل بعض شعراته الرمادية الصفراء خلف أذنه رامقًا إياها بنظرة مظلمة:

ـ أتظنين أنني سأنخدع بهذا التنكر السيئ؟ تحدثي.

صرخته الأخيرة جعلتها تنتفض رعبًا، لا يزال بعد مرور تلك السنين يمتلك نفس التأثير عليها.

ـ أأكل الوحش لسانك؟ رحلتِ من إسرائيل ولم ترحلي من عقلي، حاولتِ قتلي بالسابق وجئتِ إليّ لتكملي المهمة، أليس كذلك؟

دفعها على الفراش دون أدنى مقاومة منها مستكملًا بصوت هادر:

ـ جئتِ إليّ لتقتليني، أليس كذلك؟ لم يكفكِ تشويهي!

أحست إيف بنار تلك الندبة العميقة بصدرها، أحستها تسيل تضج بالدماء وبالحياة مُتذكرة كيف حفرها صاحبها بوحشية وهو يضحك هازئا من أنوثتها الوليدة وشراستها الحمقاء بالتهديد بلعبة تدعى خنجر، تلألأت الدموع الصامتة بعينها ليضحك مائير ساخرًا:

ـ إنكِ مثل أمك، كائن ضعيف عاطفيّ بالدرجة الأولى.

تحدثت إيف بصوت مختنق من أثر الصدمة، فهي بمفردها مع الوحش ولا مجال للهرب إلا بالموت.

ـ ولهذا قتلتها؟ قتلتها لأن بها قلب، قتلتها لأنها تحب؟

ضغط مائير على ذراعيها فأصدرت أنينًا ليُجيبها وقد تطاير الزبد من شدقيه:

ـ لا مكان للحب بعالمي، لقد انتزعته انتزاعًا من قلبي حتى لا أضعف، لا أغرم بالعرب مثلكما، أمك قتلها عشقها للعرب مثلك تمامًا.

استجمعت إيف قوتها وبصقت بوجهه، فعل ضئيل وغير مفيد ولا يرد جزءًا صغيرًا من سنوات الألم التي عاشتها، ولكن جعلها تبتسم بسعادة عندما تحدثت بسرعة:

ـ أكرهك كرهًا لا حدود له، حرمتني من طفولتي، وسلبتني حقي، وبسببك حولت قلبي لسواد وأصبحت الشيء الذي أمقته، أنا ألعنك بكل زمان ومكان أيها الخنزير القذر.

صفعها مائير بقوة جعلها ترتطم على الفراش مُجددًا:

ـ اصمتي.

مسح وجهه مُتابعًا ببرود:

ـ والآن كيف يمكننا أن نبدأ؟ أأقتلك أم أعذبك؟ أي طريقة تفضلين للموت؟

ـ لو كنت الآن بالماضِ لغرزت السكين أكثر ولما اكتفيت بالخدش، كنت سأستمتع حقًا عندما أرى مخك ينفجر ويتناثر على خنجري.

ـ الساحة الآن خالية وها أنا أنتظر سكينكِ، لنرى هل ستنجحين أم لا؟

أسرعت إيفت لالتقاط حقيبتها وسط حديثهم كي لا ينتبه لها، وتحدثت وهي تستعد للهجوم مكشرة عن أنيابها كلبؤة شرسة تدافع عن حق الحياة بين مخالب قوم الديناصورات:

ـ سنرى.. يا أبي.



يهرول في الظلام علَّه يصل للنهاية؛ نهاية الحب والعذاب. الفترة الماضية والتي ابتعد فيها عن حورية أفقدته عقله، فأصبح يراها بكل زاوية وطريق، في كل حلم.

كيف يمكن لإنسان أن يتحكم في أحلامك بتلك الطريقة؟

كيف يمكن أن تظل سليمًا وتعيش وعقلك بكل أفكاره أخذ التذكرة الأولى للسفر لمجرة الحبيب؟!

الضياع من إحدى أعراض انسحاب وسفر العقل، تُتمتم باسمه، تضحك أحيانًا وتبكي كثيرًا، تشعر بالتيه، لا تعلم من أين أتيت أو لأين ذهبت، فقط تستمتع بالضياع، الشك، تصبح غاضبًا، كثير اللعن، تشك بالحبيب وفي حياتك، وعندما يصل الأمر مداه وبآخر أعراضه تشك في حقيقة وجود نفسك على سطح الكرة الأرضية، وإن الأمر ليس حلما عاصفًا.

هل حقًا صدق أمر إيزرا أم كان ينتظر الفرصة المناسبة للهرب قبل التورط أكثر بحب امرأة ليست مسلمة ولا عربية بل يهودية الأصل والمنشأ وحياتها عبارة عن كفاح للعيش وللسيطرة على النزوات؟

هل كان سيتحمل الحياة معها للنهاية؟

هل كان سيتحمل كفاحها للحياة مثلما يحتمل – بالقوة الغاصبة – كفاحه؟!

هل كان يتخيل أن يكن له ابن منها؟!

من الجيد أنه مات بجهل أبيه، فلا يمكن أن يعيش وسطهم، سيلفظه المجتمع قبل أن يلفظه، وسيكون ذريعة جديدة من ضمن الذرائع التي اتخذها جده ليسخط أكثر عليه، وسينظرون إليه باعتباره زوج اليهودية وأب اليهودي، فلا يمكن إخفاء أمرها

لأكثر من هذا، لا يمكن أن يعيشا بوطن يرفض مجرد ذكر الديانة، وكأنهم مرض خبيث، وكأنهم ليسوا بشر.

تذكر شعوره عندما كانت نائمة بين ذراعيه، كان عبارة عن سيلٍ عارم من المشاعر المختلطة التي تحتاج لتفسير، يرغب بها، يحبهاً، يكرهها لكذبها؛ ولكنها لم تكذب عليه، فلقد سبق وأوضحت له – بشكل غير مُباشر – بأنها بحاجة لوقت، وهو لم يستمع، أو فسره بما يتلاءم مع هواجسه ومخاوفه، فهو يخاف أن تبصر آخر وتخونه لمجرد مرضها، يخاف أن يتحمل تبعات قراره بجعلها زوجته، فمن الممكن أن تهرب وتأخذ ابنه لإسرائيل، فمذكراتها تشي بحنينٍ جارف لسهل عكا.

كيف يأمن ليهودية في طبعها الغدر؟ فهي بلحظة دمرت حياته وأجبرته على التخلي عن حلم الزوجة المثالية العفيفة التي ليس بها أمراض؟ كيف له أن يعيش وقد تبخرَّت أحلامه كلها بالهواء؟ حلم المهندس والزوجة، والحب رغم وجوده معها إلا أنه لا يغير الحقيقة.

هل الحب وحده يكفي للتخلي عن القسوة التي عشناها بالحياة؟

بل هل يكفي لتغيير جذور الحقد الأعمى والشك المريض بداخل نفوسنا؟

هل يكفي كمخزون جيّد لمواجهة مرارة الإحباط والموت البطيء في الوطن؟

هل القلب الطاهر وحده يكفي عن زوجة لا يعلم ماذا ستجلب له؟

منذ فراقها وهو يتخبط في أسئلته، هل مقدر لهما الاستمرار؟ هل مقدر لها التوطن بوطن لفظه وحرمه من أبسط حقوقه الآدمية وتركه عرضة لشر الحياة لتسممه بألوانها السوداء؟

أصبح كائنًا حيًّا ميتًا، لا يملك القدرة ولا حق الاعتراض، وحتى برضاه بحالته كان شيئًا ما لا يروقه. لا تروقه فكرة أن يصبح الرضا بالمحتوم لعبة من الأشخاص أو إجبار وذل، ذل إيف، ولأجل هذا تمرد.

كان ينتظر الفرصة ليثبت للجميع أنه قادر على اللعب بهم مثلما تلاعبوا بأحلامه، طلاق إيفت كانت القنبلة التي لم تضعها في الحسبان، ترتيبه مع حبيبها للسفر حتى يترك ورقته الرابحة على طاولتها ليخبرها بأن لا أحد بعد اليوم يمكنه التحكم بمصيره مرة أخرى.

ولكن اللعبة لم تعد شيقة؛ فعندما انتهت وذهب كل شخص بطريقه حاملًا هزيمته داخل نفسه، لم يشعر بالرضا، لم يشعر بشيء سوى الضياع مع ورقته التي أحرقته.

الحب والذنب؛ هل هما وجهان لعمله واحدة؟ هل يكونان نفس الشعور؟!

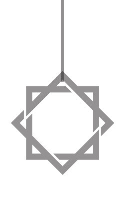
عندما رأى حبيبها هذا للمرة الثانية وأخبره بكذبة أبريل العظيمة إن كل ترتيبه للانتقام من لا شيء؛ إيفت لم تتلاعب به، بل كانت اللعبة بالنهاية، جزء من لعبة كبيرة، واللاعب الأساسي بورقته الرابح منى بخسارة أسوأ من ذي قبل؛ خسر قلبه، فما عاد شيء يهم سوى إعادة المحاولة، غير أنها تريد الهروب والتدمير وكل هذا بسببه.

أيًا كان ما سيلاقيه بهذا العنوان سيكون نتيجة لِمَ أوصلها له ولِمَ أوصله الذل بداخل نفسه.

وصل لذلك الفندق المريب، وما إن وصل لطريق الغرفة حتى وجد إيف واقفة بالممر بقميص نوم مليء بالدماء وهي تضحك بهستيريا، مشت نحوه بتثاقل وكادت تقع على وجهها لولا إسراعه لإمساكها.

تمتمت ناظرة له بعيون زبرجدية تشع جنونًا غريبًا لم يعهده فيها:

ـ قتلته، قتلت الوحش، الحورية قتلت وحش الحكاية.



# الخاتمة

«إن تكن تبحث عن مسكن الروح، فأنت روح.
وإن تكن تفتش عن قطعة خبز فأنت الخبز.
وإن تستطع إدراك هذه الفكرة الدقيقة فسوف تفهم أن كل ما تبحث عنه هو أنت»

من رباعيات [جلال الدين الرومي]

تجلس مُحدقة بالفراغ، ذلك الفراغ التام الذي يتبع عادة التحضير التام لحدث الليلة، ممسكة بيدها مسبحة وتنطق باسم الجلالة، ترتدي عباءة طويلة مخملية بيضاء اللون، تضع على رأسها حجابًا طويلًا يحجم شعيرتها الشقراء عن الانفلات ويخفي هيئتها الأنثوية أيضًا. لو أخبرها أحدٌ قبل سنة أنها ستكون هنا لما صدقته ولكانت اتهمته بالجنون.

الحزن مثل عود ثقاب، عندما يدخل حياتك لأول مرة يشعلها بالألم، ولكن من ثم لهيبه يخفت ما إن استطعت تحمل لسعته.

رفعت هامتها ناظرة للسماء، النجوم تُنير الكون استعدادًا لتخرجها من تلك الحياة، علمت أن القتل والانتقام والغل والحقد لا يد لهم بحل ذلك الخطأ بشخصياتنا، وأن العشق سيمنح لروحها الراحة والحرية من ذلك الوحل الأسود بها.

لقد زاد الشوق لسكن الدار، ونفسها تهفو وتتأرجح بين التصحر والتعمير، قاست كثيرًا بهذا المكان الذي يُدعى (**أرض**) والسبب أناسه، حتى أمير – من أحبت بحق – لم يكن موطنها ولا إيزرا.

بعد كل ما حدث تأكدت من ظنها الفارغ الأجوف الذي يُدعى السكن ووطن ليس بالشخص بل بالنفس.

- التسامح أصل الحياة، إن لم نتسامح فيما بيننا كيف نأمل أن يشملنا الله بالمغفرة في الآخرة؟ طيبي نفسًا بالحب – أيًا كان نوعه – فهو أساس كل رحمة تملأنا.

كانت هذه كلمات أنعام التي أسست للنهاية بتلك المعركة الوحشية بينها وبين أبيها، أول وآخر معركة أضحت متكافئة عندما استطاعت أن تجعله مشلولًا فاقد الحركة يرى ويسمع، ولكنه لا يشعر بعد أن وضعت على فمه بغتة منديل به مادة الكيورار، وهي مادة تخدر الشخص دون أن تفقده وعيه.

كانت تأمل بتقطيعه وسلخ جلده حيًا، لكن ويا للأسف ظلت صامتة تحدق بعيونه المراقبة لها بعجز، وبعد دقائق أتت بخنجرها من حقيبتها لتهتف بغل:

ـ لقد حلمت بهذا اليوم، حلمت بأن أنتقم منك.

جثت على ركبتيها دانية منه واستعدت بكل خلاياها لشق صدره، استعادت شريطًا مُرًا من الذكريات السوداء لتتوهج عينها ببريق الغضب وتدب خنجرها في صدره متعمدة نزع جلده عن لحمه.

كانت تلمح صرخته المكتومة بعينيه الزرقاء فتابعت ببرود:

ـ أتريد الهرب أم تريد النجدة أم تريد كلاهما؟ فكر بهذا، فكر فيّ وأنا في الخزانة مذعورة.

توقفت برهة عن ما تفعله بعد أن سال الدم الأحمر على يدها، تجمعت برأسها كلمات أنعام ولحظاتها الحلوة مع أمير وكلام الطبيب وحياتها الماضية مع إيزرا وكل ما مرت به لتنتفض ملقية الخنجر بعيدًا:

ـ ما الذي أفعله؟ أأوصلني الخوف والغضب لهذه البشاعة؟

نظرت لأبيها وبدا عليه زوال تأثير المخدر حيث حرك أصابعه ورأسه بحركة خفيفة صوب خزانته لتذهب على الفور صوبها وتفتحها لتجد بها مسدسه الكاتم للصوت:

ـ أتريد مسدسك؟ خذه لتقتلني أو سأقتلك به إن لم تفعل!

صدرها يعلو ويهبط بجنون وعيناها الزبرجدية تشعان بهذيان، تشي عن مئات الملايين من الأفكار المزدحمة بعقلها، ولا تجد المستقر للرسو نحو التعقل، وهذا تجلي أكثر عندما وضعت المسدس على رأسها:

ـ بإمكاني أن أريح نفسي منك وأضغط على الزر الذي علمني جدي وقتها كيفية استخدامه، ربما قتلي بنفسك يشفِ صدرك، ربما قتلك بنفسي يشفي صدري، ولكن قتل نفسي بنفسي لا يشفِ صدرك ولا صدري.

وأردفت وهي تنحي نحوه رامقة إياه بنظرة ضيقة مخيفة من زاوية عينها:

ـ إذًا لنريح الجميع، أنا لن أقتلك، وإن قتلتني فلا فارق لدي أنا مت منذ تلك الليلة التي قررتم فيها بناءً على كأس خمر أن تجدوا تسلية أخرى مني غير خدمتكم، لن تستطيع أبدًا يا والدي أن تخيفني لا بالموت ولا بالحياة، انظر لنفسك، لقد ضاع كل أثر من عرق كاهانا، أنت ميت بنظري.

بدأت يد مائير بالتحرك، المفعول يزول وبسرعة، كل ما جال بنظره أن يأخذ المسدس ويقتلها.

ـ صدقني، أنت عاجز أمامي، لا يمكنك أن تؤلم شخصًا لا يشعر من الأساس، بينما أنا.. فأنا من سيقتلك وسيؤلمك بتركك تعيش، سأنتظر حتى انتهاء مفعول المخدر، سأنتظر

رصاصتك لتعلم بأنك لم تعد تتولى السيطرة على حياتي وحتى مماتي، أنت تحصيل حاصل لكلمة عجز.

كلامها أغضبه، طريقتها بتعذيبه جديدة عليه، لقد ظن بأنها ستكون تلميذته النجيبة وتفعل ما قُدر لها منذ زمن أن تحمل السلاح وتقتل وتتجرد من الإنسانية الزائفة، أن تكون وباقتدار كاهانا بزي امرأة، غير أنها مجددًا تثبت بأنها لن تكون تحت سيطرته ولا خارج نطاق الإنسانية كذلك، تحركت شفاهه قليلًا، أمرها بالقتل فلم تجب، بل ظلت تنظر له نظرة الميت في كفنه قبل أن تتحرك من أمامه:

ـ عودي لهنا، أنا لم ولن أنتهي، سأعود، لن أموت أبدًا.

قال كلمته المتقطعة وهو ينتفض مُتحملًا ألمه العميق الذي ينهش فيه، لم يكن بحديثه أى أمر من كاهانا فيها، رآها وهي تلقي المسدس إليه وتجلس مُنتظرة قتله لها، إن قتلها فسيكون بأمرها لا بأمره، وهو لا يملك من أمرها شيء.

أمسك مسدسه بارتعاش خفيف مُصوبًا ناحيتها لتبتسم أكثر وبعينها هدوء مريب وجنون عجيب مُردفة:

ـ إطلاق الزناد بمثابة إعلان للهزيمة؛ لذا أعترف، لقد هُزمت أمامي يا أبي.

تجلت أمامه الكذبة فلم يحتمل تلك السخرية المنجلية من عين ابنته إشفاقًا على حالته، فوصل به جنونه لأن يضغط الزناد، ولكن ليس عليها، بل عليه ليموت بمشهد مأساويّ عميق، فهو في

كل الأحوال خاسر؛ إن ظل على قيد الحياة سيكون بسبب إيفت، وإن قتلها سيكون أيضًا بسببها، لهذا قتل نفسه.

بينما هي... نظرت لبقايا رأسه المنفجر ولم تهتز، بل ظلت تحدق بثبات لتلك اللحظة الثمينة، وبدقائق صرخت عاليًا بضحكة، صرخت وبكت وكأنها لا زالت تلك الطفلة التي انتهكوها؛ حتى الانتقام سلبه منها، بل سلبته منها.

هرولت للخارج مُخرجة كل أفكارها وذكرياتها المجنونة خارجها، فلقد كتبت على نفسها ألا عودة للماضِ، فهي الآن بتلك اللحظة تود أن تكون حورية.

ـ لقد جهزنا كل شيء، هيا بنا.

كانت تلك همسة ذلك الشخص الذي دائمًا يأتي بميعاده الثابت ليخرجها من شرودها فيما حدث منذ سنة، ويليها من سنة فيها ولدت من جديد.



كعادتها منذ أن أصبح نزيلًا دائما في السجن تحضر له الفطور والغداء والعشاء معًا، تستمع لأحواله تارة وتُسمعه أحوالها تارة أخرى، تجعله يلمس ابنهما الذي لم يكمل سوى السنة من عمره، والذي حُرم من أن يكون في كنف أبيه دياب منذ الواقعة الكاذبة بحقه بقتل المتظاهرين.

تعلمه وتعلم أخلاقه جيدًا، وأنه لا يقبل أن يتخلى عن شرفه، فهذا هو الذي دفعها لحبه من الأساس، وهذا الذي دفعه لدخول كلية الشرطة للقبض على المجرمين لا قتل المتظاهرين، ولإقامة العدل والقانون ببلدٍ يعج بالفساد، والوحل يزكي أنوف أبنائها جميعًا.

ـ دياب، كيف حالك؟

ـ بخير.

ـ أنظر، لقد أصبح عمر طفلًا كبيرًا، مشتاق لك كثيرًا.

ـ لطيفة، لا داعي للمجيء إليّ أنت والولد.

ـ لا تقل هذا، إنه واجبي حتى تعود لنا بالسلامة.

نظر دياب مليًا لطفله عمر وفكر، كيف يمكن أن يبني مستقبله وهو يعلم أن مبادئه دفعته بالنهاية للسجن؟ ومن لا يتمتع بها حر طليق؟

لقد ظن أن ضياء سيخرجه من السجن وسيعترف لأجل العشرة، سيقابل المعروف بالمعروف، ولكن المعروف قابله بالأذى فأدخله السجن بشهادته الظالمة، ظن وقتها أن العدل ببلد العدل لن يأتي، ولكن العدل بيد الخالق وحده ليحصل عن طريقه على العدالة؛ فلقد سقط ضياء بفضيحة أخلاقية نشرت تفاصيلها بالجرائد، رغم هذا لم يتحرك وينقذه من السجن، بل اختفى، ويقول الناس أنه قُتل. وبغض النظر عن مصيره إلا أنه لم يفق من

ذروة الفساد المتغلغل بأعماقه، لم يقتنع أنه لا يمكنك الهرب من الحساب، فإن هربت منه بالدنيا فلن تهرب بالآخرة.

ـ لطيفة، إن قدر ليّ الله وخرجت من السجن لن أُربي ابننا على ساحات القانون والأخلاق.

شهقت لطيفة بعجز:

ـ دياب، ماذا تقول؟ ولمَ؟!

احتضن دياب لطيفة وعمر هامسًا بعمق:

ـ لأنني اكتشفت أن مرارة العيش بلا ضمير أهون من العيش به، لأنني اكتشفت أن الوطن يكون جميلًا عندما تكون أخلاقنا غير قابلة للكسر؛ لقد كُسرنا يا لطيفة.



ـ هل يعرف أحدكم الإجابة؟ إنه سؤال سهل وبسيط، ما هي الديانة؟

رفعت يدها عاليًا بثقة، لأول مرة تعرف الإجابة، سنة فارقة بالحياة، سنة محت بها صورتها الذليلة، لا يجرؤ أحد على كسرها، ولَّى زمن الخوف وعادت زينب من وعثاء أزمة الجهل كأنه ميلاد جديد، كأنه عمر جديد.

ـ هناك قولٌ قديمٌ على لسان (**آمين الريحاني**) مفاده: ليست الأديان والفلسفات ما تظنها، وليست ما أظن أني أظنها، فلا للحراثة هي ولا للتجارة ولا للسياسة ولا للتقشف، إنما

الأديان والفلسفات كمصافي المياه، هي مصافي حياة، تصفيها من بعض الحشرات والجراثيم، فالأديان كلها روحية بحتة، ليس بها حقد أو غضب أو كره للآخر، إنها تشذب روحك كلما تعمقت بها لا تزرع أشواكًا داخل نفسك؛ إنما نحن من حورناه وبدلناه تبديلًا، إن الدين الإسلامي بالتحديد دين حب ووطن لكل نفس هائمة بملكوت ربها لا تجد مرسى الوطن.

سمعت زينب جرس المدرسة يرن معلنًا نهاية اليوم، فألقى الأستاذ السلام والتحية على الجميع وشكر زينب لمقولتها العميقة الحكيمة، وذهب الجميع لخارج المدرسة فهي الآن في الثانوية الأزهرية تيمنًا بحبيبها وأستاذها وزوجها الحبيب زاهر.

تزوجته منذ أن رحل شهاب عن حياتها، وكان حفل عرسها مثلما تمنت وأجمل بكثير، ارتدت الفستان الأبيض، ونظرت لفارسها ذا الدرع اللامع، وتم الحفل وبدأت أجمل سنوات عمرها.

وجدته ينتظرها فتشابكا الأيدي وسارا وهما يضحكان ويخبران عن كل ما حدث بحياتهما، وانتهزت زينب الفرصة لتخبر زاهر آخر شيء تختم به يومها السعيد وتبدأ به صفحة جديدة ثلاثتهما:

- زاهر، أنا حامل.

وقتها أخذها زاهر بين أحضانه ناسيًا بأنه شيخ وأنه بقارعة الطريق وتمتم بفرح:

ـ هذا أجمل خبر سمعته بحياتي، ليبارك الله فيكِ وفي ابنتنا.

ـ أما تريده ولدًا؟!

انزوت شفاهه بابتسامة وهمس بأذنها بخفوت:

ـ كل ما يكتبه الله خير، والابنة وجودها بحد ذاته حياة وثورة.

رفعت يدها بثقة تلميذة حفظت كل دروسها وابتسمت وهي تنظر لعينيه البنيتين الرقيقتين قائلة جملته:

ـ ثورة على النفس وعلى القيم المعوجة.

تطلع بعيونها، وضع يده على بطنها مُجيبًا بعمق:

ـ ثورة لأجل الحب. أحبكِ زينب.

احمرت وجنتاها خجلًا منه وردت بهمسة خفيفة:

ـ وأنا أيضًا أحبك.



ومن بعيد في سيناء حيث الصحراء القاسية تمثل قسوة قلبه الغليظ كان شهاب يخطو خطوته بتعلم جبالها وينهل من رمال قيظها ليخرس به أصوات الشياطين، ويسلك لنفسه طريقًا آخر للرحيل، رحيل عن الوطن، رحيل إليها.



عاد إليها شابًا فتيًا لطيفًا طاهرًا كالجنين ببطن أمه، لا يعلم سر بقائه على قيد الحياة رغم أغلظ أقسامه بملله منها، عاد لمصرايم ليدفع ضريبة الشكر لسيدته ولينجح قصة حُكم عليها بالوأد قبل أن تُولد، عاد ليكمل سير حياته التي بدأها كقديس بثوب شيطان، إلا أنه لا يزال شيطانًا، لا يلبث أن يتلبس روح القديس من آن لآخر، ولكنه بشكلٍ ما يدفعه شيءٌ بداخله للمقاومة، شيئًا غرسته بقلبه سيدته، شيءٌ يجبره على الانضمام إليها لإنجاح تلك القصة، شيء اسمه الأمل في الراحة من الآثام وتذوق بطعم السعادة التي تعرفها مليكته.

جاء ليسلم إليها بدنه لتطهره من آخر الخطايا، ومع اشتداد الخطوات واقتراب الأجساد تستعر نيران الشوق بوجدانه، ولا يدرِ أيشتاق لها أم للتوبة على يدها!

ما هذا الذي بقلبه؟ تراه أصبح صافيًا هادئًا لا تشبهُ شائبة؟ الآلام والحقد المُتأصل بأعماقه اختفى تدريجيًا مع الوقت، ما يشعل الآن فتيل صخبه وإعصاره تلك المرة هو العشق.

لم يجنِ من الانتقام سوى الحزن والكآبة والمرارة، والذين تلاشوا بسبب اجتهاده وقربه من قبر جيليللا تارة وحنينه الجارف لبراءة ريتشيل ومنطقها ومذهبها الديني تارة أخرى.

دائمًا كان يظن أن نهايته ستكون سوداوية، كأن يفقع عينيه مثلًا من كثرة الغم والحزن أو يقتل نفسه أو يُقتل.

«**ها أنا يا ريتشيل آتٍ إليكِ، فانتظريني**».

كانت تلك رسالته التي بعثها على هاتفه الجوال، أول وآخر رسالة بعدما رحل من مصرايم حاملًا جثة مائير وكاهانا بهدوء ودون مشكلات لإسرائيل، كانت تلك آخر مهمة ليوشف وإكرامًا للأيام الخوالي بينه وبينهما وإكرامًا لإيف؛ فرغم أنه لا يحبها إلا أنه في النهاية حل مشكلتها مع جثة أبيها بالتعاون مع أمير المصري، ولولا وجود ريتشيل بحياته لجعل حياته جحيم حتى يصل إلى ما يصبو إليه وهو تجنيده.

ابتسم وسرح بفكره بعيدًا، «**ريتشيل**»، تلك العربية الجميلة هذبت يوسف وشياطينه وجعلته يصل للسلام بالطريقة التي كان دائمًا يعاندها، جعلته مؤمنًا تائبًا.

رآها وهي تأخذ أنفاسًا عميقة لتهدأ، يبدو أنها ركضت لتصل تحدثت وهي تُلقي نفسها بأحضانه:

ـ لقد فعلتها! افتقدتك يا يوسف، افتقدتك.

ضمها بقوة لصدره يستعد به سكينة افترقت عنه منذ رحيله عنها قائلًا:

ـ وأنا كذلك، الشيطان افتقد الملاك، ولقد تاب غير أنه لا يزال شيطانًا مثلما كان.

ابتسمت ريتشيل ورفعت رأسها إليه لتدقق بلحيته التي أطالها كثيرًا، وعيونه الزرقاء الحنونة:

ـ الشيطان لا يزال جميلًا بنظر الملاك، ولا زال داخله خير.

ـ ألم تملي الانتظار؟ ألم تفقدي بي الأمل ولو للحظة؟ ألم تتراجعي عن الاحتراق بناره؟!

أجابت تساؤلاته بثباتها وبرائتها الساذجة المعهودة:

ـ أنا أثق بجانب الخير الذي به.

لعله اشتاق لتلك النظرة المرتبكة بعينها، لعله اشتاق لأن ينسحق تحت إطار براءتها أكثر وقتما جذبها بقوة لصدره ولثم شفاهها بقبلة أثيره عذبة حلوة المعانِ، أو اشتاق للأمل في الراحة بين يديها، لعله اشتاق للاستغفار والوعظ الديني لا يفارق شفتيها وهو يتهور في التفنن فيما يبرعه دومًا، وهو إثارة خيفتها.

أبعدها عنه بألم وعلم بأن ما يدفعه حقًا وبتبديل الحروف وتغييرها ببعض المواقع من الأمل في الراحة، الأمل في الرحمة؛ فريتشيل حقًا ملاك رحمة فقدها أثناء تحوله ليعد إليها بثوب إنسيّ، عاد إليها إنسانًا محمولًا على قدمين.

وفي خضم تراهبه بالمعبد القديم بإسرائيل وجد الحقيقة، وهي أن الرحمة كانت تشمله وبداخله، غير أنه لم يبحث جيدًا أو يرِ.

أومأ برأسه باعتذار مبطن لمَ أبداه من مشاعر وتلهف، تذكر المشاعر فتذكره، عليه أن يَغفر ويُغفر له. سحبها من يدها:

ـ قبل أن نذهب لطلب يدك لا بد أن أحصل على مباركة أبتِ.

أمسك بيدها ليسيرا بالطريق، وسارت همهمة خفيفة بين الحشود تنبئ لهما بمستقبل مجهول لا يعلمه إلا خالقهما.

«**عدت إليكِ فداويني واحتويني، عدت إليكِ فضميني ودعيني أعرف للحياة طريقًا من نورك، فاقبليني.**»



- أبي!

كان يحمل المسبحة ويتمتم بالقرآن هو وشيخه، ورفيق عمره عليّ واقف على الباب فاتحًا لمن ظل يدق بلا انقطاع ليراه يهمس بتلك الكلمة بدفء وحنان، لكم انتظرها بذلك الوقع من يوسف الجديد الذي أطال لحيته وأصبحت عيونه هادئة فياضة بنهر جارٍ من الحب العذب، يمسك بيده فتاةً حلوة ربما تكون حبيبته، ربما تلك السنة غيرته وجعلته يعود لحضنه، ربما هي شخصيًا غيرته.

- مرحبًا أبي.. أنا..

لاحظ ارتجافه وصوته الخفيض المتغير الحنون، سنوات عجاف مرت بحياته وهو ينتظر أن تعود الحبيبة إليه فلم تعد، أصبحت حبيبته أم يوسف وفقط، وبمرور الوقت وتزايد الفجوة بينهما قبل وفاتها لغى تلك الكلمة منها، فلم تعد حبيبته كما هوى، وهي كذلك كانت مثله تنتظر أن يختار بين الحق في العيش وبين الإعاشة، كانت تأمل أن يتحول في النهاية إليها وأن يتخلى

عن كونه متعايشًا بالحب مع الجميع ويعيش لأجل العيش دون الجميع، أن تثبت لوالدها بأن من أحبته واختارته يليق بها، ولم تنفع محاولاتها وانتقصت من رصيد محبتها له وبدورها من رصيد محبته.

رأى تلك الشابة وهي تدفع ابنه ناحيته هامسة بصوت خفيض، فتحرك يوسف ليأخذ بيد أبيه في طوعٍ وامتنان ويقبلها، لم يشعر جاؤون سوى بشفاه ابنه الخشنة تنزلق على كفه طالبة إياه بالمسامحة والمغفرة، فكلاهما كانت نتيجة لعبة مشاعر تقامر بها الجميع.

كان الموقف ثقيلًا لا يحتمل، إضافة إليه كوكبة من الكلمات يكيفهم الإشارات، يعلمون جيدًا مغزاها، غير أن جاؤون تمتم بآخر جملة قبل أن يسحب يوسف من يده ويدخله لبيته حيث سيحضر له ولحبيبته ما يتقنه بفضل عليّ، وهو الكشري المصري:

ـ أنا يا ولدي لا أعرف شيئًا في حياتي إلا التسامح.



في انتظارها حتى رآها تتحرك من مكانها حاملًا وردة الصفح والحب البيضاء، لقد ذاق الأمرين لأجل أن يعلم أين ذهبت وأين هربت، لم يرها مُجددًا منذ تلك الواقعة المريرة.

ارتمت بحضنه وهي تضحك باكية بهستيريا عن مقتل أبيها، ووقتما أتى الذي يُدعى يوسف هذا حتى انسلت من بين أصابعه كالزئبق وهربت، أخفى الجميع مكانها عنه بناءً على طلبها شخصيًا، أو هكذا قال له يوسف، أنها تريد الفكاك من الجميع وأن تبقى هنا.

لم يكن سهلًا عليه ليعلم بأنها التحقت بفرقة من الدراويش وتقدم حفلات غنائية وإنشاد ديني، صعق لوجودها هنا وصعق لوجوده هو هنا.

لماذا لا يتركها تعيش حقها بسلام مثلما تركتهم بسلام كما قال أبوه؟!

تركتهم بسلام يعيدون بناء علاقاتهم المُدمرة، استطاعوا فتح الحوارات المُعلقة بينهم وإنهاءها كذلك، لم يعد والده يتحدث عن الماضِ ولا عن عاهته، وأنعام تركت وهم الزوجة المثالية على الورقِ وأمام الناس ليصبح لها شأن ورأي عن الحب وعن المستقبل.

أمسك بيدها ناظرًا بعمق لعينيها الزبرجدية، وابتسمت شفاهه بأمل عندما لاحظ رعشة خفيفة مستها عندما لمسها، ما زال لديه تأثيره على قلبها، أو بالأحرى ما زال أمير قلبها.

ـ حورية، لقد ذُقت الأمرين لأجدك، لا تتركيني تلك المرة وعودي إليّ، فنحن ننتمي لبعضنا، رغم عقدي وعقدك

ورغم أنف قهر المجتمع لأمثالنا، أرجوكِ، أنا لا أستطيع العيش من دونك.

بعد كل هذا الوقت يتجسد أمامها يرجوها العودة؟!

عن أي عودة وأي حورية يظن؟

ولمَ قلبها احترق فجأة بين ضلوعها للقياه؟!

تجاهلت شوقها للوجود بأحضانه، وتجاهلت مشاعرها التي تبعثرت لوجوده، وسحبت يدها بصعوبة عنه مُجيبة برد جاهدت في جعل وقعه بارد:

ـ لقد عشت وستعيش بعيدًا عني طوال شهور، طوال سنة؛ لذا يمكنك أن تعيش من دوني.

وحاولت التحرك من أمامه فسد عنها الطريق قائلًا بتصميم:

ـ ولكنى لست ممن يستسلمون سريعًا.

بسمة هادئة ونظرة عطوفة لكل ما يجسده هذا الشخص أمامها، وبكل الاحتمالات التي كانت ستتحقق لو أنها كانت بحياة أخرى، نظرت للوردة البيضاء التي براحة يده، فمدت يدها لتأخذها. ربتت على كتفيه باعتذار وأزاحته من طريقها لترحل مُجيبة بهدوء قاتل:

ـ وأنا ممن يشقون كثيرًا.

لم تتأثر ولم تتغير، لم يشفع العشق ولا الندم لديها قط، ليصرخ بعلو صوته وليخبر العالم عن سقوطه بمعركة الحب وقراره الأخير بالاستعداد لمعركة مجتمعه:

ـ سأحارب لأجلكِ.

توقفت قدميها عن إبداء الحركة، والتفتت نصف التفاتة مُنهية الحديث بجملة الرحيل:

ـ بل حب لأجلي، عش لعشق أخرى وكن عيدًا وصاخبًا وثائرًا كما عاهدتك، كن وطن الحب لغيري.

واستدارت لتهيئ نفسها للابتعاد ممسكة بوردته البيضاء غير أنه استوقفها مكررًا رجاءه:

ـ ولكن أليس مُقدرًا لنا أن نعيد علاقتنا كما كانت وربما أفضل؟

لم يعد هناك مجالٌ للتصارع كالديكة كما كانوا، لم تعد بحورية ولا إيفت قدرة على شحن كتلة غضب واحدة من النفس للنفس.

نظرت طويلًا لوردته البيضاء واستنشقت الهواء بألم، وترقرقت عيناها بالدموع قبل أن تجبر ساقيها على الابتعاد عنه أكثر:

ـ ربما، ولكن في عالم آخر، فهذا العالم يا حبيبي لم يُخلق لسوانا. عندما يأتي ذلك العالم الخيِّر، ذلك العالم الحب الذي يحتضن النبتة لحبنا معًا ستجدني حينها بانتظارك، وداعًا.

وتوارت عن الأنظار بين قطيع الدراويش المتهيئين للحفلة دون أن تلتفت مرة أخرى وراءها بتجلد غير عابئة بالزلازل التي تهب بكل إنش من روحها لمجرد اللقاء؛ ولكن بقدر شوقها لعشقها الذي هبَّ بكيانها بغتة، إلا أنها تأكدت من قرارها بالابتعاد أكثر؛ فأمير ليس ضالتها ووطنها الضائع، بل ضالتها هُنا، وسط هؤلاء الدراويش.

إن كانوا قالوا لها قبل سنة أنها ستكون مثلهم الآن، درويشة متصوفة ضمن فرقة جوالة في أنحاء المعمورة ما صدقتهم، والأمر كان وليد صدفة واقتناع تام باعتناق الصوفية كمذهب وحمى ورحيل.

سكنت روحها بقراءة القرآن من قبل بفعل رجاء وأنعام، ووجدت في التصوف وترك الحياة والزهد العيش بالوطن.

الليلة رسى العطاء على القيام بحفل إنشاد بمسجد الغوري بوكالة الغوري، وهي تعد من أكثر الأماكن متعة في عالم السياحة الأثرية، فالوكالة مجموعة معمارية شيدت في آخر عصر المماليك، والذي أشرف على بنائها «**أبو النصر قنصوة الغوري**» الذي تولى حكم مصر من سنة ١٥٠١ إلى سنة ١٥١٦. ووكالة الغوري من أهم مراكز الإبداع بالبيوت الأثرية في القاهرة الإسلامية، وفيها اشتهر فن من فنون الإبداع التي يقدمها البيت وهو فن «**رقص التنورة**».

ارتدت التنورة وانتظرت برهة لتبدأ الفرقة بعزف لحنها الخاص، ولا يزال السؤال يئن؛ هي لا تعرف مَن تناجي هنا، ولا كيف وجدت فيها الراحة، ولا هي تمتلك ما يجعلها تُسلم، ولكنها تمتلك ما يجعلها تفرح؛ فهي بالرغم من كل شيء، لم تخن، لم تميل لشهواتها، لم تظل إيف، ولم تظل بالتأكيد إيفت؛ لذا ستعيش من خلال نفسها، لترقص وتعيش تناجي بلغة لا يعلمها سوى خالق القلوب.

تدور بحركة دائرة حول نفسها، تدور وتدور كأنها نبتة في الفضاء، كأنها كوكبٌ يدور حول الشمس مصدر الدفء والسعادة والأمان، تدور برتم سريع كتعاقب الفصول الأربعة كحالها، شرسة كموجة قيظ صيفية، باردة كموجة زمهرير شتاء، ربيعية عندما تحب، خريفية عندما تشعر بالتيه.

رفعت يدها اليمنى أعلى واليسرى لأسفل تعقد بهما الصلة بين الأرض والسماء لتجد ما يُعيد لها الشعور برباط الحياة، تشعر بأنها ترتفع إليه ليطهر روحها من الآثام. الهواء اللطيف يحمل آثار الإنشاد لعقلها مصحوبًا معها ترانيم الآلات الموسيقية الشعبية ليكمل المشهد في منظومة متكاملة تجعلها تنتشي صفاءً.

يغنون غناء لا تفهمه، ولكن تعلم فحواه بقلبها؛ دعاء وتضرع ودعوة للسلام والصداقة والكرم والمحبة والحكمة بين الناس.

هنا ستجد السعادة التي خصص إيزرا ملخصًا عنها بأوراقه، كان وداعًا ورقيًا بحروف عربية على مظروف سلمه لأمير، وبدوره

سلمه ليوسف وسط المعمعة، ومنه إليها، حتى الورقة لم تلمسها منه شخصيًا.

يصر إيزرا دائمًا على إثبات أنه أجبن من حمل لقب بطل، فبالنسبة لها الأبطال لا تخاف، لا تكن من ورق ولا تودع من ورق أيضًا.

قررت ألا تسخط أو تحمل ذرة حقد وكره بعد يوم، يكفي ما حملته بقلبها من شعور أثقل روحها وجرها لمستنقع أسود ما زالت حتى الآن تحاول الخروج من ويلاته.

تذكرت وصاياه التي نفذتها بشكل عكسي، فلم تقترب من أمير، بل ابتعدت عنه، فهي ليست بطلة تعيش بسعادة دائمًا وأبدًا مع بطلها، هي لم تكن أكثر من محاربة، وهنالك فرق؛ فالبطلة دائمًا تكون أكثر آدمية، بينما المحاربة التي تحتويها إيف بها صفات حيوانية، وهذا شيء محمود لمن يكن هنا؛ أن يتنصل من كل ما يربطه بالبشر.

نادت حروفه مع اشتداد الدوران حول الشمس وعلو المناجاة بداخلها كعلو موج الزبرجد بعيونها:

«أرقصي..
ذوبي عشقًا في الصفاء..
في الحياة إلى ما لا نهاية..
أرقصي..
حبي.. كأنكِ لم تحبي من قبل..

أرقصي..

أوجدي تلك النقطة المضيئة بداخلك وتشبثي بها جيدًا وبه جيدًا..

أرقصي..

كأنكِ لم تنجرحي في الماضِ قط..

أرقصي..

ببراءة الأطفال التي عاهدتك عليها دومًا..

أرقصي بحب معه تارة مع نفسكِ تارة أخرى..

أرقصي بالنقطة المضيئة بداخلكِ..

فقط ستعلمين بأن الحب وحده يكفي لحل مشاكل الأرض.»

زاغ بصرها بعيدًا عبر الأناس لتتشكل ملامحه بطبقات الألوان السريعة وتستحضر حروف الوداع الأخيرة منه ولو في الخيال مثلما عشقت في الخيال كذلك.

ـ أحبكِ، ومستعد لأجل هذا الحب أن أعطيك ما لم أستطع تحقيقه، وداعًا إيف، لتصحبكِ السلامة والحب لأجمل وطن، وطن حبيبكِ.

بسطت يدها للسماء مجددًا شاعرة بيد رجاء تبتسم لها وتهمس بأذنها بكلمات القرآن لتهدأ نفس غارقة لأخمص قدميها بالذنوب، تكافح لإنزال الدموع بعيدًا عن الجمهور وعن أمير الذي يقف منتظرًا العفو والسماح وهو يعلم بأنه سيناله، فقط يحتاج لمزيد من الوقت والورود البيضاء.

ابتسمت لتلك الوردة التي انتفضت من بين يدها بغتة بفعل الجاذبية والدوران لتحط برحالها عند صاحبها، وكأنه وعد بفتح الكتاب مرة أخرى، للتعرف بشكل أقرب وبشكل أوضح وبدون أوراق مسبقة بعدما حرق بنوبة غضبه مذكراتها التي كانت سببًا بهلاكه معها.

تمتمت حورية وهي تنظر فوقها بآخر ما تهمس به قبل أن يتلاشى صوتها وصورتها ووجودها بخضم تلك اللحظة من الكمال:

«يا من علا فرأى ما في الغيوب وما
تحت الثرى وظلام الليل منسدل
أنت الغيّاث لمن ضاقت مذاهبه
أنت الدليل لمن حارت به الحيل
إنّا قصدناك والآمال واثقة
والكل يدعوك ملهوف ومبتهل
فإن عفوت فذو فضل وذو كرم
وإن سطوت فأنت الحاكم العدل»
من أشعار أبو مدين الغوث

# فهرس